دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم چوركي

المؤلفات الكاملة

٢



الساقطون

رواية

الطبعة الثانية

سلسلة عيون الأدب العالمي

٨

المجلد

٢

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم جوركي

المؤلفات الكاملة

المجلد

٢

الساقطون

مع مقدمة بقلم

ستيفان زفايج

ترجمة الدكتور

فؤاد ايوب

سهيل ايوب

سلسلة عيون الأدب العالمي

٨

ليس عنوان هذا الكتاب « الساقطون » من وضع جوركي نفسه ، ولكن الكلمة واردة في القصة الأولى منه ، فقد رأينا ادراج القصص الثلاث المجموعة في هذا السفر تحتها .

« المترجمان »

المقدمة

كان بوشكين ، أبو الادب الروسي ، تجري في عروقه دماء الامراء ، أما ليون تولستوي فسليل اسرة من النبلاء عريقة المحتد والاصالة . وكذلك كان تورجنيف سيداً من سادة الريف الروسي ، أما دستويفسكي فابناً لموظف رفيع المرتبة يحدر ، هو الآخر ، من الطبقة الراقية . لقد كانوا جميعاً نبلاء . ذلك ان الأدب ، والفن ، وسائر اشكال النشاط الفكري ، كانت وقفاً على الطبقة النبيلة في روسيا خلال القرن التاسع عشر ، مثلما كانت هذه الطبقة تملك وحدها الأراضي والقصور ، والأنهار والمناجم ، والغابات والحقول بل تملك البشر أيضاً ، تملك اولئك الارقاء الذين ينتجون مختلف تلك الخيرات بعرق جبينهم المكدود . ان القوة ، والثروة ، والمراكز الرسمية ، والعلم والمعرفة ، وقف خاص جميعاً على مائة عائلة ، أي عشرة آلاف شخص في أمة تعد مائة مليون أو تزيد من السكان . ولقد كان هذا العدد الضئيل من الناس يمثل وحده ، في أعين العالم ، الروسيا وغناها ، وشعبها ، وقوتها ، ودماغها .

ولكن كائناً عملاقاً معدوم الشكل يحبو الى الأسفل من هذه العائلات المائة ، من هذه الطبقة العليا الرقيقة ، ذلكم هو الجمهور العظيم ، اللامتناهي : الشعب الروسي ! لقد بذر هذا الشعب على مساحة الارض الروسية الشاسعة المجردة عن الحدود ، يعمل بملايين أذرعته في سبيل إغناء هذا البلد الجبار . إنه يحيي الغابات ، ويشق الطرق ويمهدها ، ويعصر العنب ويستخرج المعادن من المناجم . انه يفلح ويزرع ، ويحصد لسيده ثمرات

تلك التربة السوداء المدفونة طويلاً تحت الثلوج ، ويكسب للقيصر معاركه ، ويخدم أيضاً ودوماً أمراءه ، شبيهاً في ذلك بشعوب أوروبا الأخرى إبان ذلك العصر ، محققاً كل مايفرض عليه من عمل وسخرة باخلاص عنيد . ولكن شيئاً يميزه مع ذلك من أخوته : إنه مابرح اخرس ، إنه لايملك صوتاً ! إن الشعوب الأخرى قد أخرجت ، منذ زمن طويل ، شعراء وخطباء وعلماء ، أخرجت رسلاً يعبرون عنها . ولكن تلك الملايين من الروسيين لاتستطيع بعد أن تعبر عن رغباتها بالكلام أو الكتابة ، أو تعرض آراءها في مجالس الوطن القومية أو المحلية ، أو توضح نفسها للآخرين ، وتعرّفهم على روحها المطبوعة بالعظمة المتوحشة . إن الشعب السلافي ، هذا الكائن العملاق الغامض مثل المحيط ، الصامت بالرغم من أن صدره على وشك الانفجار ، يضطرب على أرض الروسيا دون أية غاية سوى الكد والعناء ، روحاً دون صوت ، وجوداً مجرداً عن المعنى . إن الأسياد ، والنبلاء ، والأقوياء ، يتكلمون من أجل هؤلاء الخرس ، فنحن لم نعرف الشعب الروسي ، حتى القرن العشرين ، إلا من فم شعرائه الارستقراطيين ، پوشكين ، تولستوي ، تورجنيف ، ودستويفسكي .

وإن ما يشكل مجد هؤلاء الشعراء الأبدي هو كونهم لم يحتقروا قط الشعب ، لم يحتقروا قط فلاحيه وعماله ، لم يحتقروا الوضعاء فيه ، رغماً عن خرسه ورغماً عن سكوته القسري . إن كلاً منهم قد رفع ، على العكس من ذلك ، إكراماً وتمجيداً متأرثين إلى العظمة والقوة الروحيتين اللتين يتحلي بها الجمهور المحتقر ، يدفعه إلى ذلك شعور من المسؤولية الصوفية ؛ بل إن دستويفسكي ، هذا الملهم الكبير ، ليجعل من الشعب الرمز الأبدي للمسيح المولود للحياة أبداً ، ولايتواني ، وهو الذي يحمل حملة شعواء على البورجوازيين الثوريين والفوضويين الحاملين الشعارات والألوية ، عن الانحناء حتى الأرض أمام آخر الأشقياء لأنه يجد فيه ممثلاً لقوة إلهية

عليا . أما تولستوي فيطأطىء بيته أمام العامة بعنف يفوق ما يصدر عن دستويفسكي ، ويضع نفسه ويذلها في سبيل رفع المضطهدين والصعود بهم ليس غير . إنه يقول . « إن أسلوبنا في الحياة مغلوط ، أما أسلوبهم فحسن » .وإنه ليخلع ثيابه الفاخرة كي يتدثر برداء الموجيك ، ويسعى جهده كي يقلد لغة الشعب الساذجة الغنية بالصور ، وتسليمه المتواضع المشبع بالقوى ، ويبذل كل ما في وسعه لينغمس ، وليذوب في هذه القوة الجبارة الخصبة . إن سائر الكتاب الكبار قد أجمعوا على الاعتراف باحترامهم للجمهور ، وأحسوا جميعاً بمسؤوليتهم الأخلاقية تجاه ما يندّ عن هؤلاء الملايين من أخوتهم الذين يعيشون في ظل وجودهم اللامع من عجز عن الكلام ، عن حماية أنفسهم والدفاع عنها . لقد تبين للجميع أن رسالتهم ستحوز أنبل معنىً إذا جعلوا من أنفسهم محامين عن هذا الشعب الأمي ، وإذا نقلوا إلى العالم أجمع أفكاره وآراءه .

ولكن ذلك الشيء غير المنتظر ، غير المرجو ، تلك المعجزة ، تتحقق فجاءة . إن الأخرس الأزلي قد طفق يتكلم . هذا هو على حين غرة يملك فماً ورسولاً . إن إنساناً قد انبثق من حضنه الجبار ، وهذا الانسان ، هذا الشاعر - شاعره وشاهده - قد ولد كي يحمل إلى الانسانية بأسرها رسالة الشعب الروسي ، رسالة البروليتاريا الروسية ، رسالة الأصاغر ، المضطهدين والمعذبين . هذا الانسان ، الحامل للرسالة ، هذا الكاتب ، قد انقضت ستون سنة منذ ظهر على وجه هذه البسيطة ، وثلاثون منذ أصبح الترجمان الأمين ، المصور المخلص لجيل من المحرومين والمنبوذين . إن والديه قد أعطياه اسم ألكسي بشكوف ، أما هو فاتخذ اسم مكسيم جوركي ، يعني « المرير » . وان عالم الفكر ، وكل ما يستشعر كونه شعباً بين الشعوب ، ليحييه اليوم تحت هذا الاسم المستعار ، لأن مرارته كانت خلاصية بالنسبة إلى جنس كامل ، ولأن صوته قد ارتفع باسم أمة بأسرها ، ولأن مجيئه

كان نصيباً رائعاً ونعمة عظمى بالنسبة إلى زماننا بمجموعه . إن القدر قد أخذ مكسيم جوركي من بين المرذولات ، أخذه من حضيض الشعب كي يجعل منه شاهـــد حياة المعذبين في الأرض ، ليصف آلام الشعب الروسي والبؤس العام . وكي يستطيع أن يمنح شهادته الدقة والصدق اللازمين ، فقد فرض عليه سائر المهن ، ومختلف التجارب ، والحرمان والعذاب جميعاً ، حتى يشعر بآثارها الموجعة تحزّ في ذات جسده ولحمه ، قبل أن يعرضها في مؤلفاته ويصفها في قصصه .

لقد أرسله في سائر مقاطعات العمل اليدوي ، كي يستطيع يوماً ما أن يمثلها بكرامة في برلمان الانسانية غير المنظور ؛ لقد جعل منه أجيراً فترة طويلة من الزمان ، وصيّره خادم سائر الآلام ، قبل أن يسمح له بالصيرورة سيداً من أسياد القلم وأستاذاً من اساتذة ريشة الفنان . وهكذا لم يكن له بدٌ من تحمل وطأة مختلف تقلبات الحياة البروليتارية وبؤسها ، قبل أن يصبح ذلك الساحر الذي يحول كل شيء ، قبل أن يصير الفنان. وهكذا فان آثاره القوية الرائعة تكتسب عظمة أشد رنيناً إذا ما تحققنا من كون الحياة لم تمنح هذا الكاتب شيئاً ، بحيث أجبر على النضال والصراع لينتزع منها أضأل الاشياء ، ولم يحصّل النجاح النقي المجيد إلا بثمن باهظ من عراك قاسٍ مرير مع الواقع العدائي .

أية حياة كانت حياته ! وأية هاوية تردّى فيها قبل أن يصعد ذاك الصعود ! إن الدرب الرمادية القذرة لأحدى ضواحي نيجني نوفجورود قد ولدت فناناً عظيماً . إن الشقاء يهدهده ، والشقاء يطرده من المدرسة ، والشقاء يلقي به في دروب العالم . إن العائلة بأسرها تقطن في غرفتين ضيقتين من أحد الأقبية ، وهو ملزم ، حين كان تلميذاً صغيراً بعد ، على جمع العظام والخروق المتقيحة من أرض الشوارع كي يكسب قليلاً من المال ، وليجني بعض الكوبيكات البائسة ، مما دفع رفاقه الصغار إلي

رفض الجلوس الى جانب جامع الخروق هذا ، المنقب في حفر الأقذار ، بسبب الرائحة الكريهة التي تعبق منه فيما يقولون .

وبالرغم من رغبته اللاهبة في العلم ، فانهم لا يتركونه ينهي حتى دروسه الابتدائية ، فلا بد له من العمل أجيراً صغيراً في مخزن للاحذية ، وهو ما برح بعد طفلاً ضيق الصدر ، قصير القامة . ومن ثم هذا هو خادم عند أحد الرسامين ، « وجلاء صحون » على ظهر مركب بخاري يعبر الفولجا ، وحمال ، وخفير ليلي في مركز للصيد ، وأجير خباز ، ومنظف للمداخن ، وعامل زراعي ، ومساعد في مطبعة ... فتراه كأنه مطارد إلى الأبد ، مجرد عن الحقوق ، وعن الفرح ، محروم من البيت والمأوى ، شريد في سائر الدروب ، في أوكرانيا تارة ، وفي القوقاز تارة أخرى ، في تيفليس آناً ، وفي القرم آناً آخر . إنه لا ينجح في الثبات في أي مكان ، وليس من مكان يستطيع سبيلاً إلى الاحتفاظ به ، فلا يكاد يختار مسكناً له في بعض الانقاض القذرة حتى يطرده القدر منها ، إذا هو يجتاز الدروب من جديد في الشتاء كما في الصيف ، بالي الأسمال ، طاوياً على الجوع ، مريضاً ، يلاحقه البؤس دون هوادة . إنه يبدل مهنته في كل لحظة ، لكن يبدو أن القدر لم يلزمه على هذه التحولات إلا ليسمح له يوماً بوصف مختلف مظاهر حياة البروليتاريين ، يصف كل ذلك وصف العارف ، والعليم بخفايا الأمور ، من الأرض الروسية في اتساعها ، إلى الشعب الروسي في اختلافه اللامتناهي ، وتعدد نماذجه غير المحدود .

لقد فرضت عليه سائر أشكال الفقر ، — تلك التجربة التي تحمَّل وطأتها بصورة رائعة ! — ليصبح المدافع الشرعي الكفؤ عن التاعسين المعدمين . ولقد لقي بالتالي مصير أولئك الذين كانوا يثورون على جور النظام الاجتماعي وتعسفه ، فقد حامت الشبهات حوله ، ولوحق ، وروقب ، واعتقلته الشرطة ، وألقي في غياهب السجن ، وطورد من قبل رجال

الدرك فكأنه ذئب كاسر . ان شاعر البروليتاريا الروسية قد دُعي إلى مقاسمة طبقته وجنسه مختلف أشكال آلامها حتى النهاية ، قد تحمل في نفسه لسع سياط العبودية الأخلاقية ، وعذاب دينونة الرأي والفكر . لقد عرف سائر وجوه الظلم واليأس ، وعرف هذا الأخير خاصة في أقصى نواحيه وأشدها فتكاً ، ذاك اليأس الذي يستولي على الفرد العاجز عن احتمال وجوده الخاص ، فيلقيه عنه كما يلقي علقماً شديد المرارة . إن مكسيم جوركي يستفيد من فلوسه الأخيرة ، في كانون الأول من عام ١٨٨٧ ، كي يشتري بها مسدساً رديئاً يطلق منه رصاصة على صدره . وقد ظلت هذه الرصاصة في رئته ، تهدد حياته طوال أربعين عاماً . ولكن من حسن الحظ أنه أنقذ ليرفع صرح عمله الجبار ، هذا الدفاع المؤثر في مصلحة شعبه أمام محكمة الانسانية .

ليس فقه في اللغة يستطيع قط أن يحدد اللحظة التي أصبح فيها هذا المتشرد ، هذا المغني ، هذا المتسول ، شاعراً . لقد كان مكسيم جوركي شاعراً على الدوام في الحقيقة ، منذ البرهة الأولى ، بفضل حدة بصره ونفاذه ، واستنارة نفسه ، وقابلية حواسه المرهفة . إنما لم يك له بد ، قبل أن يتمكن من التعبير عن هذا الاحساس الشعري ، من تعلم اللغة ، والكتابة ، والقواعد : لقد ما بدا ذلك عملاً مضجراً بالنسبة إلى رغبته المتشوفة ، كما أن أي إنسان لم يمد له يد المعونة في هذه المهمة ، سوى إرادته التي لاتلين ، وتلك القوة التي لاتروض أو تقهر ، وتلك الطاقة الابتدائية التي تعتلج فيه كرجل من الشعب ، والتي كانت تدفعه إلى الأمام أبداً ، دون هوادة أو رحمة . إنه يلتهم ، طوال الليل ، وفي نهم شديد ، الكتب ، والصحف ، وسائر المطبوعات التي تقع تحت يده دون تمييز ، يوم كان يعمل أجيراً عند خباز ، أو يوم كان مراقباً على العمل في إحدى محطات السكك الحديدية . ولكن الكتاب الحقيقي الذي

يقرأ فيه هو الطريق الكبرى ، ودليله الحقيقي هو عبقريته الباطنة ، لأن جوركي كان شاعراً قبل أن يقرأ أي شيء بزمن طويل ، وكذلك كان فناناً قبل أن يتعلم الكتابة وقواعد اللغة . وهاهو ينشر قصته الأولى في الرابعة والعشرين من سنيه ، وهذا هو يُكتشف على حين غرة في الثلاثين فما أسرع أن يصبح الكاتب المفضل عند الشعب الروسي ، وفخر البروليتاريا ، ومجداً أوروبياً رفيعاً.

إن مؤلفات جوركي الأولى قد أثارت في العالم ارتكاساً يستحيل وصفه ، ارتكاساً ذا قوة أساسية ، شيئاً ما كالهزة العنيفة أو التمزق الحاد : لقد كان يُشعر كل إنسان أن بلاداً روسية جديدة تعبر عن نفسها المرة الأولى ، وكان هذا الصوت ينبعث من صدر الشعب الجبار والمضنى. حقاً إن دستويفسكي ، وتولستوي ، وتورجنيف قد أشعرونا في رؤاهم السامية ، منذ فترة طويلة ، بعظمة النفس الروسية وعنفها . لكن جوركي ، قدم لنا ، على حين غرة ، الأشياء نفسها بصورة مختلفة ، بشيء أكثر من الواقعية إذا جاز التعبير . لم يك يصور النفس وحدها ، بل الانسان نفسه أيضاً ، بكامله ، عارياً تماماً عن كل مايستره ، كان يصور الواقع الروسي بوضوح لايرحم ، ودقة صارمة .

لقد كان مصير روسيا ، وعذابها تجاه اتساع هذا المصير ، وحالتها المتوترة إلى أقصى درجات التوتر ، وإدراكها المفجع بأنها تقف عند منعطف تاريخي ، كانت سائر هذه الأمور تجد تعبيراً لها ، عند الأولين ، في العنصر الروحي ، في جو الوجدان العاصف . أما عند جوركي فان الروسيا تبدو ، بلحمها ودمها ؛ والكائن الغامض ، المُغفَّل ، يصبح جمهوراً ويفرض واقعه وحقيقته .

إن جوركي لم يسعَ على نقيض دستويفسكي ، وتولستوي ، وجونتشاروف ، إلى منح الأدب العالمي نماذج رمزية كالأخوة كرامازوف مثلاً ، أو أوبلوموف ، ولينين ، وكاراتاييف أيضاً ، ولم يفكر أبداً في أن يضع

رمزا وحيداً للانسان الروسي ، أو النفس الروسية ؛ ولكنه قدم لنا مقابل ذلك مالا يحصى من الوجوه النابضة بحياة فوارة ، وجوه الناس الذين لقيهم في هذا العالم ، بحيث تقع تحت حواسنا لشدة واقعيتنا ، فنكاد أن نلمسها لمس اليد لعنف حقيقتها وبساطتها الطبيعية . لقد عرّفنا على شعب كامل في ذات الوقت الذي عرّفنا فيه على نفسه . لقد استقى من سائر ينابيع البؤس ، ومختلف طبقاته ، في مختلف المهن التي تقلب فيها ، فأخرج وجوهاً صارخة الحقيقة ، أخرج عشرات ، ومئات ، وألوفاً من الأفراد ، بل جيشاً كاملاً من المعدمين والمعذبين . وبدلاً من أن يفكر في رؤيا جماعية ، فان عينه المتفوقة قد ردت على العالم الواقعي البشر الذين التقى بهم في الحياة ، جاعلاً منهم لانهاية من النماذج المختلفة .

إن قوة التسجيل التي تتمتع بها نظرة جوركي لتشكل في رأيي إحدى المعجزات الحقيقية النادرة في عصرنا ؛ فأنا لا أعرف أحداً بين الكتاب المعاصرين يمكن أن يُقرن به ، حتى بصورة تقريبية ، في مضمار دقة الرؤية وبساطتها الطبيعية . ليس يعكر هذه النظرة ظل من الصوفية ، وليست نفخة مشوّهة تلفح بلورة هذه العدسة الرائعة التي لا هي تزيد في حجم الأشياء ولا هي تنقص منها ، والتي لا ترى أبداً اليها بصورة منحرفة أو تحت نور مغلوط ، والتي لاتضيئها قط ولاتقلل البتة من وضوحها . إن عينه لاترى الأشياء إلا كما هي ، لكن بدقة وجلاء لامثيل لهما . إن كل ما يقع تحت هذه الحدقة المجردة عن كل عيب ، الأداة الأنقى والأخلص التي يعرفها الأدب الحديث ، ليُسجَّل دون أن يطرأ عليه أي تحوير ، لأن هذه النظرة غير الطبيعية — ولنقل ذلك مرة أخرى — لاتحذف شيئاً أو تبدل فيه أو تحوله ، بل تعكس الواقع بدقة صارمة حتى الدرجة القصوى . عندما يصف مكسيم جوركي إنساناً ما ، فاني مستعد أن أقسم أن هذا الانسان كان مثلما رآه ، لا أكبر ولا أصغر ، وأنه

لم يضف عليه شيئاً أو يحذف منه شيئاً ، وأنه لم يجمّل شيئاً أو يقبّح شيئاً ، بل إنه أدخل إلى لوحته كل ما كان النموذج يتمتع به من ميزات خاصة . ليست صورة عن تولستوي ، بين ألوف الصور التي تركها لنا عنه أصدقاؤه وزائروه ، حية ومعبرة وواقعية كالتي رسمها لنا جوركي في الأسطر الستين التي خصصها له في « ذكرياته » . واننا لنجد هاتين الحقيقة والدقة اللتين رسم بها أعظم الروسيين في صورة أوضع المتشردين أيضاً ، في صورة أكثر رفاقه الأفاقين هؤلاء الذين لقيهم في دروب الروسيا الواسعة .

وإن أوروبا لمدينة لاخلاص مثل هذه النظرة الرائعة وعصيانها على الفساد بالصورة الأكثر صحة عن الروسيا الحديثة ، ومتى كانت الحقيقة أشد ضرورة منها في الوقت الراهن الذي تجتازه العلاقات الدولية ؟ وأي شعب هو أشد حاجة إليها من الشعب الروسي في هذه البرهة التاريخية من حياته ؟ وبالتالي فأي حدث ، وأية نعمة ، وأية ثروة قد منحتها هذه الأمة في هذه الساعة الحاسمة بامتلاكها بين أبنائها ، هذا المصور القادر على رسم صورة وطنه بدقة صارمة ، دون أن يبالغ أو يعمد إلى الكاريكاتور. معرفاً الانسانية بأسرها على بؤس الشعب وآماله ، وعذابه وعظمته معاً. إن تولستوي ودستويفسكي قد جعلا من الفرد الروسي أشبه بأحد سكان عالم آخر ذي قوة غريبة مقلقة ، ومن جنس آخر على أية حال ، يتمتع بمطامح أخرى تختلف عن مطامحنا . أما جوركي فلا يبين لنا في أي شيء يكون الشعب الروسي روسياً فحسب ، بل على الأخص في أي شيء يكون شعباً ، في أي شيء يشكل جزءاً من الشعب الوحيد ، شعب البؤساء والمضطهدين الذين يؤلفون البروليتاريا العالمية . إن جوركي ، بمزاجه ، إنساني أكثر منه قومي وسياسي ؛ إنه ثوري بدافع من محبته للشعب الذي قاسمه آلامه ، وليس بدافع من الحقد المشوه . إنه لم ير في الثورة

عمل قبضة من المتحمسين المثقفين المهتاجين والفوضويين ، أو تحقيقاً لنظريات وضعت بعناية فائقة ، بل إن التاريخ لن يجد إلا عنده ، وعنده وحده ، الوثائق المثبتة أن الثورة وصعود الروسيا إنما هما من صنع الشعب بصورة عفوية .

لقد بين كيف عظم التوتر عند الجماهير ، عند ملايين الأفراد ، حتى لم يعد يطـاق . وفي قصته « الأم » ، وهي أروع آثاره ، نجد أن أكثر الناس تواضعاً هم الفلاحون والعمال ، والجاهلون والأميون ، وهم الذين يشعون إرادتهم في تضحيات مغفلة لا عدّ لها قبل أن تنطلق هذه الارادة نفسها في اعصار هائل . إنه الجمهور ، وليس الفرد ذاك الذي يلوح في مؤلفاته حاملاً للقوة ، وهو الذي كان جزءاً من الجماعة ، من الكثرة الشعبية ، من المصير الواسع العريض ، كان يحس كل حدث على أنه شيء جماعي في المحل الأول .

ولقد أضمر جوركي ، منذ البدء ، إيماناً لا يتزعزع بفوز قوى شعبه وانتصارها ؛ لقد كان كل منهما يثق بالآخر ثقة مطلقة . وفيما كان الملهمان العظيمان ، تولستوي ودستويفسكي ، يقشعران لدى اقتراب الثورة فكأنهما في عشية داء خطير ، كان يعرف جوركي جيداً أن صحة شعبه التي لن ينالها الدمار ستقاوم وتصمد . ذلك أنه كان يعرف الجماهير ، ويفهم الشعب الروسي مثلما يفهم الابن أمـه ، فجوركي لم يعرف قط تلك الرعدات البنوئية التي يتعرض لها دائماً كبار الكتاب الروسيين . كان يعرف أن شعبه ، مثله مثل طفل جميع الشعوب ، متين البنيان بصورة تكفي كي يتغلب على سائر الأزمات ويجتاز مختلف الأخطار . ولذا فان وجوده قد منح الجماهير ، في ظل حـكم القياصرة ، إيماناً بنفسها يفوق ماأعطته من هذا الايمـان سائر نداءات دستويفسكي للمسيح الروسي ، ومختلف دعاءات تولستوي الهاتفة بالتوبة والتواضع . ان الشعب قـد استقى من جوركي

شجاعته والايمان بارادته ، فذلك الصمود القهار الذي ارتفع به شاعر ملايين الأفراد من أعماق الشعب قد أصبح بالنسبة إلى هذه الملايين رمزاً عظيماً ، كما أن نتاجه يشهد على إرادة أمـــة بكاملها في السمو ، وفي التشكل الفكري .

فلنعترف بذلك : إن مكسيم جوركي قد قام بدوره كشاهد بصورة رائعة ، متحلياً بصفات الانسان المستقيم والمنصف ، صفات الفنان الكبير المبدع الذي لايجعل من نفسه أبداً زعيماً أو قاضياً ، والذي لايلتفُ أبداً بثياب النبي ، بل يظل على الدوام الشاهد العنيد على حقوق شعبه ، وعلى تنوع نفسه وقوته الأخلاقية . وهذا الشاهـــد العصي على الفساد لم يجمِّل الحقيقة أبداً أو ينكرها ؛ لم يخطب ، بل روى ؛ لم ينادِ ، بل وصف ، دون تشاؤم في السنين القاتمة ، ودون كثير من التفاؤل في النصر ، قوياً في ساحة الخطر ومجرداً عن الكبرياء في لحظة النجاح ، قد أدخل البشر إلى عمله إلى جانب بعضهم حتى شكلوا جماعة ، كصورة عن الشعب الأبدي ، هذه المادة الأولية لكل إبداع وكل قوة خلاقة . ولذا فان ملحمته العظيمة لم تصبح أسطورة محلقة عن النفس الروسية ، بل هي حقيقية بصورة لايطرأ عليها التبديل ، هي الواقع الروسي نفسه .

إننا نفهم الروسيا بصورة أخوية بفضل عمله ، ونحسها جارة لعالمنا قريبة منه دون غرابة أو مقاومة ، فيتحقق بذلك أقدس واجب يقع على عاتق الكاتب ، الواجب الذي يقوم في إلغـــاء الفروقات بين البشر ، وإنقاص المسافات بين الشعوب والطبقات وقيادتها نحو الوحدة النهائية ، نحو الانسانية والشمول .

إن من يعرف عمل جوركي يعرف الشعب الروسي ، ويعرف في الوقت ذاته حاجات سائر المضطهدين وحرمانهم ؛ إنه يجرب إذن في قلبه أضأل عواطفهم وأكثرها خفية وأكثرها تأثراً في وقت واحد ، كما

يجرب أيضاً وجودهم اليومي البائس : إن مكسيم جوركي قد جعلنا نحيا ، بصورة أفضل من أي إنسان آخر ، تجاربهم وآلامهم في سنوات الانتقال. وبما أننا قد تعلمنا عنه أن يتعذب مع الشعب الروسي في ساعات تاريخه اليائسة ، فاننا نستطيع أن نقاسمه فرحته ، وفخاره ، وكبرياءه ، باعطائه مولداً لفنان يمتاز بمثل هذا النقاء ، وهذا الصفاء ، وهذا الاخلاص.

ستيفان زفايج

كانوا بشراً...

القسم الأول

١

لم تكن الطريق القائمة في مدخل المدينة إلا صفين من الأكواخ المزدحمة ، المتهدمة ، المتداعية الأركان ، حتى قد انحرفت أبوابها وتحطمت ، وانقلبت نوافذها واقتلعت مصاريعها ... وكانت سطوح هذه المساكن البشرية المثقوبة ، وقد صام الدهر عليها وأفطر ، مرقعة هنا وهناك بقطع من لحاء الشجر ، يكسوها الطحلب في سائر جوانبها ، وترتفع إلى الأعلى منها ركائز طويلة من الخشب عششت الزرازير فيها واتخذت حمىً لها من الخضرة المغبرة التي تنشرها أشتال الصفصاف والبيلسان الملتوية المعذبة ... هذه النباتات البائسة الخاصة بضواحي المدن حيث يعيش البائسون .

كانت ألواح الزجاج الخضر ، وقد تعكّرت على مر الأيام ، تتراشق من نوافذ هذه الأطلال بنظرات لصوص جبناء مذعورين ؛ ومجرى متعرّج يتأفعى في وسط الدرب ويزحف صعداً على طول المنحنى ، وهو يروغ حول الأخاديد العميقة التي احتفرتها في التربة الطرية سيول الأمطار الغزيرة .. وكنت تجد ، هنا وهنالك ، أكداساً من الانقاض وأرتالاً من الحصى نهضت عليها أعشاب رديئة وتربعت .. إنها بقايا أو طلائع تلك العمارات التي طالما بأثر بها السكان ، عبثاً ، في نضالهم ضد سيول المياه المتدحرجة عليهم من المدينة جحافة أتيّة . . . وإلى الأعلى من ذلك ، فوق الهضبة حيث تنهض المدينـة ، كانت دور حجرية تختفي في خضرة الحدائق المزدهرة الوارفة ، وأجراس الكنائس تنتصب في كبرياء تطاول السماء الزرقاء ، وصلبانها الذهبية تتألق في لمعان الشمس البرّاق ، فتعمي العيون المتطلعة إليها وتعميها .

وفي الأيام الممطرة ، تصبّ المدينة كل أطيانها في الطريق القائمة في مدخل المدينة .. وفي الأيام المصحية تسكب غبارها عليها دونما حساب .. لا بل ان سائر تلك الطلول المشوهة الخربة تبدو وكأن ذراعاً جبّارة قد كنّستها من الأعلى أيضاً ، وألقت بها ههنا خرائب لا تجدي ولا تنفع..

وهذه هي مبعثرة على الهضبة الخفيضة ، مسحوقة حتى الأرض ، نصف متعفنة نصف منتنة ، عليلة منخورة الأوصال ، صبغتها الشمس والغبار والأمطار بذلك اللون الرمادي الوسخ الذي يتعذر تعيينه على وجه الدقة ، والذي يتّخذه الخشب عندما يعتق كثيراً ويشيخ .

كان بيت طويل مهجور ذو طبقتين ، ابتاعه من المدينة التاجر بيتونيكوف ، يتعالى في أقصى هذه الطريق الرديئة التي طُوِّحت خارج المدينة ، بعيداً عنها ما أمكن ، وهو الأخير من الصف في أسفل المنحنى ، تترامى فيما وراءه الحقول العارية على مدى عريض ، يقطعها بُعيد البيت بخمسمائة من الأمتار تقريباً منحدر قائم يشرف على النهر المتدفق المياه .

كان لهذا البيت الكبير ، العتيق جداً ، محيا ليس أكثر منه حزناً وغمّاً بين جيرانه ، فكل شيء فيه قد التوى واعوجّ ، وسائر نوافذه العديدة فقدت شكلها المنتظم ، بينا حطام الزجاج الذي ما برح عالقاً بالمصاريع المتكسرة يحمل تلك الصبغة الخضراء العكرة التي تلون المياه الآسنة ، الراكدة منذ زمن طويل .

وكانت الحفر المتعددة واللطخ القاتمة المسبّبة عن سقوط كلس الجدران ترسم على هذه الجدران نفسها ، فيما بين النوافذ ، صوراً مزدحمة أشبه ما تكون بخط هيروغليفي كتب الزمن به قصته على حيطان الدار العجوز وجوانبها .. وكان السقف المنحني على الطريق يضيف شيئاً جديداً أيضاً إلى الملامح الكئيبة المفجعة المرتسمة على محيا المنزل العتيق ... كنت تخال أن هذا البيت قد انحنى حتى الأرض ، وراح ينتظر في استسلام وخضوع أن

يصفعه القدر بالضربة القاضية التي ستجعله هباء منثوراً ، وتحيله كومة قبيحة شوهاء من الأنقاض نصف المتعفّنة .

كان الباب الكبير مفتوحاً ، وقد اقتلع أحد مصراعيه من مفصّلاته ، وتهاوى على الأرض حيث اضطجع مرتاحاً لاحراك به ، والعشب الكثيف الذي يغطي الساحة الواسعة المهجورة ينبت حتى في فرجاته بين الألواح الخشبية ... وفي أقصى الساحة بناء منخفض ، داخن ، يغطيه سقف حديدي ذو منحدر وحيد الجانب ... ولم تكن الدار نفسها آهلة ، ولكن ذلك البناء الصغير ، الذي كان في يوم من الأيام معملاً للحدادة ، قد أصبح حالياً مأوى ليلياً يلقبه سكانه « القاعة » ، ويديره الضابط المتقاعد أريستيد فوميتش كوفالدا ، وهو رئيس سابق في فرقة الفرسان .

كان المأوى ، من الداخل ، جحراً طويلا قاتماً يبلغ من الطول عشرين متراً ولايزيد عرضه عن ثمانية أمتار ، تضيئه من الجانب الواحد فقط أربع نوافذ مربعة صغيرة وباب عريض ... وكانت الجدران مبنيّة من الآجر الذي لم يغطْ بالكلس ، قد أحالها الدخان المتراكم عليها سوداً حالكة .. وكذلك كان السقف ، المبنيْ من ألواح بعض القوارب المحطمة ، داخناً حتى درجة السواد ... وفي وسط ذلك المأوى موقد ضخم يرتاح على كور الحدادة ، وألواح من الخشب تصطف حوله على طول الجدران ، وإلى جانبها أكداس صغيرة من مختلف أنواع الأثاث ، جُعلت أسرّة يرقد عليها أولئك الذين يخطْ لهم القدر أن يقضوا الليل في هذا المكان.. أما الجدران فتعبق برائحة الدخان ، والأرض الترابية المرصوصة تصعّد رائحة خانقة من الرطوبة ، بينا تندلق رائحة الأسمال العفنة ، المشبعة عرقاً نتناً ، من ألواح الخشب المسندة الى الحيطان ، أو المصطفة حول الموقد الكبير المتربع فوق الكور في عظمة وإجلال .

كانت مرتبة مدير المأوى تقوم فوق الموقد ، بينا الألواح التي تحفّ

بهذا الموقد نفسه مراكز شرفية لايحتلها إلا المستأجرون الذين يتمتعون بعطف رب الدار وصداقته ، ويحظون برضاه ومحبته . .

وكان الرئيس يقضي النهـــار بطوله تقريباً قابعاً الى باب الدار الكبيرة على شيء يشبه المقعد شيَّده بنفسه من قطع الآجر التي جمعها من هنا وهناك . . .أو كنت تجده ، منذ الصباح حتى المساء ، في خان بيجور فافيلوف المقابل للدار تقريباً . . . ههنا كان الرئيس يتناول غداءه ، ويحتسي الخمرة دون حساب .

كان أريستيد كوفالدا ، قبل أن يستأجر هذا المسكن ، يملك مكتباً لمعاطاة الربا في المدينة ، وإذا أنت ذهبت أعمق من ذلك في ماضيه ، عرفت أنه كان يملك مطبعة فيما غبر من الزمان ، أما قبل المطبعة فكان يعيش — على حد تعبيره — « بكل بساطة ، وبصورة حسنة . ألا فليأخذني الشيطان ! . . كنت أعرف كيف أعيش ، أنا أستطيع أن أقول ذلك ! » .

كان إنساناً عريض المنكبين ، فارع القامة ، يغازل الخمسين من العمر ، تصلبت ملامح وجهه وانتفخت سكراً وعربدة في وسط لحية عريضة مسترسلة يضرب لونهـــا الوسخ إلى الصفرة . وكانت عيناه رماديتين ، واسعتين ، جريئتين في حبور وغبطة ، وصوته خفيضاً يرافقه طوال الحديث اهتزاز في الحنجرة مبحوح مرتجف . . . وكان غليون ألماني من الخزف ، معوج الساق ، معلقاً أبداً بين أسنانه ؛ ومنخرا أنفه الكبير ، المعقوف والزاهي الاحمرار ، ينتفخان بشدة عندما يحرن ، بينا تتقلص شفتاه فتكشفان عن صفين من الأسنان الكبيرة الصفر ، الشبيهة بأسنان ذئب كاسر ... أما ذراعاه فكانتا طويلتين ، وساقاه مقوستين ، وهو يرتدي أبداً سترة ضابط عتيقة ممزقة ، وقبعة متسخة حمراوية الشريط عديمة الحافة ، وينتعل حذاء مثقوباً من اللباد يغطي ساقيه حتى الركبتين ... كان يعيق

في الصباح مخبولاً أبداً ، جاف الحلق كالخشب ؛ فاذا ماحلّ المساء كنت تجد زهرة في خوذته دوماً . ولم يكن يسكر قط ، مهما تكن كمية الخمرة التي يبتلعها كبيرة ، بحيث تجده جيد المزاج في كل الأحايين ، لا يفقد مرحه لحظة واحدة على الاطلاق .

كان يستقبل المستأجرين مساء ، مرتاحاً في مقعده الآجري ، وغليونه الأبدي بين أسنانه ، فيسأل الشخص المرهق ، المنهك القوى ، الرث الثياب المقترب منه بعد أن لفظته المدينة لعربدته ، أو قاده إلى هذا المكان الخفيض سبب لا يقل شأناً عن السكر والعربدة :

— ما هذا ؟ من تكون ؟

فيردّ القادم على سؤاله ، وعندئذ يخاطبه كوفالدا قائلاً :

— أبرز لي برهاناً على أكاذيبك ، أوراقاً رسمية .

فيمد القادم الأوراق اليه ، اللهم إن كان ثمة أوراق هناك ، فيدفعها كوفالدا في صدره دون أن ينظر اليها ، مادام محتواها لايعنيه كثيراً أو قليلاً إلا في الندرى ، ثم يقول :

— كل شيء على ما يرام ... كوبيكان لقاء ليلة واحدة ، وعشر كوبيكات لقاء أسبوع ، وثلاثون كوبيكاً في الشهر الواحد . . أدخل ، وابحث لنفسك عن مكان تحتله .. ولكن حذارِ أن تأخذ مكان غيرك ، وإلا أثخنوك ضرباً ولطماً . إن الذين يسكنون عندي قوم جدّيون .

ويستفسر القادم الجديد :

— والشاي ، والخبز ، وما يأكله الانسان ... أفلست تبيع شيئاً منه ؟

فيوضح كوفالدا في لهجة احتفالية :

— إني لا أبيع غير الجدار والسقف ، أي ما أدفع أنا نفسي أجره صاحب هذا الثقب اللص اللئيم ، التاجر من الدرجة الثانية ، يهوذا بيتونيكوف ، وقدره خمس روبلات رنانة شهرياً ... إن الذين يأتون إليّ

قوم لم يعتادوا الرفاهية والبحبوحة أبداً ... وإذا كنت معتاداً على السكر في كل يوم ، فاليك خاناً يقابل مسكننا . ولكن الأفضل بالنسبة إليك ، أيها الحطام العديم الجدوى ،أن تقلع عن هذه العادة السيئة . . أنت لست بالسيد الاقطاعي . إذن ، فماذا تأكل ؟ إنك تتآكل ليس غير !

كان يتمتع بشعبية واسعة بين رعاع المدينة لمثل هذه المحاضرات ، وكثير غيرها من النوع ذاته ، يلقيها بنغمة قاسية مصطنعة وعيناه تبتسمان أبداً وتضحكان . وكان يزيد عرى الشعبية متانة ذلك الاهتمام الرفيق الذي يبديه نحو جميع الذين يستأجرون فراشاً عنده ... وقد يصدف، من حين لآخر ، أن يظهر أحد زبائن الرئيس القدماء في ساحة المأوى ، ولكنه لم يعد مرهقاً رثّ الثياب ، بل هو حالياً في حال لائقة على الأقل ، يبدو الحبور على محياه ويطفح الارتياح من سيمائه .

ـــ سلاماً ، يا سيدي الرئيس ! كيف حالك ؟

ـــ سلاماً ، إني في أحسن حال .. تابع طريقك .

ـــ أفلا تستقبلني ثانية ؟

ـــ كلاَّ !

ـــ تذكر جيداً . . . لقد بقيت عندك في الشتاء طوال شهر كامل تقريباً . . هاجمتنا الشرطة يومذاك ، واعتقلت ثلاثة منا .

ـــ ماذا تريد ، يا صاح ؟ان الشرطة تأتي في كل لحظة إلى ماتحت سقفي المضياف .

ـــ آه . يا رب الأرباب ! بلى ، كدت تحطم في تلك المرة ذراع رئيس المخفر .

ـــ إسمع ! فلتذهب الذكريات الى الشيطان . . قل بكل بساطة مايلزمك . .

ـــ أفلا تقبل دعوتي إلى عشاء بسيط ؟ ما دمت أقمت عندك في ذلك الحين ، وكنت أنت إذا صحّ التعبير . . .

— يجب أن نشجع العرفان بالجميل أيها الصديق ، لأننا قليلاً ما نلتقيه عند البشر .. لابدَّ أنك رجل شجاع ، وبالرغم من أنني لن أستقبلك تحت سقفي مرة ثانية ، فاني أرافقك بطيبة خاطر فيما يتعلق بالذهاب إلى الحانة ، وأسكر مغتبطاً وأنا أشرب نخب نجاحاتك في الحياة .

— إنك مثلك دوماً لم تتغير ... تمزح دون انقطاع ...

— يالله ! وماذا نستطيع أن نصنع سوى ذلك عندما نعيش فيما بينكم ، أنتم الذين خانكم الحظ وغدر بكم ؟

وهكذا يذهبان ...

وفي أحيان أخرى كان الزبون القديم يعود إلى المأوى محطماً ، مضنىً ، مبلبل الخاطر ، لكثرة ما عبَّ من الخمرة وأهرق . . . وفي الغداة كانا يسكران أيضاً ، ويطعمان حتى يتخما ... ثم يفيق الزبون القديم ، في ذات صباح ، مدركاً أن الخمرة قد أصابته بالخواء والإملاق من جديد .

— يا لها من قصة ، ياصاحب السعادة ! هأنذا مرة أخرى واحد من أفراد جيشك المغوار ... ماعسانا نفعل الآن ؟

فيعلن كوفالدا متفكراً :

— تلك وربي حال لايمكن أن يفخر المرء بها ويزهو ، ولكن إذا وقع فيها مرة فلا جدوى من الأنين والزمجرة إذن ... يجب ، ياصديقي ، أن ننظر إلى سائر الأمور في لامبالاة ، دون أن نفسد الوجود بالفلسفة ، ودون أن نتساءل دون جدوى ونستفهم دون فائدة . إن التفلسف أمر سخيف دوماً ، ولكن التفلسف عندما يؤلمنا شعورنا ، ذلك أمر لا اسم له أبداً .. إن ألم الشعر يتطلب الخمرة . ولايتطلب ندماً وصرير أسنان .. دار أسنانك ، وإلا لم يعد لك مايصفعونك عليه ... خذ ، اليك عشرين كوبيكاً . . . اذهب وابتع قليلاً من بنت العنب ، وشيئاً من الأحشاء أو من الرئة بخمس كوبيكات ، وبعض الخبز وخيارتين ... إننا سنعود إلى

مناقشة القضية بعد أن نقوّي معنوياتنا قليلا ..

وتتضح القضية بصورة جلية بعد يومين فقط ، عندما لايبقى كوبيك واحد من ورقة الخمس أو الثلاث روبلات التي كانت تستقر في قاع جيب الرئيس يوم ظهور الزبون المعترف بالجميل .

ويقول الرئيس :

— ها نحن عريانان ! كفانا ! فلنجرب الآن من جديد ، أيها الأبله ، بعد أن خوينا تماماً ، أن نعود الى طريق الزهد والقناعة والفضيلة . ما أكثر ما في هذا من الحقيقة . . إذا لم يخطىء المرء فهو لايستطيع أن يتوب وإذا لم يتب فليس إلى الخلاص من سبيل .. لقد أنجزنا الجزء الأول من القصة . أما فيما يتعلق بالندامة والانسحاق ، فلا جدوى منها أبداً . فلنعن اذن مباشرة بخلاصنا . امض الى النهر واشتغل هناك ، واذا لم تكن واثقاً من نفسك ، فقل لرئيس العمل أن يحتفظ بأجرتك او جئني بها ، فاذا مااقتصدنا كنزاً صغيراً اشتريت لك سروالاً ، وما يلزم أيضاً كي يخالك البشر مرة أخرى إنساناً لائقاً ، كي يخالوك عاملاً متواضعاً يلاحقه القدر اللعين بالشقاء والبؤس .. انك تستطيع الذهاب بعيداً كل البعد بسروال جيد .. هيا ، الى الامام ، سر !

ويذهب الزبون يعمل عتالاً على النهر ، ضاحكاً في عذوبة من محاضرات الرئيس الطويلة الطافحة حكمة وعقلاً .. لم يكن يدرك جوهرها بوضوح ، ولكنه كان يرى الى الامام منه عينين ضاحكتين ويحس روحاً مقدامة جريئة ، ويعرف أن للرئيس المفوه ذراعاً تستطيع أن تسنده حين الحاجة وتدعمه ..

والحقيقة أنه لاينقضي شهر أو شهران على هذا العمل الشاق المرهق حتى يحوز الزبون ، بفضل مراقبة الرئيس القاسية لسلوكه ، على الامكانيات المادية الضرورية كي يصعد درجة الي الاعلى من المكان الذي هبط اليه

بمساعدة ذلك الرئيس نفسه .

ويقول كوفالدا ، وهو يتفحص بعين نفّاذة ناقدة الزبون المرمم :

— حسناً ، ياصديقي ! ها نحن نملك السروال والسترة جميعاً ... هذان شيئان فائقا الأهمية ، وأنا أقـــول لك ذلك عن تجربة واسعة ... لقد بقيت في صفوف البشر اللائقين في المدينة ما ملكت سروالاً لائقاً . ولكنني - يا لله - سرعان ما هويت في نظر الناس منذ أن غادرني السروال ، واضطررت أنا نفسي للهبوط الى أسفل المدينة . . إن البشر أيها الخبيث الظريف ، يحكمون على الاشياء حسب مظاهرها الخارجية ؛ أما جوهر الأشياء فعصي على ادراكهم بسبب حماقتهم الأصيلة .. ضع هذا جيداً في رأسك ، وبعد أن تدفع لي ، ولو نصف دينك على الاقل ، إذهب بسلام ، وابحث ، وسوف تجد !

ويسأل الزبون مرتبكاً :

— وبكم أدين لك ، يا أريستيد فوميتش ؟

— بروبل وسبعين كوبيكاً . أعطني الآن الروبل فقط ، أو السبعين كوبيكاً إذا شئت .. أما الباقي فسوف أنتظر حتى اليوم الذي تسرق فيه ثروة طيبة ، أو تكسب من عملك أكثر بقليل مما تربحه حالياً .

فيقول الزبون ، وقد رقّ قلبه :

— أشكرك بكل تواضع من أجل لطفك الفائق . أواه حقاً ، يالك من رجل ! أنت جيد مثل الخبز الابيض ! حقاً ، ما أسوأ أن تكون الحياة قد قلبت لك ظهر المجن ! ... لا ريبة أنك كنت نسراً فخوراً يوم كنت في المكان اللائق بك ؟ ...

ولكن الرئيس لايستطيع أن يعيش دون إلقاء محاضرات منمقة الكلمات :

— « في المكان اللائق بك ؟ » . ما معنى هذا ؟ إن أحداً لايعرف مكانه الحقيقي في الحياة - وكل منا يرتبط بوثاق لم يصنع من أجله ! إن

مـكان التاجر يهوذا بيتونيكوف في الليمان ، ومع ذلك فهو يتخطر مزهوا في شوارع المدينـة في وضح النهـار . . لابل إنه ينتوي أيضاً أن يبني لست أدري أياً من المعامل ... وإن مـكان صاحبنا معلم المدرسة هو إلى جانب زوجة طيبة بدينة بين نصف دستة من الأولاد ، ولكنه يتدحرج في حانة فافيلوف دون انقطاع . وأنت نفسك ! . . أنت ذاهب تبحث عن العمل كخادم في أحد البيوتات أو ندل في أحد الفنادق ، أما أنا فأري أن الجندية أليق الأشياء بك ، فأنت لست بأحمق ، بل صلب العود بالأحرى ، وتفهم جيداً معنى النظام ! . . أترى ما نسخف هذا ! وما أبعثه على الضحك ! إن الحياة لتصفعنا ، وكأنها تلعب بالورق ! ونحن لانجد مـكاننا الحقيقي إلا صدفة ، ولا نبقى فيه طويلاً على أية حال .

كانت محاضرات الوداع هذه تخدم ، في أحيـان أخرى ، مقدمـة لتعارف أوسع يبدأ هو الآخر بشرب الأنخاب ، وينتهي بأن يشرب الزبون كل ما في جيوبه ، ويـكاد أن يغيب عن وعيه ، بينا الرئيس يقابله كأساً بكأس ... ولا يمضي زمن قصير حتى ينزل الافلاس بساح الاثنين معاً !

وطبيعي أن مثل هذه السقطات لم تكن تفسد ، في حال من الأحوال ، علاقات الطرفين الطيبة .

كان « معلم المدرسة » ، الذي أتى الرئيس على ذكره ، واحداً من أولئك الزبن الذين لايـكادون يتوصلون الى إصلاح أمورهم حتى يفسدونها من جديد ، وبسرعة جنونيـة أيضاً . وكان أقرب الجميـع الي الرئيس بثقافته الفكرية ، ولعل ذلك هو السبب في أنه لم يستطع النهوض من كبوته أبداً ، بعد ما زلت القدم به مرة حتى طوحته في تلك « القاعة » .

ولم يـكن أريستيد كوفالدا يستطيع أن يتفلسف ، واثقاً من أن من يسمع اليه يفهمه ويدرك أقواله ، إلا مع معلم المدرسة وحده . ولذا فقد كان كوفالدا يقدره حق قدره ، ويتألم كثيراً لفكرة فراقه ، فيودعه بحزن

بالغ في كل مرة يرمم أحواله فيها ، ويكسب مبلغاً من المال ، فيعزم على استئجار زاوية يأوي اليها ويستعد لمغادرة المدينة نهائياً ، ويروح يتلو فيضاً غزيراً من الكلمات الكئيبة تقودها حتماً الى معاقرة بنت العنب حتى السكر . فيشربان كل مايملكانه في أمسية واحدة ... ولعل كوفالدا كان يعطي الأمور ، عن قصد وسابق تصميم ، مثل هذا الاتجاه حتى يظل معلم المدرسة عاجزاً عن انتزاع نفسه من ذلك المأوى رغم ارادته الطيبة وعزيمته الأكيدة . أكان يمكن لأريستيد كوفالدا ، وهو النبيل الذي تلقى ثقافة مابرحت بقاياها تتألق أحياناً في أحاديثــــه ، والذي اكتسب عادة التفكير من نوازل الدهر ومصائبه ، أكان يمكن له ألا يرغب في بقاء مثل هذا الرجل الذي يشبهه الى جانبه ، وألا يفعل كل ما في وسعه في سبيل الاحتفاظ به ؟ إننا نعرف كيف نرثي لأنفسنا ونشفق عليها !

كان معلم المدرسة قد درّس ، فترة من الزمن ، شيئاً ما في مؤسسة تربوية في إحدى المدن القائمة على ضفاف الفولجا ، ولكنه أبعد عن تلك المؤسسة في أعقاب بعض الحوادث . وغـــدا بعد ذلك محـاسباً في مصنع للجلود ، ومابرح أن أجبر أيضاً على مغادرته . فصار قيّماً على مكتبة خاصة . ومن ثم تقلب في مهام عديدة ، وأخيراً راح يشرب كأسه المريرة حتى الثمالة ، وانتهى عند صاحبنا الرئيس بعد أن اجتاز امتحانات صروف الدهر ونوائبه جميعاً ... كان طويل القامة . محدودب الظهر ، طويل الأنف مدببه ، أصلع الجمجمة تماماً . وكانت عينان واسعتان يملأهما قلق مرتبك مضطرب ، ويغوصان في محجرين عميقين جداً ، تبرقان في وجهه الأصفر المتعظم ، المتمادي بلحية مسننة ؛ بينا انسحبت زاويتا فمه الى الأسفل في حزن وأسى عظيمين .. وكان يكسب مايعيش به ، أو بالأحرى مايشرب به ، مما يكتبه في الصحف المحلية من الأخبار المختلفة .. فيربح في بعض الأحايين خمسة عشر روبلاً في الأسبوع

الواحد ، فيمطيها عندئذ للرئيس وهو يقول :

— كفى ! سوف أعود إلى أحضان المدينة ! أسبوع آخر من العمل وأرتدي ثياباً لائقة و ... وداعاً ، ياعزيزي !

فيوافق الرئيس ، وهو يحذره في عزم أكيد :

— هذا خير ماتفعله ، وإني أوافقك من صميم قلبي يافيليب ، وأثني على قرارك هذا . لن أسمح لك باحتساء قطرة من الخمرة طوال الأسبوع .

— أشكرك على ذالك ... أفلن تمطني أدنى قطرة أبداً ؟

ويميز الرئيس في هذه الكلمات شيئاً أشبه مايكون بتوسل خجول ، يرجوه ألا يكون قاسياً حتى هذه الدرجة . فيقول بصورة أشدقسوة أيضاً :

— تستطيع أن تزعق ماشئت . . لن أعطي شيئاً !

فيتنهد معلم المدرسة ، ويقول :

— حسناً ، لقد اتفقنا !

ويتخذ طريقه سعياً وراء الأخبار ...

وفي الغداة ، أو بعد يومين على أكثر تعديل ، يروح يتطلع الى الرئيس من إحدى زوايا المأوى بعينين قلقتين متوسلتين ، وقد خارت عزائمه ، وتحطمت قواه ، وتبدلت طبيعته ، ينتظر في اضطراب الساعة التي يرق فيها قلب الصديق .. ولكن الرئيس يتخذ مظهر الصرامة ، ويشرع يتفوه بأحاديث لاتنتهي ، مشوبة بسخرية قاسية أليمة ، عن عار ضعف الارادة ، وعن لذات السكر الحيوانية ، وعن مواضيع أخرى من هذا القبيل لا تحصى ولا تقع تحت عد .. ولا بدّ من إنصافه والاعتراف بأنه كان ينطلق بكل إخلاص في تمثيل دور المرشد الشفوق والواعظ المحب ، بينا يروح نزلاء « القاعة » ـ وأفكارهم أقرب الى الريبة والتشاؤم منها الى أي شيء آخر ـ يراقبونه ويصغون إلى أحاديثه وهم يغمزون بأعينهم في اتجاهه :

— لابأس عليك ، أيها الكيمائي الخبيث ! ما أكثر ما يجيد الحديث !

« أنت ترى جيداً ... لقد حذرتك ، ولكنك لم تصغِ إليّ .. إنك أنت الذي أردت ذلك ! » .

— إن سعادته مقاتل حقيقي لا مراء فيه .. إنه يشنّ الهجوم ، وهو يبحث عن طريق التقهقر ...

وهذا معلم المدرسة يلحق ، من جديد ، بصديقه في زاوية مظلمة ، ويتعلق بشدة بسترته الوسخة ، مرتجفاً ، لاعقاً شفتيه الجافتين في شره ، ويروح يصرو إلى وجهه بنظارة مفجعة مؤثرة .

ويسأل الرئيس ، أنبس الوجه :

— ألست تستطيع ؟

ولا يقول معلم المدرسة شيئاً بل يشير برأسه بالايجاب ، ثم يعطف هذا الرأس على صدره في كآبة ، وقشعريرة مفاجئة تجتاح — بين الفينة والفينة — جسده الطويل الناحل من قمته حتى أخمصيه .

ويقترح كوفالدا :

— أصبر يوماً آخر أيضاً ... لعلك تستطيع أن تقاوم ؟

فيتنهد معلم المدرسة ، ويهز رأسه نفياً في يأس عميق ... ويرى الرئيس أن سائر أوصال الصديق ترتعش ظمأ الى الشراب ... فيتناول المال من جيبه ، وهو يعلن أثناء ذلك ، وكأنه يريد تبرير نفسه تجاه شخص ما :

من العبث ، في أغلب الأحيان ، أن يعارض المرء القدر ويقاومه ! ..

واذا استطاع معلم المدرسة أن يقاوم حتى نهاية الأسبوع ، فان مشهد الوداع بين الصديقين يثير الشجون دوماً ، وتجري خاتمته أبداً في حانة فافيلوف القريبة ...

ولم يكن معلم المدرسة يشرب كلّ ماله ، بل كان يصرف نصفه تقريباً على أولاد الشارع الذي يقطنه ... إن الفقراء على الدوام أغنياء بالأبناء ؛ وفي هذه الطريق ، في غبارها وفي حفرها الموحلة ، كانت

أكوام من الأطفال القذرين الساغبين جوعاً يلعبون بضوضاء وضجيج — في أسمالهم البالية الرثة — منذ شروق الفجر حتى هبوط المساء دون إنقطاع ...

الأولاد !.. إنهم ورود الأرض الحية ! ولكنهم يشبهون ، في تلك الضاحية ، وروداً ذبلت قبل الأوان ، ذبلت لأنها لم تنمُ إلا على تربة فقيرة بالنسغ الجيد والغذاء الصالح ...

كان معلم المدرسة يجمعهم حوله في كثير من الأحايين ، وبعد أن يشتري بعض المعجنات ، وقليلاً من البيض والبطاطا والجوز ، يذهب وإياهم إلى الحقول ، في اتجاه النهر القريب .. وهناك كانوا يقتعدون الأرض ، ويروحون يلتهمون في جشع كل ما يقدمه لهم معلم المدرسة ، ثم يأخذون باللعب مالئين الجو — حتى مسافة بعيدة — بصيحاتهم الغافلة اللامبالية ، وضحكاتهم البريئة الطاهرة . وكان شخص السكير الطويل الناحل يتقلص ، إن صح التعبير ، بين هؤلاء الصغار الذين يعاملونه بألفة تامة . وكأنه واحد من عدادهم . لا بل كانوا ينادونه باسمه مجرداً ، دون أن يضيفوا إليه كلمه « العم » مثلاً ، أو « العم الصغير » . وكانوا يتدافعونه ، وهم يدومون حوله مثل الأسماك التي تلعب في الماء ، ويقفزون على ظهره ، ويصفعونه على قحفه الصقيل ، ويشدون أنفه في مرح وغبطة ... وكان يسرُّ لذلك دون شك ، لأنه لم يكن يحتج على هذا التطاول من جانبهم . ولم يكن يحدثهم ، على وجه العموم ، إلا فيما ندر ؛ فان فعل فبحذر شديد ، لا بل في شيء من الخشية ، وكأنه يخاف أن توسخهم كلماته أو تؤذيهم . وكان يقضي وإياهم ساعات طويلة ، فهو دميتهم وهو صديقهم ، يراقب وجوههم — الفقيرة الدم — بعينين حزينتين معذبتين ، ومن ثم يتجه في تثاقل ، حالماً ، نحو حانة فافيلوف ، وهناك يسكر بسرعة وإسراف ، دون أن يقول شيئاً ، حتى يفقد وعيه تماماً ..

٢

كان معلم المدرسة يعود أدراجه في كل يوم تقريباً ، بعد انتهائه من تسقط الأخبار في المدينة ، وقد تأبط صحيفة طازجة ، فلا يكاد يبلغ المأوى حتى يحفْ به - من كل حدب وصوب - المجلس العام لسائر الساقطين .. إنهم ينحدرون إليه من مختلف الزوايا عندما يلمحونه ، سكارى أو مرضى لكثرة ماسكروا ، تختلف أسمالهم الرثة مظهراً وإن كانت جميعاً على حدٍ سواء من البؤس والقذارة والاهتراء .

كان يتقدم إليه ، ضخماً مثل برميل كبير ، ألكسي مكسيموفيتش سيمتسوف ، الخفير السابق للغابة التابعة لأراضي الدولة ، والبائع الذي يتاجر حالياً بأعواد الثقاب ، والحبر ، والطلاء الشمعي ، والليمون الفاسد المرذول . كان عجوزاً يبلغ الستين أو يزيد ، يرتدي معطفاً مصنوعاً من قماش سميك جداً ، ويلبس قبعة كبيرة تحمي تحت حفافها العريضة البالية وجهه المنتفخ الأحمر المتمادي بلحية بيضاء شعثاء ينبثق منها ، مرحاً طروباً وكأنه يحدق بنظره الى خليقة الله ، أنف قرمزي صغير جداً ، وإلى الأسفل منه شفتان غليظتان مصطبغتان باللون نفسه ، وإلى الأعلى منه عينان صغيرتان دامعتان تطفحان وقاحة وصفاقة .. كانوا يدعونه « الكرة » ، فيعبر هذا اللقب — على أحسن وجه — عن شخصه المدور من جهة ، وسلاطة لسانه الشبيهة بهدير كرات اللعب من جهة أخرى .

وكان « النهاية » يبرز من ورائه ، منبثقاً من حيث لايدري أحد — وهو سكير قاتم اللون ، صموت ، منطوٍ على نفسه ، شغل فيما غبر من الزمان منصب مفتش للسجون .. اسمه الحقيقي لوقا أنطونوفيتش مارتيانوف ،

وكانت الوسائل التي يكسب العيش بواسطتها ألعاب « الخيط » و « الأوراق الثلاث » و « المصرف » ، وكفاءات أخرى مماثلة ، فطنة رائعة بمقدار ما هي بغيضة إلى رجال الشرطة مكروهة منهم ... يتهالك بجسده الثقيل ، الذي أسيئت معاملته أكثر من مرة ، على العشب إلى جانب معلم المدرسة في إعياء وألم عظيمين ، ويطلق البروق تترى من عينيه السوداوين ، ويمد يده نحو زجاجة الخمرة ، وهو يسأل بصوت مخنوق شديد الخفوت :

— هل أستطيع ؟

ويأتي أيضاً بافل سونتسيف ، الميكانيكي المسلول البالغ من العمر ثلاثين عاماً .. لقد نال ذات يوم طعنة في خاصرته اليسرى أثناء قتال واسع النطاق .. أما محياه المدبّب الأصفر ، الشبيه بمحيا ثعلب خبيث إلى حدٍّ بعيد ، فقد كان أبداً متقلصاً في ابتسامة ملتوية ، نبيثـــة ، كاذبة ؛ وكانت شفتاه الرقيقتان تكشفان عن صفين من الأسنان السود التي قرضها الداء قرضاً ، والأسمال تتهدل على منكبيه الضيقين المتعظمين ، وكأنها تتدلى من حامل للمعاطف .. ولقد لقبوه « الفتيتة » .. أما مهنته الحاضرة فهي بيع مكانس النخيل التي يصنعها بنفسه ، وفراشي مصنوعة من بعض الأعشاب تصلح لتنظيف الثياب كثيراً .

ويجيء كذلك رجل طويل ، متعظم ، أعور العين اليسرى ، مجهول الأصل والمنشأ ، يطل من عينه السليمة المستديرة الكبيرة خوف قاتل .. كان عبوس الوجه أبداً ، مذعور الهيئة ، سبق له أن زار السجن ثلاث مرات بتهمة السرقة ، وبإدانة من حاكم الصلح ومحكمة الجنايات . إن اسمه كيسلنيكوف ، ولكن رفاقه يدعونه « تاراس ونصفاً » ، لأنـه يكبر بمرة ونصف المرة بالضبط الصديق الذي لا ينفصل عنـــه أو يفارقه لحظة واحدة ، الشماس تاراس الذي حرمته الكنيسة لعربدته المستمرة ودعارته غير المنقطعة .. كان هذا الشماس مربوع القامة ، ذا صدر متين

البنيان كصدور المصارعين ، ورأس مستدير كثيف الشعر غزيره ، يرقص بصورة تثير الدهشة حقاً ، ويقسم الأيمان المغلّظة ، ويكيل الشتائم والسباب بصورة غريبة حقاً .. وكان كلا الصديقين قـــد اختارا ، كاختصاص لهما ، نشر الخشب على ضفاف النهر ، أما ساعات الفراغ فيقضيانهـا والشماس يسرد على صـــديقه ، وعلى سائر الذين يرغبون في الاستماع اليه ، أقاصيص « من وضعه » كما يحب أن يعلن على رؤوس الأشهاد . . وكان سكان « القاعة » أنفسهم يبصقون في ازدراء ونفور عندما يصغون إلى هذه الأقاصيص ، حيث يتردّد أبداً عـدد لايحصى من القديسين ، والملوك ، والكهنة ، وقوّاد الجيوش ، يلعبون جميعاً دور الأبطال فيها . . إنهم يحملقون بأعينهم ذهولاً وعجباً أمام الخيال الفائض الذي يتمتع به الشماس ، وهو يروي لهم - جامد الأسارير ، مغمض العينين — أموراً مشبعة بالنذالة بصورة تفوق التصور ، ومغامرات وهمية الفحش والبذاءة .. إن خيال هذا الرجل قويٌ لاينضب له معين ، فهو يستطيع طوال النهار ، منذ طلة الصباح حتى إغفاءة المساء ، أن يخترع الأقاصيص التي لايكررها أبداً ، ولايتعب من سردها قط ... لعلّ شاعراً واسع الأفق يتفسخ فيه ، أو قصاصاً نادراً على الأقل ، قصاصاً يملك الموهبة على إيقاظ الحياة في كل شيء ، قصاصاً ينفخ حتى في الحجارة روحاً بكلمته الدنسة ، لكن العنيفة الرنين والزاهية الألوان على أية حال .

وكان هناك شبل شاذ الطباع ، لقبه كوفالدا « النوء » ، جاء مرة كي يقضي الليل ، ومن ثم قبع بين هؤلاء الناس لايفارقهم ، باعثاً في نفوسهم العجب من أمره كل العجب ... لم ينتبه أحد لوجوده في البدء ، فهو يغدو في النهار ، مثل الباقين جميعاً ، يفتش عن بعض السبل للحياة ، ولكنه ينتصب أبداً في العشية بين القوم ، حتى لاحظه الرئيس أخيراً ، فتوجه إليه قائلاً :

— أيها الصبي ، ماذا أنت على وجه هذه البسيطة ؟

فأجاب الصبيّ بلهجة مقتضبة جريئة :

— أنا ؟ متشرد حافي القدمين !

تفحصه الرئيس بعين نقادة متسائلة . . كان مظهره غامضاً جداً ، فشعره عظيم الاسترسال ، ومحياه غبي الملامح ، أحمق السيماء ناتيء الوجنتين ، مزين بأنف أفطس ، وهو يلتف بقميص أزرق مجرد عن الحزام ، ويضع على رأسه بقايا قبعة من الريش تلتصق به التصاقاً .. أما قدماه فكانتا حافيتين .

قال أريستيد كوفالدا بنبرة حازمة :

— أنت أحمق بكل تأكيد ! مابقاؤك في هذا المكان ؟ نحن لاندري ما نفعل بك ... هل تشرب الخمرة ؟ كلا ! هل تسرق ؟ هل تعرف كيف تسرق ؟ كلا أيضاً ! إذهب إذن ، وتعلم هذا كله ، وعُدْ إلينا عندما تصير رجلاً ..

فأغرق الصبي في الضحك ، وقال :

— كلا ! سأبقى وإياكم بعض الوقت .

— ولم ؟

— هكذا ...

فأعلن الرئيس :

— أما إن هذا لنوء ، وربي !

فاقترح مارتيانوف :

— سأحطم له أسنانه .

فسأل الصبي :

— ولم ؟

— هكذا ...

فأبان الصبي باحترام بالغ :

ـ وأنا سوف أتناول حجراً وأشج به رأسك . .

وكاد مارتيانوف أن ينهال عليه ضرباً لو لم يدخل كوفالدا بينهما :

ـ دعه ، إنه ابن عم لك نوعاً ما ، ياصاح !.. ولربما ابن عم لنا جميعاً ... أنت تريد ، دون مبرر كاف ، أن تحطم أسنانه . وهو ، مثلك ، دون مبرر ، يريد أن يعيش فيما بيننا .. فليكن ذلك خيراً له !.. نحن جميعاً نعيش دون مبرر كاف للحياة . . نحن نحيا ، ولماذا ؟ هكذا ! وهو أيضاً يفعل مثلنا ... فليفعل هذا إذن !

وقال معلم المدرسة ناصحاً ، وهو يرمق الصبي بعينيه الحزينتين :

ـ ولكن ، أيها الفتى ، يحسن بك أن تبتعد عنا .

فلم يحر الآخر من جواب ، وبقي بين القوم ... وفيما بعد ألفوه فما عادوا يعيرونه انتباهاً . أما هو فاستراح فيما بينهم ، يراقب كل شيء في اهتمام عظيم .

كان سائر المذكورين آنفاً يشكلون أركان حرب الرئيس الذي يدعوهم ، في سخرية عطوف ، « الذين كانوا بشراً » . وكنت تجد في المأوى دائماً ، بالاضافة إلى الشلة ، خمسة أو ستة من المتشردين الحفاة العاديين ، وهم على الدوام قرويون ليس في قدرتهم أن يتباهوا بماض عظيم مثل ماضي هؤلاء الذين كانوا بشراً ، بل ظلوا ، بالرغم من أنهم تحملوا من نازلات الدهر وصروفه ما لا يقل عن الآخرين ، كائنات أكثر سلامة ، وأقل تحطماً مخيفاً منهم . . لعلّ أفضل أفراد الطبقة المثقفة يتفوقون على أفضل أفراد طبقة الفلاحين ، ولكن رجل المدينة ـ إذا ما فسد مرة ـ فهو أكثر نذالة وتفسخاً بما لايقاس من رجل القرية حين يتردى في الهاوية بدوره ... وكانت هذه القاعدة تقفز أمام الأعين بصورة واضحة ، إذا ماقورن المثقفون السابقون بالفلاحين السابقين بين هؤلاء الذين كانوا بشراً ، والذين يقطنون الآن مأوى كوفالدا الرئيس .

وكان هناك ، كممثل بارز للفلاحين السابقين ، جامع الخروق العجوز الذي يحمل اسم تيابا .. كان باسق القامة ، ناحل الجسم بصورة قبيحة تبعث على النفور ، يمسك برأسه بين يديه مطرقاً أبداً حتى تلامس ذقنه صدره ، فيذكّر خياله المرتسم على الأرض بكلاب تحريك النار . . . وكنت تعجز ، إذا ما نظرت اليه وجهاً لوجه ، عن أن تميز في محياه شيئاً يسترعي انتباهك ؛ أما إذا حدّقت فيه بصورة جانبية فلا يطالعك إلا أنف معقوف وشفة متدلية ، وحاجبان أشيبان كثّان شائكان .. كان أقدم المستأجرين عند الرئيس ، يشاع عنه أنه يخفي في مكان ما مبلغاً من المال عظيماً ، دفع بعض الطامعين به ـ قبل سنتين تقريباً ـ الى ذبحه في عنقه ، فهو منذ ذلك الحين يحني رأسه على تلك الصورة الغريبة . كان ينكر وجود ذلك المال ، ويدّعي أنهم ذبحوه هكذا ، دون سبب معين ، أو بدافع المزاح المقيت بكل بساطة ، وأن جمع الخروق والعظام ازداد سهولة ويسراً بالنسبة اليه منذ تلك الحادثة ، لأن رأسه غدا منحنياً نحو الأرض باستمرار . . . كنت تخاله ، عندما يسير بمشيته المترنحة المضطربة ، دون عصا في يده أو كيس على ظهره ـ وتينك دلالتان أكيدتان على مهنته ـ كنت تخاله إذن غارقاً في الأحلام حتى قد شرد عن كل مايطوقه ويحيط به ... وفي مثل هذه الأحوال ، كان كوفالدا يقول وهو يشير إليه باصبعه :

ـــ أنظروا ! إن وجدان التاجر يهوذا بيتونيكوف قد فرّ منه ، وهذا هو ، ذلك الوجدان ، يفتش عن مأوى يلجأ إليه ! أنظروا إليه ، هذا الوجدان الهارب ، لكم هو قذر ، رثّ ، وما أشد ماتشمئز النفس منه .

كان صوت تيابا مبحوحاً . يكاد المرء ألا يفقه مايتفوه به صاحبه . ولعل ذلك هو السبب في إقلاله من الحديث بصورة عامة ، ومحبته للعزلة والانطواء على النفس والابتعاد عن الناس ... وحين يقدم إلى « القاعة » رجل طرده الشقاء من الريف ، فجاء المدينة نموذجاً حياً جديداً يعلن عن

البؤس المخيم هناك ، كانت نقمة خانقة مقلقة تجتاح صاحبنا لدى رؤيته ، فيروح يضطهده بتهكماته اللاذعة المنطلقة من حلقه في صفير مبحوح شرير ، ويبعث في إثره واحداً من أكثر المتشردين الحفاة رذيلة وخبثاً ، ويهدده أخيراً بأن ينهال عليه لكماً وضرباً بقبضتيه القاسيتين ، وأن يسلبه أثناء الليل جميع ممتلكاته ، حتى يبلغ أخيراً الغاية التي يرجوها ، فيختفي الفلاح المسكين من « القاعة » مذعوراً محتاراً ، ولا يرجع إليها أبداً .

وعندئذ تهدأ ثائرة تيابا . فيغرق في إحدى الزوايا من جديد يرقع أسماله البالية ، أو يقرأ كتابه المقدس الذي يماثله قدماً ، وقذارة ، وتمزقاً ، حتى إذا أتى معلم المدرسة بالصحيفة وأخذ في قراءتها ، خرج من زاويته واقترب منه يصغي الى كل مايتلوه عليهم دون أن ينطق بحرف ، وهو يصعّد أثناء ذلك زفراته الحرّى من غير أن يطرح سؤالاً على الاطلاق ، فاذا انتهى معلم المدرسة من القراءة وطوى الجريدة ، مدّ تيابا اليه يده المتعظمة وقال :

— أعطنيها قليلاً ...

— وما حاجتك اليها ؟

— أعط .. لعلهم يتحدثون فيها عنا

— عمن تعني ؟

— عن القرية .

فيسخر الحاضرون منه ، ويلقون بالصحيفة اليه ، فيتناولها ، ويقرأ فيها أن الصقيع أتلف القمح في القرية الفلانية ، وأن الحريق التهم ثلاثين منزلاً في قرية أخرى ، وأن امرأة سمّمت عائلتها في قرية ثالثة ... يقرأ ، باختصار ، كل ما يُكتب عادة عن الريف فيصفه شقياً ، أحمق ، خبيثاً .. كان تيابا يقرأ ذلك بصوت أصمّ ، ويزمجر بشيء غير واضح ، معبراً بذلك الصوت عن ألمه ، أو ربما عن رضاه ... من يدري ؟

وكان يقضي القسم الأكبر من أيام الآحاد، التي لايخرج فيها لجمع الخروق كما في بقية الأيام، وهو يقرأ الكتاب المقدس وحده ويزمجر أثناء ذلك ويتنهد دون انقطاع .. كان يمسك بكتابه مستنداً الى صدره، وتثور ثائرته اذا اقترب أحد منه أو منعه عن القراءة .

ويقول له كوفالدا :

— هيْ، أنت هناك ! ... أيها الساحر ! ماذا تفهم من كتابك هذا ؟ دعك منه ربك .

— وأنت ماذا تفهم ؟

— صحيح أيها الساحر ! أنا أيضاً لا أفهم شيئاً، ولكني لا أقرأ الكتب ...

— أما أنا، فاني اقرأ ...

فيقول الرئيس مستنتجاً :

— ذلك لأنك أحمق ! عندما تسكن الحشرات رأسك، ففي ذلك شيء كثير من الازعاج ... أما اذا تسربت الأفكار اليه أيضاً ؟ .. كيف تفعل عندئذ كي تعيش، أيها الضفدع العجوز ؟

فيقول تيابا في هدوء :

— أف ! ولكني لن أعيش طويلاً بعد الآن .

وذات يوم، أراد معلم المدرسة أن يعرف منه أين تعلم القراءة، فأجابه في إيجاز :

— ولكن، في السجن طبعاً !

— هل دخلت السجن ؟

— ولكن طبعاً ...

— ولماذا ؟

— ولكن هكذا . . . خطيئة . . . ولقد رجعت بالتوراة من هناك .

أهدته لي إحدى السيدات . . . إن المرء ليزجي الوقت على أحسن حال في السجن ، ياصاح !

ــ دعك من هذا الحديث ! كيف يمكن ذلك ؟

ــ إنه يمنحك العقل . . . لقد تعلمت القراءة هنالك . . . وكل هذا دون مقابل .

عندما ظهر معلم المدرسة في « القاعة » ، كان تيابا يسكنها منذ زمن طويل .. فراح يرمق المعلم طويلاً فلا يحيد بناظريه عنه .. كان يطوي جسده على جانب واحد عندما يريد النظر في محيا أي شخص كان . ولقد أعار أذنيه طويلاً إلى أحاديث المعلم ، ثم جاءه يوماً وجلس إلى جانبه :

ــ حسناً ! إنك كثير الـ ... لقد كنت عالماً ... والكتاب المقدس هل قرأته ...

ــ قرأته .

ــ عظيم ! ... وهل تتذكره ؟

ــ ياإلهي ! نعم ..

فطوى العجوز جسده الى الجانب الواحد ، ورمق معلم المدرسة طويلاً بعين رمادية ، قاسية ، متشككة :

ــ أتتذكره ؟ ... هل العمالقة [1] موجودون فيه ؟

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ اين هم حالياً ؟

ــ لقد ماتوا ، ياتيابا ... اندثروا ...

---

(١) شعب قديم كان يقطن الجزيرة العربية ، وينازع اليهود باستمرار ، خاصة ايام شاوول وداوود الذي تغلب عليه وافناه عن بكرة ابيه (المترجمان) .

فظل العجوز لحظة صامتاً لا ينبس بحرف، وعقب يقول :

ــ والفلسطينيون ؟

ــ وهؤلاء أيضاً ...

ــ أتلاشوا جميعاً ؟

ــ نعم، جميعاً !

ــ حسناً ... ونحن أيضاً سنندثر جميعاً ؟

فنبر معلم المدرسة مؤكداً بلهجة غير مكترثة :

ــ إن الزمن سيأتي، ونتلاشى نحن أيضاً ...

ــ ومن أي سبط من اسرائيل نحن ننحدر ؟

فتطلع إليه معلم المدرسة، وفكر لحظة، ثم شرع يتحدث إليه عن السومريين [1]، والسكيت [2]، وقبائل الهون [3]، والسلافيين ... فالتوى جذع العجوز أكثر من ذي قبل، وراح يتـأمل معلم المدرسة بعينين مذعورتين نوعاً ما، وإما انتهى هذا الاخير من حديثه، أرسل تيابا من فيه صفيراً طويلاً، وقال من بين أسنانه :

ــ هذا كله عبارة عن أكاذيب وأراجيف ليس غير !

فاستوضح معلم المدرسة مذهولاً :

ــ ولمَ أكاذيب ليس غير ؟

ــ من هذه الشعوب التي سمّيتها ؟ إنها لاتوجد في الكتاب المقدس ؟

---

(١) شعب كان يسكن شواطيء البحر الاسود، ومن ثم اجتاح بلاد ما بين النهرين (المترجمان) .

(٢) قبائل بربرية كانت تقطن أواسط أوروبا (المترجمان) .

(٣) شعب بربري جاء من شواطيء بحر قزوين، واجتاح اوروبا تحت قيادة اتيلا في أواسط القرن الخامس (المترجمان)

نهض وابتعد مستاء ، وهو يزمجر في غضب .

فأردف معلم المدرسة خلفه ، في قناعة تامة :

ــ لقد بدأت تفقد العقل ، ياتيابا !

وعندئذ استدار العجوز إليه ، ومد ذراعه ، وراح يهدده باصبع معوجة وسخة :

ــ من الله ، آدم . . . ومن آدم ، العبرانيون . . . إن سائر البشر إذن ينحدرون من العبرانيين .. وكذلك نحن ...

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ والتتريون ، من اسماعيل ... وهو أيضاً ، عبراني ...

ــ وإلى أين تريد الوصول ؟

ــ لست أريد شيئاً ... لماذا تروي سائر تلك الاكاذيب ؟

وذهب ، مخلفاً محدثه مدهوشاً مذهولاً . ولكنه عاد مرة أخرى ، بعد يومين أو ثلاثة أيام ، فجلس إلى جانبه :

ــ لقد كنت عالماً ... يجب إذن أن تعرف من نحن ؟

فأجاب معلم المدرسة :

ــ نحن سلافيون ، ياتيابا .

وراح ينتظر ، في فضول ، جواب تيابا ، راغباً في أن يفهمه .

ــ تحدث حسب الكتاب المقدس ... هؤلاء ليسوا موجودين فيه ... من نحن ؟ . أبابليون أم أدوميون (١) ؟

وانطلق معلم المدرسة ينتقد الكتاب المقدس ، فأصغى إليه العجوز طويلاً في انتباه مركز ، ثم قاطعه قائلاً :

ــ مهلاً ! .. دعك من هذا ! إذن ، فبين الشعوب المعروفة من الله

---

(١) شعب كان يقطن جنوب اليهودية وقسما من شمال الجزيرة العربية (المترجمان)

الصالح لا يوجد الروسيون ؟ نحن قوم مجهولون من الله الطيب ؟ هل الامر كذلك ؟ إن أولئك الذين ورد ذكرهم في التوراة ... أولئك وحدهم يعرفهم الله ... كان يستأصل شأفتهم بالنار والسيف ، ويدمر مدنهم وقراهم ، ولكنه كان يرسل إليهم أنبياء كي يثقفوهم ... ذلك أنه يرثي لهم ... لقد بعثر العبرانيين والتتريين ، ولكنه أبقاهم في الوجود ... ونحن الآخرين ؟ لمَ لا يوجد عندنا أنبياء ؟

فغمغم معلم المدرسة قائلاً ، وهو يبذل جهوداً عظيمة كي يفهم مراد ذلك العجوز :

— لا أدري !

أما هو ، فقد ألقى بيده على كتف معلم المدرسة وراح يدفعه إلى الامام والخلف في هدوء ، وهو يهمس بصوته الابح فكأنه يبتلع شيئاً ما :

— كان يجب أن تدري ذلك ! وأنت تتكلم كثيراً ، وكأنك تعرف كل شيء ؟ إن قلبي يثور عندما أصغي إليك . فأنت تلقي الاضطراب في روحي ، والأفضل أن تسكت ... ماذا نحن ؟ قل ! لم لا يوجد عندنا أنبياء ؟ بخ ! . وأين كنا عندما كان المسيح يسير على هذه الأرض ؟ هل ترى ؟ إليك عني ! وتروح تسرد الأكاذيب . . . هل يمكن أن يموت شعب بأسره ؟ إن الشعب الروسي لا يمكن أن يزول ويتلاشى . أنت تكذب ! فهو مذكور في التوراة ، ولكننا لا نعرف فقط بأي اسم ورد ذكره . هل تعرفه أنت ، الشعب ، كيف هو ؟ إنه . عظيم جداً كم من قرية مزروعة على وجه البسيطة ؟ في كل مكان يبقى الشعب . الشعب الحقيقي . الشعب العظيم ! وأنت تقول : « إنه سينطفىء » . إن الشعب لا يمكن أن يموت ... الانسان يمكن أن يموت .. إن الله في حاجة إلى الشعب . . . إنه مهندس هذا العالم . . . إن العمالقة لم يموتوا إنهم الألمانيون أو الفرنسيون . . وأنت . . .

تفو ! ... قل لي ، بربك ، لماذا حُرمنا ميراث الله فلا تصيبنا النازلات ، ولا يأتينا أنبياء مرسلون من لدن الله ! من سيعلمنا إذن ؟ !

كانت كلمة تيابا قوية عنيفة بصورة رهيبة ، تتردد فيها السخرية ، والنقمة ، والايمان ظل يتحدث زمناً طويلاً ، فأخذ معلم المدرسة في النهاية ، وكان ثملاً قليلاً كعهده أبداً ، يشعر باحساس مؤلم وهو يرهف سمعه إليه ، فكأن منشاراً من الخشب يحزّ في أوصاله . كان يستمع إلى العجوز ، ويتطلع إلى جسده المشوّه ، ويحسّ تلك القوة الغريبة التي تتمتع الكلمات بها ، تلك القوة التي تثقل على القلب وتئيد ... ومن ثم أخذه الاشفاق على نفسه فجأة ، إشفاق تفاقم حتى بلغ درجة الايلام ، كما اجتاحته كآبة غامضة . وكأنه يأسف على شيء لا يدري ماهيته ... وأخذته الرغبة في أن يقول شيئاً قوياً للعجوز ، شيئاً مقنعاً يربح تيابا به إلى جانبه ، ويجبره على تبديل هذه اللهجة الغاضبة التي يتكلم بها بلهجة أخرى تختلف كل الاختلاف . . . لهجة عذبة أبوية ، لطيفة ، ناعمة . . وكان معلم المدرسة يحس شيئاً يفور في صدره ، ويصعد الى حلقه حتى ليكاد أن يخنقه . لكنه لم يجد في نفسه كلمة قوية واحدة يقولها لصاحبه .

سأل تيابا :

— هل أنت إنسان ؟ إن نفسك معذبة ممزقة ... ولقد جئت تتفوه بكلام .. وكأنك تعرف شيئاً .. الأفضل أن تصمت !

فهتف معلم المدرسة بلهجة طافحة بالعذاب والألم :

— أواه ، ياتيابا ! إن ماقلته الآن . . . صحيح ! والشعب . . ذلك حق ! إنه عظيم جبار . وأنا غريب عنه وهنا تقوم مأساة حياتي . ولكن ... ماأهميه ذلك ! لسوف أثأر على تحملي للعذاب . . . وليس هناك أنبياء . . كلا ! إني أتكلم كثيراً في الحقيقة ، وليس إنسان في حاجة إلى ذلك . ولكني سأسكت . . . إنما ، لا تحدثني

هكذا . إذهب ، أيها العجوز . . إنك لا تعرف .. إنك لا تعرف ...
إنك لا تستطيع أن تفهم ؟

وأخيراً ، طفق معلم المدرسة يبكي . كان يبكي بسهولة ويسر عظيمين ، وبعبرات غزيرة مدرارة ، حتى أحس في النهاية بالراحة والهدوء .

ونفخ تيابا من بين أسنانه بقسوة :

— كنت تفعل حسناً لو ذهبت إلى الريف . . . وطلبت مركزاً كمعلم مدرسة أو ناسخ أوراق . كنت إذن تكسب حياتك ، وتستنشق قليلاً من الهواء ماجدوى اضطرابك على هذا الغوار ؟

وكان معلم المدرسة يبكي دوماً ، ويفرح بدموعه ...

ومنذ تلك اللحظة أصبحا صديقين حميمين ، وصار أولئك الذين كانوا بشراً يقولون عندما يرون إليهما معاً :

— إن معلم المدرسة قد أغوى تيابا . وهذا هو قد أبحر باستقامة نحو المال المخزون .

— إنه كوفالدا الذي دفعه إلى ذلك كي يعرف مخبأ رساميل العجوز ، إن جاز التعبير .

ولعلهم كانوا يفكرون ، في الوقت نفسه ، عكس ما ينطقون به .. وتلك كانت صفة غريبة في الحقيقة تميّز هؤلاء القوم . لقد كانوا يحبون أن يتظاهروا ، فيما بينهم ، أسوأ مما هم عليه في واقع الأمر .. إن الانسان المجرّد عن الخير لا يتواني ، أحياناً ، عن الافتخار بسيئاته .

٣

عندما يتأصص سائر هؤلاء الناس حول معلم المدرسة وصحيفته ، يشرع صاحبنا في القراءة ، فيقول الرئيس :

ــ فلنرَ عما تتحدث الجريدة هذا اليوم أيضاً ؟ هل من ملحق لها ؟

فيردُّ معلم المدرسة :

ــ كلاً .

إنه لبخيل ، صاحبك رئيس التحرير ... والمقال الافتتاحي ، هل هو موجود ؟

ــ هناك مقال افتتاحي اليوم ... بقلم بولاييف فيما يبدو !

ــ آه ! هيا إذن ، فهذا الحيوان يكتب جيداً . إن له لعيناً ثاقبة .

ويبدأ معلم المدرسة بالقراءة :

ــ « إن تثمين العقارات الذي تمّ قبل خمسة عشر عاماً ما برح حتى اليوم الأساس الذي تقدَّر بموجبه ضرائب العقارات لمصلحة المدينة . »

فيقول كوفالدا معلقاً على ذلك :

ــ ذلك ساذج حقاً ... « ما برح الأساس » ، ذلك مضحك ! ان التجار الذين يشرفون على إدارة المدينة يجدون من مصلحتهم أن تظل الامور هكذا . وانها لتظل في الحقيقة ...

ويقول معلم المدرسة :

ــ ان المقال مكتوب في هذا المعنى بالضبط !

ــ حقاً ؟ عجيب ! إنه موضوع جميل كي يتحدث صاحبنا عنه بكلام معسول ... ولكن يجب دراسته في الواقع في قوة وعنف ...

ويتأرث لهيب نقاش قصير يتبعه الرأي العـام بانتباه واهتمام ، إذ أن الزجاجة الأولى من الخمر لما تفرغ بعد ... وينتقلون بعد المقال الافتتاحي الى قراءة الاخبار المحلية ، ومن ثم ينتهون الى الأخبار القضائية . واذا وجدوا في هـذه الزاوية الاجرامية أن تاجراً قد ذُبح ، فان أريستيد كوفالدا يتهلل اذن حبوراً وغبطة ... وهل سُرق التاجر ؟ عظيم ! لكن من المؤسف فقط أن ما سُرق منه لم يكن كثيراً .. هل رفسته الجياد حين أجفلت ؟ إن الاصغاء إلى مثل هذا الخبر يبعث السرور في القلب وينعش النفس ويحييها ، وان كان بقاؤه على قيد الحياة أمراً مزعجاً حقاً .. هل خسر دعوى في المحكمة ؟ ممتاز ! لكن من المحزن أن المحكمة لم تجبره على دفع المصاريف والفوائد مضاعفة .

ويلاحظ معلم المدرسة :

– سيكون ذلك اذن أمراً غير مشروع !

فيسأل كوفالدا في مرارة :

– غير مشروع ؟ ولكن التاجر نفسه ، هل هو مشروع ؟ ما هو التاجر ؟ فلنحلل هذا الحادث الفظ غير المعقول . . . إن كل تاجر هو فلاح في المحـل الأول . . . إنه يقدم من الريف ، وبعد مرور بعض الزمن يصبح تاجراً .. ولكي يصبح المرء تاجراً ، لا بدّ له من المال ... أليس كذلك ؟ ونحن نعرف جيـداً أن العمل الشريف لا ينتج مالاً ! ومن هنا ننتهي الى أن الفلاح قد سرق على صورة من الصور .. وهذا يعني أن التاجر هو فلاح لص ! ...

ويقول الرأي العام ، موافقاً على استنتاجات الخطيب :

– لقد أصبت كبد الحقيقة !

ويزمجر تيابا ، وهو يحك صدره . إنه يزمجر هكذا على الدوام ، منذ الكأس الصغيرة الأولى ، غداة أيام سكره وعربدته . أمـا الرئيس

فيتأنق ويشع في هذه المناسبات. وتتلى الرسائل الواردة، فينطلق الرئيس هنا على « هواه » كي نستعير نفس تعبيره. إنه يرى في كل مكان كيف يسيء التاجر إلى الحياة ويدنسها، وبأية حذاقة يفسدها ويسحقها بأقدامه. إن كلماته تصعق التاجر وتبيده وتفنيه إفناءً، بينما الجميع يصغون إليه، والغبطة تطفح من عيونهم، لأنه يشد على الخناق باحكام وقوة معاً.

ويهتف كوفالدا قائلاً:

— لو كنت أكتب في الصحف! أواه! كنت إذن أعري التاجر على حقيقته... كنت أظهر إذن أنه لايزيد عن كونه حيواناً غبياً أحمق، حيواناً لايلعب دور الانسان إلا لفترة قصيرة من الزمن... إني أعرفه حق المعرفة، هذا التاجر! إنه ثقيل الدم، أبله لايتمتع بالحياة ولا يفقه فكرة الوطن، ولا يدري شيئاً فوق القرش المدور الكبير.

ويدس الفتيته في خبث فهو يحب أن يثير الناس، كما يعرف الوتر الحساس عند الرئيس:

— بلى، فمنذ أخذ النبلاء يموتون جوعاً جماعات جماعات... طفق الرجال الحقيقيون يختفون من الحياة.

— أنت على حق، ياذرية بغيضة للعنكبوت والضفدع! بلى، فمنذ زالت طبقة النبلاء، — لم يعد ثمة رجال على وجه البسيطة! لم يعد هناك إلا التجار... واني لأبغضهم!

— ذلك يسير على الفهم، لأنك أنت أيضاً، ياصاح، قد سحقوك وجعلوك هباء منثوراً.

— أنا؟ لقد فنيت محبة بالحياة. ياأحمق! كنت أحب الحياة... بينما التاجر لايفعل إلا مضغها مضغاً. وهذا بالضبط هو السبب في حنقي عليه وبغضي له... وليس كوني نبيل المحتد عريق الأصل! إلا بل إني لست نبيلاً أيضاً، إن كنت تحب أن تعرف ذلك! إنما أنا بكل بساطة مخلوق

كنت إنساناً فيما مضى من الزمان وولى . ثم سقطت من إنسانيتي . وأنا حاليا أسخر من الجميع ومن كل شيء ، والحياة بالنسبة إلي ... خليلة هجرتني ... وهذا هو السبب في احتقاري لها ، وعدم اكتراثي المطلق بها .

فيعقب الفتيته :

ـــ أنت تكذب !

فيستشيط أرستيد كوفالدا غيظاً ، ويحتقن وجهه بالدم وهو يصيح :

ـــ أنا ، أكذب ؟

فيتردد صوت مارتيانوف الخفيض ، قاتماً بارداً :

ـــ ماجدوى الصياح ؟ ماجدوى الجدال ؟ تاجر ، نبيل ، ماذا يهمنا ذلك كله ؟

ويتدخل الشماس في الحديث ، قائلاً :

ـــ مادمنا لانخور ، ولا نثأج ، ولا نصيح كالديكه .

فينبر معلم المدرسة بلهجة مصالحة :

ـــ كفى ، أيها الفتيتة ! ماالجدوى من زيادة الطين بلة ؟

إنه لايحب النقاش ، ولا الضوضاء بصورة عامة ، بل تنقبض شفتاه في تكشيرة مؤلمة عندما تلتهب الأهواء فيما حوله ، فيروح يسعى ، بتأن وهدوء ، أن يعيد الوئام إلى ماكان عليه بين الجميع ، فاذا فشل في هذه المساعي دار على عقبيه وولى الادبار فاراً . . . وكان الرئيس على علم بذلك ، فيتمالك زمام نفسه إن لم يكن شديد السكر كيلا يفقد في شخص معلم المدرسة أحسن السامعين إليه .

ويسترسل قائلاً في لهجة أكثر اعتدالاً :

ـــ إني أكرر ذلك . . . أنا أرى الحياة قد وقعت فريسة بين يدي العدو ، ليس عدو النبيل فحسب ، بل عدو كل ماهو رفيع عالي القيمة . بين أيدي الطامعين الشرهين ، العاجزين عن تزيين الحياة بأي شيء كان...

فيقول معلم المدرسة :

— ومع ذلك ، يا أخي ، فان التجار هم الذين خلقوا جنوة ، والبندقية ، وهولندا ... التجـار ، تجار بريطانيـا ، الذين غزوا الهند وضموها الى بلادهم . إنهم التجار ستروجانوف .

— ماذا يهمني من هؤلاء التجار ؟ لقد كنت أعني يهوذا بيتونيكوف ، واليه وحده ...

فيستوضح معلم المدرسة في صوت مخفوض :

- وماذا يهمك من الآخرين ؟

— أفلست أحيا ؟ بخ ! اني أحيا ... إذن فلا بد لي أن أغضب وأثور حين أشاهد كيف أفسد الحيـاة أولئك المتوحشون الذين قبضوا زمامها .

فيقول الفتيتة ساخراً :

— وإنهم ليسخرون من نقمة الرئيس النبيلة ، من نقمة الانسان المتقاعد!

— حسناً جداً ! ذلك سخف وحماقة ، إني أوافق ! يتوجب علي ، باعتباري من الذين كانوا بشراً ، أن أمحو من نفسي كل ما كان يعتمل فيها قبلا من عواطف أو أفـكار . . هذا . . ربما كان هـذا صحيحاً ... ولـكن ، بماذا نتسلح عندئذ ، أنا ، ونحن جميعاً ، إذا مارمينا عنا هذه العواطف مرة؟

ويقول معلم المدرسة مشجعاً :

هنا ، لقد بدأت تقول أشياء معقولة !

— نحن في حاجة إلى شيء آخر ، الى أساليب أخرى في رؤية الحياة ، إلى عواطف جديدة .. نحن في حاجة إلى شيء جديد ... ذلك أننا ، نحن أنفسنا ، شيء جديد في هذه الحياة .

فيوافق معلم المدرسة بقوله :

— دون أدنى ريب ، نحن في حاجة الى هذا .

فيسأل النهاية :

ولم ذلك ؟ أفليس ما نقوله أو نفكر فيه سواء في التفاهـة وعدم الاكتراث ؟ إنا لن نعمر طويـلاً ! أنا في الآربعين ، وأنت في الخمسين ، وليس بيننا من لم يتجاوز الثلاثين ... وحتى لو كان المرء في العشرين من عمره فقط ، فهو لن يعيش طويلا في مثل هذا الحال .

ويقول الفتية مستهزئاً :

— وأي شيء جديد نحن ؟ إن الرعاع قد وجدوا في كل الأزمان !

يعلن معلم المدرسة :

— وهم الذين خلقوا روما !

ويضيف الرئيس متهللاً :

— ولكن بلى ، بكل تأكيد ! ألم يكن روموِلوس وريموس من مجتمع المتشردين الحفاة ؟ نحن أيضاً ، عندما تدق الساعة ، سوف نخلق . . .

فيقاطعه الفتية قائلاً :

— ضوضاء على الطريق العامة !

ويضحك ، راضياً عن نفسه كل الرضى ... إن ضحكه مقيت قارص، يشاركه فيه سيمستوف ، والشماس ، وتاراس ونصف ، جميعاً ... وتبرق عينا الصبي النوء الساذجتان بلهيب شديد ، وتتضرح وجنتاه . . وأخيراً ، يتكلم في النهاية ، فاذا حديثه أشبه بضربات مطرقة تنهال على الرأس دونما رحمة او شفقة :

— كل هذا .. ترهات . وأحلام .. هذا كله لا يصمد في وجه الحقيقة لحظة واحدة ،

كان من الغريب حقاً أن تستمع إلى هؤلاء القوم الذين لفظتهم الحياة وطرحتهم عنها ، وبليت ثيابهم واهترأت ، وتشبعوا بالغول والحقد ، وتشربوا بالسخرية والطين ، وهم يفكرون هكذا ويتحدثون على هذا المنوال .

كانت هذه الاحاديث أعيـــاداً حقيقية بالنسبة إلى الرئيس ، فهو

يتحدث أكثر من سواه ، الأمر الذي يمكنه من تقدير نفسه وإعلاء شأنها على الآخرين . الانسان ، مهما بلغ الانحطاط به ، لا يحرم نفسه ابداً من لذة الشعور بأنه أقوى من قريبه أو أذكى ، أو أفضل غذاء أيضاً على أقل تعديل وكان أريستيد كوفالدا يسيء استعمال هذه اللذة ولا يحرم نفسه منها ، بالرغم من الاستياء العظيم الذي يجتاح الفتيتة ، والكرة ، وسائر الذين كانوا بشراً ، هؤلاء الذين لم تكن هذه القضايا تعنيهم إلا قليلا جداً ، وفيما ندر من الأحيان

وبالمقابل ، كانت السياسة مفضلة لدى الجميع ، محبوبة منهم على حد سواء . فهم لا يتعبون قط من الحديث عن ضرورة الاستيلاء على الهند أو عن الوسائل التي يمكن إذلال بريطانيا بها ، والتغلب عليها ، فاذا تعرضوا إلى الأساليب التي يمكن استخدامها في سبيل استئصال شأفة اليهود عن وجه البسيطة لم يكن حديثهم أقل حماسة واندفاعاً ايضاً . . . وكان الفتيتة يتفوق دوماً في هذا المضمار ، فيبتدع مشاريع تذهل بوحشيتها وقسوتها ، حتى ليضطر الرئيس ، وهو يريد أن يكون المبرز في كل ميدان ابداً ، الى تجنب ذلك الموضوع والتنصل منه . وكان الحديث عن النساء يجري ، أحيان كثيرة ، بكل طيبة خاطر ، وبصورة تشمئز منها النفس وتنفر الروح ، فينبري معلم المدرسة للدفاع عنهن ، وتثور ثائرته اذا انحط الحديث إلى مستوى بذيء جداً .. وعندئذ يخضعون له ، لأنهم جميعاً يعتبرونه إنساناً غير عادي ، ولأنهم يستدينون منه ـ في أيام السبت ـ ما كسبه من المال خلال الاسبوع .

كان يتمتع ، على أية حال ، بامتيازات لا حصر لها ، فلا يصطدم أحد بـه في المناسبات الكثيرة التي تختتم أحاديثها بمعركة عامة حامية الوطيس ... وكان يحق لـه أن يصطحب النساء إلى المأوى ، الحق الذي لم يكن أحد سواه يحظى به ، لأن الرئيس يحذر الجميع ويهددهم قائلا :

ـ أقبل أناثاً عندي ! الاناث ، والتجار والفلسفة . . أمور ثلاثة كانت السبب في سائر مصائبي . سوف أضرب بقسوة اذا رأيت أحداً يصطحب بامرأة إلى هنا . سوف أضرب المرأة أيضاً أما من أجل الفلسفة ، فاني أدق العنق !

إنه يستطيع حقاً أن يدق الاعناق ، فقوته هائلة جبروتية بالرغم من شيخوخته . ثم إن مارتيانوف ينضم إليه في كل مرة يقاتل فيها ، فلا تكاد المعركة العامة تنفجر حتى يقف ظهراً لظهر مع كوفالدا ، صامتاً مفجعاً ، شبيهاً بنصب جنائزي ، فيشكل كلاهما بذلك آلة تنزل الدمار في كل مكان ، دون أن تكون ، هي نفسها ، عرضة للدمار أبداً . .

وفي ذات يوم ، قفز سيمستوف دون أدنى سبب أو سابق إنذار ـ وكان ثملاً ـ على رأس معلم المدرسة ، وانتزع منه خصلة من الشعر .. وما أسرع أن طرحه كوفالدا على الأرض بضربة واحدة من قبضة يده أصابه بها في صدره ، فظل ذلك البائس فاقداً وعيه طوال نصف ساعة حتى إذا ما استرد شعوره أجبره كوفالدا على التهام الشعر الذي انتزعه رأس معلم المدرسة ، ففعل سيمستوف ذلك خوفاً من ان ينال من الضرب ما يؤدي بحياته .

وفضلا عن قراءة الصحف ، والاحاديث ، والمشاجرات ، كان أهل المأوى يتسلون أيضاً بلعب الورق .. كانوا يلعبون دون مارتيانوف على الدوام فهو لا يلعب دون أن يلجأ الى الغش والخداع . . . ولقد اعترف بعد أن أمسكوه في الجرم المشهود عدة مرات ، قائلاً بكل بساطة وصراحة :

ـ لا أستطيع الامتناع من الغش .. تلك عادة عندي !

فقال الشماس تاراس مؤكداً :

ـ ذلك يحدث كثيراً ... لقد اعتدت أن أضرب شماستي يوم الأحد بعد

خدمة القداس . حسناً ، هل تصدقون ذلك ؟ عندما ماتت . . راح ضجر هائل يتأكلني يوم الأحـد ، ضجر فوق عادي في الحقيقة . . قضيت الأحـد الأول . . . إن الأمور ليست على ما يرام ! وجاء أحـد آخر استطعت أن أوقاومه ! وفي الأحد الثالث ، اطمت طباختي . . . فغضبت . . وانثالت تجمجم : « سوف اشتكي أمري إلى حاكم الصلح» تصوروا وضعي جيداً ! وفي الأحد الرابع ، انهلت عليها وكأنها امرأتي تماماً . . وبعد ذلك نقدتها عشر روبلات رنانة ، ورحت أضربها ، مثلما كنت افعل بشماستي ، حتى اليوم الذي تزوجت فيه من جديد . . . فقاطعه الفتيتة دون إبطاء :

— أيها الشماس، أنت تكذب ! كيف أمكن لك أن تتزوج مرة ثانية

— إيه ؟ ولكن ذلك بسيط للغاية ! . . . لقد استغنيت عن الزواج . . كانت تعني بأمور بيتي !

وسأله معلم المدرسة :

— هل رزقت أولاداً ؟

— خمس قطع . . . غرق أحدهم . . . البكر . . . كان صبياً مضحكاً حقاً ! ومات اثنان بالخناق . . . وتزوجت بنت لست أدري من أي طالب ولحقت به إلى سيبيريا ، أما الأخير فأراد أن يتعلم ، ومات في بطرسبرج مسلولاً . . . كما يقولون . أواه ! نعم . . . كانوا خمسة . . . وإلا ! . . . نحن رجال الأكليروس ، إن تربتنا خصبة للغاية !

وراح يوضح السبب في هذا الخصب مثيراً عاصفة هائلة من الضحك بايضاحاته . ما أن تعب الحاضرون من الضحك حتى تذكر ألكسي مكسيموفيتش سيمستوف أنه رزق بدوره ابنة في غابر الزمن .

— ليدكا ، كانت تدعى . . . ولكم كانت كبيره !

كان ذلك كل ما يتذكره دون أدنى ريب لأنه أجال باصرتيه فيما

حوله وابتسم معتذراً و . . . سكت !

كان هؤلاء القوم لاينبشون ماضيهم فيما بينهم إلا قليلاً جداً ، ولا يوقظون ذكراه إلا في الندرى .. فان فعلوا ، لم يحيوا منه إلا الخطوطه الرئيسيه فقط ، وبنقمة أكثر أو أقل سخرية أيضاً . وربما كانت تلك الطريقة في اعتبار الماضي معقولة جداً ، لأن الذاكرة ، بالنسبة إلي معظم الناس ، تضعف طاقة الوقت الراهن وتقضي عليها ، وتبعثر الأمل في المستقبل القادم وتدمره .



٤

وفي أيام الخريف الماطرة . الرمادية القارسة ، كان سائر هؤلاء الذين كانوا بشراً يجتمعون في خان فافيلوف القريب حيث يعرفهم الجميع حق المعرفة ، ويرهبون جانبهم نوعاً ما في الوقت ذاته ، على اعتبارهم لصوصاً يحبون الخصام والقتال كثيراً ، ولكن يحترمونهم على أية حال ويستمعوا إليهم بانتباه وخضوع ، على اعتبارهم أذكياء ثاقبي البصيرة جداً . كان خان فافيلوف ندوة الطريق القائمة في مدخل المدينة ، وكان أولئك الذين كانوا بشراً دماغ هذه الندوة وقلبها النابض .

كان الخان يعجّ بالناس ويضجّ في أمسيات السبت ، ومنذ الصباح حتى المساء في أيام الآحاد ، والذين كانوا بشراً ينزلون فيه على الرحب والسعة .. يحملون معهم لسكان هذا الشارع الذين أرهقهم الشقاء والبؤس الدائمان وأحنيا هاماتهم تحت وطأتها أسلوبهم في التفكير . هذا الأسلوب الحاوي في طبيعته ما يخفف عبء الوجود عن كاهل أولئك القوم المسحوقين ، المتعبين من الركض خلف كسرة الخبز ، الشبيهين في العربدة بالقاطنين في مأوى كوفالدا ، والمطرودين مثلهم من أعالي المدينة .. كانت معرفة هؤلاء الرجال بالحديث عن كل شيء ، واستصغارهم كل شيء ، بالاضافة الى آرائهم الجريئة ، وحديثهم القاسي القارص ، وانعدام الخوف من نفوسهم تجاه كل ما كان الشارع بأسره يرهبه ويخشاه ، وإقدامهم العابث ، المجرّد عن المبالاة بكل ما يتزاحم البشر عليه عادة ويتقاتلون — كان كل هذا يرضي أولئك القوم ويبهجهم بكل تأكيد ، بل لم يكن

في الامكان إلا أن يرضيهم ويبهجهم . . . ثم إن الجميع تقريباً يعرفون القوانين ، ويستطيعون أن يقدموا مختلف النصائح الضرورية ، وأن يكتبوا عريضة مرفوعة للسلطات ، وأن يساعدوا الآخرين دون حياء أو خجل على الاختلاس والسرقة ... وكانوا يتقاضون أجراً على ذلك كله ، يتقاضون خمراً أو إعجاباً بمواهبهم العديدة ، وإطراءً متملقاً في كل الأحيان ...

وكان الشارع ينقسم ، حسب ميوله ، إلى حزبين متساويين يرى الأول منهما أن الرئيس رجل أعظم من معلم المدرسة وأنبغ ، « محارب أصيل ، عظيم الشجاعة ، فائق الذكاء » على حد تعبيرهم ؛ بينا يرى الحزب الثاني، في قناعة مطلقة لا يتطرق الارتياب إليها ، أن معلم المدرسة يتفوق على كوفالدا في كل مضمار . .وكان عبّاد كوفالدا ينتسبون جميعاً إلى البورجوازية الصغيرة ، فهم أولئك الذين اشتهروا بعربدتهم المنقطعة النظير أولاً ، ومن ثم اللصوص والسقطة ، وأخيراً أولئك الذين لايعرفون الخوف من الدرب التي يرتادها المرء وهو يحمل كيس المتسول ، والتي تؤدي إلى السجن في ختام المسير ... أما الذين يقدرون معلم المدرسة فقوم أكثر اعتزازاً بأنفسهم، من أولئك الذين يترجون دوماً في شيء غامض حتى بالنسبة إليهم ، أولئك الذين ينتظرون شيئاً ما ، ويعنون أبداً بشيء ما دون انقطاع ، ولكن بطونهم لاتمتلىء أو تشبع إلا فيما ندر من الآحايين . .

وقد اتضحت ميزة علاقات كوفادا ومعلم المدرسة بأهالي الشارع بصورة جلية بعد المغامرة التالية .. كان النقاش يدور ، ذات يوم ، في الخان حول قرار المجلس البلدي الذي يجبر سكان الضاحية على « إملاء الحفر الموحلة والمجاري ، ولكن ليس بأوساخ الحيوانات البيتية أو جثثها وأشلائها بل بالحصي والأنقاض التي يمكن الحصول عليها من بعض ورشات البناء » .

— انبرى موكي أنيسيموف ، وهو رجل يكسب حياته من بيع بعض أنواع الفطائر التي تصنعها زوجه ، يعلن بصوت باك مؤثر :

— من أين تريدونني أن أحصل عليها ، هذه الأنقاض الشيطانية ؟ أنا الذي أردت طوال حياتي أن أبني لنفسي عش زرزور أبيت فيه، ولم أقو حتى اليوم أن أشرع في بنائه !

ورأى الرئيس أن من واجبه إعطاء رأيه في الموضوع ، فضرب المائدة بقبضة يده مثيراً ضوضاء عظيمة كي يجلب الانتباه إليه ، وقال :

— كيف السبيل إلى الحصول على الحصى أو الأنقاض ؟ أخرجوا ، يا أولادي ، أنتم جميعاً مهما بلغ عددكم إلى الشارع ، إذهبوا إلى المدينة واهدموا بناء المحافظة ... إنه لايصلح لشيء آخر لكثرة ما أكل الدهر عليه وشرب... وهكذا فانكم تساهمون ، بصورة مضاعفة ، في تزيين المدينة ، فتجعلون شارعكم لائقاً ، كما تجبرون المسؤولين على بناء محافظة جديدة ... ويمكن أن تأخذوا الخيل اللازمة لنقل الحصى من عند المحافظ الكريم ، كما يمكنكم أن تسوقوا آنساته الثلاث أيضاً ... إنهن فتيات بنيتهن أصلح ما تكون للجر ... وإلا . . . أردموا دار يهوذا بيتونيكوف القديمة ، وارصفوا الطريق بألواحها الخشبية .. وبالمناسبة ياموكي ، فاني أعرف بماذا أشعلت زوجتك الفرن اليوم كي تطبخ فطائرك ... لقد أشعلته بمصاريع النافذة الثانية من دار يهوذا ، وبالألواح الخشبية التي تشكل درجتي عتبته . .

وبعد ما ضحك الحاضرون ما شاؤوا لهـذا الاقتراح ، وسخروا ما استطاعوا في موضوعه ، سأل الاخصائي بزراعة الحدائق بافلوجين ، وهو رجل كثير الرزانة :

— وعلى أية حال ، ياسيدي الرئيس كيف السبيل إلى تحقيق ذلك؟ فانز .. ما هو قرارك الأخير ؟

— أنا ؟ البقاء دون أدنى حركة ، لا من الاقدام ولا من الأيدي ! أليست الأمطار هي التي تحفر الطريق ؟ حسناً ! فلتحفره ما شاء لها هواها !

-- إن بعض الدور تكاد أن تسقط ...

-- لا تضايقوها ، فلتسقط ! إذا سقطت ..فلننتزع من المدينة مدداً . وإذا لم ترسل المدد لنا ... فلنرفع دعوى عليها .. هذه المياه ، من أين هي تسيل ؟ من المدينة ؟ إذن ، فالمدينة هي المخطئة . وهي السبب في دمار المنازل وسقوطها ..

-- ولكنهم سوف يجيبون : « إن المياه تنشأ عن الأمطار ... » .

-- ومع ذلك فان البيوت في المدينة لا تتدحرج ؟ ما ؟ المدينة تسلخ جلودكم كي تحصّل الضرائب من جيوبكم ، فاذا ما حان أوان مناقشة حقوقكم ... فهي لا تسمح لكم عندئذ بالتصويت ! إنها تدمّر حياتكم وخيركم ... ومع ذلك فانها تجبركم ، أنتم ، على تحمّل نفقات الاصلاح والترميم ! ألا فانهالوا عليها من كل حدب وصوب إذن !..

واقتنع نصف سكان الشارع بأقوال كوفالدا الجذرية المعقولة ،وقرروا أن ينتظروا اليوم الذي تأتي الأمطار فيه على الأكواخ في حيّهم وتضع لوجودها حداً ...

أما القوم العاقلون ، المسالمون ، فقد وجدوا في شخص معلم المدرسة إنساناً مثقفاً حرّر لهم عرضاً رائعاً مقنعاً لمتاعبهم رفعوه إلى المجلس البلدي .

كان قد رفض تنفيذ قرار المجلس معللا في ذلك الكتاب بصورة متينة جداً اضطر المجلس معها إلى الخضوع ، فأعطي الحي الحقّ بالاستفادة من الأنقاض الباقية من عمليات ترميم الثكنة ، كما نال أهله خمسة جياد من مصلحة الاطفاء انقل الحصى اللازم ... والأكثر من ذلك أن المجلس اعترف بضرورة تمديد قسطل كبير على طول الطريق لجريان المياه فيه . وطبيعي أن يمنح هذا النجاح ، وأمور عديدة أخرى ، شعبية عظيمة لمعلم المدرسة في الحي ، فكان يحرر الطلبات المختلفة ، وينشر ملاحظات في الصحف ، كما حدث مثلا عندما شاهد زبائن فافيلوف أن أسماك الخان

وأطعمته الأخرى مشبوهة ؛ فلم يمض يومان حتى كان فافيلوف يعترف علناً ، وهو يقف أمام مكتبه في ردهة فندقه والصحيفة منشورة بين يديه:

— هـذا صحيح ... وليس لدي ما أقول ! الحقيقة أني اشتريت أسماكاً ملطخة بالأصفر ، أسماكاً لم تكن كثيرة الجودة .. والملفوف .. ذلك صحيح أيضاً ! لقد أهمل أمره بعض الزمن وناله النسيان .. طبيعي أن يرغب كل إنسان في إدخال أكبر عدد ممكن من القروش الكبيرة إلى جيبه ... حسناً ، وماذا بعد ذلك ؟ لقد حدث العكس تماماً .. تطاولت على جيوب الآخرين ، ولكن رجلا ذكياً جلب العار علي بسبب طمعي ... لقد تعادلنا !

ولقد تركت هذه الندامة أفضل الأثر في الرأي العام في ذلك الشارع القائم في مدخل المدينـة ، وسمحت لفافيلوف بأن يطعم زبائنه الأسماك والملفوف جميعاً ، فاذا هذا الرأي العام الطيب يتبل كل شيء بانطباعاته الرفيعة ، ويبتلعه دون أن يلقي إليه بالاً ... وكان كل ذلك أمراً على غاية من الخطورة ، لأنه لم يضاعف من نفوذ معلم المدرسة فحسب ،بل أطلع سكان الحي أيضاً على قوة الكلمة المطبوعة والمنشورة على الملأ ...

وفي بعض الأحايين ، كان معلم المدرسة يلقي محاضرات عن المناقب العملية ، فيقول موجهاً الحديث إلى الدهان ياشكاتورين :

— لقد ... رأيت ، ياياكوف ، كيف ضربت امرأتك ..

كان ياشكا قـد تناول حتى الآن كأسين من بنت العنب ، فهو إذن فريسة مزاج شيطاني للغايـة .. وسرعان ما تتطلع سائر الانظـار إليه أملا في ارتكابه حماقة على طريقته الخاصة ، ويخيم السكون في الخان ثقيلا مرهقاً ...

ويسأل ياشكا :

— هل رأيت ؟ حسناً ، هل أعجبك ذلك ؟

ويضحك الحاضرون في اعتدال ، بينا يجيب معلم المدرسة :

-- كلا ، ذلك لم يعجبني !

إن لهجته رزينة مهيبة تضطر الحاضرين إلى السكوت رغم أنوفهم .

ويقول ياشكا في ازدراء ، مدركاً سلفاً أن معلم المدرسة سيغلبه على أمره :

-- يبدو لي ، على أية حال ، أني أسأت إلى نفسي كفاية ! لقد نالت زوجتي نصيبها ، وهي لن تنهض اليوم من فراشها ...

ويرسم معلم المدرسة باصبعه بعض الصور على المائدة ، ثم يقول وهو يتأمل ما رسمت إصبعه :

-- هل ترى ، يا ياكوف ، لماذا لا يعجبني ذلك ؟ فلنحلل جيداً ماذا أنت فاعله ، وماذا يمكن أن ننتظر من جراء ذلك ! زوجتك حبلى ، ولقد ضربتها بالأمس على البطن والخاصرتين . اذن فأنت لم تضرب المرأة وحدها ، بل ضربت الجنين أيضاً . كان يمكن أن تقتله وتقضي عليه ، وعندئذ فقد تموت زوجتك ساعة الاجهاض ، أو تصاب بالمرض بعد ذلك . . وإن زوجة مريضة لأمر غير مرغوب فيه ، وهو يكلف عناء كثيراً ، ويكلف مالاً غير قليل أيضاً ، مادامت الأمراض تتطلب أدوية . . والأدوية تتطلب المال ! -- وإذا أسعدت ولم يمت الطفل ، فانه سيكون مؤوفاً بكل تأكيد ، وربما كان مشوه الخلقة والهيئة أيضاً ، أحدب ، أو معوجاً ، أو اي شيء آخر ! . وإذن ، فهو لن يكون صالحاً للعمل .. ولكن صيرورته عاملاً قضية على جانب عظيم في الخطورة بالنسبة اليك ... فلنفترض أنه ولد مريضاً فقط ! ذلك وحده أمر سيء ، لأنه سيحتجز الأم في الدار ، ويتطلب علاجاً أيضاً . هل ترى الآن كل ما تدبره لنفسك بجنونك ذلك ؟ إن الذين يحيون من عمل أيديهم يجب أن يولدوا أصحاء سالمين ، وأن ينجبوا للعالم أبناء أصحاء سالمين ... أصحيح ما أقول ؟

فيوافق الرأي العام مؤكدا :

— صحيح !

فيقول ياشكا ، وقد اضطرب وتبلبل أمام اللوحة التي رسمها معلم المدرسة :

— حسناً ، فلنأمل أن ذالك . . . ربما . . لن يحدث أبداً ! إنها متينة البنيان ، وليس من خطر في الوصول إلى الجنين من خلالها فيما أظن . ذالك أن تلك اللعينة مثل داء الجرب ... مهما فعلت ... فهي تأخذ تقرضني كما يقرض الحديد الصدأ !

ويعود صوت معلم المدرسة الهادىء المتفكر يقول من جديد :

— إني أفهم ، يا ياكوف ، أنك لاتستطيع إلا أن تضرب زوجتك ... وأن لديك أسباباً كثيرة كي تفعل هذا . . . ولكن السبب في ضربك امرأتك دون حذر على هذا الغرار ليس أخلاق امرأتك نفسها . إنه بالأحرى مجمل وجودك الكئيب ، الطافح بالظلمات .

ويهتف ياكوف :

— حقاً ! إن هذا صحيح تماماً ، وربي ! نحن نعيش في الحقيقة في قلب الظلمات ، وكأننا في جيب منظف المداخن .

— أنت ناقم على مجمل وجودك ، ولكن زوجتك هي التي تتحمل عواقب هذه النقمة . وهي الكائن الأقرب إليك بالاضافة . وإنها لتقاسي ذالك دون أن تكون أذنبت تجاهك ، بل لأنك أقوى منها فقط ! إنها دوماً هناك في متناول يدك ولاتستطيع سبيلاً إلى الافلات منك ... هل ترى مبلغ كل هذا من ... السخف ؟

— إن الأمر هكذا ... فليأخذه الشيطان ! ماذا تريدني أن أفعل ؟ أفلست إنساناً أنا أيضاً ؟

— تلك هي القضية ! إنك إنسان حقاً ! وإني لأريد أن أقول لك هذا فقط . . . فيما يتعلق بضربها . . أضربها إن كنت لا تستطيع سبيلاً

إلى غير ذلك ... ولكن اضربها في حذر وانتباه ، وتذكر دوماً أنك تسيىء إلى صحتها ، أو صحة الجنين الـــذي في أحشائها ... يجب ، بصورة عامة ، ألا تضرب النساء الحاملات أبداً . . . على البطن ، والخاصرتين ، والصدر . أضرب على النقرة ، أو خـذ حبلاً و . . . عليك بالمناطق الرخوة .

انتهى الخطيب من محاضرته ، فانثالت عيناه القاتمتان ، الغائرتان عميقاً في محجريهما ، تشخصان إلى الجمهور الحاضر في ثبات ، وكأنهما تطلبان منه الصفح عن شيء ما ، أو تستجوبانه كمذنب أثيم .

أما الجمهور ، فيضطرب في ضوضاء . . . إن أخلاق هذا « الذي كان بشراً » قريبة من إدراكه ، أخلاق الحانة والبؤس جميعاً .

ــ حسناً ، أيها الأخ ياشكا ، هل فهمت ؟

ــ يا الله ! ثمة شيء من الصحة أحياناً ...

ويفهم ياكوف . . ليس من الحكمة في شيء أن يضرب المرء زوجته. ذلك يسيىء إليه شخصياً .

ويسكت ، مجيباً على دعابات الرفاق بابتسامـات مرتبكة حائرة . . .

ويقول بائع الفطائر موكي أنيسيموف :

ــ ومن ثم ، فلنرَ ما هي المرأة ... ؟ المرأة ... إنها صديق ، لو أردنا أن نسبر عميقاً غور الأمور . إنها مقيدة إليك . . . مقيدة بسلسلة إن صح التعبير وكلاكما معاً أشبه بمحكومين بالأشغال الشاقـــة . ولا بدّ لك من أن تسير وإياها بالخطا نفسها . فاذا لم تنجح .. فأنت تحس السلسلة إذن . . .

فيقول ياكوف :

ــ مهلاً ! ولكنك أنت أيضاً ... انت تضرب امرأتك ؟

ــ وهل قلت لك إني لا أضربها ! إني أضربها .. وليس من سبيل

آخر ... إني لن أنهال على الجدار بلكماتي مثلاً عندما ألا عود أطيق احتمالاً ...

فيعقب ياكوف قائلاً :

ــ تلك هي الحال معي أيضاً !

ــ وأي وجود هو وجودنا أيها الأصدقاء ، وجود ضيق ، خانق ، مرهق ! ولست تستطيع في أي مكان أن تنطلق على هواك .

ويقول رجل لطيف الدعابة ملتاً :

ــ حتى عندما تريد أن تضرب زوجتك !

وهكذا يثرثرون حتى ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى ينشب شجار عنيف فيما بينهم يثيره السكر ، أو النقمة التي تنفخها تلك الأحاديث في نفوسهم وتؤجج أوارها .

إن الغيث يهطل غزيراً خلف ألواح الزجاج ، والريح الجليدية تزمجر في وحشية وقسوة ... أما في الخان فالهواء ثقيل ، داخن ، لكن الجو حار خانق ، بينا هو في الخارج قذر ، بارد ، أسود حالك الظلام .. إن الريح تصفع المصاريع بعنف ، وكأنها تتحدى سائر هؤلاء الناس أن يخرجوا إليها ويجابهوها إن كانوا يجرأون ... تنذرهم بأنها ستبعثرهم على سطح البسيطة هباء منثوراً إن فعلوا ... وكان يعلو في زمجرتها ، من حين لآخر ، أنين مخنوق بائس ، ثم يتردد من خلفه ضحك رهيب باردالرنين... إن هذه الموسيقى تبعث في الذهن فكرة الشتاء الذي يطرق الأبواب ، فكرة أيامه اللعينة القصيرة الخالية من الشمس ، فكرة لياليه الطويلة القارسة التي لا تنتهي ؛ ومن ثم ضرورة الحصول على ثياب دافئة ، وضرورة تناول الكثير من الطعام أيضاً ... إن النوم لرديء منغص في هذه الليالي الشتائية اللامتناهية ، عندما يكون البطن خاوياً طاوياً على الجوع ... وهذا الشتاء يقترب .. إنه يقترب... كيف السبيل إلى الحياة؟

وتثير هذه التأملات غير المرحة عطشاً مضاعفاً في نفوس أهالي الحي، وتتكاثر التأوهات التي يصعدونها أثناء الأحاديث التي يلقيهـا أولئك الذين كانوا بشراً ، وكذلك تتكاثر الغضون التي تحفر وجوههم أيضاً ...وتزداد الأصوات اختناقاً ، ويروح الفكر المتثاقل المتعب يعزل الناس بعضهم عن بعض ويباعد فيما بينهم . ومن ثم تنفجر بينهم ، على حين غرة ، نقمة حيوانية ويستيقظ اليأس في قلوبهم ، فاذا هم قزم قد سدت كل المنافذفي وجوههم، أعياهم مصيرهم القاسي وأرهقهم ، يشعرون قرب ذلك العدو الرهيب الذي أحال وجودهم عبثاً طويـلاً معذباً أليماً ... ولكن ذلك العدو كان ممتنعاً على إدراكهم ـ كان مجهولاً لا تبلغه أبصارهم أبداً .

وعندئذ يتقاتلون ... يتقاتلون بوحشية وقسوة لا تعرفان الرحمـة أو الشفقة ، ومن ثم يتصالحون ، ويعودون فيسكرون من جديد ، يشربون كل ما يمكن أن يقبله فافيلوف غير المتزمت من رهونات .

وهكذا يقضون ، في جنون مسعر قاتم ، في عذاب يعتصر القلوب منهم، في جهل بالخاتمة التي يمكن أن ينتهي إليها هذا الوجود القذر ، أيام الخريف القاسية المرهقة ، في انتظار أيام الشتاء التي تفوقها قسوة ، وتتجاوزها إرهاقاً.

وفي مثل هذه الظروف ، يمد كوفالدا إليهم يد المعونة بفلسفته :

-- لا تيأسوا ولا تنقموا ، أيها الأخوة ! إن لـكل شيء نهاية .. وتلك هي ميزة الحياة الرئيسية .. إن الشتاء سيولي ، واسوف يعود الصيف من جديد .. ياللطقس الجميل ! حيث يجد حتى العصفور الدوري ، كما يقال ، خمرة في متناول يده !

ولكن هذه الأحاديث لم تكن تنجح دوماً .. إن جرعة من أكثر المياه نقاءً وطهراً لا يمكن أن تشبع المتضور جوعاً وتسد رمقه .

وكان الشماس تاراس يجرب بدوره أن يسلي الجمهور بأغانيه وأقاصيصه. وكان يبلغ من النجاح أضعاف كوفالدا ، بل إن جهوده كانت تطلق

أحياناً في جوف ذلك الخان مرحاً يائساً ، فيروح الحاضرون ينشدون ، ويرقصون ، ويضحكون ملء أشداقهم ، يبدون كالمجانين طوال ساعات عديدة . ومن ثم ...

ومن ثم كانوا يتهاوون من جديد في يأس حيواني ، فيجلسون قانطين إلى نوافذ الخان في هباب القناديل ودخان اللفائف ، واجمين ، كاسفي البال ، يتبادلون في كسل - من هنا وهناك - كلمات قليلة ، وهم يصغون إلى زمجرة الريح الظافرة ، ويفكرون كيف يستطيعون أن يسكروا بالخمرة ، أن يسكروا حتى يفقدوا الوعي تماماً ....

وكانوا جميعاً يبعثون النفور العميق والاشمئزاز الشديد في نفس كل واحد منهم ، وكل واحد منهم يغذي في سره حقداً على الجميع ، حقداً عديم المعنى والنفع والجدوى ...





القسم الثّاني

١

كل شيء نسبيٌ في هذه الحياة الدنيا ، ولا توجد حال سيئة إلا وتوجد أسوأ منها . . .

في ذات يوم من أوائل إيلول ، والجو أصفى ما يكون ، كان الرئيس كوفالدا يقتعد ـ كعادته دوماً ـ كرسيه قرب باب الدار الكبيرة ، يتطلع إلى بناء الآجر الذي يرفعه التاجر بيتونيكوف الى جانب خان فافيلوف ، ويفكر ملياً ، يفكر في استغراق عظيم ..

كان بيتونيكوف ينوي أن يجعل من هذا البناء ، وصقلاته مابرحت تحتفُ به من كل حدب وصوب ، معملاً للشموع في المستقبل القريب وهذه فترة طويلة من الزمن قد انقضت ، وهو يضايق الرئيس ويثير نقمته ، إنْ بالصف الطويل من نوافذه التي ترمق صاحبنا بمحاجر فارغة قاتمة ، أو بتلك الشبكة العنكبوتية من الأخشاب التي تغلفه من قاعدته حتى سطحه بخيوطها وعراها ... كان أحمر اللون تماماً .. حتى ليقال انه صُبغ بالدماء القانية ـ أشبه مايكون بآلة وحشية لما تشرع في عملها بعد ، وإن فغرت منذ الآن صفاً من الحلوق العميقة الغور ، المفتوحة في شره ونهم ، المستعدة لابتلاع شيء ما ، ومضغه والتهامه . . وكان خان فافيلوف الرمادي اللون ، المبني من الخشب بسقفه المائل الذي يرتدي الطحلب الأخضر ، يستند إلى أحد جدران المصنع أشبه ما يكون بطفيلي ضخم يلتصق به ويمتصُ الغذاء منه .

كان الرئيس يفكر في أن العمران لن يلبث أن يصل سريعاً إلى مكان هذه الدار العتيقة ، فتُهدم القاعة عندئذ بالضرورة ، بحيث يضطر وقتئذ إلى البحث عن مسكن آخر يأوي إليه . . . ولكنه ، هو الرئيس ، لن يجد

مثل هذا المسكن الذي يقيم فيه حالياً مكاناً ملائماً ورخيصاً في وقت واحد... ذلك محزن حقاً ، فالمرء يأسف دوماً عندما يجبر على مغادرة مكان بنى فيه عشه آمناً مطمئناً ... ومع ذلك لامناص من الرحيل ، لأنه راق - بكل بساطة - لتاجر ما أن ينتج الشموع والصابون ... وكان الرئيس يشعر أنه إذا سنحت له الفرصة كي يفسد وجود هذا العدو وينغّص عيشه ، ولو لفترة قصيرة من الزمن ، فانه سيفعل ذلك إذن بلذة لاتعدلها أية لذة أخرى على الاطلاق .

بالأمس فقط قدم التاجر أيفان أندرييفيتش بيتونيكوف ، يرافقه ابنه وأحد المهندسين ، إلى ساحة المأوى وراحوا يقيسون أبعاد الساحة ، ويغرسون في كل مكان أعواداً صغيرة في الأرض ، لم يكد بيتونيكوف يرحل حتى أصدر الرئيس أوامره إلى النوء باقتلاعها والقائها بعيداً .

كان ذلك التاجر القصير الجاف ينتصب أمام عيني الرئيس بلباسه الطويل الذي يشبه - في وقت واحد - ثياب السهرة والبودديفكا[1] ، وقبعته المخملية العريضة الحفاف ، وحذائيه العاليين ، البراقين بالشمع اللامع . . وكان وجهه متغضناً بارز الوجنتين ، أشيب اللحية مدبّبها ، عالي الجبين الذي سطت عليه غضون عميقة كثيرة ، وتضوأت تحته عينان صغيرتان رماديتان ضيقتان ، تكاد أجفانهما ألا تنفرج ، وحدقتاهما تنبشان أبداً في كل مكان ... أما أنفه فحاد دقيق ، وأما فمه فصغير رقيق الشفتين .. كان مظهر التاجر ، بصورة عامة ، شرهاً في لين ، خبيثاً في شيء من الهيبة .

وقال الرئيس في امتعاض :

- أيها الابن اللعين لثعلب وخنزيرة !

وتذكر كلمات بيتونيكوف الأولى بخصوصه ...

---

(١) لباس روسي قومي (المترجان) .

جاء التاجر بصحبة أحد أعضاء المجلس البلدي وفي نيته أن يشتري الدار ، فما أن لاحظ الرئيس حتى سأل دليله ، في اللهجة السريعة النبرات التي يتحدثون بها في بلدته الأصلية كوستروما :

— أهذا السكير ... هو المستأجر عندكم ؟

ولقد انقضى على ذلك الحادث عام ونصف عام . ومنذ عام ونصف عام وهما يتنافسان في مضمار الاهانة والاذلال دون أن يغلب أحدهما الآخر أو يتفوق عليه .

وبالأمس أيضاً جرى بينهما تمرين بسيط في « الكلام المقنع » ، كما يسمي الرئيس أحاديثه مع التاجر ... لقد اقترب التاجر من الرئيس ، بعد أن ودّع المهندس ، وسأله وهو يشد بيده حافة قبعته بحيث لا يمكن تعيين معنى تلك الاشارة على وجه الدقة ، أيهدف منها إصلاح وضع القبعة أم إلقاء التحية :

— ها أنتذا جالس ؟

فأجاب الرئيس باللهجة نفسها :

— وأنت ، هل تسيّر الأمور ؟

وأعطى فكه السفلي حركة اهتزت لحيته لها ، بحيث يستطيع إنسان غير متزمت أن يعتبرها تحية ، كما يمكن ألا يجد فيها إلا الرغبة في نقل الغليون من زاوية الفم الواحدة إلى زاويته الأخرى .

— إن لدي مبلغاً لابأس به من المال ... وهذا يجعل الامور تسير .. والمال يريد أن نقحمه في الحياة ، وها أنذا أمنحه الحركة .

وكي يغيظ الرئيس قليلاً ، راح التاجر يغمز بعينه في خبث كثير . قال كوفالدا معلقاً على كلامه ، وهو يقاوم الشوق إلى رفس التاجر في بطنه :

— إذن فالروبل لا يخدمك أنت ، بل أنت الذي تخدمه !

ـ أفلست تجـد أن الأمرين سواء ؟.. كل شيء يسير على ما يرام به ، أريد أن أقول بالمال .. آه مثلاً ، بدونه ...

وتفحص التاجر الرئيس في إمعان ، وعلى محياه سيماء إشفاق كاذب وقـح ..

أما كوفالدا فقد انقبضت شفته العليا ، كاشفة عن أسنان متينة كأسنان الذئب المفترس .

ـ عندما يملك المرء الذكاء والوجدان ، ففي مقدوره الاستغناء عن المال إذن . والمال لا يأتي عادة إلا في اللحظة التي يأخذ الوجدان فيها بالفساد ... وكلما انحط الوجدان كلما كثر المال ..

ـ هذا صحيح .. ولكن هناك قوماً لا يملكون مالاً ولا وجداناً .

فسأل كوفالدا ، في طيبة قلب وسذاجة تامة :

ـ وهل كنت كذلك في شبابك ؟

إن أنف بيتونيكوف هو الذي يرتعش الآن ...وتنهد إيفان أندرييفيتش، وطرف بعينيه ومن ثم أجاب :

ـ أنا ، في شبابي ، يالطيف ! أي حمل كان عليَّ أن أرفع !

ـ إني أصدق ذلك !

ـ لقد اشتغلت ! يالطيف ، ما أكثر ما اشتغلت !

ـ نعم ، لقد اشتغلت بالناس حتى أبقيتهم على القش وحده !

ـ الناس مثلك ؟ النبلاء ؟ تفو ! إن هنالك عدداً لا بأس به تعلم بفضلي كيف يمد يديه باسم المسيح ...

فهتف كوفالدا بحدة :

ـ إذن فأنت لم تقتل ، بل كنت تنهب وتسلب فقط ؟

واخضر لون بيتونيكوف ، واقتنع بضرورة تبديل موضوع الحديث :

ـ إنك مضيف قليل الأدب ، تبقى جالساً ، وتترك زائرك واقفاً ...

ولكن كوفالدا أسرع يعطيه الاذن بالجلوس .

ـ إنه يستطيع أن يجلس أيضاً !

ـ لكن ، ليس هناك ما يجلس عليه .

ـ على الأرض ... إن الأرض تقبل كل القذارات .

فرد عليه بيتونيكوف بصوت هادىء ، بينا راحت عيناه تهرقان على الرئيس زعافاً بارداً :

ـ وإنك لأكبر برهان على ذلك ... ولكن يفضل أن أغادرك ، أيها الوقح !

وذهب مخلفاً لكوفالدا شعوراً لذيذاً بأن التاجر يخافه ويرهب جانبه ... لو لم يكن يخشاه حقاً ، لكان طرده من « القاعة » منذ زمن طويل . إنه لا يحتفظ به ، بكل تأكيد ، من أجل الروبلات الخمس التي يدفعها شهرياً . وتغمر الغبطة قلب الرئيس وهو يراقب ظهر بيتونيكوف المبتعد بخطاً بطيئة ، ويتعقبه بأنظاره ، وهو يدور حول مصنعه ، ويتسلقه ، ويتجول على الصقلات ، يتمنى من صميم نفسه لو يتعثر التاجر ويسقط من شاهق وتتحطم عظامه وتنطحن .. وما أكثر ما ابتدع حتى الآن من مشاهد طريفة وهو يتخيل سقوط بيتونيكوف ، ومختلف الجروح التي تثخن جسده ، وذلك في كل مرة يشاهد فيها كيف يتسلق الصقلات في مصنعه مثلما يتسلق العنكبوت شبكته . ولقد خيل إليه بالأمس أن لوحاً قد ارتعش ، على حين غرة ، تحت قدمي التاجر ، فهب عن مقعده في انفعال شديد ... ولكن شيئاً لم يعقب ذلك .

واليوم ينتصب هذا البناء الأحمر ، كعادته ، أمام عيني أريستيد كوفالدا وطيد الأساسات ، متين البنيان ، شديد الارتباط بالأرض فكأنه يمتص عصاراتها منذ الآن ، يلوح وكأنه يسخر من الرئيس ، وهو يضحك ملء أشداق ثقوب جدرانه الفارغة ضحكاً بارداً ، كئيباً ، قاسياً . وكانت

الشمس تسكب أشعتها عليه بسخاء مثلما تسكبها على منازل الشارع الشوهاء دون تفريق .

هتف الرئيس في نفسه ، وهو يقيس بأبصاره جدار المعمل :

— وإذا ؟ .. آه ! يا الله ! ولكن إذا .. ؟

ودب النشاط فيه بغتة ، وأثارت الفكرة الطارئة على ذهنه حماسة منقطعة النظير في عروقه ... فهب في حمية واندفاع ، وانطلق مسرعاً نحو خان فافيلوف ، وهو يبتسم ويغمغم بشيء ما في لحيته .

واستقبله فافيلوف واقفاً وراء مقصفه ، بدعابة لطيفة :

— أهلاً وسهلاً بصاحب السعادة !

كان متوسط القامة ، أصلع الرأس الذي يتوجه إكليل من الشعر الأشيب المتموج ، حليق الوجنتين ، منتصب الشاربين إلى الأمام ، فكأنهما فرشاتان معدتان لتنظيف الأسنان ، مستقيم العود ، محكم الحركات ، يتعطف سترة من الجلد الملطخ تفضح سائر حركاته ماضيه العسكري كصف ضابط.

سأل كوفالدا بصورة مباغتة :

— ييجور ! ألديك صك الملكية وتصميم دارك ؟

— نعم .

وضيق فافيلوف ، متشككاً ، فرجة عينيه المحتالتين ، وسلطها على وجه الرئيس حيث كان يميز شيئاً مشبعاً بالوقاحة .

صاح الرئيس ، وهو يضرب المقصف بقبضة يده :

— أطلعني عليها !

وجلس في أقرب مقعد إليه ...

سأل فافيلوف ، وقد حزم أمره على الحذر تجاه هياج كوفالدا وانفعاله:

— ولماذا ؟

— أيها الأبله ! هاتها سريعاً .

قطب فافيلوف جبينه ، ورفع نحو السقف عينين مبتهلتين :

— أين هي ياترى ، هذه الأوراق اللعينة ؟

لم يكن في استطاعة السقف طبعاً أن يفتح عليه بأية معلومات عن تلك الأوراق ... وعندئذ ثبت صف الضابط السابق عينيه في بطنه ، وطفق ينقر قصدير المقصف وعلى صفحة وجهه سيماء من شغل ـ حالماً ـ بأمر على جانب عظيم من الخطورة والأهمية

صاح الرئيس الذي لم يكن يحبه ، ففي اعتقاده أنه أليق بجندي قديم أن يمتهن اللصوصية من أن يكون خماراً :

— كفاك تكشر هكذا !

— لكن ، يا أريستيد فوميتش . لقد تذكرت الآن .. لا شك أنها بقيت في القصر العدلي ، عندما ذهبت إلى هناك في سبيل استملاك ...

— ييجوركا ، دعك من هذا ! لمن مصلحتك أن تطلعني في هذه اللحظة بالذات على التصميم ، وصك البيع ، وكل ما هناك من أوراق أخرى.. قد تربح من ذلك مايقارب مائة روبل . هل فهمت ؟

لم يفهم فافيلوف شيئاً ... ولكن الرئيس تحدث بلهجة آمر لا يمكن أن تعدى أوامره ، وبجد فائق ، حتى إن عيني صف الضابط القديم اشتعلتا بلهيب الفضول ونيرانه ، فقال إنه سيرى إن كانت هذه الأوراق باقية في خزانته ، وخرج من الباب خلف المقصف ، ثم رجع بعد عشر دقائق تقريباً يحمل الأوراق في يده . تملو محياه الغليظ سيماء الدهشة الشديدة والذهول العميق .

— ياعجباً ! هذه هي في الدار ، هذه الحيوانات القذرة !

فأضاف كوفالدا متعمداً أن يخزيه :

— دعك من هذا الهراء ، أيها المهرج الدنيء ! ولقد كنت جندياً ! وانتزع من يديه حقيبة مصنوعة من القماش تحوي صكاً أزرق اللون ،

ومن ثم نشر الاوراق وطفق يقرأ ، يقرأ في تدقيق فائق وإمعان شديد ، مؤرثاً فضول فافيلوف أكثر فأكثر ، وهو يزمجر في الوقت نفسه بطريقة ذات مغزى ... وهذا هو أخيراً ينهض وقد لاح العزم في سائر تقاطيعه ، ويتجه نحو الباب تاركاً الأوراق على المقصف ، وهو يصيح بفافيلوف :

ــ مهلاً ! لا ترفعها !

جمع فافيلوف الأوراق ، وألقى بها في جرّار النقود ، وأغلق عليها بالمفتاح ، وشد الجرار مرات عديدة ، وهو يغمغم : « إنها ههنا في حرز أمين ! » . ومن ثم حك جمجمته الصلعاء مفكراً ، وخرج على العتبة كي يرى الرئيس يقيس واجهة الخان وهو يعد خطراته ويطقطق بأصابعه .ثم يعود إلى قياساته من جديد ، مشغول البال ، ولكن راضي النفس منشرح القلب حتى الدرجة القصوى .

وتقلص محيا فافيلوف ، وتطاول ، ثم أضاء على حين غرة بفرح واغتباط عظيمين ، وعندما اقترب الرئيس منه هتف به :

ــ أريستيد فوميتش ! هل ذلك ممكن ؟

ــ هل رأيت ؟ بلى ، بلى ، ذلك ممكن ! لقد قرض من الارض متراً واحداً تقريباً ، هذا من الامام ، أما هناك في المؤخرة . فلسوف أرى...

ــ في المؤخرة ؟ واحد وعشرون متراً !

ــ حسناً ! هل فهمت ، يا وجه البلادة ؟

وهتف فافيلوف ، سعيداً متهللاً :

ــ كيف ، يا أريستيد فوميتش ! إن لك لعيناً ثاقبة ! إنك ترى حتى عمق مترين تحت الأرض !

وبعد دقائق قليلة كانا يجلسان ، الواحد مقابل الآخر ، في غرفة فافيلوف ، والرئيس يخاطب الخمار قائلاً ، وهو يبتلع الجعة بجرعات كبيرة :

ــ وهكذا فان جدار المعمل كله مبني على أرضك ، فالى المعمل دون

رحمة إذن .. سوف يأتي معلم المدرسة ، فنحرر استدعاء نرفعه إلى المحكمة. ولسوف نحدد قيمة الأضرار في حدها الأدنى ، كيلا ندفع كثيراً من أجل ضريبة الطوابع ، ولكنك ستطالب تهديم الحائط ... هذا ، أيها الابله ، هذا يدعى تعدياً على ملكية الغير ! وإنها لمغامرة رائعة بالنسبة إليك حقاً ! فليهدموا إذن ! وإن هدم مثل هذه الآلة ، ومن ثم التقهقر بها إلى الوراء . . هذا يكلف غالياً ! وماذا عن تسوية صلحية ؟ إزحمه إذن . يهوذا ذاك ، سوف نحسب ما يكلفه الهدم أدق حساب ، دون أن نسقط من تقديرنا قيمة الآجر المحطم ، وتكاليف الحفرة الضرورية للأسس الجديدة ... سوف نحسب كل شيء ! بل سوف نقدر قيمة الزمن أيضاً . حسناً ، فلنر يايهوذا ، أيها الرجل الصالح جداً ! ما قولك في ألفين من الروبلات؟

فغمغم فافيلوف ، قلقاً ، وهو يطرف بعينيه النهمتين اللتين تبرقان بحدة:

— لن يعطي !

— غير صحيح ! سوف يعطي ... حرك دماغك قليلاً . ماذا في استطاعته أن يفعل ؟ الهدم ؟ ولكن كن حــــذراً . يايبجوركا ! لا تتركـــه يحتال عليك ... سوف يجرب أن يشتريك . فلا تبع نفسك بثمن بخس ! سوف يخيفونك ... لا تخف ! إعتمد علينا !

كانت عينا الرئيس تلتهبان بفرح وحشي ؛ ومحياه ، الذي صبغه الهياج بالقرمز ، يتقلص في اختلاجات عنيفة متلاحقة ؛ راح يؤجج طمع الخمار ، حتى إذا أقنعه بالعمل في أسرع وقت ممكن غادر المكان ظافراً ، كاسراً بصورة لا تعرف إلى الرحمة سبيلاً ...



ما حلّ المساء حتى سرى خبر اكتشاف الرئيس بين سائر أولئك الذين كانوا بشراً ، فطفقوا يناقشون في حميّة سلوك بيتونيكوف المقبل ، يصوّرون بألوان حيّة دهشته وهياجه يوم يحمل إليه آذن المحكمة نسخة الدعوى... وكان الرئيس يجد نفسه بطلاً ، وكان سعيداً ، يشاركه جميع الناس من حوله سروره وغبطته . هذه كومة كبيرة من الأجساد القاتمة ، الملتفة بالأسمال البالية ، تتمدّد على طول الباحة وعرضها ، مثيرة ضوضاء صاخبة ، متهللة للحدث الجديد ، مهتاجة بشأنه حتى الدرجة القصوى . كان الجميع يعرفون التاجر بيتونيكوف ، فما أكثر ما شاهدوه عندما يمرّ في الطريق العامة لايعيرهم من انتباهه – وهو يطرف بعينيه – لاأكثر ولا أقــل مما يعير بقية الأنقاض المبعثرة في أرض الباحة في بيته العتيق . إن إحساساً من الرفاهية الغنية يتصاعد من شخصه بمجموعه ، فيضايقهم ويثير نقمتهم ، لا بل إن حذائيه أيضاً يلمعان ازدراءً بهم جميعاً ، مهما يكن عددهم ، على حدٍ سواء .. ولكن هـذا واحد منهم يوجه الآن ضربة قاسية إلى جيب ذلك التاجر وكرامته . أليس هذا عظيماً حقاً ؟

كان للشر جاذبية كبيرة على هؤلاء القوم ، فهو السلاح الوحيد الذي يلائم أيديهم وقواهم .. إن كلاً منهم يغذي في نفسه ، منذ زمن طويل ، شعوراً غامضاً ، نصف واع ؛ يغذي حقداً شديداً نحو سائر أولئك الناس الذين يطعمون جيداً ويرتدون شيئاً آخر غير الأسمال المهترئة ... وكان ذلك الشعور موجوداً في كل منهم ، في مراحل مختلفة من تطوره ، وهو الذي يوقظ عند هؤلاء الذين كانوا بشراً اهتماماً لاهباً بتلك الحرب المحتدم أوارها بين كوفالدا والتاجر بيتونيكوف .

وعاشت القاعة طوال خمسة عشر يوماً في ترقب الحوادث الجديدة . ولكن بيتونيكوف لم يظهر ، طوال هذه الفترة ، حتى ولا مرة واحدة في ورشة البناء ... وعرف أصحابنا أنه غائب عن المدينة ، وأنه لم يتسلم نسخة الدعوى بعد ، بينا كوفالدا يرعد طوال الوقت ويبرق ، ناقماً على أسلوب المحاكم المدنية في تبليغ الدعاوى والأحكام . وإني لأرتاب في أن إنساناً قد انتظر يوماً هذا التاجر بمثل ذلك التوتر وفراغ الصبر اللذين كانا يتآكلان هؤلاء المتشردين الحفاة في انتظاره .

كان الشماس تاراس ينشد ، ووجنته تعتمد يده الواحدة ، وهو يتطلع إلى الهضبة بنظرة أليمة تثير الضحك :

« إنه لا يأتي ، لا يأتي ، محبوبي ...

أواه ! ذلك أنه لا يحبني ! »

وفي النهاية ظهر بيتونيكوف ذات يوم ، قرب الأصيل ... قدم في عربة صغيرة متينة يسوقها ابنه ، وهو صبي متضرج الوجنتين ، يرتدي معطفاً طويلاً مخططاً على شكل مربعات ، ويغطي عينية بنظارتين داخنتين . . . وربطا عنان الحصان بالصقلات ، ومن ثم تناول الابن من جيبه مقياساً قدم طرفه إلى أبيه ، وشرعا يقيسان الأرض ، عابسين صامتين .

هتف الرئيس ظافراً :

— بخ !

واقترب سائر الموجودين في القاعة من الباب وأسفوا إليهما أنظارهم ، وهم يعبرون بصوت مرتفع عن آرائهم فيما يجري أمامهم ..

قال الرئيس مشفقاً ، باعثاً في أركان حربه عاصفـــة من الضحك ، ومثيراً سلسلة من الملاحظات الاخرى المماثلة لأقواله :

— يا لعادة السرقة ! إن الانسان يسرق حتى سهواً أحياناً ، وقلما يغامر بخسارة تفوق مقدار ما يسلبه .

صاح بيتونيكوف أخيراً ، وهو يهبُّ منتصباً تحت سياط تلك الكلمات:

ــ هيْ ، ياصغيري ! انتبه ! ماذا لو شكوتك إلى حاكم الصلح بسبب كلامك هذا ؟

فحذَّره الرئيس قائلاً :

ــ دون شهود . . لن يثمر ذلك شيئاً ! الابن لا يشهد لأبيه .

ــ حسناً ، سوف نرى ... إنك زعيم شجاع حقاً . ولكن سيأتي يوم ، مع ذلك ، يغلبونك فيه على أمرك ، أنت أيضاً !

وهدده بيتونيكوف بأصبعه ... بينما استغرق ابنه في حساباته هادئاً ساكناً لا يلقي بالاً إلى هذه الجماعة الصغيرة من الرجال القاتمين الذين يسخرون بخبث من أبيه ويهزأون به ... بل إنه لم يلقِ نظرة واحدة في اتجاههم أيضاً .

قال الفتيتة الذي راقب بدقة تامة ، منذ البدء ، أعمال بيتونيكوف الابن وحركاته :

ــ إن العنكبوت الصغير يعرف كيف يتمالك نفسه !

وبعد أن أخذ إيفان أندريفيتش سائر القياسات الضرورية ، امتعض وجهه ، فصعد إلى عربته دون أن يقول شيئاً وانطلق بها في طريق العودة ، بينما اتجه ابنه بخطاً ثابتة إلى خان فافيلوف واختفى فيه ...

قال كوفالدا :

ــ آه ! آه ! هذا لص صغير قوي الشكيمة ... نعم ! فلنرَ قليلاً ! ما الذي سيحدث ، يا تُرى ؟

فأعلن الفتيتة في يقين لا يتطرَّق الشك إليه :

ــ وماذا بعد ذلك ؟ إن بيتونيكوف الصغير سيبتاع العجوز ييجور فافيلوف .

وطقطق بلسانه ، بينما علت محياه دلائل الرضى التام ...

سأل كوفالدا بقسوة :

ــ ولعل هذا يُفرحك ؟

فأوضح الفتيتة متهللاً ، وهو يطرف بعينيه ويفرك يديه :

ــ يسرني أن أرى كيف لا تتحقق حسابات الناس !

فبصق الرئيس بازدراء ولم يقل شيئاً ، بينا ظل الجميع وقوفاً عند مدخل الدار نصف الخربة ، صامتين ، يتطلعون إلى باب الخان في انتظار ولهفة ... وانقضت ساعة ونيف على هذا الانتظار الأخرس ، ومن ثم فتح باب الخان ، وخرج بيتونيكوف منه . هادئاً مثلما دخل ، وتوقف لحظة قصيرة عند العتبة حيث عطس ورفع ياقة معطفه ، وألقى نظرة سريعة على الأشخاص الذين يراقبونه ، ومن ثم عاود المسير ، يصعد الدرب في اتجاه المدينة ...

ورافقه الرئيس بانظاره ، ومن ثم ابتسم في مرارة مخاطباً الفتيتة :

ــ لعلك على حق ، يا ابن العقرب والابتزاق ! إنك تشمّ كل ما هو دون ... نعم ... إنك تستطيع ، من مجرد التطلع إلى رأس هذا الحيوان الصغير القذر ، أن ترى أنه قد بلغ غايته . كم ابتز ييجوركا منها ؟ لا ريب أنه ابتز شيئاً ، فهو من جنسها ... لقد فعل ! فلتحل اللعنة علي ! أنا الذي هيأت ذلك له ... إن فهم حماقتي ليصعب عليّ جداً . بلى ، الحياة تناهضنا ، يا أخوتي الرعاع ! وحتى عندما تبصقون في وجه قريبكم ، فان البصقة تعود فتنصب في عيونكم .

وتطلع الرئيس المحترم ، وقد حملت تلك الادانة بعض العزاء إلى فؤاده ، صوب أركان حربه ... كانت الخيبة بادية على الجميع ، لأنهم أدركوا جميعاً أن ما جرى بين فافيلوف وبيتونيكوف لم يتم على الصورة التي كانوا يأملون ، الأمر

الذي أرسل النقمة في قلوب الرهط على حد سواء . إن تحقق المرء من عجزه عن صنع الشر لأشد إيلاماً له من إدراكه عجزه عن صنع الخير .. إن صنع الشر لأمر بسيط جداً ، يسير للغاية ، لا يتطلب شيئاً من العذاب .

قال الرئيس ، وهو يلقي نظرات قاتمة في اتجاه الخان :

— حسناً . . ما بالنا منتصبين هنا هكذا : لم يعد أمامنا ما ننتظره .. اللهم إلا إبريق خمرة سوف أعرف كيف انتزعه من ييجوركا ! أما فيما يتعلق بمسكننا السعيد الهادىء تحت سقف يهوذا . . فقد انتهى . سوف يطردنا دون إبطاء ، هذا اليهوذا ... إن لي شرف إعلان ذلك على كل فيلق جنود الثورة المغاوير المعهود أمره إليّ .

وأطلق النهاية ضحكة مظلمة ، فزمزم كرفالدا :

— أيها السجان ، ماذا أصابك ؟

— أين أذهب ؟

فتابع الرئيس حالاً ، وهو يتجه نحو القاعة :

— هذا ، ياصاح ، سؤال عظيم ... إن مصيرك سوف يجيب عليه .

وتحرك الذين كانوا بشراً خلفه في تكاسل .

قال الرئيس :

— سنشاهد الساعة الحاسمة قادمة ... وعندما يطردوننا ، سوف نفتش عن جحر جديد . وفي انتظار ذلك ، لا جدوى من إفساد الحياة بمثل هذه الهموم . إن الانسان يصبح أكثر فعالية في الساعات الحاسمة . . . ولو أننا نجعل من كل وجودنا ، كتلة واحدة ، ساعة حاسمة وحيدة ؛ لو أن الانسان يرتجف ، في كل ثانية ، من أجل بقاء جمجمته . يا الله ! إن الحياة كانت تصبح إذن أكثر حياة ، والبشر أكثر مدعاة للاهتمام !

وأضاف الفتية مبتسماً ثم ، وهو يعلق على الحديث السابق :

– يعني أنهم يتماسكون من الأعناق في حمية أعظم !

فصاح الرئيس متحدياً ، لأنه لم يكن يحبُّ أن يعلق أحد على أفكاره :

– حسناً ؟ وما أهمية ذلك ؟

– لا شيء ، لا شيء .. ذلك جميل ! عندما يطمع المرء في الوصول إلى غايته بسرعة ، فانه يستحثُّ الجياد بالسوط ، أو يضع فحماً في الآلة .

– تلك هي القضية ! ألا فلينقلب عالي كل شيء سافله ، ألا فليأخذ الشيطان كل شيء ! إني لأتهلل لو أن العالم التهب بغتة ، وتأجج ، وانفجر إرباً إرباً بشرط أن أفنى آخر الناس ، بعد أن أشاهد قبلاً فنـاء الآخرين ...

فقال الفتيتة في ازدراء :

– يا للوحشية !

– وماذا ؟ أنا . . . اني إنسان سابق ، أليس كذلك ؟ إنسان مرذول ! إذن ، فأنا حرٌّ من كل الصلات والقيود والعوائق ... إذن ، فأنا أستطيع السخرية من كل شيء .. وطبيعة وجودي نفسها تحملني على إرسال الماضي بأكمـله إلى الجحيم ، وكذلك المناهج الأخلاقية ، وكل أساليب الاتصال مع الناس الذين يملكون وجوداً مزدهراً فائضاً ، والذين يحتقرونني لأنني تركتهم يتجاوزونني في غزارة النعمة والازدهـار ولا مناص لي من أن أغذي فيَّ شيئاً مستحدثاً . . . هل فهمت ؟ شيئاً ، لو تعلم ، يحس معه سائر سادة الحياة هؤلاء الذين على غرار يهوذا بيتونيـكوف ، والذين يتخطرون أمامي في زهو وفخار ، يحس سائر هؤلاء السادة إذن ، عندما يرون شخصي المهيب ، خفقاناً في الصدر يجتـاحهم ، وبرودة في البطن تنتابهم وتطغى عليهم !

فضحك الفتيتة ، وقال :

– يا الله ! ما أسلط لسانك !

فأجاب كوفالدا ، وهو يرمقه في ازدراء :

— إذهب .. أنت .. أيها البؤس . ما الذي تفهمه ؟ ما الذي تعرفه ؟ هل تعرف كيف تفكر ؟ أنا . لقد فكرت ... قرأت كتباً لاتستطيع أنت أن تفهم منها كلمة واحدة .

— فظاعة ! هل يمكنني أن ألتهم الحساء بواسطة الحذاء ؟ ولكن ، بالرغم من أنك قرأت وفكرت ، وأنني لم أفعل لا هذا ولا ذاك ، فاننا لسنا بمتباعدين على أية حال .

فصاح كوفالدا :

— إذهب إلى الشيطان !

كانت أحاديثه مع الفتية تنتهي دوماً على هذا الشكل ... كان يعرف حق المعرفة أن محاضراته ، في غياب معلم المدرسة ، لاتفعل بصورة عامة الا إفساد الجو حيث تنتشر دون أن تسلط الأضواء عليه أو تجلب إليه أي أنتباه أو مديح . ولكن أن يُعرض عن الكلام .. إنه لايستطيع ذلك ! وهذا الشعور يراوده في هذه اللحظة بعد أن كال كل تلك الحماقات لمحدثه ، أنه وحيد بين هؤلاء الناس الذين يحفون به ويلتفون حوله . ولكن به رغبة في الكلام بالرغم من ذلك ، ولذا فقد توجه إلى سيمتسوف بالسؤال التالي :

— وأنت ، يا ألكسي مكسيموفيتش ، أين ستضع رأسك الأشيب ؟

فابتسم العجوز في سذاجة ، وحك أنفه ، ثم أعلن :

— لا أعرف . . سوف نرى . . . إن أشياء قليلة جداً تلزمنا . جرعة . . ثم جرعة أخرى .

فقال الرئيس موافقاً :

— مهمة على جانب عظيم من الاحترام ، وإن تكن بسيطة للغاية !

وأضاف سيمتسوف ، بعد فترة قصيرة ، أنه سيكون أسبقهم جميعاً إلى تدبير أمره ، لأن سائر النساء يحببنه كثيراً .

وكان ذلك صحيحاً ، فقد كان للعجوز دوماً عشيقتان أو ثلاث عشيقات بين العاهرات . وكنّ يتكفلن به على حساب أرباحهن الهزيـلة ، ثلاثة أيام متتالية في بعض الأحيان . وكثيراً ما كنّ يضربنه . فيتحمل ذلك في شجاعة وثبات ولا يتذمر . إنهن عاجزات عن أن يؤذينه كثيراً . . بل لعلهن كن يشفقن عليه ... كان هاوياً محموماً للنساء يروي أنهن سبب شقائه في حياته بأسرها وكانت علاقاته المتينة بهن تتضح بجلاء تام إن بكثرة تردد المرض عليه أو بلباسه المرقع دومـاً ، والانظف أبداً من ألبسة الآخرين وفي تلك اللحظة راح يروي ، متباهياً فخوراً ، وهو يقتعد الأرض عند باب المأوى ، كيف دعته « الجزرة » ، منذ زمن طويل ، كي يعيش وإياها . ولكنه رفض ذلك كيلا يترك « الشركة ».

وكانوا يصغون إليه في اهتمام ، وليس دون شيء من الحسد ... فالجميع يعرفون « الجزرة » ، فهي تقطن غير بعيد عن هنـا في أسفل الهضبة . ولم يمض زمن طويل منـذ خرجت من السجن حيث قضت مدة إدانتها لسرقتها الثانية ... كانت مربية سابقة ، فلاحة ضخمة الجثة، خصبة الرحم ، شاحبة الوجه ، جميلة العينين اللتين تبدوان وكأن النشوة تبرقعهما بغلالة رقيقة من نيرانها .

وصاح الفتيتة ، وهو يرمق سيمتسوف الذي تبسم راضياً :

— أنظروا : يا للشيطان العجوز ؟

— ولمَ هن يحببني ؟ لأني أعرف بماذا تحيا نفوسهن ...

فقال كوفالدا بلهجة مستفهمة :

— حقـاً ؟

— إني أعرف كيف أستدرّ عطفهن علي ... والمرأة عندما تشفق ، إنها تستطيع أن تقتل إشفاقاً إذن ... إبك أمامها ، واسألها أن تقتلك ، وسوف ترثي لك ، وتقتلك ...

فأعلن مارتيانوف بصوت حازم ، وهو يرسل قهقهته الوقحة :

ـــ إني أنا الذى سأقتل !

فسأل الفتية ، وهو يبتعد جانباً :

ـــ من ؟

ـــ سواء لدي . . بيتونيكوف . . بيجوركا ... أنت ، فيما لو أردت ...

فاستعلم كوفالدا في اهتمام زائد :

ـــ لمَ ؟

ـــ أريد أن أذهب إلى سيبيريا . هذه الحياة تضايقني ... إنها حياة قذرة ... أما هناك ، فالمرء يعرف ماذا يصنع بحياته

فوافق الرئيس في كآبة :

ـــ آه ! نعم ... هناك يدلون المرء على كل شي بدقة وتفصيل !

ولم يتكلموا أبداً عن بيتونيكوف ، وعن الطرد المقبل الذي سيكون عقابهم ـــ كان الجميع على يقين منذ الآن ، أن الطرد يهددهم ، وأن ذلك ربما لن يتطلب أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ، فلا فائدة إذن من إتعاب أنفسهم بالتفكير في ذلك الموضوع ... إن الحديث لن يجعل الحال أفضل ... ثم إن الطقس لم يصبح بارداً بعد بالرغم من الأمطار التي بدأت تسحّ من السماء ... إن المرء يستطيع أن يرقد على أية بقعة من الأرض ، خارج المدينة ..

تحلقوا جالسين على العشب ، وراحوا يجرون في تكاسل ثرثرة لا تنتهي عن مختلف الأمور ، وهم ينتقلون بحرية من موضوع إلى موضوع ، لا يعيرون من الاهتمام لكلام الرفاق إلا ما يلزم فقط كي يستطيعوا متابعة الحديث ، غير مستهدفين من ذلك إلا الاستمرار فيه ليس غير . . إن السكوت لمضجر ، ولكن الاصغاء بانتباه لا يقل عنه ضجراً أيضاً ... كان هذا المجتمع من البشر السابقين يتميز بخصلة حميدة ، ألا وهي أن أحداً منهم لم يكن يسعى ، في عنف ، كي يبدو أفضل مما هو عليه في

واقع الأمر ، أو يحرض الآخرين على بذل مثل ذلك الجهد أيضاً ...

وكانت شمس آب تشوي ، دون تقصير ، أسمال هؤلاء القوم الذين يديرون لها ظهورهم ورؤوسهم السيئة التسريح ، فهي مزيج فوضوي من عوالم النبات والمعادن والحيوان . وفي زوايا الباحة كانت تنبت أعشاب رديئة زاهية تبهج — بالاضافة إلى بعض القراطب العالية ، المنثورة بالورد ، وبعض النباتات الأخرى العديمة النفع أيضاً — أعين هؤلاء القوم الذين لانفع منهم .

٣

أما في خان فافيلوف ، فقد جرى المشهد التالي :

دخل بيتونيكوف الصغير ، دون عجلة على الاطلاق ، وتطلع حواليه برهة ، وكشر عن أسنانه نفوراً وقرفاً ، ثم رفع قبعته الرمادية في بطء وتمهل ، وسأل صاحب الخان الذي استقبله بتحية إجلال وابتسامة تحبب :

— ييجور تيرينتيفيتش فافيلوف ... هو أنت نفسك ؟

فأجاب صف الضابط السابق ، وهو يعتمد بكلتا يديه على المشرب وكأنه يستعدّ لاجتيازه بقفزة واحدة :

— حاضر !

فأعلن بيتونيكوف :

— لي عمل معك .

— تشرفنا .. تفضل بالدخول إلى غرفتي !

ودلفا إلى الغرفة وجلسا ، الضيف على الكنبة المكسوة بقماش مشمع ، أمام مائدة مستديرة ، وسيد الدار على كرسي يقابله وجهاً لوجه .

كان هناك شمعدان يحترق أمام إطار ضخم من الايقونات في إحدى زوايا الغرفة وصور قديسين معلقة على الجدار المقابل قد نظفت أطرها بعناية فائقة ، فهي تلمع وكأنها حديثة الصنع ، ورائحة الزيت ، والدخان ، والملفوف تفوح في أرجاء الغرفة المليئة بالخزن ، وبكل أنواع الأثاث العتيق . تطلع بيتونيكوف حواليه ، ومن ثم كشر عن أسنانه مرة أخرى . أما فافيلوف فتنهد ، وألقى نظرة سريعة على الأيقونات . وأخيراً تفحص كل منهما الآخر بدقة ، فترك كل منهما في الآخر انطباعاً حسناً . لقد راق لبيتونيكوف

عينا فافيلوف اللصتان بكل صراحة ، أما فافيلوف فأعجب بوجه بيتونيكوف العريض ، البارد ، الطافح عزماً بفكيه العريضين المتينين ، وأسنانه البيض المتراصة .

افتتح بيتونيكوف الحديث قائلاً :

— حسناً . . أنت تعرفني بكل تأكيد ، ولاريب أنك تخمن ماأريد أن أتحدث عنه !

فقال صف الضابط السابق في احترام عظيم :

— في موضوع الدعوى ... فيما أعتقد .

فقال بيتونيكوف مشجعاً :

— بالضبط ! يسرني أنك لاتجرب المراوغة أبداً ، بل تنطلق باستقامة نحو الواقع ، مثل إنسان مستقيم النفس ...

فلاحظ فافيلوف متواضعاً :

— ذلك أني جندي . .

— هذا واضح . وهكذا ، فلنبحث في موضوعنا بصراحة وبساطة ، كي ننتهي منه في أسرع وقت .

— إنك على حق !

— حسناً جداً . إن دعواك مشروعة تماماً ، ومما لا ريب فيه أنك ستربح ـ وهذا ماأود أن أعلنه لك بكل صراحة قبل كل شيء آخر .

فقال صف الضابط السابق ، وهو يطرف بعينيه كي يخفي ابتسامة تألقت فيهما :

— شكراً جزيلاً !

— ولكن ، هلاّ تفضلت فأخبرتني ماحاجتك إلى البدء بمعرفتنا ، نحن جيرانك المقبلين ، بمثل هذه الوسيلة العنيفة ؟ ... عن طريق العدالة منذ الوهلة الأولى !

هزّ فافيلوف كتفيه ، ولم يحر جواباً ...

— كان من الأيسر عليك أن تأتي إلينا كي نسوّي الامور صلحاً ... ما ؟ ما رأيك ؟

— هـذا ، بكل تأكيـد ، إنـه مناسب . ولكن . . . ذلك أنه يوجد ، كما ترى ... خرق صغير ... إني لم أتصرف من تلقاء نفسي .. لقد صنعوا ذلك من أجلي ... وبعـد ذلك فقط أدركت كم كان من الافضل لي أن أذهب إليكم ، ولكن سبق السيف العذل ...

— حسناً ! أعتقد أن أحد المحامين قد نصحك ؟

— شيء من هذا القبيل . .

— آه ! آه ! حسناً ، هل ترغب في إنهاء القضية صلحاً ؟

فصاح الجندي :

— بسرور عظيم !

فاعتصم بيتونيكوف بالصمت برهة وهو يرنو إليه ، ثم قال بغتة بلهجة جافة باردة :

— وما هي الاسباب التي تدفعك إلى ذلك ؟

لم يك فافيلوف يتوقع مثل هذا السؤال ، فلم يجد للوهلة الأولى جواباً يردّ به عليه . ذلك كان سؤالاً عديم الجدوى في نظره ، ولذلك فقد هز كتفيه وشعور من التفوق يراود نفسه ، وابتسم في أنف بيتونيكوف الابن ، وقال :

— إن فهم ذلك أمر يسير المغاية ... يجب أن يسعى المرء إلى العيش في سلام مع الناس !

فقاطعه بيتونيكوف قائلاً :

— أما هذا ، فالأمر ليس كذلك على وجه الدقة . أنت لا تعرف

بصورة جلية ، فيما أرى ، لماذا كنت تفضل أن نسوي الامور بسلام .
ولكني سأشرح لك ذلك .

ودهش الجندي قليلاً . إن هذا الفتى الذي يتلفع بمعطف من قماش مربع الخطوط ، والذي يبعث نوعاً ما على الضحك في هذا الزي الغريب ، يتحدث مثلما كان يفعل فيما مضى رئيس فصيلته راشكين الذي لم يكن يتوانى ، في ساعات غضبه ، عن تحطيم ثلاثة أسنان من فم أنفاره بلكمة واحدة من قبضته .

— إنك في حاجة إلى الاتفاق معنا لأن جوارنا يفيدك جداً ! وإنه يفيدك لأن مصنعنا سيضم على الأقل مائة وخمسين عاملاً سيزدادون مع مرور الزمن دون ريب ... وإذا تناول مائة منهم كأساً من الخمرة عندك بعد أن يقبضوا أجرهم الأسبوعي ، فهذا يعني أنك ستبيع كل شهر أربعمائة كأس زيادة عما تبيع حالياً . إني لا أذكر إلا الحد الأدنى . ومن ثم فأنت تدير خاناً . وأنت رجل غير أحمق فيما يبدو لي ، رجل قد عرك الحياة واختبرها ... هلا حسبت قليلاً فضائل جوارنا ؟

فقال فافيلوف ، وهو يشير برأسه :

— هذا صحيح ! لقد كنت أعرف هذا .

فقال التاجر ، وقد رفع صوته :

— وإذن ؟

- ولكن ، لاشيء ... فلنتعامل بلطف . .

يبهجني أن تنتهي سريعاً إلى هذا القرار . إليك لقد تزودت ببيان تعلن فيه أنك سحبت شكواك ضد والدي ، إقرأ ووقع .

تطلع فافيلوف إلى مخاطبه بعينين مدورتين وانقبضت سحنته ، وهو يستشعر أمراً مزعجاً :

— أرجوك ! . . . وقع ؟ كيف هذا ؟

فقال بيتونيكوف موضحاً ، وهو يشير بأصبعه إلى موضع التوقيع :
— إن ذلك بسيط للغاية ، أكتب اسمك الصغير ، واسم عائلتك ، وهذا كل شيء .
— كلا ، هذا ليس بالأمر العسير ! ليست هذه هي القضية .. بل التعويض الذي ستدفعه لي مقابل الأرض .
فقال بيتونيكوف بلهجة مصالحة :
— ولكنّ هذه الأرض لاتفيدك شيئاً !
فصاح الجندي :
— ومع ذلك فهي ملكي !
— بكل تأكيد ... وماقيمة المبلغ الذي تريد ؟
فقال فافيلوف بصوت متردّد :
— ولكن ، قيمة الطلب على الأقل . . المبلغ المذكور هنا !
فانطلق بيتونيكوف يضحك في هدوء :
— ستمائة ؟ ياللدعابة الطريفة !
— اني أطالب بحقوقي ... إني أستطيع أن أطلب ألفين أيضاً ... وأستطيع أن أشدد على طلب الهدم . . وهذا ماأريده ... ولذا فان المبلغ المطلوب زهيد جداً إن ماأطلبه . هو الهدم !
— كما تشاء ! . . عسانا نهدم ... ربما بعد ثلاث سنوات ، وبعد أن نكلّفك مبالغ طائلة من أجل الدعوى . ومن ثم ، بعد أن ندفع ، فقد يصبح لنا مقصفنا الصغير الجميل وخاننا ، ولسوف يكون هذا الأخير أفضل بكثير مما هو عليه خانك الآن . ولسوف تفنى عندئذ مثلما فني السويديون في بولتافا ! لسوف تفنى ، ياحمامتي الصغيرة ، ونحن سنفعل مايلزم في سبيل ذلك . ولقد كان في إمكاننا أن نبدأ منذ الآن بالمقصف الصغير ، ولكننا أردنا أن نتجنب المشاكل ... ثم إن الزمن ثمين بالنسبة

إلينا . أضف إلى ذلك أننا نرثي لك ، أنت ... لماذا تحرم رجلا من خبزه دون سبب أو مبرر ؟

كان بيجورتيرينتيفيتش ، وقد أطبق فكيه ، ينظر إلى زائره ، ويحس أن هذا الزائر هو السيد الذي يملك مطلق التصرف في مصيره . وأحس شفقة عظيمة على نفسه أمام محيّا هذا الشخص البارد القاسي ، الغارق في ثوبه المضحك ذي المربعات .

— وأنت ، أيها العسكري ، كنت تستطيع أن تربح مبالغ طائلة وأنت تعيش في جوارنا عاقلاً متفهماً . ولقد كنا نعنى نحن أيضاً بذلك . مثلاً ، إني أنصحك منذ الآن بالاقبال على تجارة صغيرة . أنت تعلم ـ قليل من الدخان ، وبعض صناديق الثقاب ، والخبز ، والخيار ، وهلم جراً ... كل هذا سيعود عليك بمورد جيد لابأس به .

كان فافيلوف يصغي ، ويفهم ـ على اعتباره فتىً غير أحمق ـ أن أفضل مايستطيع أن يفعله هو الاستسلام إلى كرم العدو وسخائه . والحقيقة أنه كان يجب أن يبدأ من هذه النقطة بالذات .

وانطلق الجندي ، وهو لايدري مايصنع بنقمته وقهره ، يشتم كوفالدا بصوت مرتفع :

— ياالمعربيد اللعين ! فليخنقه الشيطان !

فسأل بيتونيكوف بتؤدة :

— أنت تتحدث عن المحامي الذي حرّر الدعوى لك ؟

ثم أضاف ، وهو يتنهد :

— في الحقيقة ، لقد كاد يسيىء إليك . لو لم نرثِ لك نحن .

فقال الجندي التعس ، وهو يلوح بيديه :

— آه ؟ إن هناك اثنين هنا ... الواحد اخترع القصة ، والآخر كتب ... ياالمحرر اللعين !

ــ كيف هذا ــ « محرر » ؟

ــ إنه يكتب في الصحف ... كل هذا من صنع المستأجرين عندكم ... يالهم من بشر ! ولكن ، خذوهم من هنا ، أطردوهم محبة بالله ! يالاشقياء ! إنهم يحرضون الجميع هنا ، ويلقون الاضطراب في قلب الشارع ، ولا يدعونكم تعيشون في سلام أبداً ... قوم مجردون عن الايمان و الناموس ... إن المرء ليتوقع منهم في كل لحظة أن يسرقوا ويضرموا النار ..

وسأل بيتونيكوف ، وقد بدا الاهتمام على محياه :

ــ وهذا المحرر ، مَنْ هو ؟

ــ هو ؟ سكير ! كان معلم مدرسة ، فطردوه . لقد شرب كل شيء ، وإذا هو ... حالياً .. يكتب في الصحف ، ويحرر الدعاوى .. يالرجل الخسيس !

ــ همْ ... م ! إذن فهو الذي كتب الدعوى لك ؟ كذا ! لا ريب أنه هو الذي كتب أيضاً موضوع الشذوذ في البناء ! لقد وجد أن الصقلات فيما اعتقد ، أو شيئاً آخر ، لم ترفع حسب القواعد اللازمة .

ــ إنه هو ! أنا أعرف ذلك ! إنه هو ، هذا الكلب ! لقد قرأ ذلك هنا وراح يتباهى ... وإليك ماقال : « لسوف ينشق بيتونيكوف غيظاً ! ».

ــ آه ، نعم ! إذن ، فهل في نيتك أن ننهي الأمر صلحاً ؟

ــ صلحاً ؟

وهز الجندي رأسه واستغرق في التفكير ، ومن ثم صاح بصوت متلاحق النبرات ، وهو يحك رأسه :

ــ آه ! ياللبؤس ! أي وجود مظلم هو وجودنا !

فنصحه بيتونيكوف ، وهو يشعل لفافة :

ــ يجب على المرء أن يتعلم !

ــ يتعلم ؟ ليست تلك هي القضية ، ياسيدي الطيب ! إننا محرومون من

الحرية ، تلك هي القضية ! أية حياة هذه التي أعيش ؟ حياة مرتجفة ، محروماً كل الحرمان من حرية حركاتي ! ولماذا ؟ لأني خائف ... إن معلم المدرسة ، هذا القرد اللئيم ، يكتب عني في الصحف .. ويجذب إلي هنا المراقبة الصحية ، وأنا أدفع جزاءً ... هؤلاء المستأجرون عندكم ، إن المرء يتوقع في كل لحظة أن يحرقوكم ، أو يقتالوكم ، أو يسلبوكم ... وماذا نستطيع ضدهم ؟ الشرطة ؟ ولكنهم لايخافون منها ، بل يكونون سعداء إذا ألقي بهم في السجن ... فهناك يجدون الخبز مجاناً .

فوعد بيتونيكوف :

— سوف نبعدهم ، إذا اتفقنا معك ...

فأجاب فافيلوف ، مضطرباً ممتعضاً :

— وبأية طريقة سوف نتفق ؟

— قل شروطك !

— حسناً ! أعط ... ستمائة الدعوى . .

فقال التاجر في هدوء :

— أفلست تقبل بمائة من الروبلات ؟

وراقب مخاطبه بانتباه ، ثم أضاف وهو يبتسم في عذوبة :

— لن أعطي روبلاً واحداً أكثر ...

وبعد ذلك رفع نظارتيه عن عينيه ، وراح يمسحها بمنديله ، بينما راح فافيلوف يتأمله ، والألم يعتصر قلبه ويحز فيه حزاً ، والاحترام لخصمه يتعاظم في نفسه في الوقت ذاته .. فقد كان في وجه بيتونيكوف ، الابن الهادىء ، وفي عينيه الكبيرتين الرماديتين ، وفي فكيه العريضين ، وفي كل شخصه المربوع ، مقدارٌ عظيم من القوة الواثقة من نفسها والخاضعة كل الخضوع للذكاء والعقل . وما أعجب فافيلوف بـه بصورة خاصة هو طريقة بيتونيكوف في مخاطبته بكل بساطة ، وبصوت يتردد شيء من

الودّ في نبراته ، دون شيء من مظاهر العظمة والترفع ، بل كأنه مساوٍ له تماماً ، هو فافيلوف الذي يدرك تمام الادراك أنه لايمكن أن يكونَ قريناً لهذا الرجل قط .

ولم يستطع الجندي أخيراً وهو يتأمله ، بله يُعجب به تقريباً ، أن يتمالك نفسه ، فسأل بيتونيكوف باحترام وهو يشعر بفضول لاهب يتعاظم في نفسه فيُسكت برهة وجيزة من الزمن كل مشاعره وإحساساته الأخرى:

— أين تلقيت علومك ؟

فقال الآخر ، وهو يرفع عينين مبتسمتين :

— في المعهد الفني . ولمه ؟

— لا ...لا شيء .. هكذا ... أرجو المعذرة !

أطرق الجندي برأسه ، ثم صاح بغتة باعجاب عظيم ، وبحماسة فائقة في الوقت نفسه ، حتى كأن وحياً قد هبط عليه على حين غرة من حيث لايدري :

— آه بلى ... تلك هي الثقافة إذن ! باختصار ، إن العلم ... هو النور ! ونحن الآخرين . في هذه الدنيا . أشبه بالبوم في وجه الشمس ! ..أف ! إلى الجحيم ! ياصاحب السعادة ... هيا ! ولنقفل هذه القضية !

ومدّ يده نحو بيتونيكوف بحركة مليئة بالعزم ، وقال بصوت مختنق:

— حسناً !.. خمسمائة ؟

— ليس أكثر من مائة روبل ، يابيجور تيرينتيفيتش !

وهز بيتونيكوف كتفيه . وكأنه يأسف لعجزه عن زيادة ذلك المبلغ ، وربت على طرف الجندي الكثيف الشعر بيده الكبيرة البيضاء .

وسرعان ما انتهيا ، لأن الجندي ذهب بخطوات كبيرة واسعة في اتجاه رغبات بيتونيكوف ، بينما ظلّ هذا موتّداً قدميه في مكانه لايتزحزح قيد أنملة عن شروطه . وعندما تلقى فافيلوف المائة روبلاً في النهاية ووقّع

الورقة ، رمى بالريشة على المائدة ، وصاح في هياج وقلق :

— جميل ! والآن ، بقي عليّ أن أتدبرّ أمري مع العصابة الذهبية! كيف سيتنازعون رأسي ، هؤلاء الشياطين !

فاقترح بيتونيكوف :

— ولكن قل لهم إني نقدتك كامل العريضة ...

وراح يبعث من فيه، بتؤدة تامة ، دفقات من الدخان ويلاحقها بأنظاره وهي تتصاعد في جو الغرفة ...

— وهل سيصدقون ؟ إنهم أيضاً لصوص أذكياء .. وليسوا أحمق من ...

وتوقف فافيلوف في الوقت المناسب ، مرتبكاً من المقارنة التي كادت أن تفلت منه ، وتطلع في خشية إلى ابن التاجر . كان هذا الأخير يدخن ، مستغرقاً كلياً في هذا العمل ، غير آبه لما يجري حوله على الاطلاق . وسرعان ما ذهب قاطعاً على نفسه عهداً ، وهو يستأذن من صاحب الخان بالانصراف ، أن يهدم عش تلك الكائنات المزعجة ويدمره...

ونظر فافيلوف إليه وهو يبتعد ، ثم تنهد ، تسيطر عليه رغبة عنيفة، فيودّ أن يهتف بشيء خبيث مهين في ظهر هذا الرجل الذى يصعد المنحنى بخطوات مستأنية ثابتة ، على الطريق المحفورة ، المزروعة بأكوام الأنقاض .

وفي المساء ظهر الرئيس في الخان ، مقطب الحاجبين بقسوة ، مضموم القبضة اليمنى بعزم وبأس شديدين ، فتقدم فافيلوف إلى لقائه وعلى شفتيه ابتسامة مذنبة .

— حسناً ! أيها السليل القمين بقايين ويهوذا ، تحدث ...

فقال فافيلوف :

— لقد أنهينا كل شيء .

وتنهد ، وخفض عينيه ...

لست أرتاب في ذلك . كم فلساً قبضت ؟

— أربعمائة روبلا رناناً ...

— أنت تكذب بكل تأكيد ... ولكنْ ذلك أفضل بالنسبة إليّ ... لن نكثر من الكلام، يابيجوركا! ولكنك ستنفحني عشرة في المائة من الأرباح لأني ابتدعتُ القصة، وبورقة من فئة الخمسة وعشرين روبلاً لمعلم المدرسة الذي حرّر الاستدعاء، وسطلاً من الخمرة لنا جميعاً، وكمية لائقة من المقبلات بالاضافة تكفينا طوال ثماني ساعات.

واخضارّ لون فافيلوف وراح يتأمل كوفالدا بعينين محملقتين مدهوشتين ..

— شِهِ! لكن هذا سلب مفضوح. لن أعطي شيئاً .. فلنر. ياأريستيد فوميتش! آه! كلا، احمل شهيتك على الصبر حتى العيد المقبل! يالتصرفك الغريب! كلا، فان لديّ الامكانيات حالياً كيلا أخافك. أنا، حالياً ...

وتطلع كوفالدا إلى الساعة.

— إني أمنحاك، يابيجوركا، عشر دقائق لثرثرتك اللئيمة! إنته، في هذا الفاصل، من ارتكاب الخطيئة بلسانك، واعطِ ما أطلب منك. وإذا لم تعط ... فالويل لك! إن النهاية قد باعك شيئاً ما؟ وأنت قد قرأت في الصحف أخبار السرقة عند باسوف؟ أنت تفهم؟ إنك لن تجد الوقت كي تخفي شيئاً، لأننا سنمنعك من ذلك ... وفي هذه الليلة بالذات ... مفهوم؟

فزمجر صف الضابط السابق:

— أريستيد فوميتش! لماذا؟

— ولا كلمة! هل فهمت، أم لا؟

كان كوفالدا عالي القامة، أبيض اللون، مهيب المحيا، يتحدث بصوت مخنوض، فيدوي صوته المبحوح منذراً بالشؤم في أرجاء الخان الفارغ. كان يرسل على الدوام بعض الذعر في قلب فافيلوف، بصفته

عسكرياً قديماً ، وإنساناً لا يخاف أن يفقد شيئاً في الوقت الراهن . أما في هذه اللحظة فقد كان يرى كوفالدا في مظهر جديد : فهو لايتحدث بكثرة وبصورة ساخرة كما هي عادته ، بل بلهجة الزعيم الذي تعوّد أن يطاع أبداً ، يتردد في أقواله تهـــديد جدّي لامراء فيه ... وأحسّ فافيلوف أن الرئيس قـــد يكون سبباً في هلاكه ، وأنه مستعد أن يفعل ذلك ، لو أراد بـــكل سرور وطيبة خاطر... كان لابد من الخضوع للقوة : ولكن الجندي جرب مرة أخرى ، وفي قلبه خفقـان خبيث ، أن يتجنب العقاب ، فصعد زفرة عميقة ، وطفق يقول بكل تواضع:

— يبدو أن المثل لا يخطىء : إن المرأة تسيىء إلى نفسها ، إذا لم تحصد كما يجب ... لقـد رويت لك أكاذيب تواً ، ياأريستيد فوميتش . كنت أريد أن أبدو أذكى مما أنا فعلاً ... إني لم أقبض أكثر من مائة روبل ...

فقال كوفالدا :

— حسناً ، وماذا بعد ذلك ؟

— وليس أربعمائة كما ذكرت لك . وهذا يعني ...

— هذا لايعني شيئاً على الاطلاق . إني لاأعرف مـــتى كذبت ، قبل لحظة أم الآن ! إني أنال منك خمسة وستين روبلاً . وهذا تواضع مني . . والآن ؟

— آه ! يا إلهي ! ولكن ، ياأريستيد فوميتش ، لقـد كنت دوماً أعنى ما أستطعت بسعادتك ...

— هيا ! لقد اكتفيت من مثل هذه الأحاديث ، يايبجوركا ، ياحفيداً باراً ليهوذا !

— إني أطيـــع ... وسأعطي . . . ولكن الله سيعاقبكم على ذلك.

فصاح الرئيس، وعيناه تقدحان شرراً:

-- صمتاً ، أيها الخرّاج المنتن على سطح الأرض ! لقد عوقبت من الله كفاية . فقد اضطرني إلى رؤيتك ... إلى الحديث معك ... لسوف أسحقك في التو واللحظة كما أفعل بذبابة صغيرة !

وهز قبضته تحت أنف فافيلوف ، وصر بأسنانه وقد كشر عنها .

وعندما رحل ، طفق فافيلوف يبتسم مكشراً ، وعيناه تطرفان بسرعة غريبة . ثم تدحرجت دمعتان كبيرتان على وجنتيه . كانتا عكرتين ، وعندما اختفتا في شاربيه ، ظهرت دمعتان أخريان في مكانهما ... وعندئذ دلف فافيلوف إلى غرفته ، وجثا أمام الأيقونات ، وظل طويلاً هكذا ، دون أن يتحرك ، دون أن يجفف الدموع عن وجنتيه السمراوين المغضنتين .

٤

اقترح الشماس تاراس ، والمروج والغابات تستهويه أبداً ، أن ينطلقوا إلى الحقول ، حتى يبلغوا غدير ماء يشربون على ضفتيه ، في أحضان الطبيعة، خمور فافيلوف .. ولكن الرئيس ، يؤيده الباقون بالاجماع ، أردفوا الشتائم له وللطبيعة على حدٍّ سواء ، وقرروا أن يسكروا في بيتهم ، في الباحة الخارجية .

راح أريستيد فوميتش يحصي الحاضرين :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة ... نحن نعدُّ ثلاثة عشراً ، فمعلم المدرسة غائب ... ومن ثم سيندسُّ بيننا بعض الطفيليين من دون أدنى ريب . لنقل إننا سنكون عشرين شخصاً . خيارتان ونصف الخيارة لكل واحد منا ، وأوقية من الخبز ومن اللحم . . . هذا ليس بالأمر السيء ! أما الخمرة... فهنالك ما يكفي كي ينال كل منا زجاجة كاملة منها . . وهناك الملفوف أيضاً ، والبطاطس ، وثلاث بطيخات كاملات . ماذا تحتاجون أكثر من هـــذا ، بحق الشيطان ؟ إني أسألكم ، ياأخوتي الرعاع ؟ هكذا إذن ، فلنستعد لالتهام ييجور فافيلوف ، لأن كل هـذا إن هو إلا لحمه ودمه !

ومدوا على الأرض بقايا غامضة لبعض الثياب ، وصفوا عليها مؤونتهم، ومن ثم احتفوا بها من كل جانب ، احتفوا بها في سكون ووقار ، وهم يبذلون جهوداً عظيمة كي يكبحوا جماح الرغبة النهمة في السكر ، هذه الرغبة التي كانت تبرق في سائر العيون وتومض .

كان المساء يقترب ، وأخيلته تهبط على أرض الساحة المدنسة بالأقذار ،

وشعاعـات الشمس الأخيرة تضيء سطح البيت نصف المتهدم ، والطقس مشبعاً ببعض الرطوبة ، والجو ساكناً كل السكون .

أصدر كوفالدا أوامره :

— فلنتناول الأسرار المقدسة ، أيها الاخوان ! كم كأساً لدينا ؟ ست كؤوس . ونحن ثلاثة عشر ... أسكب ، يا ألكسي مكسيموفيتش ! .. هل فعلت ؟ حسناً ، أيها الفوج الأول .. أطلق النـار ؛

شربوا ، وسعلوا ، ثم شرعوا يطعمون .

قال كوفالدا :

— ومعلم المدرسة غير موجود .. هذا ثالث يوم لا نراه فيه . ألم يره أحـــد ؟

— أبداً !

— هذا لا يدخل في نطاق عاداته ! حسناً! فليذهب إلى الجحيم ! فلنشرب أيضاً ! فلنشرب نخب أريستيد فوميتش ، صديقي الوحيد الذي لم يتركني لحظة واحدة طوال حياتي وإن كنت ربما أربح لو فعـل ذلك ـ أخذه الشيطان ! ـ وحرمني بعض الزمن من رفقته .

قال الفتيتة :

— طريف جداً !

وطفق يسعل سعالاً متعاقباً ...

تطلع الرئيس إلى رفاقه واعياً تفوقه عليهم ، ولكنه لم يقل شيئاً ، لأنه كان منهمكاً في تناول الطعام .

ودبّ النشاط بغتة في الحاضرين جميعاً بعد القدح الثانية ... إن الحصص لهيبة حقـاً . وعبّر تاراس ونصف ، في حياء ، عن رغبتـه في سماع حكاية ما ، ولكن الشماس كان مستغرقاً مع الكرة في نقـاش حامي الوطيس ، يدور حول موضوع تفوق النساء النـاحلات على النساء





السمينات ، فلم ينتبه إلى كلمات صديقه ، وهو يحاول أن يثبت رأيه للكرة بحرارة واندفاع رجل مقتنع كل القناعة بصحة نظراته وآرائه .. وكان بوز النوء الساذج ، وهو مستلق على بطنه إلى جانبه ، يشير إلى تذوقه في حنان عظيم كلمات الشماس الرئيسية الهامة . أما مارتيانوف فكان يحيط ركبتيه الضخمتين المفروشتين بشعر حالك السواد ، وهو يتأمل بعينه الكئيبة دن بنت العنب في سكون ، محاولاً أن يلتقط طرف شاربه بلسانه ، كي يقضمه بأسنانه ...

وكان الفتيتة يسخر من تيابا قائلاً :

— لقد سبق أن رأيت ، أيها الساحر ، أين تخبيء مالك !

فأجابه صوت تيابا المبحوح :

— إن لك حظاً سعيداً ؟

— هل تعرف ، ياصاح ، أني سأسلبك إياه يوماً ؟

— اسلبه ...

كان الضجر يملك على كوفالدا مشاعره في رفقة هؤلاء القوم ، لا يجد بينهم من هو جدير بالاصغاء إلى بلاغته أو تذوق بنات فكره وفهمها ، ولذا فقد راح يفكر بصوت مرتفع :

— أين يمكن أن يكون معلم المدرسة ، ياترى ؟

فتطلع مارتيانوف إليه ، وقال :

- سوف يعود !

— إني على يقين من أنه سيعود راجلاً ، وليس في عربة أبداً . فلنشرب ، أيها المجرم المقبل ، نخب مستقبلك . إذا قتلت رجلا يملك مالاً ، فاقتسمه معي ... وعندئذ ، ياصاح ، سوف أذهب إلى أميركا ، في هذه ... كيف تدعى ؟ عمارات ... معمرات ! سوف أذهب إلى هناك ، وأدفع بنفسي قدماً حتى أصبح رئيس جمهورية الولايات المتحدة !

ومن ثم أعلن الحرب على أوروبا بأسرها ،وأهزمها أشنع هزيمـــة . الجيش ؟. سوف نشتري مرتزقة . في أوروبا نفسها . سوف أدعـو فرنسيين ، وألمـانيين ، وأتراكاً ، وإلى آخره ، وأنتصر بهم على نفس عائلاتهم .. مثلمـا كان إيليا دي مرروم يهزم التتريين بتتري . وإن في استطاعة أي إنسان أن يصبح ، بالمال ، هو نفسه إيليا ... ويدمر أوروبا تدميراً ، ويأخذ يهوذا بيتونيكوف خادماً عنده ... إنه سيقبل بذلك ... أعطوه مائة روبل في الشهر ، وسيرضى .. ولكنه سيكون خادماً خبيثاً، لأنه سيسرق ...

وقال الشماس في قناعة تامة :

ــ ثم إن المرأة الناحلة أفضل من السمينة في هذا أيضاً ، وهو أنها أقـل كلفة ! كانت شماستي الأولى تشتري ستة أمتار لثوبها ، وشمـاستي الثانية تشتري عشرة ... وكذلك الأمر فيما يتعلق بالغذاء ...

وراح تاراس ونصف يضحك معتذراً . وأدار رأسه نحو الشماس وتفرس فيه بعينه الوحيدة ، ومن ثم أعلن مضطرباً مرتبكاً :

ــ أنا أيضاً ، كان عندي امرأة ...

فلاحظ كوفالدا :

ــ هذا ممكن أن يحدث لكل الناس . تابع أكاذيبك ...

ــ كانت نحيلة ، ولكنها كانت تأكل كثيراً ... لا بل إن ذلك كان سبب موتها ...

فقاطعه الفتيتة قائلاً :

ــ لقد سممتها ، أيها الأعور !

فتابع تاراس ونصف :

ــ كلا ، وحق الإله ! لقد أكلت ذات مرة كميـــة كبيرة من السمك المتعفن .

ولكن الفتيتة عاد يقول في إصرار ويقين :

ـ وأنا أقول لك إنك سممتها !

كثيراً ما كان يحـدث له ، إذا قال سخافة ما ، أن يروح يرددها دون أن يقدم برهاناً يدعم به تأكيداته كان يتكلم في البدء في طيش صبياني ، ثم ينتهي بالتدريج الى الهياج تقريباً .

وأخذ الشماس يدافع عن صديقه :

ــ كلا ، لا يمكن أن يكون قد سممها .. ليس هناك مبرر ...

فقال الفتيتة بصوت حاد :

ــ وأنا أقول إنه سممها !

فصاح الرئيس بلهجة تهديد :

ــ صمتاً !

كان الضجر يتحول عنده دوماً الى غضب قلق ، فينظر الى رفاقـه بعينين مريضتين محمومتين ، واذ لم يجد في وجوههم التي ابتدأ السكر يبين في سيمائها شيئاً يمكن أن يغذي نقمته ، رمى برأسه على صدره ، وظل هكذا برهة قصيرة ، ومن ثم اضطجع على الأرض متمدداً على ظهره...

كان النوء يلتقم الخيار دون هوادة ، فيأخذ قطعة منـــه في يده ، ويغمسها في فمه حتى منتصفها ، دون أن ينظر اليها ، ثم يقطعها بضربة واحـدة من أسنانـه الكبيرة الصفر بحيث ينبثق العصير المملح من كل جانب ، ويرشّ وجنتيه رشاً ... لم يكن جائعاً بـكل تأكيد ، ولكن تلك العملية كانت تسلية فيما يبدو . وكان مارتيانوف جامداً ، وكأنه نحت نحتاً في مكانه ، متمدداً على الأرض ، ناظراً دوماً بذات النظرة القاتمة المركزة الى دن الخمره الذي يتسع لعشرة ليترات ، والذي فرغ نصفه حتى الآن ؛ أما تيابا فيحدق في الأرض ويمضغ اللحم في ضجيج هذا اللحم الذي يرفض الخضوع لأسنانه البالية ؛ بينا الفتيتة يضطجع على بطنه ، يسعل من حين لآخر ، ويقلص ما استطاع جسده الصغير ، وكان الآخرون ،

وقد تشوهت خلقهم جميعاً ، ولجأوا الى الصمت مكتئبين حزينين ، يجلسون أو يتمددون في أوضاع مختلفة ، وهم يكادون ، جميعاً ، ألا يتميزوا في الاسمال البالية التي يرتدونها وظل الأصيل الذي يلفهم ، عن أكوام الأنقاض المبعثرة في الباحة والمكسوة بالأعشاب الرديئة ... كانت أوضاعهم المتكسرة ، وخروقهم الخلقة المهترئة ، تجعلهم أشبه بحيوانات مقيتة خلقتها قوة فظة لعوب كي تسخر من الانسان وتهزأ به .

واح الشماس ينشد :

« كانت تعيش في سوزدال ،

سيدة غير شهيرة ،

فأصابها مغص ،

بغيض للغاية ! »

فاذا ما انتهى من إنشاده طفق يقبل ألكسي مكسيموفيتش الذي يبتسم له في غباء . إن تاراس ونصفاً يتضاحك مغتبطاً متلذذاً .

وجن الليل ، فاشتعلت النجوم بهدوء في صفحة السماء . وكذلك مصابيح الغاز ، هناك عالياً ، على الهضبة . وكانت أصوات الصفير الحاد الذي ترسله المراكب البخارية يبلغ إليهم ، وارداً من ناحية النهر ، وباب خان فافيلوف يفتح وهو يصرصر بصوت ثاقب يرافقه صدى ارتجاج زجاج مشعور ...

ودلفت الى الباحة صورتان قاتمتان ، واقتربتا من الجماعة المتمددة قرب الدن ، ومن ثم سألت إحداهما بصوت مبحوح :

— أتشربون ؟

وقالت الثاني بصوت خفيض ، وفي لهجتها رنين الحسد والفرح معاً :

— يا للشياطين !

ومن ثم امتدت يد من فوق رأس الشماس ، وتناولت الدن ، وسرعان

ما سمـــع صوت القرقرة المميزة للخمرة عندما تصب من الدن في قدح الشراب ...

وارتفع سعال عنيف من مكان ما .

صاح الشماس :

— ما أشد ضجرنا ! هيْ ، أيها الأعور ! هيـا ، ولنتذكر الأيام الماضية ، فلنغن أنشودة « بابل العليا » ...

فسأل سيمتسوف :

— وهل يعرف ؟

— هو ؟ لقد كان ، يا صاح ، مرتلاً في كنيسة الأسقفية ، هيا ، أيها الأعور ! « بابل العليا » ...

كان صوت الشماس قاسياً ، مبحوحاً ، مخدوشاً ، بينـا راح صديقه ينشد بنغمة مغلوطة صارخة .

كان البيت المهجور ، وقد ظللته الأخيلة ، يبدو وكأنه قد اتسع ، أو كأن مجموع كتل أخشابه نصف المتعفنة قـد اقتربت من هؤلاء القوم الذين يوقظ صياحهم الهمجي فيها صدى أصم مخنوقاً . وكانت سحـابة بخارية سوداء تقترب في تثاقل الى الأعلى منه في السماء ، وأحد هؤلاء الذين كانوا بشراً يغط في نومه مرسلاً شخيراً عالياً ، بينا الآخرون ، وهم لم يوغلوا في السكر كثيراً بعد ، يشربون ويأكلون في سكون ، أو يتكلمون في أصوات خفيفة في فواصل الصمت الطويلة . كان ذلك الخمول غريباً حقاً في مثل هذه الوليمة النادرة بغزارة الخمرة والطعام فيها ، وليس من يدري لم تتأخر العربدة الجامحة الخاصة بسكان القاعة عندما يجتمعون حول زجاجة بنت العنقود ، فلا تشتعل باكراً اليوم كما هي عادتها .

قال الرئيس ، وهو يرفع رأسه ويصيخ بسمعه :

— أنتم ، أيها الكلاب ! كفوا قليلاً عن العواء ... هذا بعضهم قادم ... في عربة .

إن عربة تسير على الطريق القائمة في مدخل المدينة . وفي مثل هذه الساعة ، لايمكن إلا أن توقظ الانتباه التام . من هــــذا الذي جازف بالخروج من المدينة حتى حفر الضاحية ومجاريها ؟ من ، ولماذا ؟

رفـع الجميع رؤوسهم وأصغوا . كان احتكاك الدواليب بالتربة الجـافة يسمع بوضوح تام في سكون الليل البهيم .

واقتربت العربة ، فتردّد صوت يسأل بفظاظة :

— حسناً ، أين ذلك ؟

فأجاب بعضهم :

— هناك ... ذلك يجب أن يكون قرب هذا البيت .

— لن أذهب أبعد من ذلك ...

صاح الرئيس :

— هذا لنا !

وارتفع همس قلق :

— الشرطة !

فقال مارتيانوف في صوت مبحوح :

— في عربة ؟ يالكَ من أبله !

ونهض كوفالدا واتجه نحو الباب الكبير .

أخذ الفتيتة يرهف السمع ، وهو يشرئب بعنقه الى الناحية التي اتجه الرئيس نحوها .

سأل أحدهم بصوت مرتعش :

— أهذا هو مأوى الليل !

فدوى صوت الرئيس الخفيض في نقمة :

— نعم ، مأوى الرئيس أريستيد كوفالدا !
— أهنا سكن المخبر تيتوف ؟
— بخٍ ! أهو الذي تأتي به ؟
— نعم ...
— سكران ؟
— مريض !
— إذن ، فشديد السكر . هِيْ ! أنت ، يامعلم المدرسة ! هيا ، إنهض !

— انتظر ! سوف أساعدك ... إنه في حال سيئة للغاية . لقد ظلّ راقداً طوال ثمان وأربعين ساعة في داري . وقد جاء الطبيب ... إن الحالة سيئة جداً ..

نهض تيابا ، وسار نحو الباب في بطء .

وزجر الفتيتة وشرب قدحاً .

صاح الرئيس :

— هِي ! أنتم هناك ، إشعلوا القنديل !

اتجه النوء نحو القاعة ، وأشعل قنديلا ، وعندئذ تمددت عصابة عريضة من النور على أرض الساحة منطلقة من باب المأوى ، تبعها الرئيس مع رجل قصير القامة ، عائدين إلى الداخل بمعلم المدرسة . كان رأسه يتدلى متراخياً فوق صدره ، وقدماه تنسحبان على الأرض ، والذراعان تتأرجحان وكأنها مكسورتان . وسكباه سكباً على فراش بمساعدة تيابا ، فانتفض بكل جسده ، وتجوّر وهو يرسل أنيناً خفيفاً .

- لقد اشتغلنا معاً في الجريدة نفسها . ما أشقاه ! قلت له : « إبق عندي ، أرجوك ، فأنت لاتزعجني . . » ولكنه توسل إليّ : « خذني إلى البيت! » كان يتعذب ... ففكرت أن ذلك قد يسيىء إليه ،

فجئت به ... إلى بيته ! ههنا . أليس كذلك ؟

فسأل كوفالدا بفظاظة ، وهو يتفحص صديقه بانتباه عظيم :

- إذن فأنت تعتقد أن لديه بعد « بيتاً » في مكان ما ؟ تيابا ، اذهب واجلب بعض الماء البارد !

قال الرجل الصغير مضطرباً في مكانه مرتبكاً :

ـــ اذن ... هكذا .. أعتقد أني لا يمكن أن أكون ذا فائدة له ؟

ـــ أنت ؟

وتفرس الرئيس فيه بعين نقادة .

كان الرجل الصغير يرتدي ستره قد بليت كثيراً ، مبكلة بعناية حتى الذقن . وكان سرواله مهترئاً ، وقبعته رثة ، اشقرّت لتقادم العهد عليها ، مثل محياه الناحل الساغب جوعاً .

قال الرئيس ، وهو يستدير عن الرجل الصغير :

ـــ كلا ، ليس من حاجة إليك .. إن كثيراً من أمثالك ههنا !

ـــ إذن ، إلى اللقاء !

واتجه الرجل الصغير نحو الباب ، ومن هناك توجه في لطف الى الرئيس سائلاً إياه :

ـــ إذا حدث شيء ما ، فاخبر هيئة التحرير بذلك .. إن اسمي ريجوف ... سوف أكتب مقالاً صغيراً تأبيناً له ... على أية حال ، ألم يكن صحفياً ؟

ـــ ايه ! تقول مقالاً تأبينياً ؟ عشرون سطراً ... أربعون قرشاً ؟ سأفعل أحسن من هذا : سأقطع احدى ساقيه عندما يموت ، وأرسلها الى مكتب التحرير باسمك . إن هذا سيكون أكثر فائدة لك من المقال التأبيني ... هذا سوف يقوم بأودك ثلاثة أو أربعة أيام ... فان له

فخذين سمينتين .. لقد أكلتموه جيداً ، أنتم جميعاً هناك ، مادام حياً ، ولسوف لاتمتنعون عن أكله ميتاً أيضاً .

عندئذ شخر الرجل بصورة غريبة واختنق ، فجلس الرئيس على لوح خشبي إلى جانب معلم المدرسة ، وجسّ جبينه وصدره ، ومن ثم ناداه :

- فيليب !

فرنّ الصوت بصورة صماء بين جدران المأوى القذرة وانطفأ سريعاً .

قال الرئيس ، وهو يمر بيده في لطف على شعر معلم المدرسة الجامد المشعث :

- هذا سخيف ، ياصاح !

ومن ثم أرهف السمع يصغي إلى تنفسه الملتهب المتقطع ، وتفحص محياه المهزول المصطبغ بلون التراب ، وتنهد عميقاً ، وقطب حاجبيه بعد ذلك في صرامة وراح يتطلع حواليه . كان القنديل بائس النور ، يتذبذب لهيبه ، فترقص ظلال سود على جدران القاعة في صمت وسكون ، طفق الرئيس يتأمل في عناد لعبها الأخرس وهو يمسح بيده على لحيته

وجاء تيابا يحمل سطلاً من الماء وضعه على الالواح الخشبية ، إلى جانب رأس معلم المدرسة ، ومن ثم أمسك بذراعه ، ورفعه بيده ، فكانه يريد أن يقدّر وزنه .

قال الرئيس ، وهو يشير بيده إشارة يائسة :

- ليس من حاجة إلى الماء !

فقال جامع الخروق مؤكداً :

- إن ماتمس الحاجة إليه هو الكاهن .

فقرر الرئيس في عزم :

- ليس من حاجة إلى أي شيء على الاطلاق !

وبقيا برهة لايقولان شيئاً ، بل ينظران معاً في صمت إلى معلم المدرسة

— فلنذهب ولنشرب قدحاً ، أيها الشيطان العجوز !
— وهو ؟
— أتستطيع شيئاً في سبيله ؟
وأدار تيابا ظهره لمعلم المدرسة ، ومن ثم خرج كلاهما إلى الساحة يلتحقان برفاقهما .
سأل الفتيتة ، وهو يدير بوزه المدبب نحو الرئيس :
— ماذا يحدث ؟
فأخبره الرئيس في اختصار :
— لاشيء فوق عادي إن الرجل يموت . .
فسأل الفتيتة مهتماً :
— هل ضربوه ؟
ولكن الرئيس لم يجب ، لأنه كان يتناول بعض الخمرة في تلك اللحظة .
قال الفتيتة ، وهو يشعل لفافته :
— لكأنه عرف أنّ لدينا ما نحتفل به على شرفه !
وطفق أحد الحاضرين يضحك ، بينا صعّد آخر تنهيدة عميقة . ولكن حديث الفتيتة والرئيس لم يترك أثراً بيناً في أغلب هؤلاء الرجال . لم يكن من الواضح ، على الأقل ، أن الحوار أثار انفعال أحد من الموجودين أو اهتمامه ، أو أنه حمله على التفكير كثيراً أو قليلاً في الأمر . كان الجميع يرون في معلم المدرسة إنساناً قلّ أمثاله ، ولكن معظمهم قد سكروا حالياً ، بينا ظل الآخرون معتصمين بالهدوء ، غريبين عن كل ما يجري فيما حولهم ، ألاهم إلا الشماس الذي بدا عليه فجأة أنه يبذل جهداً عظيماً ، فحرك شفتيه وحك جبينه ، ثم أرسل صوتاً أشبه بخوار متوحش :
— فلتكن إرادة الله !
فصفر الفتيتة من بين شفتيه :

– أنت ! ماالذي يحملك على الزمجرة ؟

ونصح الرئيس :

– اكسر له بوزه !

فتردد صوت تياباً المبحوح يقول :

– أيها الأبله ! عندما يموت إنسان ما يجب أن يصمت الذين يحيطون به ... فليخيم الصمت إذن !

وران الصمت في كل مكان تقريباً ، إنْ في السماء المغطاة بالسحب ، والتي تهدد في كل حين بالانفجار في مطر غزير ، أو على الأرض المرتدية ظلمات ليل الخريف البهيمة . وكان شخير النائمين يسمع من حين لآخر ، ممتزجاً بقرقرة الخمرة التي تُسكب ، أو ضجيج المضغ العنيف الصاخب . وكان الشماس يغمغم بشيء ما ، وبعض السحب تزحف بصورة منخفضة جداً حتى ليخيل إلى المرء أنها ستصطدم بسقف الدار العتيقة ، وتقلبها على هذه الجماعة من البشر فتردمهم تحت أنقاضها .

غمغم الرئيس متثائباً :

– آه ! .. إن موت صديق قريب يبعث الالم في القلب حقاً !

وأحنى رأسه على صدره ..

ولكن أحداً لم يحر جواباً .

– من بيننا جميعاً ، كان أفضلنا ... أذكانا ، وأكثرنا نبلاً ... إني أرثي له ...

وطفق الشماس يرفس صديقه الذي ينام إلى جانبه في خاصرته ، وهو يكيل له الشتائم دون حساب قائلاً :

– « من الأعماق » ! .. هيا ، أنت ، أيها الحيوان الأعور ، رتل !

فصفر الفتينة في غضب ، وهو ينصب على قدميه :

– اصمت ! ... أنت !

فاقترح مارتيانوف ، وهو يرفع رأسه :
— سوف أدوس على جمجمته !
فتوجه إليه أريستيد فوميتش قائلاً في لهجة عذبة غير معهودة :
— آه ! أنت لست نائماً ؟ هل سمعت ؟ معلم المدرسة ! ..
وتقلب مارتيانوف على الأرض بتثاقل ، ونهض ، وتطلع إلى شعاعات النور التي تنبعث من باب القاعة ونوافذها ، ومن ثم هزّ رأسه ، وتقدم فاتخذ مكانه إلى جانب الرئيس دون أن يقول شيئاً .
واقترح عليه هذا الاخير :
— هل لك في جرعة ؟
وتحسسا الاقداح في العتمة حتى وجداها ، فشربا .
قال تيابا :
— سأذهب وأرى قليلاً ... لعله في حاجة إلى شيء ما .
فقال الرئيس متضاحكاً :
— إنه في حاجة إلى التابوت ...
فتوسل الفتيتة إليه بصوت مخنوض :
— لاتتكلم هكذا إذن !
ونهض النوء عن الأرض بعد تيابا . وأراد الشماس أن ينهض أيضاً ، ولكنه سقط على جبينه ، وهتف ببعض الشتائم بصوت مرتفع .
وعندما ذهب تيابا ، ضرب الرئيس كتف مارتيانوف بيده وشرع يتكلم بصوت غير مرتفع :
— حسناً ! هكذا ، يا مارتيانوف . . كان يجب عليك أن تحس هذا بصورة أفضل من الآخرين . لقد كنت . . ولكن إلى الشيطان كل هذا ! هل ترثي لفيليب ؟
فأجاب السجان السابق ، بعد برهة وجيزة من الصمت :

ـــ كلا ! أنا ، يا صاح ، لاأحس شيئاً من كل هذا .. لقد فقدت عادة ذلك . إن العيش على هذا القرار يبعث الاشمئزاز في نفسي . إني جاد كل الجد عندما أقول إني سأقتل شخصاً ما . .

فأجاب الرئيس في شرود :

ـــ نعم ؟ حسناً ... هل لك في جرعة أخرى ؟...

ـــ يلزمنا شيء قليل جداً ... أن نشرب جرعة ... ثم جرعة أخرى ...

واستيقظ سيمتسوف ، وطفق يغني بنغمة مفعمة سعادة وغبطة .

ـــ ياأخوة ! من هناك ؟ صبوا قدحاً للعجوز !

وصبوا له فنجاناً ، وقدموه اليه .

شرب ، وسقط من جديد أرضاً ، ناطحاً برأسه عطف أحد الحاضرين .

واستمر هذا السكون الكئيب دقيقتين أو ثلاث دقائق ، مليئاً بذعر غريب مثل هذا الليل الخريفي ، ومن ثم طفق بعضهم يهمس بشيء ما غير مفهوم .

وتردد سؤال مرتفع النبرات :

ـــ ماذا ؟

فعاد الشخص الذي كان يهمس قبل برهة وجيزة يقول بصوت نصف مرتفع :

ـــ إني أقول : لقد كان فتى شجاعاً ، كان دماغاً حقاً . ووديعاً بالاضافة !

ـــ بلى .. ثم ـ لقد كان يملك مالاً . ولم يكن يمسكه عن الرفاق .

وعاد السكون يرين من جديد ..

ـــ إنه يتقلى !

رنت صيحة تيابا هذه فوق رأس الرئيس تماماً .

وعندئذ نهض أريستيد فوميتش ، وثبت قدميه في الارض بقوة مبالغ

فيها ، ومن ثم سار نحو المأوى .

سأل تيابا :

ـــ ما الذي يحملك على الذهاب إلى هناك ، لاتذهب .. فكر ، إنك سكران ... هذا ليس حسناً !

فتوقف الرئيس وطفق يفكر .

ـــ وأي شيء حسن على هذه الأرض ؟ إذهب إلى الشيطان !

ودفع تيابا عنه ...

كانت الظلال مابرحت تتراقص على جدران القاعة وكأنها تتقاتل في سكون.

وكان معلم المدرسة متمدداً على اللوح الخشبي على طول جسده ، وهو يحشرج باستمرار ، عيناه مفتوحتان كثيراً ، وصدره المكشوف يرتفع في عنف ، وزبد قليل يغلي على زاوية فمه ، وسيماه شديدة التوتر فكأنه يحاول أن يقول شيئاً هاماً صعباً ، لكن يعجز عنه ، فيتألم لذلك بصورة لا يمكن التعبير عنها .

وقف الرئيس تجاهه ، وقد تصالبت ذراعاه خلف ظهره ، وظل فترة يتأمله في صمت تام ، ومن ثم شرع يتكلم ، مغضن الجبين بصورة تنم عن ألم عظيم :

ـــ فيليب ، قل لي شيئاً ... ألقِ كلمة عزاء إلى صديقك ... أنا ، أيها الأخ ، إني أحبك . . . إن سائر البشر حيوانات قاسية ، أما أنت فقد كنت لي إنساناً ، بالرغم من كونك سكيراً . .. آه ! كنت تشرب الخمرة ، يافيليب ! وهذا هو بالضبط ما أدى بك إلى الدمار .. ولماذا ؟ كان يجب أن تعرف كيف تسيطر على نفسك ... وتصغي إلي . أفلم أكن أقول لك ، فيما مضى ؟ ...

وإذا تلك القوة العجيبة ، المدمرة الشاملة ، المدعوة الموت تقرر ، وكأن وجود هذا الرجل السكران أمام حادثة نضالها مع الحياة ـ هذا

النضال الرهيب والمهيب معاً — قد أساء اليها ، كأن تلك القوة العجيبة قد قررت إذن أن تنهي عملها المجرد عن الرحمة بصورة أسرع مما كانت تنوي قبلاً ، فاذا معلم المدرسة يصعّد تنهيدة عميقة . ويزمجر في صوت مخفوض ، وتهتز سائر أعضائه اهتزازاً سريعاً ومن ثم يتمدد ، جانباً ، متصلب الأوصال .

وتأرجح الرئيس على قدميه ، وهو يتابع خطابه :

— ماذا أصابك ، سوف أجلب لك قليلاً من الفودكا ، هل تريد ؟ .. ولكن يفضل ألا تشرب ، يافيليب ! تمالك نفسك ، فلا بد من أن تنتصر على ذاتك . ومع ذلك ، فاشرب جرعــــة ! ما جدوى تمالك النفس ، إذا أردت الصراحة ؟ ماجدوى ذلك ، يافيليب ! أليس هذا صحيحاً ؟ ما جدوى ذلك ؟

وأمسك به من إحدى ساقيه ، وشده إليه .

— آه ! لقد نمت ، يافيليب ؟ حسناً . . نم ! طابت ليلتك ! . . غداً سأوضح لك كل هذا ، وتقتنع عندئذ أن المرء يجب ألا يحرم نفسه من أي شيء على الاطلاق . أما الآن ، فنم .. إذا لم تكن قد فارقت الحياة ...

وخرج ، يرافقه الصمت ، وعندما أصبح قرب أصحابه أعلن :

— لقد نام .. أو أنه مات .. لاأدري ... إني سكران قليلاً ..

وانحنى تيابا على الأرض أكثر من ذي قبل ، ورسم إشارة الصليب على صدره ، بينا انكمش مارتيانوف على نفسه ، وتمدد على التربة دون أن يقول شيئاً . وطفق النوء ، هذا الصبي الأبله ، يبكي بصوت خفيض ونغمة شاكية ، مثل امرأة عاملوها بقسوة ، في حين راح الفتيتة ينتفض على الأرض ، وهو يقول بصوت واطىء ، ولهجة مفعمة غضباً وعذابا :

— ألا فليأخذكم الشيطان جميعاً ، مهما تكونوا ، أيها الجلادون ! ...

حسناً . لقد مات ثم ماذا ؟ وأنا . . . أية حاجة بي إلى معرفة ذلك ؟ عندما يحين أجلي ، فسوف أموت أنا الآخر . مثلي مثله . . . أنا لست أسوأ من الآخرين .

فقال الرئيس بصوت مرتفع ، وهو يتهاوى على الأرض :

— هذا صحيح ! سوف تأتي الساعة ونموت نحن جميعاً ، مثلنا مثل الآخرين . آه ! آه ! كيف نكون قدحيينا . . . هذا لايهم ! ولكننا سنموت مثل سائر الناس ! إن هذا هو هدف الحياة . صدقوا كلامي . ذلك أن الانسان يحيا كي يموت ، وإنه ليموت ... وإذا كان الأمر كذلك — أفليس سواء لماذا وكيف يموت ، وكيف عاش حياته أيضاً ؟ أليس هذا صحيحاً ، يامارتيانوف ؟ اذن فلنشرب أيضاً ... وأيضاً طالما نحن على قيد الحياة .

وابتدأ الغيث ينهمر ، ودياجير كثيفة خانقة تغطي أجساد هؤلاء القوم الذين يتمددون على الأرض ، حيث كدسهم النعاس أو السكر . وارتجفت عصابة النور المنبعثة من القاعة ، بعد أن شحبت واصفرت ، ومن ثم تلاشت بصورة مفاجئة : مما لاريب فيه أن الريح أطفأت القنديل ، أو أن الزيت احترق عن آخره . وكانت قطرات المطر تسقط على سقف المأوى الحديدي ، تقرعه في استحياء وتردد ؛ ومن أعلى الهضبة ، من المدينة ، ترن ضربات الأجراس نادرة كئيبة إن بعض الناس يصلون ، ساهرين ، في الكنيسة .

كان الصوت النحاسي ، المتطاير من قبة الجرس يسبح في الظلمة قليلاً ، ومن ثم يموت في أحضانها بصورة عذبة لطيفة ، وقبل أن تجد الظلمة الوقت الكافي كي تخنق نغمته الأخيرة ، هذه التنهيدة المرتجفة المترددة ، كانت ضربة جديدة تولد ، فتنثره آهة المعدن المكتئبة الحزينة من جديد سابحة في سكون الليل المظلم .

٥

كان تيابا أول من استيقظ في الصباح .

اضطجع على ظهره ، وتطالع إلى السماء ، لأن عنقه المشوّه لم يكن يسمح برؤية السماء إلا إذا اتخذ هذا الوضع الغريب .

كانت السماء رمادية بصورة منتظمة ، في ذلك الصباح ، والظلمة الباردة الرطبة قد تجمعت هناك عالياً وتكثفت ، وأطفأت نور الشمس وأخمدته ، وأخفت المدى الأزرق في طياتها وهي تصب الكآبة على الأرض صباً ..

رسم تيابا إشارة الصليب ، واعتمد أحد مرفقيه كي يرى إذا لم يبق بعض الخمرة في مكان ما . إن الدن ما برح هناك ... فارغاً ! ومرّ تيابا من فوق رفاقه ، وسرع يتفحص الاقداح ، فاكتشف فنجاناً يكاد أن يكون مليئاً ، اشتفّ مافيه دفعة واحدة ومسح شفتيه بكمه ، ومن ثم هز الرئيس من كتفيه ...

— إنهض ، هيا ! هل تسمع ؟

فرفع الرئيس رأسه ، ونظر بعينيه الكامدتين .

— يجب أن نعلم الشرطة بالأمر .. هيا ، إنهض ؟

فسأل الرئيس بصوت ناعس مستاء :

— ماذا ؟

— ولكن ... إنه مات ؟

— من هذا ؟

— ولكن العالم ...

— فيليب ؟ آه ، بلى .

فبحّ تيابا بلهجة عتاب :

ـــ ولقد نسيته ؟ إيه !

ونهض الرئيس وهو يتثائب في رنين وضوضاء، وحرك أعضاءه بقوة وعزم حتى طقطقت عظامه .

- إذن ، فاذهب أنت ، واخبرهم بما حدث ...

فقال تيابا ، أنبس الوجه :

ـــ لن أذهب .. ذلك أني لا أحبهم ، هؤلاء القوم !

ـــ إذن ، أيقظ الشماس . وأنا سأذهب كي أري قليلاً .

ـــ حسناً ... أيها الشماس ، انهض !

دلف الرئيس الى القاعة ، واتخذ موقفه عند قدمى معلم المدرسة .

كان الميت يتمدد، على طول جسده، ويده اليسرى ترتاح على صدره، بينما ارتمت اليمنى الى الخلف. وكأنها تتهيأ كي تصفع احداً . وفكر الرئيس أنه اذا نهض معلم المدرسة الآن فلسوف يـكون بطول تاراس ونصف بكل تأكيد ومن ثم جلس على الالواح، عند قدمي رفيقه ، وصعد زفرة حرّى عندما تذكر أنهما عاشا معاً طوال ثلاث سنوات تقريباً .

ودخل تيابا، ممسكاً برأسه مثل ثور يتهيأ لأن ينطح بقرنيه، وجلس عند الجانب الآخر من قدمي معلم المدرسة ، وتطلع الى محيـاه المسمر ، الهادىء والرزين معاً ، الذي انطبقت شفتاه بعزم ، ولم يلبث أن ردد بصوته المبحوح :

ـــ بلى ... هذا هو قد مات ... لسوف أموت عن قريب أيضاً !

فقال الرئيس ، عابساً مقطب السحنة :

ـــ بالنسبة إليك .. إن الوقت قد حان !

فوافق تيابا :

ـــ لقد حان الوقت ، بلى ! وأنت أيضاً سوف تموت يوماً ما ...وذلك أفضل على أية حال من هذه الحياة التي نعيشها ...

ـــ وربما أسوأ ، ما أدراك ؟

ـــ كلا ، ذلك لن يكون أسوأ . إذا مت فانك ستواجه الله إذن ... أما ههنا ، فان البشر هم الذين تعاملهم . . والبشر ، أي شيء هم هؤلاء ؟

فقاطعه كوفالدا غاضباً :

ـــ حسناً ، كفاك صياحاً وعويلاً !

وأطبق صمتٌ عميق على القاعة ، في الضوء القليل الذي يرين عليها . ظلا طويلاً عند قدمي الرفيق الميت ، يتطلعان إليه من حين لآخر ، وهما مستغرقان في بحر أفكارهما . ومن ثم سأل تيابا :

ـــ هل ستدفنه أنت ؟

ـــ أنا ؟ كلا ! فلتدفنه الشرطة .

ـــ إيهْ ! هيا ، ادفنه أنت ... فأنت الذي أخذت من فافيلوف المبلغ الذي يعود إليه من الدعوى . . واسوف أعطي بدوري بعض المال ، إذا كان ذلك المبلغ لا يكفي ...

ـــ إن ماله في حوزتي ... ولكني لن أدفنه .

ـــ ليس هذا حسناً . إنك تسرق رجلاً ميتاً . . إنتظر ، سوف أعلن للجميع أنك تنوي أن تسلب ماله !

فقال كوفالدا في ازدراء :

ـــ إنك حيوان ، أيها الشيطان العجوز !

ـــ أنا لست حيواناً .. ولكن ذلك ليس حسناً ، أصدقك القول ، وخاصة من صديق .

ـــ حسناً ، لا تزعجني !

ـــ يا الله !.. وما مقدار المبلغ ؟

فقال كوفالدا في شرود :

ـــ ورقة من فئة الخمسة وعشرين روبلاً .

— ياللطيف ! إنك تستطيع تماماً أن تعطيني ورقة من فئة الخمسة .

فقال الرئيس، وهو يتطلع إلى محيا تيابا في لا مبالاة :

— يا لك من لص ، أيها العجوز !

— حسناً ، ماذا ؟ أعطني ، أقول لك .

— إذهب إلى الشيطان ! سوف أبني له نصباً بهذا المال .

— وماذا يصنع به ؟

— سوف أشتري رحى ومرساة ، وأضع الحجر على القبر .. وسوف أربط المرساة بالحجر بواسطة سلسلة .. سوف يكون ذلك ثقيلاً جداً ..

— وما جدوى ذلك ؟ إن أفكارك لغريبة حقاً !

— هذا ليس من شأنك !

فهدده تيابا من جديد :

— خذ حذرك ، فسوف أصرّح بكل شيء .

فتطلع إليه أريستيد فوميتش بعين مكتئبة ، ولجأ إلى الصمت بكل بساطة ، فخيم السكون من جديد ، هذا السكون الذي يتخذ دوماً ، في حضرة الموت ، ميزة رهيبة وغريبة .

قال تيابا :

— هل تسمع ؟... هؤلاء هم قادمون !

ونهض وخرج من القاعة ...

وسرعان ما ظهر على عتبة الباب مفوض الشرطة ، وقاضي التحقيق ، والطبيب . واقترب ثلاثتهم ، كل بدوره ، من معلم المدرسة ، ومن ثم خرجوا بعد أن ألقوا عليه نظرة سريعة ، وهم يتطلعون إلى كوفالدا بصرامة وارتياب .

ولكن هذا الاخير بقي جامداً في مكانه ، دون أن يعيرهم أدنى انتباه . وعندما سأل مفوض الشرطة ، وهو يدل على معلم المدرسة باشارة من رأسه :

— ماسبب وفاته ؟

ردّ كوفالدا عليه قائلاً :

ــ اسأله . . بسبب عدم العادة ، فيما اعتقد . .

فسأل قاضي التحقيق :

ــ كيف ؟

ــ أقول إنه مات ، في رأيي ، بسبب عدم اعتياده على هذا المرض الذي سقط فريسة له . .

ــ هـ ـ م .. نعم ! هل كان مريضاً منذ زمن طويل ؟

واقترح الطبيب بصوت مفعم ضجراً :

ــ لو يحملونه حتى ههنا ؟ إن المرء لا يستطيع رؤية شيء في الداخل . ربما كانت هناك بعض الآثار ..

فأصدر مفوض الشرطة أمره إلى كوفالدا قائلاً :

ــ إذهب إذن ونادِ أحداً كي يحمله !

فردّ عليه الرئيس في لامبالاة :

ــ نادِه بنفسك ... إنه لا يزعجني مطلقاً حيث هو موجود الآن

فهتف الشرطي ، وقد أربدّ محياه غضباً :

ــ هيْ !

فأجاب كوفالدا ، دون أن يتحرك من مكانه ، في وقاحة باردة وهو يكشر عن أسنانه :

ــ ديْ !

فصاح مفوض الشرطة ، وقد أفلت منه زمام نفسه حتى احتقن محياه بكامله :

ــ فليأخذني الشيطان ! إني لن أترك هذا يمرّ ! .. إني . .

ولكن التاجر بيتونيكوف ، الذي ظهر على العتبة بصورة مفاجئة ، قاطعه بصوت مفعم بالعذوبة :

ـــ طاب صباحكم ، يا سادتي .. احتراماتي !

وأحاط سائر الحاضرين بنظرة سريعة ثاقبة ، فلم يلبث أن انتفض ، وتراجع خطوة إلى الوراء ، ورفع قبعته عن رأسه ورسم إشارة الصليب في انسحاق عظيم ، ومن ثم انتشرت ابتسامة نصر مفعمة بسوء الطوية على محياه ، وسأل في احترام عميق ، وعيناه مثبتتان في الرئيس :

ـــ ماذا حدث ؟ لقد اغتيل رجل ، فيما يلوح لي ؟

فأجابه قاضي التحقيق :

ـــ ولكن إليك . لقد حدث شيء من هذا القبيل .

وصعَّد بيتونيكوف زفرة عميقة ، ورسم إشارة الصليب مرة ثانية ، ومن ثم شرع يتحدث في لهجة حزينة :

ـــ آه ، أيها الرب الالـه ! هذا ما كنت أخشاه ! . إني لاتذكر جيداً ، في كل مرة يدخل المرء فيها إلى هنا . وفي كل مرة ينظر فيها .. آيْ ، آيْ ، آيْ ! . ومن ثم يرجع المرء إلى داره ، فيخيل إليك ، طوال الوقت ، أن أشياء عديدة . فليحفظنا الله جميعاً ! . كم مرة أردت . . . لهذا السيد الواقف هناك . . رئيس أركان حرب الكتيبة المذهبة . . . أردت أن أصرفه ، ولكن ماذا تريدون ؟ لقد كنت أخاف دوماً ... أنتم تعرفون . فهذا عالم غريب . حتى ليبدو من الأفضل أن يخضع الانسان ويستسلم ، كما كنت أحدث نفسي . وإلا ماذا ؟ إن المرء لا يدري . .

ورسم في الفضاء إشارة بطيئة غامضة ، ومسح بيده على وجهه ، وجمع لحيته في قبضة واحدة ، وتنهد من جديد :

ـــ قوم خطرون . . وهذا السيد نوع من الزعيم . . . زعيم عصابة بكل معنى الكلمة .

فقال مفوض الشرطة وعليه سيماء تعد بأشياء كثيرة ، وهو يشمل الرئيس بأنظار حقودة :

ـ سوف نحبسه قليلاً ، فأنا الآخر أعرفه جيداً !

فأكد كوفالدا في ألفة تامة :

ـ بلى ، بلى ، ياصاح ، فنحن صاحبان قديمان ! كم مرة شحمت لك يدك ، أنت ورجالك ، كي أحملكم على التزام الصمت والسكون !

فصاح مفوض الشرطة :

ـ أيها السادة ، هل سمعتم ؟ إني أرجوكم أن تتذكروا ذلك جيداً ! لن أترك هـــذا يمر هكذا .. آه آه هكذا إذن ؟ حسناً ، لاتنسَ ذلك ، فلسوف ، لسوف أذلك ، ياصديقي العزيز .

فقال أريستيد فوميتش في هدوء :

ـ لاتتبجح وأنت غاد إلى الحرب ، ياصديقي العزيز .

كان الطبيب ، وهو فتى يحمل نظارتين ، يتفحصه في فضول ، أما قاضي التحقيق فبانتباه يشوبه توقع عواقب وخيمة ، وبيتونيكوف بهيئة الظافر ، بينا مفوض الشرطة يصيح ، وينتفض ، ويلوح بيديه مهدداً متوعداً .

وبدا محيا مارتيانوف القاتم على عتبة القاعة ، وتقدم في هدوء واتخذ مكانه خلف بيتونيكوف ، بحيث أصبحت ذقنه فوق رقبة التاجر تماماً .

وإلى الوراء منه ، وإلى جانبه قليلاً ، كان الشماس يتطلع ، جاحظ العينين الصغيرتين ، المنتفختين والمحمرتين .

اقترح الطبيب :

ـ ومع ذلك ، أيها السادة ، يجب أن نصنع شيئاً ما !

وكشر مارتيانوف بصورة هائلة مخيفة ، ومن ثم تمخط على حين غرة ، فوق رأس بيتونيكوف تماماً ، فأرسل هذا الأخير صيحة حادة ، وانطوى

على نفسه ، وقفز جانباً بحيث كاد أن يقلب مفوض الشرطة أرضاً ، لو لم يتلقه هذا بين ذراعيه .

قال التاجر بصوت مذعور ، وهو يشير إلى مارتيانوف :

ـ هل رأيتم ؟ هؤلاء هم القوم الذين يسكنون هنا ! مارأيكم ؟

وقهقه كوفالدا ، وضحك الطبيب وقاضي التحقيق ، بينا اقترب من باب القاعة أشخاص آخرون ، وجوههم نصف نائمة ، منتفخة ، محمرة العيون ، ملتهبة التقاطيع ، ورؤوسهم شمثاء الشعر ، يتزايد عددهم باستمرار ، يتفحصون في ألفة تامة الطبيب وقاضي التحقيق ورئيس الشرطة جميعاً .

وصاح الشرطي الذي يرافق رئيسه يعنفهم ، وهو يجرهم من أسمالهم ويبعدهم عن البـاب :

ـ لاتتدافعوا هكذا !

ولكنه كان وحيداً ، أما هم فكثرة ، يزدحمون دون أن يعيروه انتباهاً ، تفوح منهم رائحة الخمرة ، صامتين يبعثون على الرهبة ... وتطلع كوفالدا إليهم ، ومن ثم تطلع إلى رجال السلطة الذين أرهبهم نوعاً ما وجود جمهور هذا المجتمع غير اللائق ، وخاطبهم متضاحكاً :

ـ أيها السادة ، لعلكم تريدون أن تتعرفوا إلى المستأجرين عندي ورفاقي ؟ . . هل تريدون ؟... هذا سواء ... فعاجلاً أو آجلاً سوف تجبرون ، بدافع من واجبات وظيفتكم ، على التعرف إليهم .

وطفق الطبيب يضحك في ارتباك ، أما قاضي التحقيق فضم شفتيـه بعنف ، بينا خمن مفوض الشرطة ما يتوجب عليه أن يفعل ، فصاح في اتجاه الساحة الخارجية :

ـ سيدوروف ! صفّر .. قل ، عندما يأتونك ، أن يجلبوا عربة إلى هنـا ...

وقال بيتونيكوف ، وهو يخرج من حيث لايدري أحد :

— وأنا ، سأذهب ! إن مسكني الصغير ، أيها السادة ، أرجوكم أن تفرغوه اليوم بالذات ، لسوف أهدم هذا الكوخ الصغير .. تدبروا أمركم ... وإلا فاني سأتوجه إلى الشرطة ...

وتردد في الساحة الخارجية صفير حاد تطلقه صفارة الشرطي ، بينا سكان القاعة يتراصون عند الباب في كتلة كثيفة مزدحمة ، يتثاءبون ويحكون جلودهم في تكاسل .

قال أريستيد كوفالدا ، وهو يضحك :

— وهكذا فأنتم لاتريدون أن تتعرفوا إليهم ... ياالكم من أناس قليلي الأدب !

وتناول بيتونيكوف حافظة نقوده ، ونبش فيها ، وأخذ منها قرشين كبيرين وضعهما عند قدمي المتوفى وهو يرسم إشارة الصليب ...

— فليباركنا الله ! .. من أجل قبر الجثمان الخاطيء ! ..

فزعق الرئيس هاتفاً :

— ماذا ؟ أنت ؟ من أجل القبر ؟ استرجع ذلك حالاً ! ولكن استرجعه ، أقول لك ! .. أيها الحيوان ! .. أتجسر على إعطاء قروش مسروقة من أجل قبر رجل شريف ؟ لسوف أحيلك غباراً !

فصاح التاجر والفرق يملأ قلبه ، وهو يمسك مفوض الشرطة من مرفقه :

— ياصاحب السعادة !

وانطلق الطبيب وقاضي التحقيق خارج المكان ، بينا هتف مفوض الشرطة بملء صوته :

— سيدوروف ، الى هنا !

وتكدس الذين كانوا بشراً عند الباب مشكلين من أجسادهم جداراً كثيفاً،

وقد دبت الحياة في وجوههم المتجعدة لدى هذا المشهد ، وراحوا يتطلعون ويصغون في انتباه مركز .

لوّح كوفالدا بذراعه فوق رأس بيتونيكوف ، يزمجر في قسوة وعيناه المحتقنتان دماً تدوران في محجريهما في حيوانية متوحشة :

— أيها الجبان واللص ! استرد المال ! أيها المخلوق السافل . . .
خذ ... أقول لك .. وإلا فسوف أغمد هذين القرشين في جوفك! خذ!

ومدَّ بيتونيكوف يده نحو منحته ، ونبر وهو يحمي نفسه بيده الأخرى من قبضة كوفالدا :

— كن شاهداً ، ياسيدي المفوض ! وأنتم أيضاً ، أيها القوم الشجعان !

فقال صوت الفتيتة المرتعش :

— نحن الآخرين ، أيها البائع ، لسنا قوماً شجعاناً على الاطلاق .

كان مفوض الشرطة ، وقد انتفخ وجهه حتى غدا شبيهاً بالكرة ، ينفخ في صفارته بكل ما أوتي من عزم ، وقد رفع يده الأخرى فوق رأس بيتونيكوف الذي يتلوّى أمامه بصورة عنيفة ، حتى لتقول إنه يريد أن يدخل في بطنه .

— هل تريد ، أيها الأفعى القذر ، أن أضطرك إلى تقبيل قدميْ هذه الجثة ؟ هل تريد ؟

وأطبق كوفالدا على بيتونيكوف من ياقته ، ودفعه على الأرض حيث تدحرج ، مثل قطٍ صغير ، حتى باب القاعة .

وابتعد الذين كانوا بشراً في عجلة ، كي يفسحوا المكان للتاجر من أجل سقطته ، فتمدد عند أقدامهم ، يزمجر ذعراً وغضباً :

— إنهم يقتلونني ! .. النجدة .. إنهم يقتلونني !

ورفع مارتيانوف قدمه ببطء ، مستهدفاً رأس التاجر ؛ بينا بصق الفتية ، وانطباعات من اللذة الفائقة ترتسم على محياه ، في وجه بيتونيكوف ، فانكمش التاجر على نفسه مثل الكرة ، وتدحرج في الساحة وهو يجر نفسه على يديه وقدميه ، تشجعه ضحكات الحاضرين المنطلقة من ملء حناجرهم .

ولاح في الساحة شرطيان ، فصاح المفوض ظافراً ، وهو يدلهم على كوفالدا :

— أوقفاه ! قيداه !

وراح بيتونيكوف يتوسل اليها :

— قيداه ، ياحماتي !

فقال كوفالدا ، وهو يدفع عنه باشارة من يديه الشرطيين اللذين ركضا في اتجاهه :

— لاتلمساني ! إني لن أهرب ! سوف أذهب من تلقاء نفسي إذا كان ذلك واجباً .

وانكسف الذين كانوا بشراً الواحد تلو الآخر ، بينا دلفت العربة إلى الساحة ، وبعض الذين يرتدون الأسمال البالية قد أخذوا يجرون معلم المدرسة خارج القاعة ، عابسي الوجوه .

قال المفوض متوعداً :

— لصوف أرينك ، يا حماتي ... انتظر قليلاً !

وسأل بيتونيكوف في فرح خبيث ، مهتاجاً وسعيداً لرؤية العدو الذي توثق يداه :

— والآن ، أيها الزعيم ؟

ومن ثم أضاف :

– الآن ؟ لقد قبض عليك!.. انتظر! لسوف ترى شيئاً كثيراً بعد!..

ولكن كوفالدا ظلّ معتصماً بالصمت . كان يقف بين الشرطيين ، مستقيم العود مخيف الطلعة ، يرى إلى معـــلم المدرسة كيف يرفعونه على العربة . كان الرجـل الذي يمسك الجثة عند الابطين صغير القامة ، لم يستطع أن يضع رأسها في نفس الوقت الذي ألقيتْ الساقان فيه داخل العربة ، فظل معلم المدرسة ، طوال برهة وجيزة ، في وضعية من يريد أن يرتمي من العربة ورأسه إلى الأسفل ، ويختبيء في الأرض كي يهرب من سائر هؤلاء الناس الشريرين والأغبياء الذين لايتركونه في حال سبيله .

وأصدر المفوض أمره ، مشيراً إلى الرئيس :

– سوقوه !

ولم يحتج كوفالدا ، بل شرع يمشي ، صامتاً باسر الوجه ، كي يخرج من الساحة ؛ وعندما مرّ إلى جانب معلم المدرسة ، أحنى رأسه دون أن يتطلع إليه . وتبعـه مارتيانوف ، بمحياه المنقلب ، وما أسرع أن أقفرت ساحة التاجر بيتونيكوف من كل نفس حية .

– هيا ! فلننطلق !

وهز السائق العنان فوق عنق الحصان .

تحركت العربة ، تتدافعها أرض الساحة غير المستوية . كان معلم المدرسة متمدداً على ظهره ، تغطيه أسمال غامضة ، يرتجف بطنه باستمرار ويرتعش، يلوح وكأنه يضحك في صوت خفيض ، وفي رضىً مطلـــق ، مغتبطاً بمغادرة القاعة أخيراً كي لايعود إليها أبداً ، أبداً بعد الآن ... وكان بيتونيكوف يلاحقه بعينيه وهو يرسم إشارة الصليب في انسحاق ، ومن ثم طفق ينفض بقبعته الغبـار والأقذار العالقة بثيابه ، فينشر تعبير هـادىء من الرضى

والثقة بالذات على محياه ، بمقدار مايتلاشى الغبار عن البوديفكا التي يرتديها . إنه يستطيع أن يرى في الساحة أريستيد فوميتش كوفالدا ، وقد التوت يداه وأحكم وثاقهما خلف ظهره ، مرتفع العود ، أشيب الشعر ، بقبعته ذات الشريط الأحمر الشبيه بخط من الدماء ، يصعد المنحنى راجلاً ، وهو يبتعد أكثر فأكثر على الدوام

ابتسم بيتونيكوف ابتسامة النصر ، والتفت نحو القاعة ، فاذا هو يجمد في مكانه على حين غرة ، منتفض الأوصال ذعراً . إن شيخاً مخيفاً ، يمسك عصاً بيده ويحمل كيساً كبيراً على ظهره ، ينتصب في باب القاعة ، تغطي أسمال مهترئة جسده الطويل المنحني تحت ثقل حمله ، مثلما ينحني رأسه على صدره ، وكأن في نيته أن ينقض على التاجر انقضاضاً .

صاح بيتونيكوف :

— ماذا تريد ؟ من أنت ؟

فأجاب صوت أصمُّ مبحوح :

— إنسان ...

راقت هذه اللهجة لبيتونيكوف وهدأت من روعه ، حتى لقد افترت شفتاه عن ابتسامة ضئيلة .

— إنسان ! أنظر إلى هذا !... هل هناك بشر هكذا ؟

وحاد جانباً ، مفسحاً الطريق للشيخ الذي تقدم باستقامة في اتجاهه ، وهو يهمس في صوت أبح :

— إن هناك بشراً من مختلف الأنواع ، وذلك حسب مشيئة الله . إن هناك بشراً أسوأ مني ... إن هناك من هم أسوأ مني ... بلى !

كانت السماء الكئيبة تتطلّع إلى الساحة القذرة وإلى الرجل القصير القامة ، النظيف الثياب ، الأبيض اللحية المدببة ، الذي يسير على الأرض ، وهو يقيس شيئاً ما بخطواته وعينيه الصغيرتين الحادتين . وكان غراب

يقف على سطح الدار القديمة . ينعق في احتفال عظيم ، متطاول العنق ، متأرجح الجسد .

وكان في السحب الرمادية الصارمة التي تغطي السماء تماماً شيء متوتر، قاس ، مجرد عن الرحمة ، وكأن هذه السحب ستنفجر في اللحظة التالية ، وتنصبُّ على الأرض في سيل غزير من الأمطار ، وفي نيتها الثابتة أن تغسل كل الطين عن هذه الأرض الدنيا ، أرض البؤس ، والعذابات ، والكآبة ...

الزوجان أورلوف

١

في كل يوم سبت تقريباً ، قبيل أن تؤذن الساعة بصلاة الغروب ، كانت صيحات تهدر بالغضب والنقمة تطلقها حنجرة امرأة ثائرة مهتاجة تنبعث من نافذتي قبو منزل بالٍ قذر يملكه التاجر بيتونيكوف ، فتملأ بضجيجها وصخبها الباحة الضيقة المزدحمة بمختلف الفضلات والأنقاض ، والقائمة في إحدى زواياها أبنية المنافع العامة مصنوعة من الخشب ، قد تهرأت وتهدمت لتقادم العهد عليها ، حتى لتعجز عن النهوض ، وتهدد بالانهيار في كل لحظة .

كانت المرأة تصيح بصوت خفيض :

— كفى ! كفى ! أيها الشيطان العربيد .

فيرد عليها رجل بصوت أجش :

— إفلتيني .

— إني لن أفلتك ، إني لن أتركك ، أيها الجلاد !

— هراء ! .. سوف تفلتين .

— أقتلني ... لن أفلت !

— أنت ، إنك لتهذين ، أيتها الكافرة !

— آه ! يا أجدادي ! لقد قتلني ... آه ، يا إلهي !

— سوف تفلتين !

— إذبحني ، أيها الوحش الضاري ، إقض علي !

— لسوف تنتظرين ، فلن أفعل ذلك بضربة واحدة !

كان سينكا بينسون ، الأجير عند دهان البنايات سوتشكوف ، والذي

يقضي أيامـه يذوب الألوان في أحـــد أبنية الباحة ، ينطلق من مكانه كالسهم ، منذ الكلمات الأولى لمثل هذا الحوار ، ويروح يصيح بملء حنجرته وعيناه السوداوان كعيني الفأرة تبرقان بلمعان فائق :

— إن الأسكافيين أورلوف يتشاجران ! يالطيف ! يالطيف !

كان هـذا البينسون ، وهـو هاو متحمس لسائر أنواع الحوادث ، يركض حتى نافذتي مسكن آل أورلوف ، ويرتمي على الأرض على طول بطنه ، ويدلي رأسه الأشعث الشعر ، رأس الشقي الصغير الشرير ، بمحياه الناحل المتيقظ ، الملطخ بالتراب الأسود والأحمر ، ويصرو بعينين جائعتين إلى الأسفل ، في الثقب الأسود الرطب الذي تتصاعد منه رائحة العفونة والجـلد البالي ، والصمغ الكثيف . هناك ، في القـاع ، يتخبط في حمية ،جسدان يرسلان صيحات مبحوحة متلاحقة ، ويزمجران ويتشاتمان دون انقطاع .

وتحذر المرأة منقطعة الأنفاس :

— لسوف تقتلني ، هكذا ..

فيهدىء الرجل من روعها ، واثقاً من نفسه ، قائلاً في غضب مركز:

— ليس هذا بذي بال ! لاتخافي !

وتتردد ضربات ثقيلة رنانة تنهال على شيء طري ، ومن ثم تزحف خلفها تنهدات خافته ، وصيحات ثاقبة ، وأنين رجل يحرك ثقلاً كبيراً .

— أوه ! أوه ! أوه ! ياللطمة التي وجهها إليها بالسندان !

ويروح البينسون يصف تطور الأحداث في ذلك القبو ، بينا الجمهور الذي تجمع حوله ـ الخياطون ، والسائق ليفتشينكو ، ولاعب الأكورديون كيسليا كوف ، وهواة آخرون للتسليات المجانية ـ يسألونه في كل لحظة ، ويجرونه في فراغ صبرهم من قدميه أو من سرواله المشرب بالأدهنة الدسمة

— حسناً ؟ وفي هذه اللحظة ، ماالذي يصنعه بها ؟

فيخبرهم سينكا بما ترى عيناه ، وهو يرتعش سعادة ،متلذذاً بالاحساسات المجربة:
ـ إنه يركب عليها الآن ، ويحك لها خرطومها على الأرض . .
وينحني الجمهور ، هو الآخر ، على نافذتي العائلة أورلوف وقد اجتاحته الرغبة الجامحة في أن يشاهد بأم عينيه تفاصيل المعركة ، ولا يلبث أن تأخذه الدهشة والعجب مثله دوماً ، بالرغم من أنه يعرف منذ زمن طويل جداً أساليب جريشكا أورلوف في حربه مع زوجته .
ـ آه ، هذا الشيطان ! هل أتلفها !
فينقل سينكا إليهم الأخبار قائلاً :
ـ إن الأنف يدمى بأسره ، والدم ينفر كالينبوع !
فتهتف النسوة في خوف بالغ :
ـ آه ، يا الله ، ياالله الطيب ! آه ، ياله من جلاد جلف !
أما الرجال فيناقشون الأمر بصورة أكثر موضوعية .
كانوا يقولون :
ـ لسوف يقتلها في النهاية ، هذا أمر لاريبة فيه !
بينا عازف الأكورديون يؤكد بلهجة نبوئية :
ـ تذكروا قولي . . لسوف يفتح بطنها يوماً بسكينه . . . لسوف يمل يوماً من التخبط على هذا الغرار ، فيختم الموسيقى بأسرها بضربة واحدة . .
ويهمس سينكا ، وهو ينهض بقفزة واحدة :
ـ انتهى !
ومن ثم يطير كالكرة من قرب النافذتين حتى إحدى زوايا الساحة حيث يحتل مركزاً جديداً للمراقبة ، فهو يعرف معرفة أكيدة أن جريشكا أورلوف لن يلبث أن يخرج من مسكنه في التو واللحظة .
ويتبعثر الآخرون سريعاً ، وليس في رغبتهم أن يقعوا تحت أبصار

الاسكافي الشرس . إنــه يفقــد حالياً ، بعد انتهاء القتال ، كل أهمية في نظرهم ، أضف إلى ذلك أنــه لايتوانى عن إلحاق الأذى بهم في مثـــل هذه الأحوال .

وتكون الباحة قد أقفرت تماماً ، اللهم إلا من سينكا ، حينما يظهر أورلوف خارجاً من قبوه ، فيلقي نظرة مسترقة فيما حوله تشمل الباحة بأسرها ، لاهث الأنفاس ، ممزّق القميص ، مشعث الشعر ، غارق الوجه ـ الذي غطته سحجات عديدة ـ في بحر من العرق ، محتقن العينين بالدماء ؛ ومن ثم يتوجه ببطء ، وقد صالب يديه خلف ظهره ، نحو زحافة عتيقة ألقيت مقلوبة إلى جانب جدار المخزن الخشبي ... وكان يصفر بشجاعة في بعض الأحايــين ، ويتطلع في سائر الجهـات وكأن في نيته أن يتحدى سائر سكان منزل بيتونيكوف ، حتى إذا بلغ الزحافة جلس على العريش ، وجفف العرق والدم عن وجهه بكمّ قميصه ، وتصلب في وضعة متعبة وهو يرنو بعين كئيبة إلى جدار المنزل القذر الذي تساقط الكلس عنه ، وغطته في مختلف نواحيه خطوط من الأصبغة المتعددة الألوان ـ فقد كان من عادة عمال سوتشكوف ، وهم يعودون من العمل ، أن ينظفوا ملاقطهم على هذا الجزء من الجدار .

كان أورلوف في الثلاثين من العمر تقريباً ، عصبي المحيـا ، برونزي اللون ، دقيق الملامح ، مزين الوجه بشاربين صغيرين أسمرين يُظهران بصورة حية بارزة شفتيه الحمراوين المكتنزتين . وكان الحاجبان الكثيفان يـكادان أن يلتقيا فوق جـذر الأنف الكبير الجـاف ، تُطل من تحتهما عينان سوداوان ملتمعتان أبداً بلهيب قلق . وكان شعره المجعد ، الأشعث فوق الجبين ، يسقط في الوراء على عنق أسمر كثير الأعصاب ، أما قامته فمتوسطـة الطول ، مفتولة العضلات ، دافئة ومحدودبـة قليلا من جراء العمل المرهق . ظل طويلا قابعاً على الزحافة ، يتأمل في نوع من الخبل

الجدار المصبوغ ، بينما صدره القوي الذي لوّحته الشمس يتنفس بعمق وشدة وسرعة .

وتطفّلت الشمس ، ولكن الباحة كانت خالية من الهواء : إنها تفوح برائحة الدهان الزيتي ، والقطران ، والملفوف ، والعفونة وكانت أغان وصيحات عديدة تتصاعد من سائر نوافذ طابقيْ الدار ، ووجه شاحب هزيل ، منحن خلف أحد المصاريع ، يتأمل أورلوف من حين لآخر ، ومن ثم يتلاشى وعلى شفتيه ابتسامة باهتة ...

ويظهر الدهانون عائدين من العمل ... إنهم يمرّون إلى جانب أورلوف ، ويتطلعون إليه بصورة جانبية ، ويتغامزون ، ثم يتابعون طريقهم ، بعد أن يملأوا الباحة بلهجة أهالي كوستروما السريعة النبرات ، بعضهم إلى الحمام ، وبعضهم الآخر إلى الحانة . وكذلك يهبط الخياطون من الأعلى ، من الطابق الثاني ، متدافعين متسابقين ، وجميعهم قوم قد فقرت دماؤهم ، وتمزقت ثيابهم ، واعوجّت أطرافهم السفلية ، ويأخذون بالسخرية من جماعة كوستروما ، الدهانين . بسبب كلامهم المتدفق المتسارع ...

هذه الباحة بأسرها قد غصت بالضوضاء ، والضحك المرح الحي ، والمزاح الذي لاينتهي . أما أورلوف فلا يبرح جالساً في زاويته ، معتصماً بالصمت لا يتطلع إلى أي إنسان كان ، وليس إنسان يقترب منه أيضاً ، كما ليس إنسان يجازف بالمزاح على حسابه ، لأن الجميع يعرفونه وحشاً ضارياً في الوقت الراهن ، لا يؤمن جانبه مطلقاً .

ويبقى فريسة غضب أصم ثقيل يرهق صدره ، ويعوق تنفسه . إن خيشوميه يرتعشان أحياناً ، ويضفيان عليه هيئة الطير الجارح ، بينا تنقبض شفتاه ، وتكشفان عن صفين من الأسنان الصفر ، المتينة والضخمة . إن شيئاً عديم الشكل ، غامضاً لا حدود له ، ينمو فيه ؛ ولطخ حمر مضطربة تسبح أمام عينيه ؛ وعذاب أليم ممتزج بعطش صاد إلى الخمر يقضمان

أحشاءه قضماً وينخرانها . إنه يعرف أن الأمور ستصبح أفضل قليلاً عندما يشرب ، ولكن النهار لما ينته بعد ، وهو يخجل من الذهاب إلى الحانة في هذه الحال الممزقة المشوهة عبر الطريق حيث الجميع يعرفونه ، هو جريجوري أورلوف .

إنه يعرف قيمته ، ولا يريد أن يخرج الآن فيصير هزأة الجميع ، ولكنه لايستطيع أيضاً العودة إلى داره كي يغتسل ويرتدي ثيابه . إن زوجته هناك ، مستلقية على الأرض حالياً وقد ذاقت الأمرين من وحشيته ، وهي تبعث الاشمئزاز فيه في مثل هذه الحال دوماً . إنها تزمجر هناك ، وهو يحس أنها شهيدة ، وأنها على حق ضده . . إنه يعرف ذلك! وإنه ليعرف أيضاً أنها على حق مطلق ، وأنه مخطىء من جانبه ، الأمر الذي يضاعف من حقده لأن شعوراً مظلماً بالنقمة يغلي في قلبه ويفور إلى جانب هذا الوعي ، فيقوى ذلك الشعور على وجدانه ويسحقه . إن كل شيء في داخله غامض مؤلم ، وهو يستسلم إلى ثقل هذه الاحساسات الداخلية المرهق ، هذه الاحساسات التي لا يدري كيف الخلاص منها ، هو الذي لايعرف سبيلاً إلى الراحة إلا في تناول نصف عشرة من زجاجات الفودكا يغرق وعيه فيها ويشل قدرته .

وهذا كيسلياكوف ، لاعب الأكورديون ، يقترب منه . . . إنه يرتدي باديفكا[1] عديمة الأكمام من المخمل القطني ، وقميصاً أحمر حريرياً ، وسروالاً عريضاً ينتهي في حذائين أنيقين ، وقد تأبط آلته الموسيقية الملفوفة في قطعة من اللباد الأخضر . كان شارباه الصغيران الأسودان معوجين ، مدببي النهايتين ، وقبعته قد انحرفت في صفاقة على أذنه ، ومحياه بأسره يشع فرحاً وجرأة ووقاحة . إن

(١) لباس روسي قومي . (المترجمان)

ومرحه ، وطيب مزاجه ، ويحسد حياة السهلة اللامبالية .

« أهنئك على النصر

الذي يحمل خدك آثاره ! »

ولا يغضب أورلوف لهذا المزاح الذي سمعه حتى الآن أكثر من خمسين مرة ... ذلك أن عازف الأكورديون لا يتفوه به عن خبث وسوء نية، بل لأنه يعشق المزاح بكل بساطة .

سأل كيسلياكوف :

ـ ماذا ، يا صاح ، هل وقعت معركة بليفنا مرة أخرى ؟

وتوقف برهة أمام الاسكافي ثم أضاف :

ـ آه ، ياصديقي المسكين جرينيا ، كان يتوجب عليك أن تذهب إلى هناك حيث تذهب طريقنا بنا جميعاً .. كنا تناولنا كأساً نحن الاثنين إذن .

فقال أورلوف ، دون أن يرفع رأسه :

ـ سوف أكون هناك عن قريب !

ـ إني أنتظرك ، وأتألم بعيداً عنك ...

وسرعان ما يذهب أورلوف وراه ..

وعندئذ تخرج من القبو امرأة عبلة تتوكأ على الجدران ... إن رأسها ملفرف بمنديل ، والمرء لا يستطيع أن يرى ، من خلال الفتحة الباقية على الوجه ، إلا عيناً واحدة وقسماً من الوجنة والجبين أيضاً . وتجتاز هذه المرأة الباحة بخطوات مترددة غير ثابتة ، ومن ثم تجلس في ذات المكان الذي كان يجلس فيه زوجها قبل لحظات قليلة .. إن ظهورها لا يدهش أي إنسان كان ، فلقد اعتاده الجميع ، كما أن الجميع يعرفون أيضاً أنها لن تبرح ذلك المكان حتى الساعة التي يعود جريشكا فيها من الحانة ، مخموراً ، منسحق القلب ندامة وحزناً . وهي تخرج الي الباحة لأن

الهواء يعوزها في ذلك القبو الذي تقطنه من جهة ، ولكي تساعد جريشكا الثمل على هبوط السلم من جهة أخرى .. ان هذا السلم نصف متعفن ، وهو كثير التعرج بالاضافة ، قد ذلت القدم بجريشكا ذات مرة وهو يهبطه، فسقط والتوت ذراعه الواحدة بحيث ظل طوال اسبوعين تقريباً لايستطيع الى العمل سبيلا ، الامر الذي اضطرهما ، كي يعيشا ، أن يبيعا كل ما يملكان تقريباً ..

ومنذ ذلك الحين أصبحت ماترينا تنتظره دوماً ...

وكان بعضهم يأتي بين فترة وأخرى فيتخذ مكانه الى جانبها إنه ليفتشينكو في أغلب الاحيان ، وهو ضابط سابق متقاعد ، ذو شاربين كبيرين ، أوكراني عاقل ، حليق الرأس ، بنفسجي الأنف . كان يجلس قريباً منها ، ويسأل وهو يتثاءب قليلا :

-- لقد تقاتلتما من جديد ؟

فتقول ماترينا بلهجة متحدية معادية :

-- وما شأنك في هذا ؟

فيوضح الأوكراني متلعثماً :

-- ولكن لا ، هكذا ...

ويستريح كلاهما طويلاً دون أن ينبسا ببنت شفة .

إن ماترينا تتنفس بصعوبة ، وشيئاً ما يصفر في صدرها ويخرخر مع أنفاسها المتلاحقة . ويبدأ الأوكراني يحاكم الأمور قائلاً .

-- ولكن ما حاجتكما إلى القتال طوال الوقت ؟ هل لديكما شيء تتقاسمانه ؟

فتقول ماترينا أورلوفا بايجاز :

-- ذلك من شأننا وحدنا ...

فيوافق ليفتشينكو :

-- من شأنكما وحدكما ، هذا صحيح ..

لا بل يحني رأسه ، مؤكداً ما صرّح به لتوّه .

وعندئذ تلاحظ أورلوفا في شيء كثير من الحنق :

-- إذن ، فيم تدسّ أنفك ؟

فيقول الآخر :

-- يالك من امرأة ! إن المرء لايستطيع أن يقول لك حتى ولا كلمة واحدة ! عندما أفكر في هذا كله ! ... إنك مثيلة جريشكا في كل شيء ، وأنت وإياه تستحقان أن تجلدا بالمراوات في كل يوم ، مرة في الصباح ، وأخرى في المساء .. وعندئذ لن تبقيا قنفذين جارحين على هذا الغرار!

ويغادرها ، غاضباً ، الأمر الذي تغتبط له عظم الغبطة . . . إن الاشاعات تسري منذ زمن طويل في الباحة . تقول إن الأوكراني لايدور حولها دون مبرر ، ولذا فهي ناقمة عليه ـ ناقمة عليه وعلى سائر الناس الذين يدسون أنوفهم فيما لا يعنيهم من الأمور . ويغـدو الأوكراني إلى إحدى زوايا الباحة ، يسير مستقيم العود مثل أي جندي قوي البنيان متين العضلات بالرغم من سنواته الأربعين .

وهذا بينسون ، وقـد سقط من حيث لايدري إنسان ، يندسُّ بين فخذيه ، ويُسر إليه هامساً ، وهو يغمز بعينيه في خبث ناحية المكان الذي تقتعده ماترينا :

-- ذلك أنها ليست بالهينة ، أيها العم الصغير ! إنهـــا فجلة سوداء حقيقية ،الاثم أورلوفا !

فيهدده الأوكراني ، وهو يضحك في شاربية :

- لسوف أصفعك بالفجل حيث يجب أن أصفعك ، إنتظر !

إنه يحب هذا الشيطان الصغير بينسون ، ويصغي إليه في اهتمام ، لأنه يعرف أن سائر أسرار الباحة معروفة لديه .

ويسترسل سينكا ، دون أن يأبه لتهديده :

ــ ليس ثمة شيء كثير تصطاده عندها . لقد جرب ذلك مكسيم الدهان .. لو تتصور اللطمة التي نالها منها عندئذ ! لقد سمعت رنينها بذات أذني . . قاسيه للغاية ، في ملء وجهه ، أرسلت رنيناً فكأنها وقعت على طبل فارغ !

كان يمتص في نهم . أشبه ما يكون باسفنجة تمتلىء بالماء ، وهو نصف طفل نصف رجل بالرغم من سنيه الاثنتي عشرة ، كان يمتص ، متيقظاً متحسساً ، أطيان الحياة التي تحيط به ، وهو يحمل منذ الآن ، على جبينه ، تغضنا رقيقاً ناحلاً يثبت أن سينكا بينسون . . يفكر . . . ان الظلمة تخيم في الباحة ، وفي الأعالي يضيء لمعان الكواكب جانباً مربعاً من السماء الزرقاء . إن الباحة تبدو ، وقد أحاطت بها الجدران السامقة من كل حدب وصوب ، أشبه بحفرة عميقة عندما يتطلع المرء إلى العالي . وفي زاوية من هذه الحفرة يجلس كائن أنثوي صغير ، يرتاح من عناء الكلمات ، وينتظر أوبة الزوج الثمل ...

٢

تلك كانت السنة الرابعة منذ زواجهما . وقد أثمرا طفلاً ، ولكنه مات بعد أن عاش سنة ونصف السنة تقريباً . ولم يبكياه طويلاً ، لا هو ولا هي ، إذ سرعان ماحمل الرجاء بطفل آخر العزاء إلى قلبيهما .

كان القبو الذي يعيشان فيه يتمثّلُ بغرفـــة مظلمة ، متطاولة ، بيضوية السقف . . وكانت مدفأة روسية كبيرة تقوم قريباً من الباب تماماً تواجه النافذتين ، ودرب ضيقة تمتدّ بين هـــذه المدفأة والجدار ، تقود إلى المربع الذي تضيئه النافذتان المطلّتان على الباحة الخارجية واللتان تسقط فتحتاهما النور إلى القبو بشعاعات مائلة ، كامدة اللون ، فكل شيء فيه رطب أصمّ ، ميتٌ لاحياة فيه . إنّ الحياة تخفق في مكان ما ، هناك ، بعيداً في الأعلى ؛ أما هنا فلا تتسلّلُ إلا ضوضاء خامدة ، غامضة المعنى ، تسقط مع الغبار في حجرة الزوجين أورلوف ندفاً عديمة الشكل واللون جميعاً .

وكان سرير خشبي مزدوج يقوم تجاه المدفأة ، على طول الحائط ، خلف ستار من القطن الكستنائي اللون المطرز بورود زاهرة الألوان ، بينـا نهضت مقابل السرير ، إلى جانب الحائط الآخر ، مائدة يتناول الزوجان الشاي والطعام عليهـا وفيما بين السرير والجدار ، تحت شعاعي النور المتسربين من النافذتين ، كان الزوجان يشتغلان . . . وكانت الصراصير تتنزه في تكاسل على طول الجدران ، تقرض فتات الخبز التي استعملت لالصاق عدد من صور الصحف القديمة على كلسها ، بينا ذبابات مكتئبة تطير في كل مكان ، بطنينها المضجر ، وتوسخ الصور بفضلاتها دون

انقطاع حتى لقد صيرتها أشبه بلطخ قاتمة ترتسم على قاع الجدران الأسمر القذر .

كانت أيام الزوجين أورلوف تبدأ على هذا المنوال : تستيقظ ماترينا حوالي السادسة صباحاً ، فتغتسل ، وتسخن السماور الذي تشوه كثيراً في نيران المعارك الحامية الوطيس ، فرقعته في سائر جوانبه قطع من القصدير الأبيض . وبينا السماور يغلي ، ترتب ماترينا الغرفة ، وتغدو إلى السمان . ومن ثم توقظ الزوج النائم ، فينهض ، ويغتسل بدوره ، ويتقدم من المائدة حيث ينتظره السماور الذي يصفّر ويرتعش ، فيتناول كلاهما الشاي مع أوقية واحدة من الخبز الأبيض .

كان جريجوري يشتغل جيداً ، ويجد عملاً في كل الأوقات ، فيوزعه أثناء الشاي ، مخصصاً لنفسه العمل الدقيق الذي يحتاج إلى يد الصانع الماهر ، بينا زوجته تفتل الخيطان . وتلصق النعال ، وتضع قطعاً في أعقاب الأحذية البالية ، وتقوم بسائر التفاهات الأخرى المماثلة . وكذلك كانا يناقشان طعام الظهيرة وهما يحتسيان شاي الصباح . وتلك كانت قضية فائقة الأهمية ، وبصورة خاصة في الشتاء ، عندما يكونان في حاجة إلى تغذية جيدة . أما في الصيف . فلا يشعلان النار ، اقتصاداً ، إلا في أيام الأعياد ، وليس في كل الأعياد أيضاً ؛ فيتغذيان بمختلف أنواع الخضار النيئة الممزوجة مع الكفاس خاصة ، بعد أن يضيفا إليها قليلاً من البصل والسمك المملح ، وفي أحيان نادرة شيئاً من اللحم يطهيانه عند أحد الجيران . ويشرعان في العمل بعد الشاي مباشرة ، فيقتعد جريجوري صندوقاً مغطى بالجلد له فتحة في أحد جوانبه ، بينا تأخذ زوجته مكانها قريباً منه على كرسي واطىء .

كانا يشتغلان في سكون في البدء ـ عما عساهما تحدثان ، ياترى ؟ إنهما يتبادلان بعض الكلمات بخصوص العمل الذي بين أيديهما ، ومن ثم يلجآن إلى الصمت طوال نصف ساعة أو يزيد . إن المطرقة تطرق ، والمخرز

يخترق الجلد وهو يئن ، وجريجوري يتثاءب من حين لآخر ، ويختم تثاؤبه دوماً بالأنين أو الزمجرة ؛ بينا ماترينا تتنهد ، وتقبع بمجلسها الصمت فلا يند عنها حرف واحد . وكان أورلوف يبدأ أغنية ما في بعض الأحيان . إن صوته قاس ، معدني الجرس ، ولكنه يعرف أن يغني . إن كلمات الأغنية تجتمع تارة في نشيد موزون ، وتسبح في سهولة كبيرة وهي تتأوه ، ومن ثم تنطلق في جبروت واندفاع عظيمين من صدر جريشكا ، فكأنها تخاف ألا تنهي كل ما تريد أن تصرح به ؛ أو تتسع تارة أخرى ، على حين غرة ، فتصير تنهدات حزينة ، أو تنقلب صيحة يأس عظيم لاقرار له - « آخ » - وتطير ، مهتزة قلقة ، من النافذتين المطلتين على الباحة . وكانت ماترينا تدعم زوجها بصوتها الكونترالتو المخملي ، فتصبح هيئتهما ، معاً ، متفكرة حزينة . وتكتسي عينا جريشكا القاتمتان بضباب كثيف ، بينا تظل زوجته مستسلمة إلى حال من الخبل ، غارقة في شبه رقاد وقد أخذت الأصوات عليها سائر مشاعرها ، تتأرجح من الجانب الواحد إلى الجانب الاخر ، ومن حين لآخر تقطع اللحن في منتصفه فكأن الأغنية قد خنقتها ، ثم تشرع بعد برهة من الراحة تفتل الخيوط بصورة موزونة مع صوت زوجها . لم يكن أحدهما يحس ، طوال الفترة التي تستغرقها الأغنية ، وجود صديقه ، بل يسعيان إلى التعبير بكلمات الآخرين عن فراغ وجودهما المظلم وضجره ، أو لعلهما يريدان أن يعبرا بهـــذه الكلمات عن الأفكار والمشاعر نصف الواعية التي تولد في نفسيهما .

وكان جريشكا يصيح ، بصورة مباغتة ، في بعض الاوقات :

— إي – إي — أنت ، ياحياتي ! . . آخ ، ياحياتي الملعونة ثلاث مرات ! وأنت ، أيها العذ ـ ذاب ! آخ ! وأنت ، ياعذابي اللعين ! ... أيها العذاب اللعين ! ...

ولم تكن هذه الصيحات تروق لماترينا ، فتسأل عادة في مثل هذه الحال :

— كفّ عن العويل . إنك تزمجر مثل كلب قد استشم رائحة الموت !

وليس من يدري لماذا كان يغضب عندئذ مباشرة ، فيصب جام نقمته عليها :

— أيتها الخنزيرة ذات الخرطوم المسطح ، ماذا تستطيعين أن تفهمي ؟ هيا واذهبي إلى مستنقعك الآسن !

— هذا هو قد زمجر وزمجر ، وهو يعوي حالياً ...

—إخرسي والتفتي إلى عملك . من عساني أكون ؟ ربما أجيرك حتى تدسي أنفك وتروحي تلقين العظات عليّ . ما ؟ انتظري لحظة !

وتصمت مارينا إذ ترى الأوردة في عنقه تنتفخ ، والغضب الكريه في عينيه يلتمع ، تصمت طويلاً ، دون أن ترد على أسئلة الزوج الذي يهدأ غضبه وينطفىء بذات السرعة التي ثار بها واشتعل .

كانت تتجنب نظراته الباحثة عن المصالحة وتطلبها ، وتترقب ابتسامة تفترّ شفتاه عنها كي تتعلق بها ، والشعور المختلج بالخشية يملؤها من أن يغضب من جديد بسبب هذه اللعبة التي تلعبها وإياه . ولكن كان يلذها أيضاً أن تعبس في وجهه ، وأن ترى إلى رغبته في مصالحتها ، لأن ذلك يعني أنها تعيش ، وتفكر ، وتشعر ، وتنفعل . .

كانا في ملء الصبا ، مكتملي الصحة ، فهما يتبادلان حباً عميقاً ، وكل منهما يفخر بصاحبه الفخر كله ... كان جريشكا قوياً جداً ، ملتهب العاطفة حتى الدرجة القصوى ، وجميلاً بالاضافة ؛ أما مارينا ـ البيضاء البشرة ، الصلبة القامة ، التي تلتهب النار في عينيها الرماديتين ـ فقد كانت امرأة رائعة كما يقول عنها سكان الباحة جميعاً . كانا يتحابان إذن ، ولكن يضجران من الحياة كثيراً ، يكادان لا يعرفان أية مشاعر أو اهتمامات يمكن أن تمنحهما من وقت لآخر إمكانية أن يرتاح كل منهما من الآخر ، بحيث ترضي حاجة الفكر البشري عندهما ـ فيتعذبان ، ويفكران ، وتلتهب

عاطفتهما ، وباختصار يعيشان . ذلك أن الزوج والمرأة ، في مثل هذه الشروط من انعدام المشاعر الخارجية ، وغياب الاهتمام الذي ينفخ الحياة في الوجود ، لابدّ أن يشمئزا في النهـاية من بعضهما ، حتى وإن كانا يتحليـان بثقافة فكرية رفيعة : إن ذلك قانون محتوم ، مثلما هو مطلق العدالة . ولو كان الزوجان أورلوف يملكان هدفاً في الحياة ، وإن لم يك هذا الهدف أكثر من اقتصاد المال وتوفيره فلساً بعد فلس ، فان حياتهما كانت تصبح إذن ، من دون أدنى ريب ، أخف ثقلاً وأقل أرهاقاً

ولكن هذا الهدف نفسه كان يعوزهما .

لقد اعتاد كل منهما على الآخر ، وهما أبداً واقعان تحت أنظار بعضهما ، يعرف كل منهما سائر كلمات ومختلف حركات الآخر . وكانت الأيام تخلف الأيام دون أن تحمل شيئاً جديداً إلى وجودهما يمكن أن يسليهما أو يلهيهما . وقد يغدوان في بعض الأحيـان ، في أيام العيد ، يزوران بعض فقراء الفكر الذين يشبهونهما في كل شيء ، أو أنهما يستقبلان الزائرين بدورهما في أحيان أخرى ، فيشرب الجميع الخمرة ، ويطعمون ، وغالباً ما يتقاتلون أيضاً ، ومن ثم تعود الأيام العديمة اللون إلى جريانها المعتاد البطيء ، يتبع كل منها أمسه ، فكأنها حلقات سلسلة غير منظورة تثقل حياة هذين الكائنين بالعمل ، والضجر ، ونقمة سخيفة يضمرها كل منهما ضد صاحبه .

كان جريشكا يقول بين فترات متباعدة :

ــ يالها من حياة ! لقد كانت جدتها ساحرة ؟ ولمَ أعطيتْ لي بربك وما بغيتي منها ؟ إنه العمل المستمر ، ومن ثم الضجر الذي لايعرف حدوداً ... الضجر ، ومن ثم العمل مرة أخرى ...

ويسترسل بعد فاصلة قصيرة من الصمت ، وقد رفع عينيه نحو السقف ، واعتلت شفتيه ابتسامة غامضة :

ــ لقد وضعتني أمي في العالم حسب إرادة الله ... إن المرء لايستطيع

أن يقول شيئاً احتجاجاً على هذا . ثم تعلمت مهنتي ولكن هذا ما فائدته ؟ أفليس في العالم ما يكفي من الأسكافيين من دوني ؟ ولكن ، فلنقل ذلك ... إني اسكافي ، ثم ماذا ؟ أية لذة أجد في ذلك كله ؟ . . . إني لا أبرح مستقراً في حفرة أخيط .. وبعدئذ سوف أموت . هذه الكوليرا ، فيما يقولون ... ثم ماذا ؟ لقد كان هناك جريجوري أورلوف ، وكان يخيط الأحذية . ولقد قضت الكوليرا عليه . أي معنى في هذا ؟ وفيم يجب أن أعيش ، وأخيط ، وأموت ؟ إيه ؟

وتعتصم ماترينا بالصمت ، وهي تحس شيئاً مرعباً في كلمات زوجها . ولكنها ترجوه أحياناً ألا يتفوه بمثل هذه الكلمات ، لأنها تناقض إرادة الله الذي يعرف جيداً - ويجب أن نؤمن بذلك - كيف يرتب وجود الانسان ويوجهه . ولكنها تعلن لزوجها في أحيان أخرى ، متشككة مرتابة ، إذ تكون متضايقة سيئة المزاج :

— وأنت ، إنك تفعل حسناً إذا انقطعت عن شرب هذه الخمرة القذرة ، لأنك ستعيش عندئذ أسعد منك الآن ، ولا تندس مثل هذه الأفكار في رأسك . إن الآخرين يعيشون دون أن يتذمروا ، ويوفرون بعض المال ، ويؤسسون محلات خاصة بهم ، ويحيون بعد ذلك مثل البورجوازيين .

ولكنه يرد عليها قائلاً :

— وأنت تماثلين ، بكلماتك الخشبية هذه ، دمية شيطانية ! هلا حركت مخيخك قليلاً . . . هل أستطيع ألا أشرب ، ما دامت فرحتي تقوم في الشراب ؟ الآخرون : هل تعرفين أنت عدداً كبيراً من هؤلاء الآخرين ، السعيدي الحظ حتى هذه الدرجة التي تقولين ؟ وأنا . هل كنت هكذا قبل الزواج ؟ إنك أنت ، إذا أردت أن أقول وجداني ، أنت التي تمتصين وجودي وترهقينه ، أنت أيتها الضفدع !

وتستاء ماترينا ، ولكنها تدرك أن زوجها على حق . عندما يفرط في الشرب ، فانه يصبح إذن مرحاً ملاطفاً ، وهو لم يكن كذلك قبل الزواج .

في ذلك الحين كان فتىً ضاحكاً أبداً ، مسلياً طيب القلب .. أما حالياً ، فقد أصبح وحشاً مفترساً حقيقياً .

وكانت تسأل نفسها :

— لمَ هذا ؟ هل أنا عبء ثقيل بالنسبة إليه حقاً ؟

وينقبض قلبها لهذه الفكرة المريرة ، فتروح ترثي له ، وترثي لنفسها في الوقت ذاته ، وتقترب منه وفي عينيها نظرة ملاطفة عاشقة ، وتشد نفسها بقوة إلى صدره .

فيقول جريشكا أنبس الوجه مكتئباً :

— والآن ، لسوف تروح تلحسني بلسانها ، هذه البقرة .

ويتظاهر أنه يريد أن يدفعها عنه ، ولكنها تعرف سلفاً أنه لن يفعل ذلك ، فتلتصق به أكثر من ذي قبل ، وبقوة أعظم أيضاً .

وعندئذ تتأرث عيناه ، فيلقي العمل أرضاً ، ويأخذ زوجته على ركبتيه ، ويقبلها كثيراً وطويلاً ، وهو يتنهد بكل قوى رئتيه ، ويتكلم بصوت مخفوض ، وكأنه يخاف أن يسمع كلماته أحد :

— آه ، ياموتريا ؟ نحن نعيش بصورة سيئة ، أنت وأنا ، بصورة سيئة جداً .. ونعض بعضنا مثل الوحوش الكاسرة ، ولماذا ؟ ذلك نجمي ... إن الانسان يولد تحت نجم من النجوم ، والنجم هو مصيره !

ولكن هذا الايضاح لايكفيه ، فيشد زوجته إليه بعنف أعظم ، ويستغرق في الأحلام . .

ويظل هكذا طويلاً مشمولاً بذينك الضياء العكر والهواء المحصور اللذين يملآن قبوهما ؛ بينا تصمت هي ، وتتنهد ، أو تتذكر أحياناً ، في مثل هذه اللحظات الطيبة ، كل الاهانات واللكمات التي لاتستحقها ، والتي نالتها منه ، فتروح تشكوه إلى نفسه والدموع تملأ عينيها .

وعندئذ يروح هو ، وقد ألقى عتابها الرقيق الاضطراب في فؤاده ،

يمسح عليها بحرارة أعظم من ذي قبل ، فتنثال هي تندب حالها أكثر فأكثر ، حتى ينتهي ذلك بإثارة نقمته من جديد :

— كفى زمجرة ! ربما أتألم أنا ألف مرة أكثر مما تتألمين عندما أضربك . هل تفهمين ؟ إذن جربي أن تصمتي . إذا ماأعطيناكنّ بعض الحرية ، أنتن النساء ، فما أسرع أن تقفزن على حلوقنا ! كفى كلاماً ! ماذا يمكن أن تقولي للرجل إذا كانت الحياة تئيد عليه بكل ثقلها المرهق ؟

وكان قلبه يرق ، في أحيان أخرى ، في سيل هذه الدموع العذبة وهذه الشكاوى الملتهبة ، فيروح يوضح لها ، حالاً متعباً :

— ماذا أستطيع أن أصنع بخُلُقي هذا ؟ إني أسيء معاملتك دائماً . هذا صحيح ،وأنا أعرف أني لاأملك في الدنيا سواك ، الأمر الذي أتذكره ليل نهار . إفهمي ذلك ياموتريا .. إن عيني لاتكادان تريانك في بعض الأحيان . حتى أحس شيئاً أشبه ما يكون بالتخمة منك ، فيجتاح قلبي شر عظيم في مثل هذه اللحظات ، حتى لأود أن أمزقك ، وأن أمزق نفسي أيضاً . وكلما كنت على حق أعظم ضدي ، كلما ازدادت رغبتي في ضربك .

ومن المؤكد أنها لاتفهمه إلا قليلاً جداً ، ولكن لهجته النادمة العذبة تحمل الاطمئنان والهدوء إلى قلبها .

وتقول ، دون أن يخطر ببالها أنهما اعتادا على بعضهما منذ زمن طويل ، وأن كلاً منهما قد استنفد قوى الآخر :

— فليساعدنا الله على تحسين أحوالنا . لسوف نعتاد على بعضنا البعض .

وتقول في أحيان أخرى ، وهي تتنهد :

— إليك ، لو أنه يولد لنا طفل ، فلسوف نصبح أفضل مما نحن الآن ! لسوف تكون لنا إذن تسلية ، وشيء ما تفكر فيه !

— حسناً ، لماذا لاتضعين طفلاً ؟

– لكن ، مع هذه الضربات التي تنهال بها عليّ ، فاني لاأستطيع أن أحمل .. ذلك أنك تضرب بقوة كبيرة على البطن والعِطفين . . لو أنك توفر الرفسات على الأقل ...

ويروح جريجوري يبرىء نفسه بصوت غليظ فظ :

– وهل يستطيع الانسان أن يقدّر في مثل هذه اللحظات بأي شيء ، وعلى أي شيء ، يجب أن يضرب ؟ ثم إني لست بالجلاد ، ولاأضرب للذة الضرب فقط ، بل بدافع من العذاب ليس غير . .

فتسأل ماتريتا في اكتئاب :

– ومن أين جاءك هذا العذاب ؟

فيشرع جريشكا يتفلسف :

– ذلك هو القضاء ياموتريا ؛ القضاء ، وخُلُق النفس أيضاً ؛ أنظري، هل أنا أسوأ من الآخرين ، من الأوكراني مثلاً ؟ ومع ذلك فان الأوكراني يحيا ولايعرف هذا العذاب . إنه وحيد تماماً ، لازوجة ولا أي إنسان آخر . . أما أنا ، فاني أفطس من دونك ، ولكن هو . لاشيء ! إنه يدخن غليونه ، ويبتسم راضياً ، هذا الشيطان العجوز ، من ذلك الغليون الذي يدخنه ! وأنا لا أستطيع ... يجب أن أؤمن بأني قد ولدت والقلق في قلبي .. ذلك هو خُلقي . إن خُلق الأوكراني أشبه بالعصا ، أما خُلقي فأشبه بالنابض ، إذا ضغط عليه ، فانه يهتز .. مثلاً ، اذا خرجت الى الطريق ، فاني أرى هذا الشيء وذاك ، أما أنا فاني لا أملك شيئاً .. وهذا ما يصدمني . الأوكرني ؟ هذا لا يحتاج الى أي شيء مطلقاً ، وأنا يحرجني أن أرى أنه ـ هذا الشيطان ذو الشاربين ـ لايطلب شيئاً على الاطلاق ، بينا أنا لا أعرف ما الذي أرغب فيه . كل شيء ! آه ، بلى ! هأنذا أبقى هنا ، في هذا الثقب ، وأعمل طوال الوقت ، ولكن لا أملك شيئاً من أي شيء . وأنت أيضاً .. انك زوجتي ، فماذا فيك مما يثير الاهتمام ؟

انك امرأة مثل الأخريات ، بكل عفشكن . اني أعرف كل شيء عنك : كيف سوف تعطسين غداً - اني أعرف حتى هذا ، لأنه سبق لك أن عطست أمامي ألف مرة ، وربما أكثر من ذلك أيضاً . . . أية حياة - إني أسألك - يمكن أن تكون حياتي ؟ وأية فائدة يمكن أن أرجوها منها ؟ ليس من فائدة . . . واذن فاني أغدو الى الحانة - لأن المرء يتسلى هناك .

فتسأل ماترينا :

- ولماذا تزوجت إذن ؟

فيبتسم جريشكا ويقول :

- لماذا ؟ ان الشيطان يعرف لماذا ؟ وأصدقك القول ، كان يجب ألا أفعل ذلك ... كان يفضل أن أصبح متشرداً حافي القدمين . ان المرء قد يجوع في مثل هذه الحال ، ولكنه يظل حراً على الأقل ، يذهب أيان يشاء ! امش ، فأقطع الأرض بأسرها ..

فتعلن ماترينا ، وهي على أهبة الانفجار بكاء :

- اذن فاذهب ، ورد لي حريتي .

فيسأل جريشكا بلهجة مفعمة بالرزانة :

- أنت ؟ وأين تذهبين ؟

- هذا . إنه من شأني .

- أين هذا ؟

وتلتهب عيناه ، منذرتين بالويل والثبور .

- لا تعو ... إني لست بخائفة ...

- لعلك اصطدت أحداً ؟ تكلمي !

- دعني !

فيزمجر جريشكا :

ــ أدَعْ أين ؟

لقد أمسك بها من شعرها ، بعد أن نزع منديلها عن رأسها . وتوقظ قسوته الغضب في نفسها . والغضب يوفّر لها لذة فائقة ، ويحرّض كل نفسها ، فبدلاً من أن تطفىء غيرته بكلمتين صغيرتين ، تروح تتحداه أكثر من ذي قبل ، وتبتسم في وجهه ابتسامات غريبة تريد أن تقول أشياء كثيرة . ويتفاقم غضبه فيضربها ، يضربها دون رحمة أو شفقة .

وعندما تضطجع ليلاً إلى جانبه في السرير ، محطمة الأعضاء خائرة القوى ، يروح يتطلع إليها بنظرات جانبية وهو يتنهد بصعوبة وألم عظيمين . إنه يستشعر ضيقاً شديداً ، ووجدانه يعاتبه ويؤنبه ، وقد أدرك أن غيرته لم يكن لها مبرر ، وأنه قد ضرب زوجه ظلماً وعدواناً .

ويقول ، مضطرباً ، مبلبل الخاطر :

ــ والآن ، كفانا نتصرف هكذا أهي خطيئتي إن كان ذلك هو خُلقي ؟ وأنت أيضاً ، يالك من امرأة غريبة الأطوار .. بدلاً من أن ترديني إلى جادة الصواب ، تروحين تتحدينني وتثيرينني . أية حاجة تدفعك إلى التحدي ؟

وتظل معتصمة بالصمت ، ولكنها تدري لماذا . إنها تعرف الآن ، بعد أن أذاقها مر العذاب والاهانات ، أن المداعبات تنتظرها ، المداعبات العذبة الملتهبة التي تطلب المصالحة وتسعى إليها . ولقد كانت مستعدة لأن تدفع ثمن هذه الملاطفات ، يومياً ، بآلام عطفيها المرهقين . وتبكي ، في فرحة الانتظار ، قبل أن يجد الزوج الزمن كي يلمسها .

ويهمس :

– هيا ، هيا ، ياموتّريا ! هيا ، ياحمامتي الحبيبة . كفى بكاءٌ ، اصفحي عني ، تعالي نر !

ويمسح على شعرها ، ويقبلها ، والمرارة التي تملأ كل كينونته تحمل أسنانه على الصرير .

إن نافذتيها مفتوحتان ، ولكن الجدار الذي يسند المنزل المجاور يخفي السماء عنها . أما في غرفتها ، فان الظلام يخيم مثله دوماً ، والهواء والمكان جميعاً لا أثر لهما .

ويهمس جريشكا ، عاجزاً عن التعبير عن الألم الذي يحسه :

– آه ، يا لهـا من حياة ! آه ، ياللأشغال الشاقة الرائعة ! كل ذلك بسبب هذه الحفرة التي نقطنها ، ياموتريا . مانحن ؟ لكأننا دفنا قبل الموت .

فتقترح ماترينا عليه ، من خلال عبراتها العذبة ، وقد أخذت كلماته بمعناها الحرفي :

– فلننتقل إلى مسكن جديد .

– أوه ، كلا ، ليس هذا ماعنيته ، ياعمتي الصغيرة ! لو انتقلنا إلى الطابق الأعلى ، فاننا سنظل في الحفرة بالرغم من ذلك . . ليس المسكن هو الحفرة ، بل الحياة هي الحفرة !

وتأخذ ماترينا بالتفكير ، ثم تضيف من جديد :

– لعل الله يساعدنا ، فتتحسن الأحوال ، ونعتاد على ذلك .

– آه ، أنت ! سوف تتحسن الأحوال ، ماأكثر ماتقولين ذلك ! ولكن شأننا ، ياموتريا ، لايتحسن ... إن الفضائح تحدث أكثر فأكثر ، هل تفهمين ؟

كان ذلك صحيحاً بكل تأكيد فان الفواصل بين كل قتال وقتال تقصر

أكثر فأكثر ، حتى أصبح جريشكا ، كلما حل يوم السبت ، يزمجر ضد زوجته منذ الصباح الباكر .

ويعلن أخيراً :

—هذا المساء ، بعد انتهاء العمل ، سوف أذهب إلى الحانة عند الأصلع ... ولسوف أسكر .

وتعتصم ماترينا بالصمت ، وجفناها يرفان بصورة غريبة .

ويحذرها قائلاً :

—أتصمتين ؟ اصمتي بعدقليل أيضاً ، فتتألمين أقل .

ويذكرها عدة مرات ، خلال النهار ، ونقمته تتفاقم باستمرار كلما اقترب المساء ، بعزمه على السكر ، وهو يستشعر أن الاصغاء إلى ذلك يؤلمها . ويتفاقم غضبه باستمرار كلما رآها تتنقل في الغرفة ، منطوية على نفسها في سكون ، يشع من عينيها بريق قاس ينم عن استعدادها للقتال .

وعند المساء ، يعلن سينكا بينسون ، رسول شقائهما . عن « المعركة » !

وكان جريشكا يغيب أحياناً طوال الليل ، بعد أن يضرب زوجته ؛ وفي أحيان أخرى لايرجع إلى الدار طوال يوم الاحد أيضاً . وتستقبله هي ، مغطاة بالبقع الزرق في سائر أنحاء جسدها ، في عبوس وصمت ، لكن طافحة باشفاق خفي عليه . كان يرجع ممزق الثياب — وكثيراً ما يكون قد نال نصيباً من الضرب أيضاً — ملطخاً بالوحل والطين ، محتقن العينين بالدماء .

وكانت تعرف أنه في أشد الحاجة إلى بعض الزاد بعد ذلك الارهاق ، فتهيء له سلفاً نصف زجاجة من الفودكا ، وكان هو يعرف ذلك أيضاً .

ويسأل بصوت مبحوح :

— أعطيني كأساً صغيرة .

ويتناول كأسين أو ثلاثة كؤوس ، ومن ثم يشرع في العمل .

ويمضي النهار بطوله والندامة تمزق فؤاده . ولكنه لم يكن يستطيع تحملاً لحدة هذه الندامة في الأحايين ، فيلقي العمل جانبـــاً ، ويروح يتفوه بشتائم هائلة وهو يركض عبر الغرفة ، أو يزحف على السرير . وتترك له موتريا الزمن الكافي كي يسترد هدوءه ، وعندئذ يتصالحان .

كانت هذه المصالحة ، في البدء ، مشهداً كثير الحياة عظيم العذوبة ، ولكن كل هذا قد تبخر شيئاً فشيئاً مع الزمن فأصبحا يتصالحان لا لشيء تقريباً إلا لأنه لم يكن من الملائم أن يصمتا طوال الأيام الخمس الباقية حتى السبت التالي .

وتقول موتريا ، وهي تتنهد :

— سوف تنتهي بأن تصبح سكيراً .

فيؤكد جريشكا :

— سوف أصير الى هذه النهاية .

ويبصق جانباً وعليه سيماء الرجل الذي لايبالي ان أصبح سكيراً أم لا ، ومن ثم يضيف ، مكملاً بذلك لوحة المستقبل :

— وأنت ، سوف يصبح لك مطلق الحرية في أن تفعلي مايحلو لك .

ويطيل النظر في عينيها ..

لقد شرعت تخفضها منذ زمن قريب ، الأمر الذي لم تكن تفعله قبلا . ويرى جريشكا ذلك ، فيعقد ما بين حاجبيه ، قاتم الوجه ، ويصر بأسنانه . ولكنها كانت تذهب بعد ، في الخفاء ، عند بعض الساحرات والمنجمات ، وتعود من هناك ببعض الجذور المسحورة أو قطع الفحم الأسود . وإذ لم يصلح كل هذا لأي شيء ، فقد طلبت من الكاهن قداساً خاصاً بالقديس يونيفاس الذي يحفظ من العربدة ، وظلت جاثية تبكي بدموع ساخنة طوال الخدمة الالهية ، وهي تحرك في سكون شفتيها المرتجفتين .

كانت تحس أكثر فأكثر حقداً بارداً متوحشاً تجاه زوجها ، بينما أفكار مظلمة تستيقظ فيها ، فيتناقص رثاؤها لهذا الرجل الذي كثيراً ما أغنت ضحكته المرحة ، وملاطفاته الناعمة ، وكلماته المفعمة بالحب ، حياتها قبل ثلاث سنوات من الزمن.

هكذا كان هذان الكائنان ، المجردان عن الشر في أعماقهما ، يعيشان يوماً بعد يوم ، في الانتظار المحتوم لشيء ما يحطم بصورة نهائية وجودهما السخيف حتى درجة الايلام ...

٣

ذات يوم اثنين ، في ساعة مبكرة من الصباح ، والزوجان أورلوف ما برحا يحتسيان الشاي بعد ، ظهر على عتبة مسكنهما الخالي من البهجة شرطي مديد القامة ، صارم المظهر . فهبّ أورلوف مذعوراً عن مقعده لدى رؤيته ، وراح يحاول ، تحت أنظار زوجته المتسائلة الخائفة ، أن يستعيد في رأسه الخاضع بعد لدوار سكرة العشية حوادث الأيام الأخيرة ، وهو يصرو بعينيه الكامدتين في عناد إلى الزائر المخيف ، دون أن يقول شيئاً ، رازحاً تحت وطأة انتظار مفعم بالقلق والهلع .

قال الشرطي ، وهو يدل شخصاً ما على الطريق :

— من هنا ، من هنا .

وتردد صوت فتيّ مرح :

— إن الظلمة تشمل كل شيء فكأننا في أحد الأفران ، أخذ الشيطان التاجر بيتونيكوف !

ومن ثم ابتعد الشرطي جانباً ، فدلف إلى غرفة الزوجين أورلوف ، في حمية ، طالب يرتدي قميصاً أبيض ، ويحمل قبعته في يده ، مقصوص الشعر ، قد لوّحت الشمس جبينه ، وراحت عيناه الكستنائيتان تشعّان في مرح وحبور ، تبرق نظرتهما الضاحكة من تحت نظارتيه في لمعان شديد .

هتف بصوت فتيّ خفيض الجرس ، لما يزل غير ثابت اللحن بعد :

— عِما صباحاً ! لي الشرف أن أقدم نفسي ... مفتش الصحة ! لقد جئت كي أعرف كيف حالكما ... وأشمّ قليلاً الهواء في داركما ... إن الهواء في داركما لفظيع تماماً !..

وتنفس أورلوف الصعداء عميقاً ، وضحك في صداقة عطوف.

راق له هذا الطالب الصاخب منذ الوهلة الأولى ، فقد كان محياه ممتلئاً صحة ، كثير التضرج ، رقيق السيماء ، مغطى الخدين والذقن بوبر أشقر قليل . كان هذا المحيا يبتسم بكليته ، يبتسم ابتسامة خاصة به ، منعشة ومغتبطة ، حتى إن قبو الزوجين أورلوف بدا تحت ضيائها أكثر نوراً وأشد مرحاً .

استرسل الطالب ، دون إن يتوقف لحظة واحدة عن الحديث :

ــ حسناً ، ياسيدي المعلمين ... أفرغا ما استطعتما صندوق الأقذار ، لأن عطراً قليل اللذة ينتشر منه فيما أرى . وإني لأنصحك ، أيتها العمة الصغيرة ، أن تغسلي هذا الصندوق أكثر قليلاً مما تفعلين عادة ، ومن ثم فانكما تفعلان حسناً إذا وضعتما شيئاً من الكلس الأبيض في زوايا الغرفة ، كي تطهرا الجو فيها نوعاً ما .. وإن الكلس لذو فائدة عميمة أيضاً ضد الرطوبة وأنت ، أيها العم الصغير ، ما بالك تلوح كثير الملل ؟

قال الكلمات الأخيرة متوجهاً إلى أورلوف ، ومن ثم أسرع يمسك بيده ، ويجس نبضه .

أربكت حيوية الطالب الزوجين أورلوف قليلاً ، فماترينا تبتسم ، وهي تتطلع إليه في صمت ، وسيماء الدهشة والذهول منتشرة في زوايا وجهها ، بينا جريجوري يبتسم أيضاً معجباً بمحياه اليقظ في إطار وبره الأشقر .

سأل الطالب :

ــ وبطناكما الصغيران ، كيف حالها ؟حدثاني بذلك ، دون أن تتضايقا ، فذلك أمر طبيعي تماماً . فاذا كان هناك شيء ما يعرج ، زودناكما بمختلف أنواع الأدوية الحامضة ، فاذا كل شيء يطير وكأنه مسحور بقوة عجيبة .

فأفاد جريجرري أخيراً ، وهو يبتسم :

ــ إن كل شيء على مايرام ... ونحن في صحة جيدة .. وإذا كان يبدو عليَّ قليلاً ، فتلك هي الظواهر ليس غير ... وإذا أردت أن أقول الحقيقة فان شعري يؤلمني قليلاً .

ــ بلى ، بلى ، وهذا ما أستشمه يا معلم ، فكأنك قد شربت شيئاً قليلا جداً نهار البارحة ... شيئاً قليلا جداً ليس غير ، كما تعلم ...

تفوه بذلك بصورة مضحكة جداً ، وكشر في الوقت ذاته بصورة غريبة للغاية ، بحيث لم يستطع أورلوف إلا أن يرسل ضحكة رنانة تعبر عن ثقته وارتياحه .

وقهقهت مارينا بدورها ، فأسرعت تخفي فمها بازارها في حياء . أما أكثرهم إغراقاً في الضحك ، وأشدهم مرحاً أيضاً ، فقد كان الطالب نفسه الذي انتهى من الضحك قبل الآخرين ، حتى إذا تراخت الغضون التي احتفرها هذا الضحك حول فمه الممتلىء وعينيه البراقتين ، بدا أن محياه الساذج والمفعم صراحة قد أصبح أكثر سذاجة من ذي قبل أيضاً . قال :

ــ إن تناول قدح من الخمرة يفيد إنساناً يعمل ويكدُّ ، بشرط ألا يتجاوز الحدود ويتعداها . لكن يفضل في هذه الأيام ، على أية حال ، أن يمتنع المرء عن الخمرة . هل سمعتم شيئاً عن المرض المنتشر بين الأهلين ؟

وطفق يتحدث إلى الزوجين أورلوف وعلى وجهه تعبير من الجد والرزانة ، عن الكوليرا والوسائل القمينة بمكافحتها ، وذلك بلغة سهلة يستطيعان أن يفهماها دون جهد أو عناء . كان يتكلم وهو يتجول في الغرفة ، يجس الجدران بيده ، ويلقي نظرة إلى ما وراء الباب ، أو في الزاوية التي علقت حنفية الماء فيها ، أو حيث يوجد وعاء المياه القذرة ، بل لقد انحنى كي يشم

الرائحة المتصاعدة من تحت المدفأة أيضاً . وكان صوته يتكسر بين لحظة وأخرى ، أو يقفز من الطبقات الخافتة إلى الطبقات المرتفعة ، ولكن كلمات حديثه البسيطة كانت تنحفر من تلقاء ذاتها ، دون أي عناء وبصورة راسخة، في ذاكرة المستمعين إليه . كانت عيناه النيرتان تبرقان ، وشخصه بمجموعه يتأرث بتلك الحميا الفتية في سبيل الرسالة التي يكملها بكل تلك البساطة وذلك الاندفاع

طفق جريجوري يراقبه في فضول كثير ، بينا ماترينا تنفخ بأنفهامن لحظة لأخرى ، أما الشرطي فقد اختفى وتلاشت آثاره .

— تدبر أمرك إذن كي تحصل على الكاس في هذا اليوم بالذات ، أيها المعلم . إن البناء قائم على قدم وساق إلى جانبكم ، والمعماريون سيعطونك ما شئت بقرشين لا أكثر . أما الخمرة ، فاذا لم تكن مقاديرها معقولة، فلا بدّ من الامتناع عنها يا معلم .. هيا ، إلى اللقاء في انتظار ذلك. . سوف أزوركما مرة أخرى ...

واختفى ، مثلما ظهر ، بصورة مباغتة ، مخلفاً وراءه ابتسامة مدهوشة راضية انتشرت على وجهي الزوجين أورلوف معاً ، فكأنها ذكرى عذبة لعينيه النيرتين الضاحكتين .

ظلا صامتين طيلة فترة مديدة ، يتراشقان النظر وهما لا يدريان بعد كيف يعبران عن الانطباع الذي تركه في حياتهما المظلمة الآلية ذلك الغزو المفاجىء الذي اجتاحهما ، حاملاً معه طاقة واعية مدركة .

قال جريجوري في بطء ، وهو يهز رأسه :

— آه ، هذا ... يا له من .. كيماوي ! ويقولون إنهم يسممون الشعب ! ولكن فلنر ، هل يمكن أن يصرف إنسان يتحلى بمثل هذا المحيا همه ونشاطه إلى مثل العمل الشنيع ؟ ومن ثم هذا الصوت ؟ وكل الباقي أيضاً ! كلا ، إنْ ذلك كله إلا تصرفات صريحة — أنظروا إليّ ، ها أنذا !

الكلس ... هل هذه المادة ضارة ؟ وحمض الليمون ، ما هـذا أيضاً ؟ حمض بكل بساطة .. وليس شيئاً آخر على الاطلاق . والنظافة بصورة خاصة ، في كل مكان ، في الهواء وفي الارض ، وفي وعاء المياه القذرة . هل يمكن تسميم المرء بهذه الوسائل ؟ آه ! يا الشياطين ! المسممون، فيما يقولون .. مثل هذا الفتى الشجاع ، ما ؟ تفو ! وبالنسبة إلى رجل يعمل ويكد ، يفضل دوماً أن يشرب الخمرة باعتدال . هل سمعت ، ياموتريا؟ حسناً ، صبي لي قدحاً صغيراً ... أليس عندنا قليل من الخمرة؟

صبت له ، في كثير من طيبة الخاطر ، نصف فنجان من الفودكا ، من زجاجة تناولتها من حيث لا يدري أحد .

قالت ، وهي تبتسم لذكرى الطالب :

— إن هذا لطيب القلب حقاً ... إنه يعمل في سبيلنا . أما الآخرون، من يدري ؟ ربما كانوا يوظفونهم من أجل ...

فهتف جريجوري :

— ولكن يوظفونهم لماذا ومن أجل من ؟

فقالت :

— من أجل تدمير البشر ... يقولون إن الأوامر قد صدرت ، باعتبار أن ثمة عدداً كبيراً من الفقراء ، لتسميم أولئك الذين يفيضون عن الحاجة .

— من يقول هذا ؟

— كل الناس يقولون ذلك ... كانت طاهية الدهانين المقيمين في جوارنا تقول ذلك ، وأخريات أيضاً ...

— وإنهن لحمقاوات ! ولكن ، أيمكن أن يفيد هذا شيئاً ؟ فكري قليلاً ! إنهم يعالجون ... كيف السبيل إلى فهم ذلك ؟ وإنهم يدفنون ! وهذا، أفليس هو خسارة أيضاً ؟ لا بد من النعش ، والحفرة ، وسائر الكماليات

الأخرى ... وذلك كله يتمّ على حساب الدولة . . إن ذلك غير معقول أبداً ! ولكن لا ! لو أنهم أرادوا تصفية بعض البشر وإنقاص عددهم حقاً ، لنقلوهم إلى سيبيريا بكل بساطة ، فهناك مايكفي من المكان في سبيل الجميع ! أو كانوا يبعثون بهم إلى الجزر غير المأهولة ، وبعد أن ينفوهم إلى هناك ، يأمرونهم بالعمل . اشتغل ، وادفع الضرائب ... هل فهمت؟ ذلك تطهير بكل معنى الكلمة . وإنـه ليعود بفائدة عميمة أيضاً ... لأن الجزيرة غـير المأهـولة لاتعطي مردوداً مالم يزرعوا بشراً فيها . والربح يذهب إلى الدولة ... أما أن يقتلوا البشر ، ومن ثم يدفنوهم على حساب الدولة ؟ . لكن ، ليس ذلك من شأن الدولة أبـداً .. هل فهمت ؟ أضيفي إلى ذلك أيضاً ، الطالب ... هذا ليس من الرعية الخاضعين ، أليس كذلك ؟ بل من شأنه بالأحرى أن يثير الشغب . أما أن يقتل الناس ... أوه ، كلا ، إنهم لايستطيعون أن يشتروه من أجل هذه المهمة ، حتى ولا بثروة كاملة ! أفليس كل هذا واضحاً تماماً ، أنه لم يُجعل من أجل مثل هذه الأعمال ؟ إن بوزه ليس من هذا القبيل مطلقاً .

ظلا يتحدثان طول النهـار عن الطـالب ، وعمـا حدثها به أيضاً ، يتذكران ضوضاء ضحكه ، ومحياه ، وأن زراً ينقص من قميصه الأبيض ، لكن اختلفا في أية ناحية من صدره حتى كادا أن يتخاصما ، إذ أن ماترينا تؤكد أن الزر كان ناقصاً عن يمين ، بينا زوجها يؤكد ، على العكس ، أنه كان ناقصاً عن يسار ، بل لقد رماها مرتين بكلمة بذيئة ، حتى إذا تذكر أخيراً أن زوجته لم تقلب الزجاجة سافلها عاليها عندمـا صبت له قليلا من الفودكا ، خضع لهـا ووافق على رأيها ومن ثم قررا أن يهتما منذ الغداة بادخال النظافة على مسكنها . وبعد ذلك عاودا الحديث عن الطالب من جديد...

قال جريجوري معجباً :

— ولكن لا ، هل رأيت أي فتى مرح هو ؟ لقد تصرف وكأنه

يعرفك منذ عشر سنوات ... ودسّ أنفه في كل مكان ، وأوضح كل شيء ، وهذا كل شيء . إنه لم يصرخ ، ولم يثر أية ضوضاء ، بالرغم من أنه لا يمثل السلطات هو الآخر .. آه ، لو أنك تنتفخين حتى تنفجري ! هل تفهمين ، يا ماترينا ؟... ههنا نجدّ بكل جلاء أنهم يهتمون بنا ! هـذا يتضح منذ الوهلة الأولى ... إنهم يريدون أن يحتفظوا بنـا سالمين ، ولا يرمون إلى شيء آخر البتة . . . وإن كل مايقولونه عــــن التسميم ليس سوى مجرد سخافات ، أقاصيص امرأة عجوز شمطاء ليس غير ... كيف يشتغل بطنك ، إنه يسأل .... ولو أنـه يعمل من أجــــل التسميم فما حاجته بحق الشيطان إلى معرفة حال معدتي وانتظامها ؟ وما أوضحه بشأن هذه الـ ... كيف تسمى ؟ هذه الشياطين التي تندسّ في المصارين ، إيه؟

فقالت ماترينا :

— شيء بمعنى المنضمات . أغلب الظن إنهم لايهـدفون إلى غاية معينة من وراء ذلك ، بل يريدون أن يخيفوا الشعب فقط ، وأن يحمــــلوه على الاهتمام بنظافته أكثر من ذي قبل .

— من يدري ذلـك ؟ لعـل ماتقولين صحيح .. إن الديدان تحب الرطوبة آه ، ياالشيطان ! كيف تـدعى ، تلك الحيوانات ؟ ليس منضمات أبداً ، بل إني لأتذكر تماماً كيف تسمى ! إن الاسم على لساني ولكني لا أستطيع أن ألتقطه ...

ولم يبرحا يتكلمان عن حدث النهـار ، حتى بعد أن تمددا في السرير طلباً للنوم ، بذلـك الهياج الساذج الذي يجتاح الأطفال الصغار عندمـا يتبادلون انطباعاً أحسوه للمرة الأولى ، فترك فيهم أثراً عميقاً . واستغرقا في النوم وهما في ملء حوارهما .

وأيقظوهما في الصباح ، في ساعة مبكرة جداً .

كانت طاهية الدهانين المقيمين في تلك الدار تقف إلى جانبها ومحياها الأحمر الممتلىء دماً قد التوى واصطبغ باللون الرمادي ، على غير عادتها .

كانت تقول في نبرات متسارعة ، وهي تحرك شفتيها المكتنزتين الحمراوين بصورة غريبة تماماً :

ــ ما بالكما تنامان ؟ إن الكوليرا قد وصلت إلينا ، وأضحت في نفس باحتنا .. إن الله الطيب يعاقبنا ويقتصُّ منا !

وانخرطت في البكاء ، بصورة مفاجئة . .

صاح جريجوري :

ــ آه ، ماذا تقولين ؟

وقالت ماترينا بنغمة مذنبة :

ــ وأنا التي لم أفرغ وعاء المياه القذرة مساء البارحة !

وأضافت الطباخة :

ــ أما أنا ، ياصغيريَّ ، فسوف أنال إجازة . سوف أذهب ... سوف أذهب إلى الريف . ومن ثم ينتهي كل شيء .

سأل جريجوري ، وهو ينهض من السرير :

ــ ولكن من الذي أصيب ؟

ــ لاعب الأكورديون ! هو ـ لقـــد شرب ، فيما ، يقال من مـاء الحنفية مساء البارحة ، فاذا هو يصاب ليلاً ... وإذا هو يصاب ، ياسادتي ، في البطن مباشرة ، كما يحدث ذلك بالزرنيخ ..

غمغم جريجوري :

ــ لاعب الأكورديون ...

لم يـك يستطيع أن يصدق أن مرضاً مـا يمكن أن يصيب لاعب الأكورديون .

ــ صبيٌّ في مثل مرحه ، ولا مبالاته ، واندفاعه ... البارحة فقط كان يجتاز الباحة أشبه بطاووس حقيقي ، مثله دوماً !

وأضاف بعد برهة ، وهو يبتسم في ارتياب وتشكك :

– سأذهب وأرى .

فصاحت المرأتان في ذعر شديد :

– جريشكا ، إن ذلك خطر !

– تعال ، أيها الأب الصغير ، أتفكر في ذلك حقاً ؟

أطلق جريجوري أيماناً مغلظاً ، ودفع قدميه في صندله واتجه نحو الباب أشعث الشعر ، مقلوب ياقة القميص . لكن امرأته أطبقت من الخلف على كتفه ، فأحس أن يدها ترتعش ، وإذا به يغضب على حين غرة ، دون أن يدري أحد السبب في ذلك .

زمجر :

– لأعطينك رفسة على بوزك ! إفلتيني !

وخرج ، وهو يدفع زوجته عنه .

كانت الباحة مقفرة ، يخيم عليها سكون مطبق . أحس جريجوري ، وهو يتجه نحو باب لاعب الأكورديون ، قشعريرة الخوف تجتاحه ، يرافقها في الوقت ذاته سرور حاد لذهابه وحده ، من بين سائر سكان الدار ، لزيارة الموسيقي المريض . وتضاعف هذا السرور أيضاً عندما شاهد الخياطين يتطلعون إليه من نوافذ الطابق الثاني ، حتى راح يصفر وهو يهز رأسه متحدياً . ولكن خيبة أمل صغيرة كانت تنتظره عند باب لاعب الأكورديون في شخص سينكا بينسون .

كان هذا الأخير قد فتح الباب قليلاً ، وراح يدس أنفه المدبب من فرجته ، يراقب كل شيء كعادته ، مأخوذاً بالمشهد الذي تقع عليه أبصاره حتى إنه لم يلتفت إلا عندما شده أورلوف من أذنه .

طفق يقول ، وهو يرفع نحو جريجوري بوزه الصغير الموسخ الذي ازداد تحولاً بالانفعال المتفجر في باطنه :

– ما أكثر ما تلوى بسبب ذلك ، أيها العم جريجوري ! ولكأن مفاصله

قد انفصلت عن بعضها بسبب الجفاف ، حتى لقد أصبح كبرميل عتيق ... يا الله الطيب !

ظل أورلوف في مكانه ، وقد صدمته رائحة الهواء المتعفن ، يصغي إلى بينسون في صمت ، محاولاً أن يلقي نظرة سريعة على الغرفة من خلال الباب المنفرج قليلاً .

اقترح بينسون :

— لو أننا نعطيه قليلاً من الماء كي يشرب ، أيها العم الصغير جريجوري ؟

تطلع أورلوف إلى وجه الصبي الصغير ، المهتاج حتى درجة الارتعاش العصبي تقريباً ، وأحس في قلبه بانطلاق عنيف .

أمر بينسون بقوله :

— إذهب ، واجلب بعض الماء !

ومن ثم فتح الباب في جرأة على مصراعيه ، وتوقف على العتبة ، ولم يلبث أن تقهقر قليلا بالرغم منه .

كان جريجوري يرى ، من خلال الضباب ، كيسليا كوف ، لاعب الأكورديون ، في لباسه الأنيق ، مضطجعاً وصدره يستند إلى المائدة التي تعلق بها بعزم وشدة بكلتا يديه ، بينا راحت قدماه المحتذيتان حذاء لماعاً تتحركان في طراوة على الأرض المبتلة .

سأل المريض بصوت ند عن حلقه مبحوحاً ناعساً ، فكأنه قد انطفأ وفقد لونه تماماً :

— من هناك ؟

فاسترد جريجوري زمام نفسه ، وجرب - وهو يضع قدميه بحرص شديد على الأرض - أن يتكلم بصوت ثابت ، بل في شيء من الهزل أيضاً :

— هذا أنا ، أيها الأخ دميتري بافلوف ! وأنت ، هل تجاوزت الحدود ، البارحة مساء ؟

راح يتفحص كيسليا كوف بانتباه ، في خشية وفضول ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف إليه ، فقد تطاول محياه بأسره ، وبرزت وجنتاه في نقطتين حادتين ، بينا غرقت عيناه كثيراً في محجريها ، وأحاطت بها حلقتان مخضرّتان ، وأصبحت نظرتها ثابتة عكرة بصورة تبعث على الرعب حقاً . أما جلد الخدين فقد اتخذ ذلك اللون الذي يصطبغ بـه أحياناً الموتى في أيام الصيف القائظة . كان محياً مخيفاً ، سطا الموت عليـه تماماً ، لولا حركة الفكين البطيئة التي تثبت وحدها أنه ما برح يحيا ويتنفس . تطلعت عينا كيسليا كوف الشاخصنان طويلاً إلى وجه جريجوري ، فاذا هذه النظرة الميتة تلقي الهلع في قلب أورلوف الذي راح يتحسس بيده ، دون من يدري لماذا ، أضلاعه وعطفيه ، وهو يقف على بعد خطوتين أو ثلاث خطوات من المريض ، يحس وكأن قبضة رطبة باردة قد أطبقت على عنقه ، وراحت تضيق الخناق عليه ببطء وتمهل . وراودته الرغبة في الانفلات من هذه الغرفة الصغيرة التي كانت كثيرة الضياء فيما مضى ، والتي كان المرء يحس الارتياح ، كل الارتياح فيها ، والمشربة حالياً برائحة من العفونة المرهقة التي تعلق في الحلق حتى لتكاد أن تكتم الأنفاس ، والممتلئة ببرودة غريبة أيضاً .

جرب أن يقول ، وهو يتهيأ للتراجع :

ـ حسناً ...

ولكن محيا الموسيقي الرمادي انتفض بشكل غريب : لقد انفرجت الشفتان المكتسيتان هباباً أسود ، ونطقتا بصوت لارنين فيه :

ـ ذلك ... أني أموت . .

انعكست هذه الكلمات الثلاث ، وقد قيلت في لامبالاة عميقة وبلادة لا يمكن التعبير عنها ، في رأس أورلوف وصدره فكأنها ثلاث ضربات صماء قاسية ، فلم يتمالك إلا أن يستدير نحو الباب ، وقد علت وجهه تكشيره

بلهاء ، فاذا بينسون يأتي للقائه في سرعة الريح ، حاملا في يده سطلاً من الماء ، منقطع الأنفاس ، مبللاً بعرقه الغزير :

— إليك ... إنها من بئر سبيريدونوف ... إنهم لم يريدوا قبلا أن يعطوا الماء ، أولئك الأوغاد ..

ووضع السطل على الأرض ، وانطلق نحو إحدى زوايا الغرفة ، ولم يلبث أن رجع وفي يده قدح ناوله إلى أورلوف ، وهو يتابع ثرثرته :

— إنك مصاب بالكوليرا ... هكذا راحوا يقولون لي ! قلت لهم : حسناً ، وماذا بعد ذلك ؟ لسوف تصابون بها أنتم أيضاً .. بعد الآن ، فانها ستحصدنا حصداً ، ههنا كما في الضاحية بأسرها . وعندئذ ، طخ ، لقد ضربني على جمجمتي !...

خذ أورلوف القدح ، واستقى الماء من السطل وشرب محتوياته دفعة واحدة . كانت الكلمات القاسية الرهيبة تدوي في أذنيه :

— ذلك ... أني أموت ...

وكان بينسون يحوم كالشمعة حوله ، يحس نفسه في عنصره ، كأفضل ما يستطيع أن يكون .

قال لاعب الاكورديون ، وهو يعتمد المائدة كي يتقدم على الارض:

— أعطياني كي أشرب ...

فاندفع بينسون في اتجاهه وحمل إلى شفتيه السوداوين كأساً من الماء .

كان جريجوري يستند بظهره إلى الجدار ويصغي ، كما في حلم ، إلى المريض الذي يمتص الماء في ضوضاء ، ومن ثم سمع اقتراح بينسون الذي دعاه إلى نزع ثياب كيسلياكوف عنه ووضعه في سريره ، فاذا صوت طاهية الدهانين يتردد في مسامعه في تلك اللحظة بالذات . كان وجهها العريض يطل في الباحة من خلال النافذة ، وعليه سيماء الذعر والاشفاق

معاً ، وهي تقول بصوت باك حزين :

ـ لو أننا نعطيه شيئاً من هباب هولندا مع الروم : كأس كبيرة من أقداح الشاي ، مليئة بالروم حتى حفافها ، مع ملعقتين كبيرتين من الهباب .

واقترح إنسان غير منظور إعطاءه زيتاً حديثاً مع عصير مخلل الخيار المملح ، وشيئاً من الفودكا أيضاً .

أحس أورلوف على حين غرة أن الظلمات الثقيلة ، المرهقة ، تستثير في أعماق نفسه بذكرى غامضة ، فطفق يحك جبينه بقوة ، وكأنه يريد أن يضاعف من لمعان هذا البريق ، ومن ثم انطلق إلى الخارج بغتة ، وعبر الباحة عدواً ، واختفى في الشارع مبتعداً شيئاً فشيئاً .

ـ آه ، يا آبائي ، هذا الاسكافي قد أصيب الآن أيضاً ! هذا هو يعدو إلى المستشفى .

هكذا علقت الطباخة على فراره بصوتها الصارخ الباكي ...

تطلعت ماترينا التي كانت تقف قريباً منها بعينين محملقتين ، وشحب لونها ، وانتفض جسدها جميعه بصورة مباغتة .

قالت بصوت مبحوح ، وهي تكاد ألا تحرك شفتيها البيضاوين :

ـ إنك تهذين ! فجريجوري لن يسقط مريضاً بهذه الآفة القذرة.. إنه لن يخضع لها ...

ولكن الطباخة كانت قد اختفت أثناء ذلك ، وهي تزمجر منادية بالويل والثبور . ولم تمض خمس دقائق حتى علت ضوضاء جماعة من الجيران تحلقوا في الطريق إلى جانب دار بيتونيكوف ، يرتسم على سائر وجوههم ذات الاحساسات دوماً : هياج شديد لا يلبث أن يتلوه انحطاط لا رجاء فيه ، وشيء ما مفعم بالشر يفسح المكان في بعض الأحيان لجرأة وهمية .

وكان البينسون يطير في كل لحظة من الباحة نحو الجمهور المتأصص في الشارع وفي الاتجاه المعاكس ، قدماه العاريتان تتضوءان أثناء عدوه وهو ينقل إلى الخارج سير الأحداث في غرفة الموسيقى .

كان الجمهور المتكدس في كتيبة جرارة يملأ جو الشارع المحمل غباراً وروائح رديئة بدوي صوته الأصم ، يعلو أيمان مغلظ ، خبيث مثلما هو أبله ، فوق ضوضائه من حـــين لآخر ويغرقها في رنينه . ولم يلبث أن ارتفع صوت يقول :

ــ أنظروا قليلاً ... هذا أورلوف !

كان أورلوف يتقدم من الباحـة مقتعداً كرسي عجـلة مصنوعة من قماش أبيض ، يقودها رجل أنبس الوجه ، يرتدي البياض هو الآخر ، ويزمجر بصوت غليظ :

ــ مكاناً !

وسار باستقامة نحـــو القوم الذين تفرقوا في سائر الجهـات لدى سماعهم هتافه .

كنت تقول إن منظر العجلة وهتاف سائقها قد أنقصا صياح النظارة المبالغ فيه ، فاذا هم يكمدون جميعاً ، إن صح التعبير ؛ بينا غادر المكان عدد غفير منهم مسرعين لايلوون على شيء .

وظهر الطالب الـــذي زار الزوجـــين أورلوف في العشية وراء العجلة ، من حيث لايدري أحد ، وقد انزلقت قبعته على نقرته ، وراحت قطرات ضخمة من العرق تسيل على جبينه ، وهـــو يرتدي شيئاً أشبه مايكون بمعطف ناصع البياض حتى يكاد أن يبهر الأبصـار ، ينتشر في أسفله ثقب مدور كبير ، أشقر الحفاف ، قد تأتى بكل تأكيد عن حرق أصابه قبل فترة وجيزة من الزمن فقط

سأل الطالب بصوت مرتفع ، وهو يلقي نظرة جانبية على الجمهور المتحلق

في إحدى الزوايا قريباً من الباب ، والذي استقبل ظهوره في نفور ، وطفق يراقبه الآن في شيء من الفضول :

ـــ حسناً ، يا أورلوف ، أين هو المريض ؟

فقال أحدهم بصوت مرتفع :

ـــ ياله من طباخ !

وقال صوت آخر ، أكثر خفوتاً من السابق ، بعده في شيء كثير من الشؤم :

ـــ انتظر قليلا ، فلسوف يُشبعك عما قريب .

ووجد بين المجتمعين ، كما هي الحال دوماً ، إنسان هازل كي يقول :

ـــ لسوف يعطيك نوعاً من الحساء ، حتى ينفجر خيشومك من شدته !

ورنت في الجو ضحكة لم يك فيها شيء من المرح ، بل هي بالأحرى مظلمـــة بما يفعمها من الشك والريبة ،خالية من كل حياة ، وإن كانت الوجوه قد استنارت قليلاً بصورة عامة .

ورفع رجل امتلأت نظرته بغضب مركز صوته سائلاً بلهجة ذات مغزى :

ـــ هم أنفسهم ، إنهم لايخافون العدوى .. كيف السبيل إلى إيضاح ذلك ؟

وإذا وجوه المتفرجين تزداد ظلاماً بتأثير هذا السؤال ، وإذا الأصوات تزداد أهمية أيضاً ...

ـــ إنهم يأخذونه !

ـــ أترون أورلوف هذا ! آه ، ياله من كلب !

ـــ أفلا يخاف ؟

ـــ وكيف يخاف ، هذا السكير العربيد ؟ ...

وقال الطالب يصدر تعاليمه :

ــ انتبه ، انتبه ، يا أورلوف ! إرفع القدمين إلى أعلى أيضاً . هكذا ، نعم ! هل وضعته ؟ إذهب ، يا بيتر . سوف ألحق بك سريعاً ، قل ذلك للطبيب . والآن ، أيها السيد أورلوف ، أرجوك أن تساعدني في القضاء على العدوى هنا . وبذلك سوف تتعلم ، وتصبح قادراً على تكرار ذلك ، إذا لزم الأمر ... هل تقبل ؟ حسناً !

قال أورلوف :

ــ إني لأريد ذلك من صميم قلبي .

وتطلع فيما حواليه ، وأحس موجة من الاعتزاز تجتاح قلبه .

وأعلن بينسون :

ــ وأنا أيضاً ، إني أريد ذلك !

كان قد رافق العجلة الكئيبة ، ورجع في الوقت المناسب تماماً كي يتقدم بخدماته .

تطلع الطالب إليه من فوق نظارتيه ، وقال :

ــ من أنت ؟ إيه ؟

فأوضح البينسون قائلاً :

ــ من الدهانين .. أجير عندهم ...

ــ والكوليرا ، ألست تخاف منها ؟

فقال بينسون مدهوشاً :

ــ أنا ، آه ، يا الله ! أنا .. إني لا أخاف شيئاً البتة ...

ــ أوه ! عظيم ! إذن ، هل ترون ، أيها الأخوة ...

واستوفز الطالب فوق أحد البراميل وراح يتكلم ، وهو يتأرجح يمنة ويسرة ، عن واجب أورلوف وبينسون بالاغتسال جيداً قبل كل شيء آخر .

شكل ثلاثتهم حلقة ، اقتربت ماترينا منها وعلى شفتيها ابتسامة هيابة ،

ومن خلفها الطاهية التي تجفف عينيها الرطبتين بازارها المشرب بالأدهان .
ولم تمض برهة وجيزة حتى شرع أشخاص آخرون يقتربون في حـــذر شديد ، مثلما تدنو القطط من العصافير الدورية ، حتى تألفت حلقة مرصوصة تضم قرابة عشرة أشخاص حول الطالب ، الأمر الذي أثار حمياه أكثر فأكثر ، فابتدأ يلقي عليهم ، وقد وقف في وسطهم ، شيئاً كالمحاضرة ، وهو يقوم بحركات عنيفة بيديه ، موقظاً في الوجوه ابتسامة تارة ، وانتباهاً مركزاً تارة ، وارتياباً حاداً أو ضحـكات قصيرة متشككة في أحيان أخرى .

كان يجرب أن يُقنع المستمعين له :

ـ إن الأمر الرئيسي في سائر الأمراض هو نظافة الجسد ونظافة الهواء الذي تتنفسون ، أيها السادة ...

وتنهدت الطباخة بصوت مرتفع :

ـ آه ! أيها الرب الاله ! يجب أن نصلي إلى الشهيدة العظيمة فارفارا كي تجنبنا موتاً غير منتظر ...

وأعلن أحد المستمعين :

ـ إن البورجوازيين يأكلون جيداً ويعيشون في هواء جيد ، ويموتون بالرغم من ذلك كله .

كان أورلوف يقف إلى جانب زوجته ، ينظر في وجه الطالب ويفكر في استغراق عميق ، وإذا بشخص يجره من قميصه .

همس سينكا بينسون ، وقد تطاول على رؤوس أصابعه ، وراحت عيناه تبرقان مثل جمرتين لاهبتين :

ـ أيها العم جريجوري ! الآن ، دميتري بافلوفيتش سيموت ... وليس له أهل .. فلمن سيعود الأكورديون إذن ؟

فصاح أورلوف بحركة من يده تدل على فراغ صبره :

ـ دعني وشأني ، أيها الشيطان الصغير !

ابتعد سينكا وراح يتطلع بثبات من خلال نافذة غرفة الموسيقى الصغيرة ، يفتش عن شيء ما بعين نهمة .

وكان الطالب يعدد بصوت مرتفع :

ـ الكاس ، القطران ...

٤

في مساء ذلك النهار المضطرب ، عندما جلس الزوجان أورلوف إلى المائدة كي يتناولا الشاي ، سألت ماترينا زوجها في فضول :

- إلى أين ذهبت قبل قليل مع الطالب ؟

فتطلع جريجوري إلى وجهها بعينين غامضتين تغطيها فكرة ما مثل ضباب رقيق ، ثم أخذ يصب الشاي من القدح في صحن دون أن يعطيها جواباً .

كان جريجوري قد رافق مفتش الصحة حوالي الظهر ، بعد أن انتهى من تنظيف غرفة لاعب الأكورديون ، ورجع حوالي الساعة الثالثة حالماً معتصماً بالصمت . وسعى إلى الفراش ، وظل مضطجعاً على ظهره حتى موعد الشاي دون أن يتفوه بكلمة واحدة طوال هذا الزمن بالرغم من المحاولات العديدة التي بذلتها زوجته كي تحمله على الكلام . بل إنه لم يعنفها أيضاً لعنادها ، الأمر الذي كان غريباً عليها ، غير معهود بالنسبة إليها ، والذي كان يثيرها أيضاً .

وشعرت ترتاب ، بغريزة المرأة التي تمركزت حياتها بأسرها في زوجها ، أن شيئاً جديداً يتملك نفسه ، فهي تخاف قليلاً من هذا الجديد ، وتستشعر رغبة حادة في معرفته .

قالت :

ـ لعلك تحس التعب والاعياء ، يا جريشكا ؟

فصب جريجوري الجرعة الأخيرة من الشاي في فيه ، ومسح شاربه بيده ، ومد القدح الفارغ إلى زوجته في تماهل ، ثم أخذ يتكلم وقد قطب حاجبيه :

ـ لقد ذهبت برفقة الطالب إلى المعسكرات ... بلى . .

صاحت ماترينا :

— معسكرات الكوليرا ؟

ومن ثم أضافت في قلق ، وقد خفضت صوتها :

— أهم كثرة هناك ؟

— ثلاثة وخمسون مع مريضنا ...

— أوه !

— عشرة أخذت حالهم تتحسن . فقد بدأوا يمشون . إنهم صفر ... ناحلون ...

— وهم مصابون بالكوليرا أيضاً ؟ أنا لا أصدق ذلك . . لقد وضعوا هناك عدداً آخر كي يعطوا الحق لأنفسهم : هكذا ، أنظروا ، إننا نشفيهم منها !

فقال جريجوري بلهجة حازمة ، وبريق غامض ينطلق من عينيه :

— انك لحيوانة ! إنكم جميعاً ههنا ، مهما كان عددكم ، حطب خام : جهل وحماقة ، وليس شيء آخر أبداً . إن المرء يفطس ضجراً برفقتكم ، برفقة جهلكم .. انكم لاتستطيعون أن تفهموا شيئاً .

وقرّب إليه ، في عنف ، قدحه الذي امتلأ بالشاي مجدداً ، ولم يقل شيئاً .

سألت ماترينا في شيء من التحدي :

— أين تمدنت هكذا ، يا ترى ؟

وتنهدت ...

كان الزوج يصمت دوماً ، دون أن يعير كلماتها أدنى اهتمام ، حالماً في صرامة تمنع من الاقتراب منه ، بينما السماور الذي ينطفىء يغني لحناً صفيرياً ، رتيباً بصورة تثير النقمة . وكانت روائح مقيتة من الدهان الزيتي ، والحمض الفيني ، وحفرة الأقذار التي نُبشت حديثاً ، تتسلل من النافذتين قادمة

من الباحة ، فتشمل مع الظلمة وشكوى السماور الحادة الزوجين أورواف ، مختلطة بشيء أشبه ما يكون بـكابوس ثقيل مرهق . بينما حلق المدفأة الأسود ينظر اليها وكأنه يشعر أنه مدعو الى ابتلاعها لدى أول فرصة ملائمة تسنح له .

وطال الصمت كثيراً ، والزوجان يقضمان السكر ، ويثيران الضوضاء برنين أقداحها ، ويحتسيان الشاي دون انقطاع . ان ماتربنا تتنهد ، أما جريجوري فينقر بأصابعه على المائدة .

قال ، على حين غرة ، في كثير من النقمة :

— إن هناك نظافة لم أشهد لها مثيلاً قط طوال حياتي ! .. ان سائر المستخدمين ، حتى أقلهم شأناً . يرتدون البياض ، والمرضى يوضعون في مستحمات بين لحظة وأخرى .. وانهم ليُسقون خمراً ... ستة روبلات ونصف الروبل كل زجاجة ! أما ما يأكلون .. ان المرء ليشبع من الرائحة وحدها.. والعناية ، والاهتمام ... أسلوب في معاملة الجميع بصورة أمومية ، وكل الباقي أيضاً . . آه ! بلى ... حاولي أن تفهمي : إنك تعيشين على الأرض ، وليس وغد يرضى أن يبصق عليك فقط ، أو حتى يأتي من حين لآخر ويسأل كيف تسير الأمور ، وبصورة عامة . . . كيف هو وجودك ، يعني إن كان هذا الوجود حسبما يريده الانسان أم على نقيض ذلك ؟ وهل لديه ما يتنفسه أم لا ؟ أما حين يتعرض المرء لخطر الموت ، فهم لا يمنعونه عن ذلك فحسب ، بل يروحون يصرفون المال أكثر من المعتاد أيضاً . مسكرات ... فودكا ... ستة روبلات ونصف الروبل كل زجاجة ! أحقاً إن البشر مجردون عن الحس السليم ؟ ولكن المسكرات والفودكا تكلف مالاً مجنوناً ! أفلا يمكن الاستفادة من هذا المال في سبيل تحسين الحياة ... قليلاً كل سنة ؟

لم تك زوجته تجرب أن تفهم كلماته ، بل كان يكفيها أن تحس

أنها كلمات جديدة كي تستنتج بصورة معصومة عن الخطل أن شيئاً جديداً يحـــدث في نفس جريجوري وإذ أصبحت على يقين ، فهي تريد الآن بصورة خاصة أن تعرف كيف يمكن أن يؤثر عليها كل ذلك . وكانت هذه الرغبة غير بريئة عن الخشية ، وعن الرجاء ، وعن شيء من العداء تجاه زوجها أيضاً .

قالت ، عندما انتهى من حديثه :

- أظن أنهم يعرفون هناك أكثر مما تعرف أنت نوعاً ما .

وضمت شفتيها في تكشيرة ارتياب .

ولكن جريجوري هزّ كتفه الواحدة ، وسعل كي ينظف حلقه ، ونظر إليها بصورة جانبية ، ومن ثم عاد يقول بعد صمت قصير بصوت مرتفع النبرات أكثر من ذي قبل :

ــ إن كانوا يعرفون أو لايعرفون ... ذلك من شأنهم أما إن كان لابدّ لي ، أنا الذي لم أرَ شيئاً من الحياة ، أن أموت ، فاني أستطيع أن أفكر قليلاً في هـذا الشأن . وإليك ما سأقوله لك : إني لا أريد هذه الحال بعد الآن ، يعني أن أقعد في انتظار أن تأتي الكوليرا فتلويني مثل لاعب الأكورديون ــ إني لا أريد ! ولست أستطيع ذلك أيضاً ! إن بيتر إيفانوفيتش يقول : إذهب قدماً ! القدر ضدك ــ وأنت ضد القدر ــ من سيكون الغالب في النهاية ؟ الحرب ! هذا يكفي ...إذن ، ماذا نحن فاعلون الآن ؟ إليك ، سأدخل كمستخدم في المسكرات ـ وهذا كل شيء ! هل فهمت ؟ سوف أدس نفسي مباشرة في حلقها ــ فلتبتلع ! وسوف ألعب بقدميّ إذن ! ولن أربح هناك أقل مما أفعل هنـا . . . عشرون روبلاً في الشهر ، وربما يعطون منحة أيضاً ... قد نموت ؟... ولكننا سنفطس هنـا بصورة أسرع أيضاً . ومن ثم ، فهنـاك تبـديل الوجود بالاضافة ...

وضرب أورلوف ، هائجاً ، المائدة بقبضة يده ، بحيث قفزت عنها الآنية جميعاً وهي تبعث رنيناً حاداً .

كانت ماترينا تنظر إلى زوجها ، في بدء هذا الحديث ، وعلى وجهها سيماء القلق والفضول . أما عندما انتهى ، فقد راحت تطرف بعينيها بصورة معادية .

سألت مغتاظة :

— أهو الطالب من أعطاك هذه النصائح ؟

— إن لي رأساً . . وأستطيع أن أقرر من تلقاء نفسي ..

كان جريجوري ، لسبب ما ، يتجنب إعطاء جواب مباشر .

واسترسلت ماترينا :

— حسناً ! وكيف نصحك أن تدبّر أمورك معي ؟

— معك ؟

بدا شيء من القلق والاضطراب على جريجوري ، فان الفرصة لم تسنح له بعد كي يتبصر في هذه القضية . إنه يستطيع بكل تأكيد أن يترك زوجه في مسكنها ، كما يحدث عادة ، ولكن النساء مقامات ، والأمر محفوف بالأخطار مع ماترينا ، إذ لابدّ معها من عين يقظة دوماً . وإذ توقف أورلوف عند هذه الفكرة ، استرسل أنبس الوجه مكتئباً :

— الطالب ... ولكن هل هناك شيء كثير يجب تدبيره معك ؟ لسوف تبقين هنا ، وأنا أتناول أجراً ... هكذا .

فقالت المرأة باختصار :

— حسناً .

وابتسمت ، هادئة ، تلك الابتسامة المفعمة بالمعاني ، والمغرقة في الأنوثة ، التي تستطيع في لحظة قصيرة أن توقظ عند الرجل أفكاراً من الغيرة تطعن القلب طعناً لاهوادة فيه .

ولقد أصابت تلك الابتسامة مرمى من أورولوف العصبي المزاج والشديد الحساسية معاً ، ولكن كبرياءه أبت عليه أن يظهر ذلك ، فألقى بهذه الكلمات المقتضبة إلى زوجه :

— إن سائر كلماتك حماقات ليس غير ...

وتأهب ، منتظراً ما عساها تضيف أيضاً .

أما هي ، فقد ابتسمت من جديد تلك الابتسامة المثـــيرة ، وظلت معتصمة بالصمت .

سأل جريجوري ، وقد رفع صوته :

— حسناً ، إذن ؟

فقالت مارتينا في إهمال ، وهي تجفف الفناجين في عدم اكتراث :

— ماذا ، إذن ؟

فطفق أورولوف يغلي ويصيح :

— أيتها الأفعى ! لاتتلوّي .. فلسوف أسحقك . لعلي ذاهب إلى الموت..

فقاطعته مارتينا قائلة :

— لست أنا التي أرسلك ... لا تذهب ...

فصاح أورلوف في سخرية :

— ولقد كنت تُسرين بارسالي ... إني أعرف ذلك ..

فلم تقل شيئاً .

أرسل هذا السكون نقمة محتدمة في قلبه ، ولكنه تمالك نفسه ، فلم يعبر بأسلوبه المعهود عن المشاعر التي تثيرها هذه الحوادث في فؤاده . تمالك نفسه تحت تأثير فكرة راودته ، دنيئة حتى الدرجة القصوى فيما صوّر له ، لابل إنه ابتسم ابتسامة شريرة مفعمة خبثاً عندما مرت تلك الفكرة في خاطره .

قال :

— إني أعرف ، فأنت تتمنين أن أتلاشى في الجحيم . ولكن انتظري، فلسوف نرى أياً منا سيتغلب على الآخر . آه ، بلى ، أنا أيضاً أستطيع أن أخطو مثل هذه الخطوة ـ لسوف ترين .

ونهض بغتة عن المائدة ، وتناول قبعته من حيث كانت موضوعة على النافذة ، وانطلق من الغرفة تاركاً زوجه حيرى من سياسته ، قلقة لتهديداته ، يتعاظم فيها الخوف من المستقبل دون انقطاع .

تطلعت من النافذة ، وهمست بصوت مخفوض :

— أوه ، يا إلهي ! يا ملكة السموات ! أيتها العذراء الكلية الطهارة !

ظلت واقفة طويلا أمام النافذة ، تهاجمها من كل حدب وصوب جمهرة من الاسئلة المقلقة ، جاهدة في تخمين ما سيفعله جريجوري . كانت الآنية المغسولة تنتشر أمام عينيها ، والشمس تلقي لطخة دامية على جدار الاستناد الخاص بالدار المجاورة ، المرتفع تجاه نافذتي الغرفة ، بينا النور يتسلل إلى هذه الغرفة ، يعكسه الجدار الأبيض ، فتلتمع تحت ضيائه حافة وعاء السكر البلوري ، الموضوع أمام ماترينا ، فتروح تتطلع ، مجعدة الجبين ، إلى هذا الانعكاس الشاحب حتى كلَّت عيناها . وعندئذ نهضت عن مقعدها ، ورتبت الآنية في مكانها ، وسعت إلى السرير .

كانت نفسها توجعها .

رجع جريجوري عندما خيم الليل تماماً ، فأدركت من مجرد وقع خطواته على السلم أنه حسن المزاج منشرح النفس . ألقى أيماناً مغلظاً ضد ظلمة الغرفة ، ونادى زوجه ، ثم اقترب من السرير وجلس عليه ، فنهضت ماترينا وجلست إلى جانبه .

قال أورلوف متضاحكاً :

— هل تعرفين ماذا ؟

— حسناً ؟

ـ أنت أيضاً ستذهبين للعمل !

فسألت في صوت متردد :

ـ أين ؟

فأعلن أورلوف بلهجة احتفالية :

ـ في نفس المعسكر الذي سأعمل فيه

فأحاطت عنقه بذراعيها . وضمته إليها بشدة ، وقبلته على شفتيه . أما هو ، الذي كان يتوقع شيئاً آخر من قبلها ، فقد دفعها عنه وتملص من عناقها . كان يفكر : « إنها تمثل . . إنها لا تريد ـ هذه الصعلوكة الماكرة ـ أن تذهب معي ، فهي تدعي غير ما تضمر ، الأفعى ، وتظن أن زوجها أحمق لا يفهم . . . »

سأل في فظاظة وتشكك :

ـ ما الذي يسرك ؟

وأحس رغبة في أن يرميها أرضاً .

فقالت في حيوية واندفاع :

ـ ولكن ، هكذا !

ـ بخ ! إني أعرفك ، مهما تلاعبت ..

ـ آه ، يا عزيزي جيروسلان (١) الشجاع !

ـ دعيك من هذا ، أقول لك . . وإلا فلسوف ترين !

ـ آه ، يا عزيزي غريشانيا (٢) الطيب .

ـ ولكن ، ماذا أصابك ؟

وعندما هدأت ملاطفاتها من نقمته قليلا ، سألها مشغول البال :

ـ ألست خائفة ؟

(١ ، ٢) بطلان أسطوريان (المترجمان)

فأجابت بكل بساطة :

ــ ولكن ، أعتقد أننا سنكون معاً .

راق له أن يسمعها تتحدث هكذا ، فقال لها :

ــ يا لك من شجاعة !

وقرص عطفها في الوقت ذاته بشدة عظيمة حتى، لقد أطلقت صيحة ثاقبة .

٥

اتفق اليوم الأول من خدمة الزوجين أورلوف مع مجيء عدد كبير من المرضى ، فاذا المبتدئان اللذان اعتادا على وجـــودهما البطيء الحركة يحسان ضيقاً شديداً ويفقدان كل إمكانية على التوجه في ملء هذه الفعالية الملتهبة التي تشملها من كل حدب وصوب . وسرعان مافقدا صوابهما ، فيها أخرقا الحركات ، لايدركان فحوى الأوامر الصادرة إليهما ، تسحقهما الانطباعات المختلفة الجديدة التي يجربانها ، يعدوان في مختلف الاتجاهات دون انقطاع ، ويبذلان ما وسعهما من جهد كي يفعلا شيئاً ، فلا ينجحان إلا في مضايقة الآخرين وإعاقة حركاتهم ولقد أحس جريجوري عدة مرات ، بصورة عنيفة ، أنه يستحق تعنيفاً قاسياً أو ملاحظة على الأقل تنبهه إلى خراقته المستقبحة ، ولكن أحداً لم يوجه اللوم إليه أبداً ، الأمر الذي أثار دهشته العميقة واستغرابه الشديد .

وعندما أمر أحد الأطباء — وهو رجل طويل القامة ، معقوف الأنف ، كبير الشاربين الأسودين — جريجوري أن يساعد مريضاً على الانتقال إلى مغطسه ، طبق جريجوري عليه من تحت إبطيه بحمية عظيمة حتى إن المريض أرسل زمجرة صماء ، وانقبضت ملامحه جميعاً معبرة عما يشعر به من ألم شديد .

فقال الطبيب في رزانة :

— ليس من حاجـــة ياصديقي إلى تحطيمه ، فلسوف يسعه المغطس بكامله . . .

واضطرب أورلوف وارتبك، أما المريض - وهو فتى أبله مديد القامة - فقد ابتسم في جهد كبير، وقال بصوت مبحوح :

— هذا جديد عليه ... إنه لم يعتد !

وقد أعطى طبيب آخر - وهو شيخ ذو لحية شائبة مدببة وعينين كبيرتين براقتين - التعليمات الضرورية إلى الزوجين أورلوف، منذ قدومهما إلى المعسكر، عن كيفية معاملة المرضى، وما يجب عمله في هذه الحال أو تلك، وكيفية الامساك بالمرضى في سبيل نقلهم، وأخيراً سألهما إن كانا قد ذهبا إلى الحمام في العشية، ومن ثم أعطى كلاً منهما مئزراً ناصع البياض. كان صوت هذا الطبيب ناعماً، عذباً، سريع النبرات، راق للزوجين أورلوف كثيراً، ولكنهما سرعان ما نسيا سائر تعليماته بعد نصف ساعة فقط، عندما أربكهما نشاط المعسكر المحموم وأخذ عليهما مشاعرهما.

كان قوم يتجللون بالبياض يمرون من أمامها دون انقطاع في ذهاب وإياب مستمرين، وأوامر تنطلق من كل حدب وصوب، يتلقاها المستخدمون أثناء طيرانها، والمرضى يحشرجون، ويزمجرون، ويصيحون معبرين عن آلامهم، والمياه تسيل وتنبثق، وسائر هذه الأصوات تسبح في الهواء، مشربة بروائح حادة تخرش الخياشيم حتى يخيل إليهما أن كلاً من كلمات الطبيب، وكلاً من تنهدات المرضى أيضاً، ينشران ذفرة قوية تصعد حتى الأنف وتملؤه.

وقد صوّر لأورلوف في البدء أن اضطراباً مجنوناً يسيطر هنا على كل شيء، بحيث يستحيل عليه تماماً أن يجد مكانه الملائم فيه، فلا يستطيع إذن إلا أن يختنق، ويصبح أصم لا يسمع، ويسقط مريضاً في النهاية ... ولكن لم تمض بضع ساعات حتى تصلب جريجوري، مأخوذاً بتيار الطاقة المنتشر في كل مكان، وأحس رغبة عظيمة في أن يتكيف

مع هذا النشاط ، مدركاً أنه سيكون إذن أكثر هدوءاً وارتياحاً إذا أخذ بالدوران في توافق وانسجام مع الآخرين .

صاح أحد الأطباء :

ــ زرنيخاً !

وقال طالب صغير القامة ، ناحل القد ، محمر الجفنين منتفخهما ، يوزع الأوامر دون حساب في سائر الاتجاهات :

ــ بعض الماء الساخن أيضاً في هذا المغطس !

ــ هيْ ، أنت هناك ... كيف تُسمى ؟ أورلوف .. نعم ! افرك له قدميه ... هكذا ... هل تفهم ؟ حسناً بهدوء ، وإلا فلسوف تنتزع جلده عنه . . أوف ، إني مرهَق .

وتردد في القاعة صوت يعلن :

ــ لقد أتوا بمريض جديد !

فدلّ الطالب جريجوري على طالب آخر طويل الشعر دقيق الملامح ، وقــال :

ــ أورلوف ، إذهب وجُرّه .

لم يعد جريجوري يدري ما يجب أن يفعل ، فالعرق يبلل سائر أعضائه ، وعيناه لا تريان بوضوح ، فهو مذهول يحس ضباباً ثقيلاً يمــلأ رأسه وينتشر أمام عينيه . ولقد كان شعور حيــاته الخاصة يزاوله أحياناً تحت تأثير كتلة الانطباعات المختلفة التي تجتاحه في كل لحظة : إن اللطخ الخضر تحت العينين الكئيبتين في هذه الوجوه الترابية ، والعظام التي يخيل إلى المرء أنها قد دقت بفعل الداء وتدببت ، والجلد اللازج ، الكريه الرائحة ، والتشنجات المخيفة التي تغير على الاجساد الحية وتلويها بعنف لا يرحم ، كان كل هذا يحزّ في قلبه ويعذبه ، ويثير فيه شعوراً بالغثيان لا يستطيع أن يمنعه إلا بصعوبة كبرى .

ولقد رأى زوجته عدة مرات ، في أروقة المعسكر ، أثناء مرورها سعياً وراء بعض الأعمال : لقد أصابها النحول ، وأصبح محياها رمادي اللون شارد الملامح . ووجد الفرصة كي يسألها بصوت مبحوح :

ـ حسناً ؟

فردّت عليه بابتسامة ضعيفة ، ومن ثم اختفت في سكون .

وطعنت قلبه ، على حين غرة ، فكرة غير معهودة منه مطلقاً : لعله قد أخطأ عندما جاء بزوجه إلى هذا العمل الباعث على القرف والنفور . ماذا لو سرت العدوى إليها ؟... وإذ صادفها مرة أخرى ، صاح بها بصوت صارم :

ـ انتبهي وأكثري من غسل يديك ... خذي حذرك جيداً !

فسألت بلهجة متحدية ، وهي تكشف عن أسنانها البيض الصغيرة :

ـ وإلا ماذا يحدث ؟

أثار هذا الجواب غضبه . حقاً . لقد وجدت الفرصة السانحة للمزاح ، هـذه الحمقاء ! لشدّ ما هنّ بلهاوات ، هؤلاء النساء ! ولكنه لم يجد الوقت كي يقول لها شيئاً ، لأن ماترينا قد أدركت ما في نظرتـه من غضب ونقمة ، فولت الادبار نحو قاعة النساء .

أما هو فكان يحمل ، بعد لحظة واحـدة ، شرطياً يعرفه إلى غرفة المتوفين . كان الشرطي يتأرجح قليلاً فوق النقالة ، ويشخص إلى السماء الصافية الدافئة بعينيه الزجاجيتين الجـامدتين ، من تحت أجفانه الملتوية المشوهة . وطفق جريجوري يتطلع إليه في ذعر شديد : لقد شاهد هذا الشرطي في مركزه قبل البارحة فقط ، بله قد وجّه إليه بعض الكلمات الفظة أثناء مروره من أمامه . . إن بينهما لحساباً قديماً ، ولكن هذا هو الآن يتمدد ميتاً ، مشوهاً ، منقبض الملامح المتشنجة ، وقد كان بالأمس متين البنيان ، قوياً ، كثير الضوضاء .

كان أورلوف يحسّ أن كل هذا ليس حسناً ـ ما جدوى القدوم إلى

العالم ، إذا كان الموت ممكناً بمثل هـذا الداء اللئيم ؟ وراح يتطلع إلى الشرطي من قمته إلى أخمصيه ، ويرثي له طوال الوقت إلام سيصير الأطفال من بعده ؟ إن هناك ثلاثة منهم . ولقد دفن المرحوم زوجه قبل سنة واحدة ، ولم يجد الوقت منذ ذلك الحين كي يتزوج من جديد .

بل لقد كان يشعر ، في مكان ما من أعماقه ، بألم ناشيء عن هذه الشفقة . ولكن ذراع الجثة اليسرى المنعطفة تحركت ببطء ، على حين غرة ، وتمددت ، بينا انطبقت ، في الوقت ذاته ، الزاوية اليسرى من الفم الملتوي الذي كان مفتوحاً قبل برهة واحدة فقط .

صاح أورلوف وهو يضع النقالة على الأرض :

— قف !

وأعلن همساً للخادم الذي يحمل النقالة معه :

— إنه حي ...

التفت الأخر ، ونظر بانتباه إلى المتوفى ، ومن ثم قال لأورلوف غاضباً :

— ما هذا الحديث ؟ أفلست تفهم أنه يتمطى من أجل النعش ؟ إنك ترى كيف حطمه ذلك ؟ . . إن المرء لا يستطيع الاضطجاع في التابوت في مثل هذه الحال . هيا ، احمل .

فقال أورلوف محتجاً ، وهو يرتعش فرقاً :

— ولكنه يتحرك ...

— احمل دون أن تشغل بالك ، يالك من إنسان غريب مضحك ! أفلست تفهم الكلمات ؟ لقد قلت لك إنه يتمطى ، وهذا يعني أنه يتحرك . ان جهلك ، ألا فاحـــذر ، قد يؤدي بك إلى الخطيئة ! إنه حي ! أيمكن أن يقول المرء مثل هذه الأمور عن جثة ؟ إن هذا ، يا أخي ، هـو التمرد . . بلى ! هل فهمت ؟ إذن فاصمت ، ولا تقل كلـــة لأي

انسان عن حركتهم ، فهم جميعاً يفعلون ذلك . وإلا ، فمن هالك ، إلى مالك ، إلى قابض الأرواح . وإذا الشعب يجتاح كل شيء : إنهم يقبرون الأحياء ! وعندئذ يأتي الشعب إلى هنا ويمزقنا إرباً إرباً . ولسوف تنال نصيبك أنت أيضاً . هل فهمت ؟ در إلى اليسار .

كان صوت برونين الهادىء ، ومشيته الثابتة ، يفعلان في أورلوف فعل شيء ما يذهب بآثار السكر ويمحوها ...

— لا تيأس ، يا أخي ، فلسوف تعتاد . إن المرء في حالة جيدة هنا : الطعام ، والأجر ، وكل الباقي — إن كل شيء يسير على ما يُرام . إننا جميعاً ، يا أخي ، سوف نصبح جثثاً ، فهذا الشيء الأكثر اعتياداً في الحياة . وفي انتظار ذلك ، عش مرحاً ، وإياك والخوف خاصة ـ ذلك هو الأمر الرئيسي ! هل تشرب الخمرة ؟

فقال أورلوف :

— نعم .

— حسناً . هل ترى ، هناك ، ذلك الثقب ، ان لي فيه زجاجة صغيرة . حسناً ، فلنذهب إليها ، ولنتناول قطرة !

واقتربا من الثقب ، خلف زاوية البناء ، وشربا . ومن ثم صبّ برونين بضع قطرات من روح النعناع على قطعة سكر وقدمها لأورلوف قائلاً :

— كلها ، والا فسوف تفوح رائحة الخمرة منك . إنهم صارمون ههنا فيما يتعلق بالخمرة لأن شربها ضار فيما يقولون .

سأله جريجوري :

— وأنت ، هل اعتدت على هذا المكان ؟

— يا الله ! إني ههنا منذ البدء ، ولقد مات عدد كبير من البشر منذ جئت : أستطيع أن أقول لك إنهم يعدون مئات كثيرة . إن الحياة مضطربة

هنا ، ولكنها حياة حسنة ، إذا أردت أن أقول لك الحقيقة إنها عمل من لدن الله ، أشبه ما يكون برجال الاسعاف في الحرب ... هل سمعت شيئاً عن رجال الاسعاف وأخوات المحبة ؟ أما أنا فقد رأيت كثيراً وكثيراً منهم في حملة تركيا ، فقد اشتركت في احتلال أرداغان واحتلال كارس . وإن هؤلاء القوم ، يا صاح ، لشجعان بصورة تختلف عنا ، نحن الجنود . نحن الآخرين ، إننا نتقاتل ، ونملك البندقية ، ورصاصاً ، وحربة ، أما هم فانهم يذهبون تحت الرصاص دون شيء مطلقاً ، وكأنهم يتنزهون في حديقة غناء . وإنهم ليأخذون واحداً منا تارة ، وواحداً من الأتراك تارة أخرى . ويجرونه إلى عربة الأسعاف ، بينا كل شيء فيما حولهم : دز ـ ز ! تيـ و ! فت ! ويحدث أحياناً أن أحد رجال الأسعاف المساكين يتلقى واحدة منها في نقرته ـ تشك ـ وإنها لهناك ...

استعاد أورلوف شجاعته بعد هذا الحديث ، وبعد جرعـة قوية من الفودكا ، فطفق يقول في نفسه ، وهو يفرك قدمي أحد المرضى :

ـ ما دمت قد ربطت نفسك الي العجلة ، فلا تقل إني لست بقادر على جرها ..

وتوسل مريض إلى الوراء منه ، وهو يزمجر شاكياً :

ـ أريد أن أشرب ! آه ، يا حماماتي !

وكان آخر ينق :

ـ أوه ـ أوه ـ أوه ! اجعله أكثر حرارة ... يا .. سيدي الطبيب ، فانه يخفف الألم ! وحق المسيح ـ إني أحس ذلك ! هلا تفضلت فسمحت باضافة ماء غال أيضاً .

وكان الطبيب فاستشينكو يصيح :

ـ أعطوني خمراً إلى هنا !

كان أورلوف يعمل ، ويصيخ بانتباه إلى كل ما يجري حواليه ، ويجد

أن كل ذلك لم يكُ . في آخر تحليل ، مخيفاً وباعثاً على النفور كما خيل إليه للوهلة الأولى ، وأن الفوضى لاتسيطر على النشاط الذي يحيط به ، بل إن قوة عاقلة عظمى تفعل فيه على العكس من ذلك تماماً . ولكنه لم يكن يستطيع ، على أية حال ، إلا أن ينتفض كلما مرت ذكرى الشرطي في ذهنه ، فلا يبرح يلقي نظرة جانبية متشككة على الباحة الخارجية من خلال نافذة المهجع الذي يشتغل فيه . كان يؤمن بأن الشرطي قد مات ، ولكن بعض التردد ينتابه بالرغم من ذلك في هذا الشأن . ماذا إذا اندفع ذلك الشرطي على حين غرة وطفق يصيح ؟ وصوّر له أنه يتذكر أن شخصاً ما قد حدثه بأن المتوفين بالكوليرا سوف ينطلقون ذات يوم من قبورهم ، ويفرّون على وجه البسيطة في كل حـــدب وصوب لا يلوون على شيء .

كان أورلوف يحس ، وهو يعدو في المهجع دون انقطاع ، يفرك قدام المرضى تارة أو ينقلهم إلى المغاطس تارة أخرى ، أن ذبابة تدوي في رأسه باستمرار . كان يفكر في زوجته : كيف حالها هناك ، يا تُرى ؟ وكانت هذه الفكرة تترافق أحياناً برغبة خاطفة تدعوه إلى الانفلات لحظة قصيرة كي يغدو ويلقي نظرة سريعة على ماترينا . ولكن سرعان مايضطرب فؤاده ، في اللحظة التالية ، من جراء هذه الرغبة ، فيهتف في وليجة نفسه :

ــ تحركي قليلاً هكذا ، أيتها الكرة ! إنك ستنحلين قليلاً إذن .. وتفقدين بذلك نواياك الشريرة أيضاً ...

كان يرتاب أبداً بأن زوجته تضمر ، في صميم نفسها ، نوايا غير مشرفة بحقه كزوج لها ، ويعترف أحياناً ـ إذ يرتفع بشكوكه حتى درجة ما من الموضوعية ـ أن تلك النوايا مشروعة ، وأن هناك مبرراً لوجودها لا سبيل إلى نكرانه . إن حياتها ، هي الاخرى ، لقاتمة اللون ، فلا عجب إذا تسللت مختلف الأشياء الدنيئة إلى رأس الانسان الذي يعيش مثل هـذه

الحياه . وكانت تلك الموضوعية تحيل شكوكه عادة يقيناً يدوم فترة من الزمن ، ومن ثم لا يملك إلا أن يسأل نفسه : وأية حاجة كانت تدفعنا إلى الخروج من قبونا كي ندسَّ نفسينا في هذه القدر الغالية ؟ إنه يسأل نفسه ، ولا يفهم شيئاً من ذلك مطلقاً . ولكن سائر هذه الافكار كانت تدوم في مكان ما ، عميقاً في باطنه ، وكأنها مفصولة عن كل تأثير على عمله بذلك الانتباه المتوتر الذي يعيره لأفعال الأطباء ومعاونيهم . إنه لم يرَ قط رجالاً ينصرفون إلى عملهم بمثل جِدِّ هؤلاء القوم واندفاعهم ، الأمر الذي حمله أكثر من مرة على التفكير ، حين يرى إلى وجوه الأطباء والطلاب المتعبة . أن سائر هؤلاء القوم لا يتلقون أجورهم من الحقيقة مقابل لا شيء !

وعندما انتهى من خدمته خرج إلى باحة المعسكر ، وتمدد لحظة مستنداً إلى الجدار ، تحت نافذة الصيدلية . إن رأسه ليدوي ، ومعدته توجعه ، وساقيه يؤلمانه بذلك الألم الأصم ، الباعث على الضيق ، الذي يسببه الاعياء العظيم دوماً . إنه لا يفكر في أي شيء بعد الآن ، ولا يرغب في أي شيء أيضاً ، بل لقد تمدد بكل بساطة على العشب وغمس أنظاره في السماء حيث كانت سحب عظيمة البهاء تسبح ، تزينها بصورة رائعة أشعة الشمس المتطفله ، وغطَّ في نوم عميق عمق الموت

وحلم أنه غدا برفقة زوجه إلى زيارة الطبيب فاستشينكو في غرفة شاسعة الأبعاد ، اصطفت مقاعد من الخشب المنحني على طول جدرانها ، فقد اقتعدها سائر مرضى المعسكر دون استثناء . وكان الطبيب وماترينا يرقصان الرقصة الروسية في وسط الصالة . بينا هو يعزف على الأكورديون ، ويضحك كثيراً لأن ساقي الطبيب الطويلتين ترفضان أن تنطويا ، في حين طفق هذا الطبيب يتبع ماترينا ، رزين السيماء أنيس المحيا ، على طول الصالة خطوة فخطوة ، مثل طير الكركي إذ يعبر المستنقعات الآسنة . وكذلك

كان المرضى جميعاً يغرقون في الضحك ، وهم يتأرجحون دون انقطاع على مقـاعدهم .

وفجأة ظهر الشرطي في باب الصالة .

صاح بصوت غاضب ينذر بالويل والثبور :

ـ آها ! أنت يا جريشا ، لقد كنت تحسب أني توفيت تماماً ! إنك تعزف ههنـا على الأكورديون ، بينـا دسستني أنا في غرفة الأموات ؟ حسناً ! هيا ، تعال معي ! انهض !

فأنهض أورلوف جذعه بعزم ، وقد انتابـه الرجفان وبلله العرق ، ومن ثم جلس على الأرض . كان الطبيب فاستشينكو مستوفزاً أمامـه ، يخاطبه مؤنباً :

ـ فلنرَ ، يا صديقي ، أي مستخدم في الصحة العامة أنت ، إذا كنت تنام على الأرض ، وتضطجع على بطنك بالاضافة . وإذا أصبت بالبرد في بطنك ؟ إنك تستطيع هكذا أن تنام بصورة نهائية على فراش في المعسكر ، ومن ثم من يدري ، فقد تموت . هذا ، يا صديقي ، لا يُجدي فتيلاً . فان لك مكاناً في المعسكر كي تنـام لمَ لم يخبروك بذلك ؟ ولكنك تنضح عرقاً وترتعش . تعال قليلاً ، فسوف أعطيك شيئاً .

قال أورلوف متلعثماً :

ـ إنه الاعياء .

ـ فليكن . يجب أن تُعنى بنفسك ، فالوقت خطر ، وأنت رجل نحن في حاجة إليه .

لحق أورلوف بالطبيب في صمت ، على طول رواق المعسكر ، وشرب في صمت دواء قدمه له في قدح من الماء ، ومن ثم شرب أيضاً في قدح صغير آخر ، وكشر ، وبصق .

قال الطبيب :

ـ حسناً ، والآن اذهب . ونم في سلام .. إلى اللقاء .

وطفق يذرع أرض المهجع بساقيه الطويلتين الرقيقتين .

تطلع أورلوف إليه وهو يبتعد ، ومن ثم افترت شفتاه عن ابتسامة عريضة ، وانطلق يعدو خلفه .

قال :

ـ إني أشكرك كثيراً ، يا دكتور !

ـ لماذا ؟

وتوقف .

ـ من أجل العمل إني سأبذل كل جهدي بعد الآن كي تكون راضياً عني . ذلك أن اهتمامك يُسعدني . . و . . . لأني رجل تدعو الحاجة إليه . . . وإني لعظيم الامتنان لك بصورة عامة !

كان الطبيب يتطلع بانتباه ودهشة إلى محيا مستخدم المهجع المنقلب فرحاً ، ومن ثم ابتسم بدوره .

قال :

ـ ما أغربك ! ومع ذلك فهذا حسن ، هذا ينمّ عنك بصورة حسنة ... بكل إخلاص . هيا ، وافعل ما في وسعك . ذلك لن يكون من أجلي ، بل من أجل المرضى . لا بد لنا أن ننازع المرض من الانسان وأن ننتزعه من بين مخالبه ـ هل تفهم ؟ إذن فلنجهد ما وسعنا الجهد كي نتغلب على المرض ونقهره . وفي انتظار ذلك نم ، هيا !

وسرعان ما كان أورلوف متمدداً في سريره ، يستسلم إلى الرقاد باحساس لذيذ من الحرارة في بطنه . كان مغتبطاً كل الغبطة ، وفخوراً كل الفخر أيضاً ، من الحديث البسيط جداً الذي تبادله مع الطبيب .

ونام آسفاً لأن زوجه لم تستمع لذلك الحديث . يجب أن أروي لها ذلك غداً ... ولعلها لن تصدقني ، تلك الساحرة !

٦

قالت ماترينا، وهي توقظ زوجها في الصباح :

— تعال وتناول الشاي ، ياجريشا ؟

رفع رأسه وتطلع إليها : إنها تبتسم له . كانت نظيفة جداً ، طرية للغاية ، في زينتها المتقنة وقميصها الأبيض الطويل .

كان يشعر بسرور عظيم اذ يراها على هذه الصورة ، ويفكر في الوقت ذاته أن رجالاً آخرين في المعسكر يرونها أيضاً .

قال متجهم الوجه :

— أي شاي تعنين ؟ الى لديّ شاياً من جهتي ... أين تريدين أن أذهب ؟

فاقترحت :

— تعال تناوله معي على أية حال .

وتطلعت إليه بعينين ملاطفتين .

فأدار جريجوري أنظاره عنها ، وقال باقتضاب أنه سيأتي .

ذهبت ، أما هو فعاد واضطجع على السرير الصغير واستغرق في التفكير .

— هل ترى كيف هي ! إنها تدعوه إلى تناول الشاي ، لطيفة حتى الدرجة القصوى . ومع ذلك فقد هزلت في يوم واحد .

أشفق عليها ، وراودته الرغبة في أن يصنع شيئاً لطيفاً لها . ماذا لو اشترى بعض الحلويات من أجل الشاي ؟ ولكنه ألقى عنه هذه الفكرة وهو يغسل وجهه : — لماذا تدليل المرأة ؟ إنها تعيش حسناً دون ذلك !

جرى تناول الشاي في غرفة صغيرة نيرة جداً، ذات نافذتين تطلان على الحقول المغمورة بأنوار الشمس الصباحية المذهبة . كان الطل يبرق بعد على العشب تحت النافذتين ، وأشجار الطريق الكبيرة ترتسم عن بعد، عند الأفق ، في قلب كتلة من الضباب الحليبي المصبوغ باللون الزاهر . وكانت السماء نقية صافية ، ونسيم عليل ، مشبع برائحة العشب الرطب والأرض ، يهبّ من ناحية الحقول .

كانت المائدة واقعه بين النافذتين ، قد جلس ثلاثة أشخاص إليها : جريجوري ، ماترينا ، وزميلة ثالثة لها . إنها سيده كبيرة ، ناحلة ، متقدمة قليلاً في السن ، ذات محيا محتفر بالجدري وعينين رماديتين طيبتين ، تدعى فيليبتزاتا جيغورفنا وكانت أبنـة عانساً لموظف في الدولة ، لا تطيق أن تتناول الشاي المصنوع بمياه القدر الكبيرة الخاصة بالمستشفى ، بل تسخن سماورها الخاص دوماً . وقد أعلنت ذلك لأورلوف بصوت متكسر ، ومن ثم دعته الى الجلوس قرب النافذة كي يتنفس بطلاقة الهواء النقي ، واختفت.

سأل أورلوف زوجته :

ــ هل أتعبت نفسك البارحة ؟

فأجابت ماترينا في حيوية :

ــ يا اطيف ! بصورة رهيبة ! إني لا أحس بساقيَّ مطلقاً ، ورأسي المسكين يدور دون انقطاع ، ولا أفهم ممـا يقولون شيئاً ، ولو استمر ذلك بعض الزمن أيضاً لسقطت متيبسة الأوصال إذن ! إني لم أستطع أن أقاوم حتى النهاية إلا بصعوبة ، بصعوبة عظيمة . وكنت أصلي طوال الوقت إلى الله كي يمد لي يد المعونة .

ــ وهل تخافين ؟

ــ مَن هذا ؟ من المرضى ؟

ــ المرضى ، إن أمرهم لبسيط .

ـ من الأموات ، إني لا أخافهم .

وانحنت نحو زوجها ، وهمست في فرق ظاهر :

ـ هل تعلم أنهم يتحركون بعد الموت ؟.. أقسم لك !

فابتسم جريجوري وعليه سيماء الارتياب :

ـ هذا ... لقد رأيته . البارحة أيضاً كاد نازاروف ،الشرطي ، يصفعني حتى بعد موته . كنت أحمله ، كما ترين ، إلى غرفة الأموات ، وهذا هو يرفع ذراعه ، بغتة ، وكأنه يريد أن يضرب بها .. ولم أجد الوقت كي أتجنب تلك اللطمة إلا بصعوبة . هكذا.

كان يبالغ قليلاً ، ولكن هذه المبالغة قد حدثت عفواً ، من تلقاء نفسها . بالرغم منه .

ذلك أن هذا الأسلوب في تناول الشاي ، في غرفه نظيفة نيرة ، ذات نافذتين تطلان على الاتساع اللامحدود للبرية الخضراء والسماء الزرقاء ، قد راقه كثيراً . وكان هناك شيء آخر يروقه أيضاً ، لم يكن يستطيع أن يقول إن كان زوجته أم هو نفسه . لقد كان يود ، باختصار ، أن يظهر ذاته من جانبها الحسن ، أن يكون بطل النهار المبتدىء .

قال :

ـ لسوف آخذ بالعمل هنا بصورة تدفأ السماء نفسها معها . هكذا ! إذ أن هناك سبباً يدفعني إلى ذلك أولاً إن الناس ههنا ـ إني أؤكد لك ذلك ـ هم كما لا يوجد مثلهم في الارض بأسرها .

وروى حديثه مع الطبيب ، وإذ بالغ قليلاً من جديد ، دون وعي منه ، فقد ازداد يقينه بحسن مزاجه ذلك الصباح .

ـ ومن ثم ، فالعمل بحد ذاته . هذا ، ياصغيرتي ، لأمر عظيم جداً ، كمن يقول إنه على غرار الحرب . الكوليرا والبشر ، ومَن يغلب الآخر من الطرفين ههنا لا بدّ من الذكاء ، ومن أن يكون كل شيء في مكانه ،

خاضعاً لنظام دقيق . ما هي الكوليرا ؟ هذه ، يجب أن نفهمها ، وبسرعة أيضاً ، وأن نرميها بالأشياء التي لا تستطيع أن تتحملها ! لقد قال لي الطبيب فاستشينكو : أنت ، يا أورلوف ، رجل مفيد في هذا المركز . لا تضيع شجاعتك ، كما قال ، بل مسيّد جيداً – واجبر المرض على الصعود من القدمين إلى البطن ، وهناك سوف أقرصه بحمض صغير على طريقتي . . وعندئذ يُغلب على أمره ، ويأخذ الانسان يحيا من جديد ويكون شاكراً لنا طوال حياته ، إذ من الذي نازع الموت بشأنه ؟ نحن !

ونفخ أورلوف صدره في اعتزاز عظيم ، وهو يتطلع إلى زوجه بعينيه المهتاجتين .

كانت تبتسم له حالمة : لقد كان جميلاً حقاً ، يشبه كثيراً في هذه اللحظة ذلك الجريشا الذي عرفته منذ زمن طويل ، قبل الزواج .

قالت :

– أما عندنا ، في شعبتنا . فان الجميع مجتهدات وطيبات ! الطبيبة ، وهي أمرأة ضخمة ، تحمل نظارتين ، ومن ثم المساعدات أيضاً . نسوة شجاعات ، يتكلمن ببساطة كثيرة ، بحيث يفهم المرء كل مايقلن .

فسأل جريجوري الذي تناقص هياجه قليلاً في تلك الأثناء :

– إذن ، فالأمور على ما يرام . أنت مسرورة ؟

– أنا ؟ ولكن ، يا إلهي ! أحكم على ذلك بنفسك اذا كنت أتلقى اثني عشر روبلاً وأنت عشرين . . إنه يساوي إذن اثني وثلاثين روبلاً في الشهر ! مع الغذاء أيضاً ! ولكن ذلك يعنى أن الناس إذا بقوا مرضى حتى الشتاء ، فكم سنوفر إذن ؟ . ومن ثم فاننا سنخرج ، بمعونة الله ، من قبونا .

فقال أورلوف حالماً :

– آه ، بلى . هذا ، إنه مسألة هامة أيضاً . .

وبعد صمت قصير هتف بلهجة حارة . وهو يضرب زوجه على كتفها :

— ايه ! أفلن تبتسم الشمس لنا ، يا ماترينا ؟ لا تفقدي الشجاعة قط . بل تقدمي دوماً !

أما هي فقد اشتعلت حماسة .

— بشرط أن تقاوم أنت ...

— أما عن هذا ، فصمتاً ! إن الانسان يرتدي لكل مقام رداءً خاصاً .

فتنهدت ماترينا عميقاً :

— يا رب ، لو أن ذلك يمكن أن يتحقق !

— وماذا إذن ، صه !

— جريشكا !

وافترقا ، وكأنهما يضمران لبعضهما بعض عواطف جديدة ، قد بعثت الآمال الحياة فيهما ، فهما مستعدان أن يعملا حتى يفقدا كل قواهما ، جريئين مرحين بصورة دائمة .

وانقضت ثلاثة أو أربعة أيام استحق أورلوف خلالها عدة ملاحظات مفعمة بالمديح ، على اعتباره فتى حاذقاً حاضر البديهة ، ولاحظ في الوقت ذاته أن برونين والمستخدمين الآخرين في المعسكر قد أخذوا يتصرفون تجاهه في غيرة غير بريئة من الرغبة في الاساءة إليه ، فاتخذ حذره منهم ، وراح غضب أصم ينمو فيه ضد هذا البرونين ذي الوجه الضخم العريض ، والذي كان مستعداً أن يرتبط معه بأواصر الصداقة ، ويبادله الحديث « بكل صراحة » أيضاً . وكان يحس شيئاً من المـــرارة في الوقت ذاته إذ يلاحظ الرغبة الأكيدة التي تعتمل في صدور رفاقه في العمل ، هؤلاء الذين يريدون أن يسيئوا إليه بطريقة ما ، فيهتف في وليجة نفسه ، وهو يصرّ بأسنانه قليلاً : آه ! ياللأوغاد ! ويسعى ألا يضيع أية فرصة كي يردّ لأعدائه الصاع الصاعين دون هوادة . وكانت أفكاره تتوقف دوماً ،

بالرغم منه ، عند زوجته . إن المرء يستطيع أن يتحدث مع هذه المرأة عن كل شيء ، فهي لن تغار من نجاحاتي ، ولن تحرق حـــذائي بالحمض الفيني كما فعل برونين .

كانت سائر أيام العمل مضطربة ، تفور كاليوم الأول تماماً ، ولكن جريجوري لم يعد يتعب مثله في ذلك الحين ، لأنه أصبح يصرف طـاقته في هدوء يتعاظم يوماً بعد يوم . وقد تعـــلم كيف يتعرف إلى روائح الأدوية ، فصنَّف جانباً رائحة الأثير الكبريتي الذي كان يتنفسه خفيـة في لذة عظيمة ، كما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لأنه لاحظ أن استنشاق الأثير يفعل فيه فعل قدح صغير لذيذ من الفودكا . وكان يفهم من مجرد الاشارة أوامر الاطباء ، يتحدث دوماً إلى المرضى ويعاملهم بصورة حسنة ، مجرباً أن يسليهم ما أمكنه ذلك وأصبح يروق للأطباء والطلاب أكثر فأكثر ، وهو يحس أن شعوراً خاصاً ، غريباً وملتهباً ، ينمو فيه شيئاً فشيئاً بتأثير سائر انطباعات وجوده الجديد مجتمعة . وطفق هـوى عظيم يتدفق فيه ، يدعوه إلى أن يصنع شيئاً يجتذب إلى شخصه انتباه الجميع ، ويضطرهم إلى الاعتراف ، وقد سيطرت الدهشة عليهم ، بحقه في فرديته التي سمت كثيراً في عينيه . ذلك كان طموحاً مبتكراً من جانب إنسان قد عرف إنسانيته بصوة مباغتة ، فهو يريد ـ وكأنه لم يتأكد بعد تماماً من هذا الواقع الجديد بالنسبة إليه ـ أن يثبته بطريقة ما لنفسه وللآخرين على حد سواء . وكان هذا الطموح يتحول عنده شيئاً شيئاً عطشاً صادياً إلى تحقيق فصول من الشجاعة التي يبذلها في كرم وسخاء عظيمين .

وكان أورلوف ينجز سائر الاعمال المحفوفة بالاخطار ، تحثه هـذه الرغبة ، فهو يجر مثلاً لوحده دون أن ينتظر مساعدة أحد من الرفاق ، مريضاً ضخم الجثة من سريره حتى الحمام بصعوبة جمة ، ويُعنى بأكثر المرضى قذارة ، ويقف من إمكانية العدوى موقفاً لا يخلو من الجرأة

المتحدية ، أما الأموات فيعاملهم ببساطة تقرب من الصفافة أحياناً ولكن كل هذا لم يكن يرضيه ، بل كان يرغب في شيء أعظم وأروع ، فتلتهب هذه الرغبة دوماً فيه ، وتعذبه ، وتدفعه أخيراً إلى إحساس مضنٍ من العذاب المبرح ، فيعترف عندئذ لزوجته بكل شيء لأنه لم يكن يعرف شخصاً آخر يعترف له بسائر هذة المشاعر المعتملة في صدره .

وفي ذات مساء ، بعد انتهاء خدمتها وتناولهما الشاي خرج الزوجان معاً إلى الحقول . كان المعسكر قائماً خارج المدينة ، في وسط سهل عريض أخضر ، يحده من جهة واحدة خط الغابة القاتم ، ومن الجهة الأخرى خط أبنية المدينة . وإلى الشمال ، كان السهل يمتد بعيداً ، ويختلط هناك . أخضر اللون ، بالأفق ذي اللون الأزرق العكر . وإلى الجنوب ، كان منحدر شديد يقطع هذا السهل ، ويهبط في اتجاه النهر ، يركض على طول الطريق الكبيرة حيث زرعت أشجار عتيقة على مسافات منتظمة . كانت الشمس تغرب ، وصلبان كنائس المدينة ، وقد ارتفعت فوق خضرة الحدائق القاتمة ، تلتهب في السماء مرسلة رذاذاً من الأشعة الذهبية ، ولهيب المغيب الأحمر ينعكس أيضاً على زجاج منازل المدينة الأخيرة . وكانت موسيقى تتصاعد من مكان ما . ونفحات عاطرة ترتفع من الوادي الذي غطته أشجار الصنوبر ، والغابة تنشر ، هي الأخرى ، عبيرها المسكر ، وموجات لطيفة معطرة من نسيمٍ دافيء لذيذ تسيل بعذوبة نحو المدينة ، والجو رائعاً ، ساكناً وحزيناً ، في السهل العريض المقفر .

كان الزوجان أورلوف يسيران على العشب ، صامتين ، وهما يمتصان في لذة الهواء النقي بدلاً من روائح المعسكر .

سألت ماترينا زوجها بصوت خفيض ، وقد استغرق في أحلامه :

ـــ أين تعزف الموسيقى ، أفي المدينة أم في المخيم ؟

لم تكن تحب رؤيته وهو غارق في احلامه ، إذ يخيل إليها في مثل تلك

اللحظات أنه يزداد بعداً عنها ، فكأنه غريب عليها . ثم إن الفرصة لم تسنح لهما إلا قليلاً جداً كي يكونا مع بعضهما في هذه الأيام الأخيرة ، بحيث أن هذه اللحظات كانت تتعاظم قيمة في عينيها .

سأل جريجوري ، وكأنه يستيقظ من النوم :

ــ الموسيقى ؟ إيه ، ألا فليأخذها الشيطان ، هذه الموسيقى ! كان أحرى بك أن تسمعي أية موسيقى تتردد في قلبي ... هذا ، إنه شيء آخر !

فسألت ، وهي تتطلع في عينيه :

ــ ماذا إذن ؟

ــ ولكن لاأدري ماذا !... إني لا أستطيع أن أروي لك هذا .. ولو استطعت ذلك ، فهل تتمكنين أنت من الفهم ؟ إن نفسي تحترق ... إنها تطلب مكاناً . . حتى أستطيع أن أعطي لقواي ملء الحرية . أواه ، إني لأحسُّ قوة فيَّ ... لا يمكن قهرها ! لو أن هذه الكوليرا مثلاً تأخذ شكل إنسان ... شكل بطل ، شكل إيليا دوميروم [1] نفسه ، لهجمت عليه إذن ! تعالَ ، ولنتقاتل حتى الموت ! أنت ، إنك قوة ، وأنا جريشكا أورلوف ، إني قوة ــ وإذن فلنرَ من منا سيتغلب على الآخر ؟ ولسوف أقتله وأسقط أنا الآخر قتيلاً . . صليب في السهل على جسدي وكتابة : « جريجوري أندرييف أورلوف ... قد أنقذ الروسيا من الكوليرا » . ليس من حاجة إلى أكثر من ذلك مطلقاً .

كان يتكلم ، ومحياه يلتهب وعيناه تلتهبان .

همست ماترينا بصوت لطيف ، وهي تشد بكتفها إليه :

ــ آه ، يا شجاعي !

ــ هل تفهمين ؟ إني ألقي بنفسي على مائة سكين ... ولكن بشرط

---

(١) بطل أسطوري (المترجمان)

أن يكون ذلك مفيداً ! بشرط أن ينشأ عنه خير للحياة ! ذلك أني أرى الناس - الطبيب فاستشينكو ، الطالب خوكرياكوف - إنهما يشتغلان ، وتلك معجزة حقيقية . كان يجب أن يموتا منذ زمن طويل ... من جراء التعب . أتظنين أنهما يفعلان ذلك من أجل المال ؟ إن المرء لا يستطيع أن يعمل هكذا من أجل المال ! إن الطبيب - شكراً لله - يملك شيئاً ما ، وأفضل من ذلك أيضاً ... وعندما سقط العجوز مريضاً مؤخراً ، فقد قضي فاستشينكو أربعه أيام كاملة من أجله ولم يذهب إلى بيته حتى ولا مرة واحدة طوال هذه الفترة .. إن المال لا يلعب أي دور ههنا ، بل إن الشفقة هي السبب في كل ذلك إنهم يشفقون على البشر ، وإذن فهم لا يشفقون على أنفسهم . . في سبيل من ، إسألهم ؟ في سبيل سائر الناس ... في سبيل ميشكا أوسوف . إن مكان ميشكا هو بالأحرى في الأشغال الشاقة ، فالجميع تقريباً يعرفون أن ميشكا لص سارق وربما أسوأ من ذلك أيضاً ... وهنا يُعنون بميشكا ويعالجونه . وقد سُرّوا كثيراً عندما نهض من سريره ، إنهم إذن يضحكون . . وإليك ، فانني أنا أيضاً أُريد أن أجرب هذا الفرح - وليكن منه الكثير .. حتى يخنقني في باطني ! . ذلك أنني عندما أراهم يضحكون فرحاً - فذلك أشبه مايكون بشوكة بالنسبة إليّ إني أروح أذبل على حين غرة ، وأحترق ، إني أريد !.. وكيف ؟ بخ .. ياللشيطان !

وقام أورلوف بحركة يائسة ، وعاد فاستغرق في حلم عميق .

كانت ماترينا تعتصم بالصمت ، لكن قلبها يخفق في قلق ، إذ أن هياج زوجها يخيفها ، فتحسّ بكل وضوح في كلماته هوى رغبته العظيم ، العصي على إدراكها لأنها لا تحاول أن تفهمه . لقد كانت في حاجة إلى زوجها ، وكانت تعزه كزوج ، وليس كبطل أبداً .

اقتربا من حافة الوادي وجلسا متجاورين ... إن قمم الأشجار الفتية المشعثة تنظر إليها من الأسفل ، وضباباً مزرقاً قد انتشر في قاع الوادي حيث كانت تتصاعد الرائحة الرطبة المنبعثة من الأوراق المتعفنة ، ومن إبر الصنوبر . وكانت الريح تهب خفيفة من حين لآخر على طول الوادي . فتتأرجح أغصان الشجيرات ، وكذلك تتأرجح الصنوبرات الصغيرة جداً — وعندئذ يمتلىء الوادي بأسره بوشوشة خجول ، قلقة ، فيخيل إليك أن شخصاً ما محبوباً بحنان عظيم من أشجار الصنوبر قد رقد في الوادي تحت حمايتها وفي ظلها ، بحيث لاتجرؤ إلا بصعوبة أن تتبادل الهمس خوفاً من إيقاظه . وكانت الأنوار تشتعل في المدينة وتنفصل مثل ورود حمر على قاع الحدائق المظلم ، والنجوم تشتعل في السماء أيضاً . أما الزوجان أورلوف فقد ظلا صامتين — فهو يقرع بأصابعه على ركبته ، وهي تنظر إليه من حين لآخر وتتنهد بصوت مخفوض .

وفجأة ، ألقت بذراعيها حول عنقه ، وأسندت رأسها إلى صدره ، وهمست :

— جريشكا ، ياعزيزي ، يا حبي ، لكم عـــدت طيباً بالنسبة إليّ ! عدت بطلي الشجاع المقدام ! ما أشبه هذا بالزمن الغابر ، بعد العرس ... إننا نظل معاً ... وأنت لاتوجه لي كلمة واحدة شريرة قط ، بل تتحدث معي ، وتفتح لي نفسك ، ولا تعنفني .

— أينقصك هذا ؟ إذا أردت ، فاني أعطيك علقة .

قال جريجوري ذلك مازحاً بصوت ملاطف ، ذلك أنه كان يحس في نفسه موجة من الحنان والشفقة نحو زوجه .

وطفق يمسح بيده على رأسها في لطف ، فكانت هذه المداعبة تروق له — لقد كانت أبوية جداً ، مداعبة طفل كبير . كانت ماترينـا تشبه

طفلا في الحقيقة ، فقد تسلقت ركبتيه منذ برهة ، وتكومت على صدره في كرة صغيرة دافئة عذبة .

كانت تهمس :

— آه ، ياحبي !

فتنهد بعمق ، وإذا كلمات جديدة كل الجدة عليه وعلى زوجه تتدفق على لسانه :

— تعالي ، ياقطتي الصغيرة المسكينة ! أيتها الناعمة ... هل ترين ؟ ليس من صديق أقرب من الزوج دوماً . أما أنت ، فانك تجربين طوال الوقت أن تتطلعي جانباً .. ولكن إذا كنت قد حملتك أحياناً على الألم ـ فقد كان العذاب سبب ذلك . إننا نبقى ، ياموتريا ، في ثقب لعين ... ولسنا نرى الناس في النهار ، بل لانكاد نعرف أحداً من الناس أيضاً . ولقد خرجنا من الثقب ، وفتحت عيناي . لقد كنت أشبه بالأعمى قبلاً كي أستطيع الحكم على الحياة ... وإني لأدرك حالياً أن المرأة ، على أية حال ، هي أفضل صديق في الحياة ذلك أن الناس ليسوا إلا أفاعي ، وإلا أوغاداً ، إذا شئت الحقيقة ... إنهم يريدون طوال الوقت أن يصنعوا هذه القذارة أو تلك ... مثلاً برونين ، وفاسوكوف .. ولكن ، فليذهبوا جميعاً إلى ... ولكن ، صه ياموتريا ، فلسوف ننهض ، لا تيأسي . لسوف نتمكن من الصيرورة قوماً جيدين ، وعندئذ نشرع بالحياة بصورة معقولة .. فلنر ؟ ما بالك ، ياحيوانتي الضخمة !..

كانت تذرف دموع السعادة ، فأجابته بالقبلات .

همس :

— ياحبيبتي !

وقبلها بدوره .

كان كل منهما يمسح بالقبلات دموع الآخر ، وكانا يحسان طعم العبرات المالح . وظل أورلوف طويلاً يتحدث بكلمات جديدة عليه .

كانت الظلمة قد خيمت تماماً ، والسماء المنارة في روعة عظيمة وبهاء فائق ، بشبكات الكواكب التي لا تحصى ، تنظر إلى الأرض في اكتئاب عميق ، والهدوء يشمل كل شيء في السهل ، مثلما يشمل كل شيء في السماء .

٧

كانا قد اعتادا على تناول الشاي معاً ، ففي غداة الحديث في الحقول ظهر أورلوف في غرفة زوجه مضطرباً قاتم السيماء . كانت فيليتزاتا متعبة ، وماترينا وحيدة في الغرفة ، فاستقبلت زوجها بوجه مشع ، لكن ما أسرع أن عبست بدورها ، وسألته في قلق :

— مابالك ؟ هل أنت مريض !

فأجاب بجفاء :

— كلا ، لا شيء .

واقتعد كرسياً ، وقرّب منه الشاي الذي كان مصبوباً سلفاً .

عادت ماترينا تشدد في السؤال :

— إذن ماذا ؟

— إني لم أستطع أن أنام . لقد كنت أفكر طوال الوقت . . لقد طفقنا البارحة نتق ، وتراخينا تجاه بعضنا بعض حتى أبعد حـــد .. وإني لأخجل الآن من نفسي .. إن هذا لايجدي فتيلاً ، كل هذا .. أنتن النساء تسعين ، في مثل هذه المناسبات ، أن تستولين على الرجل . ولكن .. لاتفكري في ذلك - إنك لن تتوصلي إليه ... أنا ، إنك لـن توقعيني في حبائلك ، ولن أخضع لك مطلقاً ... كوني على علم بذلك .

قال ذلك كلـــه وعليه سيماء التسلط والمهابة ، ولكنه لم يتطلع إلى زوجه أبداً ، أما ترينا فانها لم تحد بأنظارها مطلقاً ، طوال هـذا الزمن ، عن محياه ، حتى إذا انتهى من حديثه التوت شفتاها بصورة غريبة .

سألت بصوت عذب مخفوض :

— حسناً ! أنادم أنت على اقترابك مني بالأمس ؟ هـــل أنت نادم على أنك أحببتني ولاطفتني ؟ أتلك هي الحقيقة ؟ إن سماع ذلك يحرجني ... إنه شديد القسوة ، وإنك تمزق قلبي بمثل هذه الكلمات ماالذي تحتاجه ؟ هل تضجر من البقاء برفقتي ؟ إني لا أحلو لك ، أو ماذا ؟

راحت تنظر إليه متشككة مرتابة ، يتردد في صوتها المرارة والتحدي معاً .

قال جريجوري مضطرباً حائراً :

— لا — لا . . إني أقول بصورة عامة ... إننا نعيش سوية في ثقب . إنك تعرفين جيداً أي شيء كانت تلك الحياة ! وإن قلبي ليوجعني من مجرد التفكير فيها وهذان نحن ، حالياً ، قد نهضنا من تلك الحياة ... وانا نخشى شيئاً ما . ان كل شيء قد تغير بسرعة عظيمة ... وأنا قـــد أصبحت أشبه بالغريب على نفسي ، وأنت أصبحت كأنك امرأة أخرى . ما هذا كله ؟ وماذا سيحدث بعده أيضاً ؟

فقالت ماترينا بلهجة رصينة :

— مايريده الله ، ياجريشا . فقد لاتندم أنت على أنـــك كنت طيباً البارحة .

فأوقفها جريجوري ، وهو في مثل اضطرابها ، مصعداً زفرة عميقة .

— حسناً ، دعينا من هذا . . أترين ؟ اعتقد أننا لن ننجح في صنع أي شيء كان . إن حياتنا المنصرمـة لم تكن مكسوة بالورد ، وحياتنا الراهنة ليست كما يريدها قلبي . وبالرغم من أنني لا أسكر ، ومن أنـني لا أضربك ، ومن أني لا أشتم ...

فأخذت ماترينا تطلق ضحكاً تشنجياً :

— ذلك أنك لاتجد الوقت حالياً كي تعنى بذلك .

فابتسم أورلوف وقال :

— كنت أستطيع أن أجد الوقت دوماً كي أسكر . ولكن السكر لم يعد يستهويني ... أليس هذا مدهشاً ؟ ومن ثم ، بصورة عامة .. لست أدري ... لكأنني أخجل من ذلك .. أو لكأنني أخاف من شيء ما ..

وهز رأسه ، وشرد من جديد .

قالت ماترينا ، وهي تتنهد بألم وعناء :

— الله يدري ما ألمّ بك . إن الحياة جيدة ههنا ، بالرغم من أن هناك عملاً كثيراً . وإن الأطباء جميعاً يحبونك ، وأنت تتصرف بصورة حسنة .. إني لا أفهم من حالك شيئاً ، فلكأنك قلق جداً .

فقال أورلوف :

— هذا صحيح : قلق .. إليك ، لقد كنت أفكر هذه الليلة هكذا : إن بيتر إيفانوفيتش يقول : إن سائر البشر متساوون ؟ وأنا ، أفلست إنساناً مثل سائر البشر ؟ وبالرغم من ذلك . فان الطبيب فاستنشكو أفضل مني قليلاً ، وبيتر إيفانوفيتش أفضل ، وعدداً كبيراً من الآخرين أيضاً . إذن فهم ليسوا بمساوين لي ، وأنا لست مساوياً لهم ، وإني أشعر بذلك . لقد شفوا ميشكا أوسوف واغتبطوا بذلك ... أما أنا ، فاني لا أفهم ذلك وبصورة عامة ، لم الغبطة إذا كان رجل قد شفي ؟ إن الحياة لأسوأ من مغص مؤلم تسببه الكوليرا ، إذا أردنا أن نقول الحقيقة ! وإنهم يعرفون ذلك ويغتبطون ... وأنا أيضاً ، كنت أتمنى أن أغتبط مثلهم . ولكني لا أستطيع .. الآن . من أي شيء يمكن أن أغتبط على أية حال ؟

فاعترضت ماترينا تقول :

— هم ، إنهم يرثون للبشر ، يالطيف ، ما أكثر ما يرثون لهم ! عندنا أيضاً ... قد شرعت مريضة تتحسن ، وإذن ـ يا الله ـ ما أغرب ما يحدث ! وتلك التي تتأهب للخروج ، البائسة ، يعطونها اذن نصائح ، وأدوية ، ومالاً . بل إن الدموع تصعد إلى عينيّ دون إرادة مني ... إنهم لقوم شجعان ،

يعرفون معنى الشفقة !

ـــ إليك ، أنت أيضاً تقولين : الدموع ... أما أنا ، فاني أحس الدهشة ... ولا شيء أكثر .

وهزّ أورلوف كتفيه وحكّ رأسه ، وهو يتطلع إلى زوجـه بعينين مخبولتين .

ووجدت زوجه البلاغة من حيث لايدري أحد ، فطفقت توضح لزوجها أن الناس يستحقون الشفقة كل الاستحقاق . كانت تميل نحوه ، تتطلع في محياه بعينيها المداعبتين ، وتتحدث إليه طويلاً عن البشر وعن عبء الحياة، بينا ينظر هو إليها ويفكر :

ـــ أترون كيف تتحدث ! من أين تأتي بالكلمات ، ياترى ؟

ـــ ولكن أنت أيضاً إنك رؤوف بدورك ـ إنك تقول : كنت أخنق الكوليرا ، لو كانت لي القوة على ذلك ! ولماذا ؟ من تضايق الكوليرا ؟ البشر ، وليس أنت ! لا بل إن الحياة أصبحت أسهل عليك أيضاً منذ أن ظهرت الكوليرا .

وصاح أورلوف على حين غرة :

ـــ ولكن هذا صحيح ، وربي ! الحقيقة أن الحياة أصبحت أسهل ! آه ، أترين إلى ذلك ! إن الناس يموتون ، وأنا أستفيد من ذلك وأصير أفضل ، ما ؟ ... يالها من حياة ! بخٍ !

نهض ، وغدا كي يستلم خدمته ضاحكاً ، فأحس وهو يجتاز الرواق أسفاً مباغتاً على أن إنساناً ، سواه ، لم يسمع كلمات ماترينا . ذلك أنها كانت تتكلم بصورة رائعة حقاً ! إنها امرأة بسيطة في الحقيقة ، ومع ذلك فانها تفهم شيئاً ! وهكذا تقدم في المهجع ، يجتاحه إحساس لذيذ ، نحو خراخر المرضى وزمجرتهم .

كان عالم عواطفه يتسع يوماً بعد يوم ، وفي الوقت ذاته تزداد حاجته

إلى الكلام . أن يروي كل ما يجري في باطنه - ذلك أمر لن يستطيع سبيلاً إليه بكل تأكيد ، لأن القسم الأعظم من عواطفه وأفكاره كان يعصى حتى على ذات إدراكه . وكانت غيرة موجعة تتفاقم في نفسه : لماذا لايستطيع أن يفرح من أجل البشر ويغتبط !

ومن ثم كانت الرغبة في تحقيق عمل عظيم يدهش سائر الناس تشتعل فيه . كان يحس أن دوره في المعسكر يضعه ، إذا جاز التعبير ، في مركز وسط ، فالأطباء والطلاب يسمون عليه . أما الخدم فهم أدنى منه مرتبة - أي شيء هو إذن ؟ وعندئذ يجتاحه إحساس بالوحدة ، فيخيل إليه أن القدر يسخر منه ، وأنه قد انتزعه من مكانه بنفخة واحدة ، وحمله في الهواء مثل ريشة ضالة ، فيطفق يشكو ، ويذهب إلى امرأته في سبيل ذلك . وكان يأبى في الأحايين أن يذهب إليها ، واجداً أن اعترافاته لها تدنيه في نظر نفسه ، ولكنه يذهب بالرغم من ذلك . وكان يأتيها دوماً مكتئباً أبس الوجه ، في مزاج متشائم تارة شرير تارة أخرى ، ويتركها أبداً تقريباً بعد ملاطفة حنون ، وقد استكانت نفسه وهدأ روعه . لقد كانت امرأته تحتفظ بكلمات خاصة به ، وكانت هذه الكلمات قليلة العدد ، بسيطة ساذجة ، لكن تحوي في كل الأحيان كثيراً من العاطفة ، فاذا هو يلاحظ مدهوشاً أن مارينا تشغل مركزاً يتعاظم أكثر فأكثر في حياته ، وأنه أصبح يفكر فيها أكثر من ذي قبل ، ويتحدث إليها بصراحة « وقلب مفتوح » .

وكانت هي تفهم ذلك جيداً من جانبها ، فتسعى بمختلف الوسائل إلى مد سلطانها المتعاظم عليه وتوطيده . إن الحياة الصاخبة في المعسكر ، المجبولة بأسرها من العمل ، قد ضاعفت من شعورها بقيمتها - وقد حدث ذلك دون أن تدركه مارينا وتعيه . لم تك تفكر أو تحاكم ، ولكنها كانت تتذكر وجودها المنصرم الذي انقضى في القبو ، في الدائرة الضيقة التي تشكلها

عنايتها بزوجها وبيتها ، وتقارن بالرغم منها بين الماضي والحاضر، فتبتعد مشاهد وجود القبو المظلمة شيئاً فشيئاً عنها باستمرار . كان رؤساء المعسكر يحبونها ، لفهمها السريع وقابليتها للعمل ويعاملونها جميعاً بلطف ، ويجدون فيها كائناً إنسانياً ، الأمور التي كانت جميعاً جديدة عليها ، والتي كانت تبعث الحياة والنشاط في أوصالها .

وفي ذات مرة ، أثناء خدمة الليل ، أخذت الطبيبة الضخمة تسألها عن حياتها ، فروت لها ماترينا بصراحة وسرور وجودها . ولكن مالبثت أن لجأت إلى الصمت بغتة وابتسمت :

سألت الطبيبة :

ــ ما الذي يحملك على الضحك ؟

ــ ولكن هكذا . . ذلك أنني كنت أحيا حقاً بصورة سيئة للغاية. وهل تستطيعين أن تصدقي ، ياسيدتي الطبيبة ، أني لم أكن أفهم ذلك من قبل ... إليك ، حتى هذه الساعة لم أكن أفهم إلى أية درجة كانت حياتي سيئة !

ولقد ولد شعور غريب في نفس أورلوفا تجاه زوجها بعد هذه المراجعة لماضيها . إنها تحبه دوماً مثلها قبلاً ، بحب الأنثى الأعمى ، ولكن أخذ يصور لها ، منذ ذلك الحين ، أن زوجها مدين لها . فأصبحت تخاطبه أحياناً بلهجة أمومية ، إذ كثيراً ما كان يوقظ الشفقة في قلبها بأحاديثه القلقة . ولكن الشك كان يجتاحها في بعض الأحايين بالرغم من ذلك ، فترتاب في إمكانية حياة هادئة حالمة مع زوجها ، وإن كانت تظن بصورة عامة أن جريجوري سيصبح عاقلاً ، وأن ذلك العذاب المفعم قلقاً سوف ينطفىء فيه .

كان لابد من أن يقتربا من بعضهما البعض بصورة محتومة ، وكان يمكن أن يبدءا ـ وكلاهما في مقتبل العمل ، قويان ، قابلان للعمل ـ حياة

من الفقر نصف راضية ، بدلاً من تلك الحياه الرمادية لموزين بائسين مستغرقين كلياً في السعي وراء القرش . ولكن ما يسميه جريشكا القلق الذي يملأ قلبه قد أنقذهما من هذه الخاتمة ، لأن هـذا القلق لم يكن ليتفق ، من جراء ذات طبيعتـه وجوهره ، مــع تتابـع أيام الحياة الـكامدة الـكئيبة .

٨

دلفت عجلة الاسعاف إلى باحة المعسكر في ذات صباح كئيب من إيلول ، فاخرج برونين منها صبياً صغيراً ملطخاً بالدهانات ، متعظم الجسد أصفر اللون ، يتنفس بصعوبة كبرى .

وعندما سئل السائق :

ــ من أين المريض ؟

أجاب :

ــ إنه من دار بيتونيكوف ، في الشارع الرطب أيضاً .

صاح أورلوف ، وقد عصر الحزن فؤاده :

ــ بينسون ! آه ، يا إلـهي ! بينسون ! هل عرفتني ؟

فرفع بينسون عينيه من تحت جبينه ببطء كثير ، وهو يضطجع على النقالة ، كي يتطلع إلى أورلوف الذي يسير وراءه ، وقد انحنى عليه ، ومن ثم قال في جهد عظيم :

ــ إني ... إني عرفتك ...

سأله أورلوف :

ــ قل ، أنت ... أيها العصفور المرح ! كيف أمكن أن تتراخى ؟

كان مشهد هـذا الصبي الذي يضنيه الألم يثير فيه انفعالاً عنيفاً ، فيسأل نفسه هذا السؤال الذي يختصر كل انطباعاته :

ــ لماذا هذا الصبي ؟

ومن ثم يهز رأسه في كآبة عظيمة .

كان بينسون يعتصم بالصمت ، منكمشاً على نفسه ما استطاع إلى ذلك

سبيلا . وعندما أضجعوه في أحد الأسرة ، وراحوا يخلعون عنه أسماله المصبوغة جميعاً بالألوان المختلفة ، قال :

— إني بردان .

فوعده أورلوف :

— انتظر قليلاً ، فلسوف نضعك رأساً في الماء الساخن ... ولسوف نشفيك !

فرفع بينسون رأسه الصغير البائس ، وطفق يقول همساً :

— إنك لن تشفيني ... أيها العم الصغير جريجوري ... اقترب إلى هنا ، أعطني أذنك .. إني أنا الذي سرقت الأكورديون ... وهو في المخزن الخشبي حالياً .. لقد لمسته قبل البارحة للمرة الأولى منذ أن سرقته . أواه ! ما أجمله ! لقد خبأته ... وهناك آلمني بطني .. هكذا . إذن ، فذلك من أجل الخطيئة .. إنه معلق في الجدار تحت السلم ، وقد وضعت الخشب بصورة أخفته عن العيان .. هكذا .. أنت ، أيها العم جريجوري ، رده .. لقد كان للاعب الأكورديون أخت . ولقد طلبته . رده !

زمجر متألماً ، وراح يضطرب فريسة اختلاجات عنيفة تهز سائر أعضائه.

وبذلوا في سبيل إنقاذه كل جهد ممكن ، ولكن الجسد الصغير ، الناحل ، المضنى ، لم يك يمسك قوياً بالحياة التي تعتلج في جنباته ، فما حل المساء حتى كان أورلوف يحمله على النقالة إلى غرفة الأموات ... كان يحمله ، ويحس كأن إهانة عظيمة قد وجهت له شخصياً .

وجرب أورلوف في غرفة الأموات أن يصلح من وضع جسد بينسون ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فترك الغرفة مرهقاً ، مكتئباً ، يحمل معه صورة الصبي الصغير المرح وقد شوهه المرض المخيف كثيراً .

إن وعيه المضني لعجزه تجاه الموت الذي لا يستطيع إلى فهمه سبيلاً يطبق عليه ويثقل وجـــدانه . اشد ما بذل من عناء في سبيل بينسون ،

رما أعظم الحميا التي غمرت قلوب الأطباء في سبيل انقـاذه ... ولكن الصبي قد مات ! إن ذلك لمحير حقاً . . وهذا أورلوف نفسه عرضة لأن يؤخذ هكذا يوماً ويتلوى على الفراش . . ولسوف ينتهي كل شيء إذن .. وأحس الخوف ، وشعوراً من الوحدة يجتاحه بالاضافه إلى ذلك الاحساس . لو أنه يستطيع الحديث في هذا الموضوع مع إنسان ذكي ! لقد جرب أكثر من مرة أن يأخذ بأطراف حديث مديد مع أحد الطلاب ، ولكن أحـداً لم يك يملك الوقت من أجل الفلسفة ، بحيث باءت سائر محاولات جريجوري بالفشل الذريع . لمن الضروري اه إذن أن يغدو إلى زوجه ويتحدث معها . ولقد ذهب إليها ، قاتم الوجه حزين الفؤاد .

كانت قـد انتهت من خدمتها لتوّها ، وهي تغتسل حالياً في زاوية من الغرفة ، ولكن السماور كان يغلي على المـائدة منذ الآن ، ويملأ الجو أبخرة وصفيراً لا ينقطع

اقتعد جريجوري كرسياً دون أن يقول شيئاً ، وراح يرى إلى كتفي زوجه العاريتين المدورتين . كان السماور يغلي ، والمـاء ينق ، وماترينا تصفق الماء صفقاً ، والخدم يركضون مسرعين هنا وهنـاك في الرواق ، وجريجوري يحاول أن يخمن من وقع أقدامهم الحادث الذي يشغلهم .

وتصور على حين غرة أن كتفي ماترينـا باردتان ومغمورتان بالعرق اللزج ، مثل كتفي يينسون تماماً حين كان يتلوى في سريره باختلاجات الداء القاتل ، فانتفض بقوة وقال بصوت أبح :

ـــ لقد مات سينكا ...

ـــ مات !

وأضافت في نغمة صلاة :

ـــ فليتقبل الله نفس الذي يظهر أمامه !

وبعدئذطفقت تبصق في هياج الصابون الذي دخل فاها .

تنهد جريجوري وقال :

— إني لآسف عليه كثيراً .

— لقد كان شيطاناً صغيراً.

— لقد مات ، وانتهى كل شيء ! وليس من شأنك حالياً كيف كان .. وأن يكون قد مات ، ذلك مؤسف حقاً ... لقد كان كثير النشاط والحيوية ... الأكورديون . . بخ ! إنه لفتى حاذق .. لقد كنت أنظر إليه أحياناً وأفكر لو أننا نأخذه في بيتنا ، كأجير مثلاً ... إنه يتيم . ولقد كان يعتاد ، ويمكن أن يقوم مقام الابن لنا ... لأننا لم نرزق أطفالاً كما ترين .. إنك متينة البنيان ، ولكنك لاتضعين . لقد وضعت مرة واحدة ، وانتهى . آه ! لو أننا رزقنا من هؤلاء الزاعقين ، من يدري، فان الحياة لن تكون إذن مضجرة بالنسبة إلينا حتى هذه الدرجة . وإليك الحياة حالياً : عش ، واشتغل ! ولماذا ؟ من أجل طعامي وطعامك وما جدوى طعامنا ؟ كي نعمل .. إن دولاباً سخيفاً ينشأ عن ذلك ... ولو كان هناك أولاد . . كان الأمر يختلف إذن ، بلى ...

كان يقول ذلك مطرق الرأس كثيراً ، بلهجة كئيبة ساخطة . وكانت ماترينا تقف أمامه تصيخ إليه بسمعها ، وهي تشحب شيئاً فشيئاً .

— أنا ، إني متين ، وأنت ، إنك متينة . وليس لنا ولدان . ماهذا ؟ لماذا ؟ آه ، بلى ! ... إن المرء يأخذ بالتفكير ، والتفكير ، و.. يأخذ بالسكر. فقالت ماترينا بصوت مرتفع ثابت النبرات :

— إنك تكذب ! لاتجرب أن تقول لي كلمات جبانة .. هل تسمع ؟ لاتجرب ! إنك تشرب ... هكذا ، بقوة الاستمرار ، لأنك لاتستطيع أن تمالك زمام نفسك ، وعقمي لايلعب أي دور في هذا الموضوع . إنك تكذب ، ياجريشكا !

كانت دهشة جريجوري عظيمة ، فارتمى على مسند المقعد الذي يجلس

عليه ، وتطلع إلى زوجته طويلاً ، ولم يعرفها . إنه لم يرها قط من قبل ساخطة مثلها الآن ، كما أنها لم تنظر إليه قط من قبل بمثـــل هـاتين العينين المفعمتين غضباً لا يعرف رحمة أو شفقة ، أو تتكلم بمثل هذا العنف الفائق .

زمجر بصوت متحد ، وقد أطبقت يداه على مقعد الكرسي :

— ماذا ، ماذا ؟ هيا تكلمي قليلاً أيضاً !

فقالت :

— نعم ، سوف أتكلم ! إني لم أكن لأقول ذلك ، ولكني لاأستطيع أن أتحمل مثل هـذا اللوم من جانبك . أنا لم أعطك ولداً ؟ وإني لن أعطيك أيضاً ! إني لم أعد بقادرة على ذلك .. إني لن أضع قط بعد الآن .

كان المرء يسمع أنيناً في صيحتها .

حذرها زوجها قائلاً :

— لا تزعقي !

— لمَ لا أضع أطفالاً ، ما ؟ ألا تتذكر قليـلاً إذن ، ياجريشكا ، كم ضربتني ؟ كم من لطمة أصابتني منك على خاصرتي ؟ .. عُدّ قليلاً ! كم عذبتني وآلمتني ؟ هل تعلم فقط مقدار الدماء التي أفقدها بعد أن تقسو عليّ هكذا ؟ إن قميصي ايبتل بها أحياناً حتى العنق . هذا هو السبب في أني لاأحمل ، أيها الزوج العزيز ! كيف يمكن أن توجه إليّ العتـاب بعد ذلك ، قل ؟ كيف لايخجل محياك القذر من التطلع إليّ ... ولكنك قاتل إذن ، هل تفهم – قاتل ؟ لقد كنت تقتل ، كنت تقضي بنفسك على أولادك الصغار ! وإنك لتنقم عليَّ حالياً لأني لا أضع ... لقد كنت أتحمل كل شيء منك ، وكنت أصفح عن كل شيء – أما مثل هذه الكلمات ، فاني لن أغفرها لك قط ، بل سوف أتذكرها حتى في ساعة موتي ، أحقاً لا تفهم أنك المذنب في كـوني عقيمة ؟ أفلست مثـــل بقية النساء ؟ أفلست أريد أبناء ؟ إني لا أريدهم فيما تظن ؟ آه ! لقد بقيت عدداً كبيراً

من الليالي دون أن أنام ، أضرع إلى الرب الاله أن يحفظ الطفل في أحشائي منك ، أيها القاتل ، وإذا رأيت طفلاً غريباً ، اختنقت مرارة وشفقة على نفسي ... لو أنه لي ، ياملكة السموات ! هذا السينكا نفسه ، لقد كنت ألاطفه خفية وأمسح عليه ماذا أنا ؟ ياإلهي ! عاقر !

ابتدأت تختنق ، وطفقت الكلمات تقفز من فمها دون تتابع أو معنى .

كان محياها بأسره مغطى بلطخ كبيرة ، وهي ترتمش وتخمش عنقها بأظافرها ، لأن البكاء كان يتكدس في حلقها ، يفتش عن مخرج له . وكان جريجوري يجلس قبالتها ، شاحب الوجه مرهق القلب ، متمسكاً بالمقعد بعنف وقوة ، يتطلع بعينين محملقتين إلى هذه المرأة التي لم يعد يعرفها . وكان يخافها ... كان يخاف أن تقفز على عنقه وتكتم أنفاسه دفعة واحدة ، فعيناها الرهيبتان ، المحترقتان بهياج حقود ، تعدانه بذلك وتهددانه . لقد كانت في هذه اللحظة أقوى منه بمرتين ، الأمر الذي كان يحسه ويخاف منه ويرتجف فرقاً . لم يكن يستطع أن ينهض ويضربها كما كان يفعل لو لم يفهم أنها قد اختلفت ، فكأنها قد امتصت من حيث لايدري قوة عظيمة متفوقة .

— لقد جرحت شعوري ، ياجريشكا ! وخطيئتك كبيرة أمام وجهي ! لقد كنت أتحمل .. وأصمت ... كنت أحبك ، هذا هو السبب ... ولكني لا أستطيع سبيلاً إلى احتمال هذا اللوم منك ! لقد فقدت القوة ، أيها الزوج الحبيب ! ألا فلتكن ، بسبب كلماتك ، ثلاث مرات ملعو..

فزمجر جريشكا ، وقد كشر عن أسنانه :

— صمتاً !

— يه ، أنتما الآخران ، كفى فضيحة ! هل نسيتما أين أنتما موجودان. يالكما من شيطانين شريرين !

كان جريجوري يرى ضباباً أمام عينيه ، فلم يستطع أن يميز هوية

الشخص الذي يقف على عتبة الباب ، يتحدث إليها بصوت أجش ، فتفوه بشتائم مخيفة ، ودفع الرجل جانباً ، وعبّد يعدو عبر الحقول .

أما ماترينا فقد بقيت برهة منتصبة في وسط الغرفة ، ومن ثم مدت ذراعيها إلى الأمام كالعمياء ، واقتربت من السرير بخطوات مترددة غير ثابتة ، وارتمت عليه وهي ترسل زمجرة صاخبة أليمة .

وكان الليل يوغل في الاظلام ، بل إن القمر المذهب قد أخذ يسترق من علياء السماء نظرة طلعة من خلال السحب الزرق الغامقة الممزقة، وهو يغمر الأرض بالأخيلة أثناء ذلك .

وما أسرع أن أخذ غيث دقيق متدفق يقرع نوافذ المعسكر وأحد جدرانه ، مرسلاً ضوضاء رتيبة لاتتبدل ، يبشر بالأمطار التي لاتنتهي ، أمطار الخريف المكتئب الذي يضني النفوس ويرهقها .

وكان رقاص الساعة يدق الثواني بانتظام ، وقطرات المطر تضرب زجاج النوافذ دون كلل . لكن الساعات كانت تنقضي ، الواحدة تلو الأخرى ، والغيث ينهمر باستمرار ، بينا المرأة ما برحت متمددة في السرير ، تتطلع إلى السقف بعينين محتقنتين . كان محياها قاتماً ، صارم السيماء ، وأسنانها منقبضة بعنف ، ووجنتاها قد برزتا كثيراً ، في حين طفق الفرق والألم يلتمعان في عينيها . وكان المطر يثير دوماً تلك الضوضاء الخفيضة بسقوطه على الجدران والزجاج ، فكأنه يهمس في إصرار بشيء رتيب بصورة متعبة ، يريد أن يقنع شخصاً ما ، لكن دون ما يكفي من الحميا كي يبلغ إلي ذلك بسرعة ، باشارة رائعة الجمال ، بقوة وعنف وانطلاق ، بل هو يأمل أن يصيل إلى هدفه بعظة مضنية ، طويلة حتى لاتنتهي ، كامدة اللون ، لا تحييها نفحة الايمان المخلصة أو تبعث الحياة في نبراتها .

كان المطر ما برح يهطل عندما اكتست السماء ، التي تبشر برداءة الجو في الغداة ، بتلك الصبغة التي تسبق الفجر في مثل هذه الأحوال ،

الشبيهة كثيراً بسكين قد تقادم العهد على استعمالها ، فهي قد فقدت لمان المعدن الصقيل ولم تكن ماترينا قد رقدت بعد حتى ذلك الحين ..
لقد كانت تسمع دوماً ، في ضوضاء المطر الرتيبة ، ذلك السؤال المقلق الذي يخيفها :

— ماذا سيحدث الآن ؟ ماذا سيحدث الآن ؟

كان السؤال يسمع دون انقطاع خلف الزجاج ، ويتردد ألماً أصم في كينونتها بأسرها .

— ماذا سيحدث الآن ؟

كانت المرأة تخاف أن تردّ على سؤالها ، وإن يكن الجواب يتمرى أمام عينيها في كل لحظة بشكل رؤيا مقلقة : زوج سكران ، ومتوحش بصورة حيوانية . ولكنها كانت تجد عناءً عظيماً في الانفصال عن حلم وجود هادىء ، حنون ، مفعم حباً ودعة ، فهي تطرد عنها إذن وعيد ذلك الاحساس وتبعده . ومن حين لآخر كان الوعي يخترقها ، مثل لمعان البرق ، بأنها لن تستطيع البقاء مع جريجوري فيما لو حدث ذلك ، وطفق يسكر مثلما كان يفعل قبلاً . لقد رأته على غير ما كان ، وهي نفسها أصبحت غير ما كانت ، والحياة المنصرمة توقظ فيها الرهبة والقرف ـ هذين الشعورين الجديدين ، المجهولين منها حتى ذلك الحين . ولكنها كانت امرأة ، وفي خاتمة الخاتمات اتهمت نفسها في خصامها مع زوجها .

— وكيف حدث كل ذلك ؟ .. أواه ! يا إلهي ! .. لقد فقدت زمام نفسي . .

وانقضت ساعة أخرى أيضاً في مثل هذه الأفكار المتناقضة المبرحة .

وأشرق النهار . كان ضباب كثيف يدوم في السهل ، فلا تستطيع العين أن ترى السماء من خلال ظلمته الرمادية .

— أورلوفا : إلى الخدمة ...

نهضت ببطء عن سريرها ، خاضعة بصورة آلية لذلك النداء الملقى من باب غرفتها ، وارتدت ثيابها بسرعة ، واتجهت إلى المعسكر حيث أثارت دهشة عمومية بتراخي حركاتها ، واكتئاب وجهها ، وانطفاء عينيها البراقتين عادة .

سألتها الطبيبة :

ـ أورلوفا ! يبدو أنك منزعجة ؟

ـ ليس هذا بذي بال !

ـ ولكن قولي دون تردد ! إننا نستطيع أن نستبدلك ...

وخجلت ماترينا من نفسها ، فهي لاتريد أن تفضح ألمها وخشيتها أمام هذا الكائن الطيب ، لكن الغريب عليها على أية حال ، فقالت مبتسمة للطبيبة ، وهي تستقي من أعماق نفسها المضناة بقية من الطاقة :

ـ ليس هذا بذي بال ! لقد تخاصمت قليلاً مع زوجي ... ولسوف يزول كل شيء ... هذه ليست بالمرة الأولى .

فتنهدت الطبيبة التي كانت تعرف حياتها ، وقالت :

ـ يامسكينة !

وودت ماترينا أن تسقط أمامها ، وأن تضع رأسها بين ركبتيها ، وأن تبكي بصوت مرتفع . . ولكنها تمالكت نفسها ، وضمت شفتيها بعنف ، ومن ثم مرّت بيدها على حلقها ، وكأنها تريد أن تردّ إلى صدرها الأنين الذي يكاد أن ينطلق منه .

وعندما انتهت خدمتها قفلت إلى غرفتها ، وتطلعت من النافذة قبل أن تفعل أي شيء آخر . كانت عجلة الاسعاف تقترب من المعسكر عبر الحقول ـ إنهم يأتون بمريض جديد من دون ريب . وكان مطر دقيق يهطل من السحب الرمادية .. وهذا كل شيء . أدارت ماترينا أبصارها عن النافذة ، وتنهدت في عناء كثير ، وجلست إلى المائدة مشغولة البال بسؤالها:

– ماذا سيحدث الآن ؟

وكان قلبها يخفق في تناسق مع كلماتها ...

ظلت طويلاً جالسة ، وحيدة في شيء من الخبل ، تنتفض لدى كل وقع خطوات في الرواق . فتنهض عن مقعدها وتروح تتطلع إلى الباب في قلق . ولكن عندما فتح هذا الباب أخيراً ودخل جريجوري منه ، لم تنتفض ولم تنهض ، لأنها كانت فريسة إحساس أشبه مايكون بما كانت تشعر به لو انتزعت سحب الخريف من السماء ، وسقطت عليها ، على حين غرة ، بكل ثقلها المرهق .

وتوقف جريجوري على العتبة ، وألقى قبعته المبتلة أرضاً ، واتجه نحو زوجته وهو يضرب الأرض بقدميه بشدة . كانت المياه تسيل من شخصه بأسره ، ومحياه أحمر اللون ، وعيناه كامدتـــين ، وشفتاه مرتخيتين في ابتسامة عريضة بلهاء . كان يتقدم ، وماترينا تسمع خرير الماء في حذائيه ، فيبعث الشفقة في نفسها ، هي التي لم تكن تتمثله أبداً على هذه الصورة .

قالت بصوت خفيض عذب :

– هذا أنت أخيراً !

فهز جريجوري رأسه في بلاهة ، وسألها :

– أتريدين أن أنحني حتى الأرض أمامك ؟

فظلت صامتة .

– إنك لاتريدين ؟ حسناً ، هـــذا شأنك . . . وأنا قد فكرت طوال الوقت : هل أنا مخطيء في حقك أم لا ؟ ولقد نتج من ذلك ... أني مخطيء . إليك ، فاني أقول إذن : هل تريدين أن أنحني حتى الأرض أمامك ؟

ظلت المرأة صامتة دوماً ، تستنشق رائحة الخمرة التي تفوح منه ، وإحساس مرير يحز في نفسها .

قال جريجوري ، وقد رفع صوته :

ــ إليك ماسأقوله لك : لاتكشري ! استفيدي من الفرصة وأنا هادىء النفس . حسناً ، هل تصفحين ؟

قالت ماترينا ، وهي تتنهد :

ــ إنك ثمل . إذهب ونم بالأحرى ...

ــ إنك تكذبين ، فأنا لست ثملاً ، بــل تعباً فقط ...لقد مشيت طوال الوقت ، وكنت أفكر ... بلى ، ياعجوزتي ، لقــد فكرت كثيراً ... إذن ، أنت ، خذي حذرك !

وهددها بأصبعه ، وهو يبتسم ابتسامة ملتوية :

ــ ما بالك تصمتين ؟

ــ إني لا أستطيع أن أتحدث معك .

ــ لاتستطيعين ؟ ولماذا ؟

واشتعل بكليته بصورة مفاجئة ، وأصبح صوته أكثر ثباتاً :

ــ لقد صحت في وجهي البارحة ، وعنفتني ... حسناً ، إني أنا الذي جئت أطلب الصفح منك . إفهمي جيداً !

قال ذلك بصورة رهيبة تنذر بالويل والثبور ، وقد انتفخ خيشوماه وراحت شفتاه ترتعشان . وكانت ماترينا تعرف معنى ذلك ، فاذا الماضي يبعث إلى الحياة أمامها في صور واضحة : القبو ، ومعارك السبت ، والضجر العميق ، ونقص الهواء في وجودها .

قالت في قسوة :

ــ إني أفهم جيداً ! إني أرى جيداً .. لسوف تصبح من جديد وحشاً مفترساً .. إذن ، هيا !

ــ أصبح وحشاً مفترساً ! هذا ـ ليست هذه هي المشكلة ... لقد قلت : هل تصفحين ؟ ماذا تظنين ! هل بي من حاجة إلى صفحك ! إني أستطيع

الاستغناء عنه تماماً ... ومع ذلك فاني أريد أن تصفحي عني - هل فهمت ؟

فصاحت المرأة في عذاب أليم ، وهي تستدير عنه :

— دعني وشأني ، ياجريجوري !

فضحك جريجوري في خبث :

— أن أذهب ؟ أن أذهب ، كي تظلي أنت حرة طليقة ، آه ، هذا ... كلا - لا ! وهذا ! هل تعرفين هذا ؟

أمسك بها من كتفها ، وشدها في قسوة نحوه ، وقرّب من وجهها سكيناً - قطعة من الحديد الصدىء ، قصيرة ، متينة ، حاده .

— إيه ؟

فقالت مارينا وهي تصعّد زفرة عميقة ، وقد تخلصت من قبضته ، واستدارت عنه من جديد :

— آه ، لو أنك تذبحني !

وعندئذ ابتعد هو الآخر عنها متأثراً ، ليس بالكلمات التي تفوهت بها ، بل باللهجة التي قيلت بها هذه الكلمات عينها . لقد سبق أن سمعها من فيها ، سمعها أكثر من مرة ، ولكن هكذا - إنها لم تتفوه بها قط على هذا الغرار . وإن كونها قد استدارت عنه ، دون خشية من السكين ، قد ضاعف من دهشته وشروده أيضاً . كان من اليسير عليه أن يطعنها قبل لحظات قليلة فقط ، أما الآن فانه لايستطيع ذلك ، ولا يريده أيضاً . رمى بالسكين على المائدة ، وهو يكاد أن يكون خائفاً من لامبالاتها بتهديده ووعيده ، وسأل زوجه في سخط عظيم :

— أيتها الشيطانة ! ماعساك تريدين أيضاً ؟

فصاحت مارينا التي كانت تختنق :

— أنا لست بحاجة إلى أي شيء . . أي شيء ! حسناً ، وأنت ؟ لقد جئت كي تقتل ، فاقتل إذن !

نظر جريجوري إليها وسكت ، غير عارف ما يتوجب عليه أن يصنع الآن ، مضطرباً في خضم هذه العواطف المعقدة دون أن يرى فيهـا شيئاً جلياً البتة . لقد جاء وفي نيته الأكيدة أن يُخضع زوجته ، فهي قد تفوقت عليه البارحة أثناء الخصام الذي نشب بينهما،الأمر الذي كان يدركه جيداً،فتهبط قيمته في نظره كثيراً . يجب ، بصورة مطلقة ، أن تخضع له ... إنـه لايفهم السبب في ذلك ولكنه يعرف بيقين تام أنه ضروري واجب . لقد اجتاحه كثير من المشاعر والأفكار ـ هو ذو الطبيعة الملتهبة ـ أثناء هذه الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، ولكنه ـ هو الرجل ذو الفكر العظيم ـ لم يعرف كيف يجد سبيله ويتدبر أمره في تيه هذه الاحساسات التي أيقظتها زوجته فيه باتهام متين الأساس ، ومصاغ بجرأة بالاضافة . كان يفهم أنها ثورة عليه ، ولذلك فقد جلب سكيناً كي يخيف ماترينا . ولقد كان يقتلها لو لم تدافع عن نفسها على تلك الصورة المنفعلة ضد رغبته في إخضاعها . ولكن هذه هي أمامه مجردة عن كل دفاع ، مـحروقة بالعذاب والألم ، وأقوى منه بالرغم من ذلك . إن في كل هذا لاذلالاً عظيماً ، وإن هذا الاذلال ليفعل فيه بصورة تذهب بالنشوة ، وتوقظ من السكر .

قال :

ـ اسمعي ! لاتدّعي مظاهر باطلة ! إنك تعرفين أن ذلك نهائي ... إني أستطيع أن أطعنك في خاصرتك ، ويكون ذلك كل شيء ! وهكذا نضع خاتمة للقصة بأكملها ! ... آمين . إن ذلك لبسيط جداً . .

وأحس أنه لايقول أبداً مايجب أن يقول ، فسكت . أما ماترينا فلم تتحرك مطلقاً ، بل ظلت تحسب ، في سرعة محمومة ، كل ما عاشته مع زوجها ، وتقلب دون انقطاع السؤال المضني التالي :

ـ ماذا سيحدث الآن ؟

قال جريجوري بغتة بصوت عذب ، معتمداً إلى المائدة بيده ، منحنياً نحو زوجه :

— موتريا ! أهي خطيئتي إذا . كل شيء هكذا ! ... في غير موضعه ! إنما ذاك لأن نفسي مريضة جداً !

واهتز رأسه في مختلف الاتجاهات ، ومن ثم تنهد واسترسل :

— إن نفسي مريضة جــــداً ! إن الأرض لتضيق بي كثيراً ! ولكن أحياة هي هذه الحياة ! حسناً فلنقبل ذلك : مرضى الكوليرا — ماذا؟ أهم سند لي ؟ إن البعض يموتون ، والبعض يشفون ! وأنا ، يجب أن أستمر أحيا ، وكيف أحيا ؟ هذه ليست حياة — إنها مغص موجع ليس غير ... أليس هذا محيراً ؟ ولكني أفهم كل شيء جيداً ، إنما يصعب عليّ أن أوضح كيف أني لا أريد أن أحيا على هذا الغرار . وكف يجب أن أعيش؟ لست أدري ! إليك : إنهم يعنون بهم ، أولئك ، ولا يوفرون عنهم أي اهتمام أو عناية ... وأنا ، إني في صحة جيدة ، ولكن إذا كانت نفسي توجعني ، فهل أنا أدنى قيمة منهم ؟ فكري قليلاً — ذاك أني أسوأ إذن من مريض بالكوليرا . إن قلبي مصاب بالمغص — إليك أين دُقّ المسمار !.. وأنت، إنك تصيحين في وجهي ... أتظنين أني حيوان مفترس ؟ عربيد — وهذا كل شيء ؟ آه ، أنت أيتها الأنثى الغريبة ! من خشب أنت .

كان يتكلم بعذوبة فائقه ومنطق متين ، ولكنها لم تك تسمع كلماته جيداً ، وهي مستغرقة في مراجعة صارمة لماضيها بأسره .

كان جريشكا يقول ، مصيخاً بسمعه إلى شيء جديد وقوي ينمو فيه:

— إليك ، إنك تصمتين .. ولماذا تصمتين ؟ ماذا تريدين ؟

فصاحت ماترينـا :

— إني لا أريد شيئاً منك ! ما بالك تضايقني ؟ لماذا تعذبني ؟وماذا يلزمك؟

— ماذا يلزمني ؟ ولكن يلزمني . . إذا صح التعبير ...

ولكن أورلوف شعر في تلك اللحظة أنه لن يستطيع أن يخبرها بما يحتاجه على وجه اليقين - إنه لايستطيع أن يوضح ذلك بصورة يصبح كل شيء معها جلياً إن بالنسبة إليه أو بالنسبة إليها . لقد أدرك أن شيئاً ما قد قام فيما بينهما ، وأن أية كلمة لن تستطيع أن تحطم هذا الشيء بعد الآن وتزيله . .

وعندئذ اشتعلت نقمة متوحشة في نفسه بصورة مباغتة ، فلطم زوجه على رقبتها ، بصورة غير منتظرة ، وطفق يزمجر مثل وحش كاسر :

— ماذا تفعلين ، أيتها الساحرة ؟ أية لعبة تلعبين ؟ لسوف أقتلك، أيتها الجيفة النتنة !

واصطدم وجهها بالمائدة لعنف اللطمة ، ولكنها هبت على قدميها مباشرة، وثبتت في زوجها نظرة حقوداً ، وقالت بصوت ثابت هذه الكلمة المقتضبه :

— اضرب !

— صمتاً !

— اضرب ! هيا !

— آه أنت ، أيتها الشيطانة !

— كلا ، ياجريجوري ، هذا يكفي . لم أعد أطيق هذا بعد الآن..

- صمتاً !

— إني لن أسمح لك بعد الآن أن تسخر مني ، وأن تدوسني بقدميك .

فصرّ بأسنانه وابتعد خطوة عنها — ربما كي يتمكن من ضربها بصورة أفضل .

ولكن الباب فتح في هذه اللحظة ، وظهر الطبيب فاستشينكو على العتبة. قال :

— ما هذا ؟ أين أنتما ، إيه ؟ ماذا تفعلان هناك ؟

كان محياه صارماً ، تعلوه سيماء الدهشة والعجب ولم يضطرب أورلوف أبداً لدى رؤيته ، بل لقد حياه قائلاً :

— ولكن ، هكذا ... إنه « تطهير » بسيط بين زوج وزوجه ...
والتوت شفتاه في ابتسامة متشنجة كشر عنها تحت أنف الطبيب مباشرة .
صاح الطبيب في حمية ، وقد أثاره تضاحك أورلوف :
— لماذا لم تأت إلى خدمتك ؟
فهز جريشكا كتفيه ، وأعلن بصوت هادىء :
— كنت مشغولاً ... بشؤون شخصية ...
— نعم ؟ ومن كان يثير الفضائح هنا البارحة ؟ من ؟
— نحن ...
— أنتما ؟ حسناً جداً ... أنتما تتصرفان وكأنكما في بيتكما . كما أنك تذهب للنزهة دون إذن ايضاً ...
— نحن لسنا عبدين ، لأن ...
— صمتاً ! لقد نظمت هنا حانة ... ياحيوان ! لسوف أريك أين أنت موجود !
واجتاح جريشكا موجة طاغية حارة من جرأة وحشية لامبالية ، من رغبة ملتهبة في قلب كل شيء رأساً على عقب ، والانفلات من هذا القلق الذي يئيد على النفس ويرهقها ، فيخيل إليه أنه سيفعل خلال برهة وجيزة شيئاً غير عادي ، وينقذ بضربة واحدة نفسه المظلمة من القيود التي شلت حركتها وضيقت عليها الخناق طويلاً ؛ فانتفض ، وأحس قشعريرة صغيرة لذيذة ، والتفت نحو الطبيب بحركة رشيقة أشبه ما تكون بحركات القطط ، وتوجه إليه قائلاً :
— ليس من حاجة إلى الثرثرة . لا تزعق ... إني أعرف أين أنا موجود - في المذبح ...
فانحنى الطبيب المذهول نحوه ، وقال :
— كيف ؟ ماذا قلت ؟

وأدرك جريشكا أنه تفوه بكلمة سخيفة لامعقولة، ولكن هـــذا لم يهدىء من روعه، بل لقد تفاقم غيظه احتداماً.

— ولكن لاشيء، سوف ينتهي كل شيء! إنك ستبلع هذا... ماترينا! احزمي ثيابك..

فقال الطبيب بهدوء ينذر بالشؤم:

— كلا، يا صديقي، انتظر... لسوف تجيبني قبلاً... لسوف أريك، أيها الحيوان، أن...

فشخص جريشكا إليه في ثبات، وطفق يتكلم. كان ذلك أشبه بقفزة يقوم بها عل؛ فهـــو يحس لدى كل قفزة جديدة أن تنفسه يزداد طلاقة وحرية باستمرار.

— أنت، ياأندريه ستبانوفيتش، لاتصرخ... لا تعنفني... أنت تظن أن باستطاعتك، لأن هناك الكوليرا، أن تتصرف بي على هواك! حلم عديم الجدوى... إنك تعالج الناس، ولكن هذا لايفيد أحداً... وإذا قلت - المذبح، فتلك كلمة سخيفة من دون ريب، لأني كنت أريد أن أسخر فقط... ولكن لاتزعق كثيراً بالرغم من كل شيء!

فقال الطبيب في هدوء:

— كلا، انتظر! سوف ألقنك درساً... هيْ! تعالوا، هيا!

كان عدد من الناس قد تجمع أثناء ذلك في الرواق... فأغمض جريشكا عينيه نصف إغماضة، وصرّ بأسنانه..

قال:

— إني لا أهذي، كما أني لست بخائف.. وإذا كانت بك حاجة إلى أن تلقنني درساً، فاني أستطيع أن أخدمك، وأن أقول أيضاً...

— حسناً، قل...

— سأذهب إلى المدينة وأصيح على رؤوس الأشهاد: أيها الشجعان!

هل تعرفون كيف يعالجون الكوليرا ؟

فقال الطبيب ، وقد حملق بعينيه :

ــ ماذا ؟

ــ وعندئذ فسوف نقوم بتطهير هنا ، بالنار !

فهتف الطبيب بصوت أصم :

ــ ماذا تقول ؟ فليأخذك الشيطان !

كان الغضب يفسح عنده المكان للدهشة تجاه هذا الفتى الذي يعرفه عاملاً نشيطاً غير أبله ، والذي أوقع نفسه حالياً في مثل هذا المأزق الحرج دون سبب أو مبرر ، بل ببلاهة وجنون عظيمين ليس غير .

قال :

ــ ما هذا الذي تهذي به ، أيها الأحمق !

وترددت كلمة « الأحمق » مثل صدى عنيف في كينونة جريشكا بأسرها ، فأدرك أن هذا الحكم صائب كل الاصابة ، الأمر الذي ضاعف من سخطه ونقمته .

قال ، وعيناه ترميان بروقاً متوحشة :

ــ ما أقول ؟ إني أعرف ... وهذا سواء بالنسبة إليّ ... إني أفهم حالياً أن كل شيء سواء بالنسبة إلينا ، نحن الآخرين ، إلى الأبد ، وأننا نخطىء كل الخطأ عندما نرتبك في عواطفنا ونتردد .. ماترينا ، ارتدي ثيابك !

فقالت ماترينا في عزم :

ــ إني لن أذهب .

كان الطبيب ينظر بعينين مدورتين ، ويحك جبينه دون أن يفهم شيئاً .

قال :

ــ أنت ، أيها الرجل الثمل أو المجنون هل تفهم ماذا تفعل ؟

ولكن جريشكا لم يستسلم ، لم يكن يستطيع أن يستسلم ، فقال مجيباً الطبيب في سخرية :

– وأنت ، كيف تفهم ذلك؟ أنت نفسلك ، ماذا تفعل ؟التطهير– ها ها ! إنك تعالج المرضى .. والذين صحتهم جيدة يموتون من ضيق الحياة ! ماترينا ! لسوف أحطم جمجتك ! تعالي !

– لن أذهب معك !

كانت شديدة الشحوب ولم يك جمودها طبيعياً ، ولكن عينيها كانتا تتطلعان في محيا الزوج ، باردتين ثابتتين . واستدار جريشكا عنها ، بالرغم كل شجاعته البطولية . وأطرق برأسه صامتاً .

وبصق الطبيب :

– تفو ! إن الشيطان نفسه لن يفهم من هذا شيئاً . أنت ! اذهب ! اذهب واشكرني ، لأني لم أضع القيد في معصميك .. كان يجب أن أرسل بك إلى الاصلاحية .. أيها الأبله ، اذهب !

نظر جريجوري في صمت إلى الطبيب ، وترك رأسه يهوى من جديد لقد كان يحس الراحة لو أنهم ضربوه أو أرسلوه إلى المخفر .. ولكن الطبيب رجل شجاع ، يدرك أن أورلوف يكاد أن يكون غير مسؤول مطلقاً .

سأل جريشكا زوجته بصوت أبح :

– إني أقول لك للمرة الأخيرة – هل ستأتين ؟

فأجابت :

– كلا ، لن أذهب .

وانحنت قليلاً ، فكأنها تتوقع لكمة منه .

ولوّح جريشكا بيده .

– حسناً ، فليأخذكم الشيطان جميعاً ، مهما يكن عددكم ! ... فليأخذني الشيطان إن كنت في حاجة إليكم !

وابتدأ الطبيب يقول ، مجرباً ن يرده إلى جادة الصواب :

— فلنرَ أيها الخبيث ...

ولكن جريشكا صاح به :

— لاتعنفني ! حسناً ، أيتها القذرة الملعون . . إني ذاهب ! يجب ن نعتقد أننا سنلتقي من جديد .. وهذا اللقاء ، إنه رهن بمشيئتي ! ولكن إذا ما التقينا مرة أخرى – فلسوف يصيبك بعض الشر ، ألا فاعلمي !

وتوجه أورلوف نحو الباب .

قال الطبيب ساخراً ، حين مر جريشكا إلى جانبه :

— وداعاً ، أيها الممثل !

فتوقف جريجوري ، ورفع إليه عينين براقتين طافحتين عذاباً ، وأعلن بصوت خفيض مفعم غضباً :

— إنك تفعل حسناً إذا تركتني وشأني ... لاتفتل النابض من جديد ! لقد ارتخى دون أن يصيب أحداً ، وهذا حسن !

وجمع قبعته عن الأرض ، ولصقها برأسه ، وشد كتفيه فكأنه يحس قشعريرة باردة ، وذهب دون أن يرى إلى زوجته مطلقاً .

أما هي ، فقد راح الطبيب يتطلع إليها في فضول كانت تقف أمامه في جمود ، وقد شحب وجهها الذي يلوح كأنه فقد كل إحساس .

وأشار الطبيب برأسه إلى الجهة التي ذهب جريجوري منها ، وسألها :

— ما باله ؟

— لست أدري . .

— وي ! وأين هو ذاهب الآن ؟

فقالت أورلوفا بعزم :

— يسكر !

فرفع الطبيب حاجبيه ، وذهب دون أن يضيف شيئاً .

تطلعت ماترينا من النافذة . . . إن شبح رجل يبتعد عن المعسكر ، في اتجاه المدينة ، تلفه قيلولة المساء ، وحيداً في وسط السهل الرمادي الرطب ...

... وشحب وجه ماترينا أورلوفا أكثر من ذي قبل ، واستدارت نحو زاوية الأيقونات ، وجثت ، وطفقت تصلي وهي تنحني حتى الأرض كثيراً . كانت تختنق في همس صلاتها اللاهب ، وتفرك صدرها وحلقها بيدين ترتعشان انفعالاً .

٩

كنت أزور ذات يوم مدرسة للصناعة في مدينة ن .. وكان محدثي صديقاً لي قد ساهم في تأسيس ذلك المشروع ، فطفق يقودني خلال المدرسة المنظمة بصورة رائعة ، وهو يروي لي أثناء ذلك :

— كما ترى ، إننا نستطيع أن نفاخر .. إن خليقة أيدينا تكبر وتتطور حسب آمالنا وإن المعلمين قد أحسن اختيارهم كذلك . ففي مصنع أحذية الرجال والنساء مثلاً تجد المعلمة ، وهي أسكافية بسيطة ، امرأة عادية تماماً ، يعني امرأة صغيرة لطيفة ، مغرية جداً ـ اللعينة ـ ولكن ذات سلوك لا يمكن أن تؤخذ عليه مطلقاً . ولكن ، إلى الشيطان كل هذا .. بلى ! إذن فان هـذه المرأة الصغيرة اللطيفة ، الاسكافية البسيطة كما حدثتك ، تشتغل ! ... ألا بأية معرفة تلقن صنعتها ، وبأية محبة تعامل الصبيان أيضاً ـ إن ذلك لمثار للدهشة حقاً ! إنها عاملة ثمينة . . تشتغل لقاء اثني عشر روبلاً والسكن في المدرسة . . وكذلك فانها تقوم بأود يتيمين بدخلها المتواضع ! صدقني إنها شخص يثير الاهتمام حتى الدرجة القصوى .

لقد كان يمدح الاسكافية بحرارة فائقة ، حتى لقد أيقظ فيّ الرغبة في معرفتها .

ولقد دبر صاحبي هذا الأمر سريعاً ، وهكذا فان مارتينا إيفانوفنا أورلوفا قد روت لي ذات يوم قصة حياتها الكئيبة . إن زوجها لم يتركها قط في سلام ، في الفترة الاولى بعد الفراق ، بل كان يأتي إلى سكنها ثملاً ، ويثير الفضائح دون انقطاع ، ويترقبها في كل مكان ، ويضربها دون هوادة أو رحمة . ولقد كانت تتحمل .

واقترحت الطبيبـــة على ماترينا إيفانوفنا بعد إغلاق المعسكر أن تضعها في المدرسة وتحميها من زوجها ، فنجح هذا التدبير ، وبدأت أورلوفا حياة من الهـــدوء والعمل . وتعلمت القراءة والكتـابة من معـاونات الطبيبات اللائي تعرفهن ، وتبنت من المأوى يتيمين -- صبياً وبنتاً -- كي تربيها . وطفقت تعمل الآن ، راضية عن نفسها ، متذكرة ماضيهـا في حزن وهلع . ولقد وهبت نفسها بكليتها إلى ولديها المتبنين ، مدركة بكل وضوح معنى فعاليتها ، مستغرقة فيها بذكاء وتفهم ، مستحقة من قبل رؤساء المدرسة كل ما يبدون نحوها من اهتمام واحترام . ولكنها تسعل سعالاً جافاً ، مشبوهاً ، ولطخة حمراء تنذر بالشؤم تلتهب على خديها المحتفرين ، وفي عمق عينيها الرماديتين يختفي كثير من الحزن والكآبة . إن آثار زواجها من جريشكا القلق قد شرعت تظهر إلى الوجود .

أما هو ، فلم يعد يهتم بزوجه مطلقاً ، وهذه هي السنة الثالثة منذ أن كفَّ عن مضايقتها . إنه يبدو أحياناً في ن ... ، ولكنه لا يُظهر لماترينا حتى ولا طرف أنفه ، بل « يذهب حافياً مشرداً » ، حسب تعبيرها في وصف الوجود الذي يعيشه .

ولقد نجحتُ أيضاً في التعرف إليه . لقيته في إحدى حانات المدينة فأصبحنا صديقين بعـــد لقائين أو ثلاثة . وذات يوم أعاد على مسامعي القصة التي روتها زوجه ، ومن ثم استغرق في التفكير برهة وقال :

ــ إذن إليك ، يا مكسيم سافاتييفيتش ... إن شيئاً ما رفعني ، ومن ثم ألقى بي من العلاء . وهكذا ، فاني لم أحقق أي فعل بطولي . وحتى الآن ، فان بي رغبة في إظهار نفسي بصورة ما ... أن أطهر الارض بأسرها ، أو أن أجمع فريقاً من الأصدقاء وأذبح وإياهم اليهود . . جميعاً عن آخرهم ! أو أي شيء آخر ممكن ، بصورة عامة ، أن يضعني فوق سائر الناس ، كي أبصق عليهم من الارتفاع الذي أحتله ... وأن أقول لهم : آه ، أنتم

الآخرون ، أيتها الحيوانات الزحافة ! لمَ تعيشون ؟ كيف تعيشون ؟ إنكم لصوص مراؤون ، وهذا كل شيء ! ومن ثم أهوي ورأسي إلى الأسفل و... أتمزق إرباً إرباً : آه ، بلى ! أخذك الشيطان ... إني أضجر ! ولشد ما أضجر ، ولشد ما أحس الضيق في الحياة ! . لقد كنت أفكر بعد أن تخلصت من ماتريشكا : والآن ، ياجرينيا ، إسبح بحرية ، فالمرساة رُفعت ! آه ! لا ، إن الحوض لقليل العمق ! قف ! وإني لأبقى على الرمال . . ولكني لن أجف ، لا تخف ! لسوف أعرف كيف أظهر نفسي ! كيف ؟ ـ هذا ، إن الشيطان وحده يعرفه . . زوجتي ؟ إيه ! فلتذهب إلى سائر الشياطين جميعاً ! هل الناس الذين على غراري بحاجة إلى نساء ؟ ما جدوى ذلك ؟... ما جدواه إذا كان يجذبني من سائر الجوانب في الوقت ذاته .. لقد ولدت والقلق يملأ قلبي . ومصيري أن أكون مشرداً حالياً ! ذلك أفضل شروط الحياة ـ إن المرء حرّ و. . إنه يحس الضيق بالرغم من ذلك . لقد مشيت وتنقلت في كل مكان ... ليس من عزاء مطلقاً . إني أشرب ؟ بكل تأكيد ، إذ كيف السبيل إلى غير ذلك ؟ إن الخمرة ، على أية حال ، تطفىء القلب . . والقلب ـ إنه يلتهب بنار عظيمة .. إن كل شيء يبعث الاشمئزاز في نفسي : المدن ، والقرى ، والبشر من سائر الأنواع . تفو ! أحق أنه لا يمكن اختراع شيء أفضل من هذا ؟ جميعاً بعضهم ضد بعض . إن المرء ليود أن يخنقهم جميعاً . هيْ أنت ، الحياة ! يا لحكمة الشيطان !

كان باب الحانة الثقيل حيث أجلس مع أورلوف يفتح في كل لحظة ، فيرسل صرخات صغيرة يمكن وصفها بأنها مفعمة لذة وغبطة . وكان داخل الحانة يثير في الذهن رؤيا حلق مفتوح يبتلع في بطء ، لكن دون خطيئة ، الرجال الروسيين القلقين ـ وغيرهم أيضاً ـ الواحد تلو الآخر ـ باستمرار ...

عاصفة على المدينة

١

في وسط الوادي ، المحفور في كل الاتجاهات بطرق رمادية اللون ، كانت أوكوروف ـ المدينة الشعثاء ـ ترتفع مثل دمية رائعة استلقت على راحة يد عريضة كثيرة الغضون .

إن بوتانيزكا ، هذا النهر الكسول المتماهل ، لينبع من مكان ما ، بعيداً بعيداً في أغوار الغابة السوداء ، ومن ثم يتسلل بين عديد الأكمات المغطاة بأخاديد الحراث ، كي ينصب نحو المدينة ويقسمها إلى قسمين متعادلين : شيخان حي الصفوة الممتازة ، وساريتز حي الرعاع .

ويستمر النهر في جريانه بعد أن يقسم المدينة على هذا الغرار ، متماهلاً أكثر من ذي قبل ، في اتجاه الجنوب الغربي حيث يرق مجراه شيئاً فشيئاً ، كي يضيع أخيراً في مستنقع لاخوف ذي اللون الصدىء ، وفي الجزيرات المتوحشة ، المزروعة بأشجار مهزولة من الصنوبر انتشرت في صفوف متلاصقة حتى ما لا نهاية . أما من جهة الشرق ، فان أشجاراً عتيقة تنتصب هنا وهناك في قمم الأكمات ، وقد التوت وتعرّت بفعل تقلبات الطقس وسطوته القاسية ، ممتدة على طول الطريق التي تعود إلى مركز القضاء .

إن الهواء لمشبع في الصيف ، بفضل وفرة المياه في هذه المنطقة ، بالرطوبة الدافئة العابقة ؛ بينما السماء لاتبرح دائماً شاحبة اللون ملثمة المحيا ؛ والشمس كامدة نبساء ؛ والقيلولة مصبوغة بالقرمز بصورة تبعث على الاستغراب حقاً . أما القمر فانه يطل ، عند شروقه ، بوجه ضخم الأبعاد ، قاني الحمرة كاللحم الحي .

أما في الخريف ، فان سحباً رمادية بلون الرصاص تسبح طـوال أسابيع عديدة فوق المدينة ، تسكب سيولاً من المياه على أسطحة المنازل ، وتيارات عنيفة تجتاح الطرقات وتحفرها ، بينا ينقلب النهر أصهب اللون ، كئيب الطلعة ، وتموت المدينة في صمت حزين ، ويكفُّ الناس عن مغادرة دورهم إلا إذا دعتهم إلى ذلك ضرورة ملحـة ، فيربضون في زاوية من البيت قد أدفأوها جيداً ، ويروحون ينتظرون — في استسلام وخضوع — مجيء الشتاء ، منصرفين أثناء ذلك إلى مشاغلهم ، فهم يحيكون الثياب أو يلعبون الورق أو يقرأون ، كل حسب هـواه ، الكتب المقـدسة أو الدنيوية . ويحلُّ أخيراً اليوم الذي يشرع الثلج فيه بالسقوط ، مجتـاحاً شيئاً فشيئاً الطرقات حيث تنغمس الدور ، مكفنة تحت أغطية ناصعة البياض . وحين يهبط الليل فيلفُّ المدينة في سبات عميق ، تنطلق الذئاب من أوكارها ، وتروح تزمجر في الوادي وتعوي ، تحت سماء قاتمة أو متلألئة بالكواكب التي تبرق بينها الزهرة ، نجمة الرعاة ، وهي تلوح كبيرة الحجم خضراء اللون مثل الزمردة .

إن للمدينة شكل صليب رمسي يحتل أسفله دير الراهبات والمقبرة ، ويحتل أعلاه ضاحية ساريتز ، بينا السجن ينتصب على شعبته اليسرى ، رمادياً ، شاحباً ، قد تقادم عهده كثيراً ، وملكية آل بوبنوف - وهي عائلة كانت في ماضي الأيام من أقوى عائلات المنطقـة وأكثرها سلطاناً - تنتشر في اتساع عظيم على الشعبة اليمنى موغلة في البعد كثيراً . ولكن القصر القديم قد تهدم حالياً ، فأوتاد سقفه تبرز مثل أضلاع جواد قضيف ، ونوافذه قد عميت بما غطاها من ألواح خشبية تكشف شقوقها الغديدة عن البؤس والارهاق اللذين حلا بهذا المقام الرئاسي القديم ، فهي آثار رهيبة لم تعدم القذارة في الوقت ذاته ، تشير إلى عظمته الماضية وروعته الزائلة المتلاشية .

إن حي شيخـان يعدّ حوالي ستة آلاف من السكان ، أما ساريتز فلا يزيد أهلوه عن السبعمائة . وإذا تركنا دير المترهبات جانباً ، فان على الضفة اليسرى من النهر كنيستين أخريين : الكاتدرائية الجديدة البيضاء ، ذات الجمال والدلال ؛ وكنيسة سان نيقولاس الصغيرة العتيقة ، ذات القبب الخمس المختلفة الألوان ، بعمدها المصنوعة من الآجر وجرسها المربوع الذي ازرقّ جوفه واصفرت أخاديده ، والذي يحمل على التفكير بتنورة واسعة الكبر ، شاسعة الأبعاد .

إن سكان شيخان يُعتبرون ، منذ القديم ، قوماً ميسوري الحال ، دؤوبين على العمل ، فمعظمهم من طبقه التجار، يمارسون مختلف أنواع المبادلات، ولا تعوزهم السوق المحلية أيضاً ، فهم يبيعون أو يبتاعون ، بالجملة والمفرق ، البيض ، والزبدة ،والجبن ، والماشية ، وخيوط القنب ، ومختلف البضائع الأخرى المتنوعة . وإن زوجاتهم وبنـاتهم ليحكن ، بأصواف متعـددة الألوان ، جوارب وقلشينات وصدريات وأردية صوفية ، وحقـائب سفر وأغطية منزلية . لقـد تعلمن هـذه الأشغال منذ طفولتهم في الدير حيث ثابرن على الدروس جميعاً تقريباً ، بحيث اكتسبت المدينـة شهرة عظيمـة لهذه الأشياء التي ترسلها في كل مكان وصوب . ولعل هـذا العمل هو السبب في إنماء افتتان السكان بالألوان الحيـة الزاهية التي تزين جـدران منازلهم وأسطحتها .

★ ★ ★

إن الطريق الرئيسية مرصوفة بحصى كبيرة ، يأتي إليها محافظ المدينة في مطلع كل ربيع ، حين يأخذ عشبٌ فتي بالانبات بعزم وقوة بين الحجارة الرمادية ، ببعض السجناء الذين يروحون يزحفون طوال أيام عـديدة ، ثقالاً عابسين ، على طول الطريق ينزعون ذلك النبات ويقضون عليـه .

إنَّ أفضل منازل المدينة تصطف هناك : العزبة البيضاء التي يعلو سقفها بروج صغيرة ، خاصة السيد فوجيل ، رئيس المجلس البلدي في المقاطعة ؛ والدار المبنية من الآجر الأحمر ، ذات المصاريع الصفر ، خاصة المحافظ ؛ ومسكن الكاهن الصغير ذو اللون الزهري ؛ وصف طويل من الدور الأخرى المتبارية جميعاً في الأناقة ، المتسابقة في توفير الراحة لساكنيها .

إن المدينة تغص بالحدائق والجنائن ، ونباتات الجرمشق والأكاسيا واللبلاب والغبيراء تغطي في غنج ودلال مقدمات العزبات التي يستطيع المرء أن يميز ، من خلال تلك الخضرة التي تكسوها ، نوافذها الصغيرة ذات الستائر البيض ، المفروشة بابر الراعي ، والياسمين ، وأقفاص العصافير .

وإن جادة طويلة ، مزروعة بالزيتون والأكاسيا والحور ، تمتد على طول حافة شيخان الصهباء المتعرجة ، المحفوفة بحزم الحطب والأخشاب . ولقد بنى بعض الموسرين في وسط الجادة ، على حسابهم الخاص ، كشكاً أحمر ترتفع صارية إلى الاعلى منه ، تخفق في قمتها أيام الأعياد الراية الوطنية ، وهي تصفق الهواء بمرح عظيم وفيما بين الكشك والنهر سلمان صخريان يقودان إلى الحمامات العديدة ، الخاصة أو العامة ، وهي عبارة عن خيمات تسقط لطخاً متعددة الألوان على سطح الأمواج التي تغمر أقمشتها البيض ، والحمر ، والزرق ، بعذوبة عظيمة ووداعة فائقة .

وتلك الطلول المبعثرة تشكل ، على الضفة الثانية ، المسطحة الرملية ، كتل ساريتز القاتمة العابسة . إن هذه الأكواخ الغارقة في الرمال ، التي سودتها الشيخوخة ، واعتلى أسطحتها المصنوعة من ألواح منخورة بالية حزم من الطحلب الأخضر ، لتنتصب هنا وهناك ، منحرفة غير متناظرة ، وتتراشق النظر في عداوة وسخط ، بينما النهر يلوح كأنه

يعكس ، مرغماً ، نوافذها ذات الزجاج التبني ، الشبيهة كل الشبه بأعين عمياء غاض النور منها .

وفي وسط هذه المساكن المكتئبة التي أتلفها الزمان ، والتي تزعزعها فيضانات النهر الوفيرة بصورة منتظمة ، يرتفع مصلى مبني من الآجر الأحمر ، قد شيده على شرف القديس الروسي ألكسندر نفسكي أحد أجداد الأثرياء بوبنوف ، وذلك في المكان الذي لحق به ، وهو في طريقه إلى توبولسك حيث نفاه القيصر بولس الأول ، رسولٌ بعث به القيصر الجديد خلفه طالباً إليه أن يعود في الحال إلى بطرسبورج . إن الرمل والأقذار تجتاح حالياً هذا المصلى وتعلو فيه حتى ثلث ارتفاعه تقريباً ، كما أن ثقوباً عديدة تحتفر جدرانه ، لأن سكان ساريتز يستعيرون آجره من حين لآخر كي يصنعوا منه قذائف يستعملونها حين الاشتباكات التي اشتهرت البلاد بها كثيراً ، أو في سبيل إصلاح مداخنهم المتداعية الخربة . وهذا الصليب ، الذي كان ذات يوم مذهباً على أروع صورة ، قد انحنى الآونة على القبة في حزن عظيم ، وهو على أهبة الانهيار في كل لحظة .

ولم تكن الضاحية تضم أي بناء آخر يستحق الاهتمام . باستثناء « جنة فيليسيتا الصغيرة » ، وهي دار مغلقة تقوم في عزلة تقريباً على الدرب المنحدرة في اتجاه النهر .

٢

حين تتدفق المياه الربيعية في عنف وجبروت ، يطغى النهر على طرقات ساريتز وباحاتها ، بحيث يضطر الأهلون إلى الصعود إلى طريق دورهم العليا حيث يستقرون عند النوافذ يصطادون الأسماك منذ الفجر حتى هبوط الليل ، بينما يجتاز آخرون الشوارع المغمورة بالمياه على أطواف مرتجلة مصنوعة من مصاريع الأبواب المقتلعة من مفصلاتها ، في حين يعمد فريق ثالث أيضاً إلى اصطياد الأخشاب التي يقتلعها التيار أثناء تدفقه الجارف عبر الغابة ، ويروحون يتنازعون هذه الغنيمة في عنف ، حتى إذا خيم الظلام طفق الناس يتبارون ، بشيء كثير من الخبث غالباً ، في تدمير درابزون الجسر الذي يصل الضاحية بالمدينة .

أما أشهر الربيع والصيف ، والخريف ، يعني ما يعادل ثلاثة أرباع السنة ، فان « الساريتزيين » يقضونها في اقتطاف الأثمار ، والخضار ، والفطور ، واصطياد العصافير التي يبيعونها لأهل المدينة . وكان بعضهم يبنون أقفاصاً أو أحواضاً للأسماك ، بينما اختصت عائلات أخرى بسائر أفرادها ، أباً عن جد ، في ضفر الخيطان أو في صنع صناديق صغيرة من لحاء السندر ، مسلحة بأقفال خفية ؛ وثمة عائلات غيرها تعمل في مصنع اللباد الذي يملكه سوكوبابيف ، أو تخيط في الدار أحذية من اللباد تقدرها المنطقة بأسرها أفضل تقدير ، ولا تبخس عليها بالاعجاب .

ولقد كان هؤلاء يشربون الفودكا أكثر من الآخرين وبكميات أعظم أيضاً ، الأمر الذي حمل إليهم اهتمام الضاحية بأسرها ، بله اعتبارها

أيضاً . ومن حين لآخر ، أيام الآحاد ، أو الأعياد . كان جيراسيم كريلتزوف ، أفضل عامل لباد في المنطقة ، وأحد مشاهير صناديد ساريتز ، يجمع حوله ، دون مبرر ، المعجبين به وهو يصيح بهم كالمجنون :

— لسوف تسكروني ، أيها الأوغاد ! إني أفنى في زهرة العمر بفضلكم أنتم ! ولكن إلى الشيطان .. صبوا لي قدحاً آخر .

ولكن فافيلو بورميستروف ، بطل المقاطعة الشغوف بالشجار ، يكتسب هذه الفرصة دائماً ، فيشمر عن ساعديه ، ويروح يتحدى جيراسيم ، متوجهاً إليه هكذا :

— فلنر ، ياجيراسيم ! كيف تجرؤ ، أنت القاتل ، أن تعتدي على الشعب المسيحي الذي يحبني ويضمر لي عظيم التقدير ؟ لماذا ؟ حسناً ! أجب أو فالويل لك !

ولا يلبث جيراسيم المغلوب على أمره ، الذي سرعان ما سيصير كالميت لشدة السكر ، أن يسكب العبرات السخية وهو يقول متلعثماً :

— أنا لست نادماً على المال ، بل على حياتي التي تنقضي دون جدوى !

وأن حقداً متوحشاً يجعل الضاحية والمدينة تأخذان بخناق بعضها بعضاً دون هوادة أو رحمة ، وذلك منذ زمن مغرق في البعد ، بل ربما منذ الأزل . إن بورجوازية شيخان الثرية ترى بعين متشككة إلى أهل الضاحية ، هؤلاء الذين لاينفعون شيئاً ، القمينون بارتكاب سائر الجرائم الممكنة ، هؤلاء السكيرين واللصوص الأشقياء ، الذين يُخشى منهم ويُرهب جانبهم . وكان هؤلاء ينعتون بدورهم أهل المدينة بسارقي القروش ، أو بالبورجوازيين القذرين ، ولا يتركون فرصة تفلت منهم إلا ويسببون لهم المتاعب والمضايقات المختلفة .



وهكذا تبدأ المعارك ، منذ عيد القديس ميخائيل ، على النهر المغطى بطبقة سميكة من الجليد ، وتستمر طوال الشتاء دامية رهيبة على الدوام ، ولا تنقطع في أغلب الأحيان حتى منتصف الصوم الكبير . وبالرغم من أن أهل الضاحية يضمون في صفوفهم عدداً من المقاتلين الأشداء الذين لايمكن تجاوزهم أو قهرهم ، كان سكان المدينة يتغلبون عليهم عامة بالعدد والتكتل ، فيلاحقون خصومهم عبر الضاحية ، حتى الكثبان المدعوة « حفر الجيف » لأن الماشية الميتة كانت تدفن فيها .

وكانت الشرطة هي التي تهبط الى ساريتز في معظم الأحيان ، متذرعة بألف حجة وسبب ، فتفتش دور المشبوهين ، وتصادر خيرات المكلفين الذين يرفضون دفع ضرائبهم ، وتضع حداً للمشاجرات الكثيرة جداً .

كان بعض سكان شيخان يذهبون إلى الضاحية أحياناً ، لكن في ساعة متأخرة من الليل دائماً ، كي يزوروا « جنة فيليسيتا » . كانت هذه « الجنة » ، وهي قصر قديم يخص الفرسان ويفودين ، قد تقادم العهد عليه حتى أمسى مسكناً قاتماً متداعي الأركان ، تحتل مكاناً واسعاً مساحة وارتفاعاً معاً . وكانت مقنعة من جانب النهر بعناية فائقة بستار عال وثخين من أشجار الصفصاف الأبيض ، والحور والسندر المفضضين ، بينما تنفصل عن الطريق العامة بسور عظيم تحتفره في ملئه بوابة كبيرة تنتصب بين عمودين من السنديان ويقوم باب حديدي صغير في المصراع الأيسر منها .

وكان عملاق أصهب الشعر لايبرح جالساً على دكة من الآجر إلى جانب هذا الباب ، منذ هبوط الليل حتى شروق الفجر . كان مجهولاً أطلق أهل الضاحيـــة عليه اسم شيتيخ دون أن يعرفوا لذلك سبباً أو مبرراً .

وقد عقب شيتيخ ، في مركز غفير « الجنة » ، أندريه ، الأخ

الأصغر لفافيلو بورميستروف ، ولم يستطع أندريه أن يقاوم في ذلك المركز ، بالرغم من قوته الهرقلية ، أكثر من سنتين قصيرتين . ذلك أن سكان ساريتز يحاصرون في الشتاء ، مثل قطيع من الذئاب الجائعة ، أطلال القصر ، ساعين إلى انتزاع بعض المواد التي يمكن بها تغذية المدافىء والمواقد في دورهم . وكان بعض الممووسين يلجأون بدورهم إلى السلب والنهب ، يدفعهم ميل فطري إلى تدمير كل شيء يمرون به ، وإلى إطلاق الزمام لتلك الصفاقة المحزنة التي تشمل العذاب الروسي القلق المظلم برداثها ، بالأحرى من أن تمسهم إليه حاجة أو ضرورة . ولقد وقع الغفير السابق فريسة واجبه الذي كان يفهمه على طريقته الخاصة ، فكان يتصدى في أحيان كثيرة حتى لأخيه فافيلو المحرض الرئيسي لسائر فضائح البلدة ، والذي لعب دوراً لا ريب فيه في التعجيل بموت أندريه المبكر .

ولقد طفق أندريه يردد دون انقطاع ، وهو مثخن بجراحه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، هذه الكلمات التي كانت تصدر عنه بصوت مخنوق :

— من أجلك أنت ، يا فيليسيتا ، ناضلت . . وأموت . . من أجل خيرك ... وداعاً ...

ولقد بكته المرأة بكل إخلاص ، وهي تغمر محياه المستدير بيديها اللتين تتحليان ببياض نادر جداً ، ورفعت على قبر حاميها صليباً جميلاً من السنديان اللامع ، وظلت طويلاً تقيم الصلوات من أجل راحة نفس خادمها الأمين ، العصي على الفساد ، الأمر الذي لم يمنعها من التوجه ، في يوم مأتمه بالذات ، إلى ناحية مجهولة حيث غابت فترة من الزمن ظهر في ختامها ، على باب « الجنة » ، غفير جديد عالي القامة ، عريض المنكبين ، أنبس الوجه ، لا يبرح معتصماً بالصمت أبداً . ولقد عرف هذا القادم الجديد كيف يفرض ، بسرعة ، احترام قوته الحكمية على أهالي الضاحية الشجعان ، بمقدار ما تمكن من الفوز في سلسلة من

المعارك التي نازل فيها صناديد الضاحية الأكثر قوة وإقداماً ، مثل كريلتزوف ، وفافيلو بورميستروف ، وزوريم بوشكاريوف .

كان مسكن ويفودين القديم ينتصب ، عالياً وعريضاً ، بردهاته وشرفاته ، في وسط باحة اجتاحتها الاعشاب الرديئة البالغة في الارتفاع متراً أو يزيد في بعض الأماكن . وكانت الدار محوطة بأطلال الملحقات حيث كانت فيليسيتا تتزود ، هي الأخرى ، بالحطب الضروري لحفظ الحرارة التي لا غنى عنها في مؤسستها . وكانت « الجنة » نفسها توجد في الطابق الثاني حيث كانت مصاريع خشبية مرتجة دائماً تنطبق على ثلاث نوافذ يعلو عليها السطح الذي احتفرته ، هناوهناك ، أكوام الثلج المرهقة الثقل .

كانت « جنة فيليسيتا » ومختلف الحوادث التي تجري فيها ، وقد اختفت وراء الجدار في أقصى الباحة ، تفلت من فضول الجيران الذين كانوا قلة على أية حال . وكان معظم الزبائن يأتون بالقوارب في الصيف ، ومن ثم يتسللون مثل اللصوص بين أشجار الضفة المتكاثفة ؛ أما في الشتا فكانوا يجتازون بأقصى السرعة الشارع الرئيسي في ساريتز ، وقد انحنى عمودهم الفقري ، واختفى محياهم في ياقات معاطفهم الضخمة .

وكان معروفاً لدى الجميع ، بالرغم من كل ذلك ، أن فيليسيتا تستخدم عندها ثلاث نساء في ميعة الصبا — باشا ، وروزا ، ولودكا — وأن زاروها الأكثر مثابرة ، من بين الناس الذين يعتبرون عن حق أو باطل من عداد صفوة المدينة ، هم نيتزوف ، مفوض الشرطة ، إذ كانت زوجته مريضة جداً ؛ والمدرس جوكوف ، إذ كان أرملاً ؛ والطبيب رياخين الذي كان يحب أن يلهو ، وأن يسخر من الرأي العام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وكان معروفاً أيضاً أن فيليسيتا تستدعي ، في أيام الفيض والاقبال ،

بعض نساء الضاحية وفتياتها كي يساعدنها في العمل . وبالرغم من معرفة الجميع لهؤلاء المتطوعات ، فان إنساناً لم يقس عليهن قط ، لأن الجميع كانوا يدركون أن بعض الأزواج أو بعض الآباء يصادرون هذا الربح الاضافي كي يحتسوا به قدحاً زائداً من الفودكا .

★ ★ ★

كان بعض الفلاحين الملتحين ، وهم قوم سذج مسالمون ، قادمون من غابات أبنوسكوف أو من مستنقعات بالغمر ، أو من أية زاوية ضائعة أخرى من زوايا المقاطعة ، يخشون أن يجتازوا ساريتز ، حتى في وضح النهار . فان لم يستطيعوا سبيلاً إلى تجنب ذلك بدوا في جماعات مرصوصة ، على أهبة أن يدافعوا حتى النهاية عن خيراتهم ضد كل اعتداء ممكن . ولكن المسافر المنعزل كان يتعرض دائماً لأسوإ المغامرات ، إذ كان بعض السكان الصناديد يخرجون من دورهم لدى مرآه وعليهم سيماء الفضول ، ويحفون دون عجلة بعربة ذلك المغفل ، ويطرحون عليه هذا السؤال المحتوم الذي لا يتبدل مطلقاً :

— حسناً ، أيها العم ، ما عندك كي تبيعنا ؟ أرنا بضاعتك !

وبينما يروح بعضهم يتفحصون البضاعة ، يسلب الآخرون ما يريدون دون حياء أو خجل ، حتى إذا أفرغوا جعبة الرجل وأرسلوا الضحية خاوي الوفاض ، اقتسموا فيما بينهم الغنيمة بصورة أخوية . وكان يكفي الموجيك أن يشكو أمره أو يدعوا إلى النجدة كي تكال الاهانات له دون حساب ، والضربات بصورة وحشية لا تعرف للرحمة معنى .

وفي أمسيات الصيف الطويلة ، كان أهل الضاحية يجتمعون على ضفاف النهر ، تحت أوراق الحور والصفصاف الباكي المضيافة ، قبالة جادة المدينة بالضبط ، ويروحون يتطلعون إلى الضفة الثانية في غيرة وحسد ، وقد

اقتعدوا الرمال أو تمددوا عليها في استرخاء وتكاسل. كانت تلك الضفة هدفهم الدائم، والمشهد المفضل عندهم في كل الأحيان.

إن قبب الكنائس الحمر والخضر، والمرقب الرمادي — هذه الكتلة الضخمة من الرصاص — الذي يعلوه الشبح القاتم لرجل الاطفاء القائم على الحراسة، والأبراج الصغيرة الخاصة بدار فوجيل، التي يصبغها الغروب بلون زهري ضارب إلى البرتقالي، لترتسم جميعاً بصورة جلية على قاع السماء الحمراء الزاهية. وإن خضرة الجادة — هذا الجدار السميك — لتخفي العزبات الجميلة وراءها، ولا تسمح برؤية الأسطحة والمداخن فقط. ولكن المعتادين يتمكنون من تمييز أهل المدينة الذين يستحقون اهتمامهم بصورة خاصة، وذلك من خلال شبكة الأشجار المتعانقة، فيشرعون باجترار الثرثرة والهذر على حساب جيرانهم — أعدائهم — وقد افترّت شفاههم عن ابتسامة كسول ساخرة: إن فلاناً ربح أو خسر كذا وكذا بلعب الورق، وفلاناً سكر في العشية، وفلاناً ضرب زوجته ... وباختصار، فان الناس ههنا على علم بكل أقاصيص أهل المدينة، وأعمالهم، وخصوماتهم، بل حتى بمشاريعهم ونياتهم فيما يبدو.

إن حياة شيخان الداخلية لمعروفة منهم بكل تفاصيلها ووقائعها تقريباً، وذلك بفضل النساء اللائي يقمن بالخدمة في المدينة في بعض الأيام. ولما كان وجودهم الخاص، القاتم والرتيب، يخلو من كل أهمية، فان أهل الضاحية لايجربون أن يتحدثوا عنه، بل يفضلون المواضيع المجردة، أو الخيالية، التي تفلت من إطار الوجود التفه الذي يعيشونه في ساريتز.

إنهم يحبون الغناء. وفي الصيف، في كل مدة تتردد فيها، قادمة من الجادة المقابلة، أصوات الجوقة الشهيرة التي ألفها مازيبا، رئيس الحامية الذي كان هاوياً ملتهباً حماسة للموسيقى، فان الضاحية تردّ عليها في أبهة

واحتفال بأصوات أفضل منشديها الجميلة . وكان في المحل الأول من هذه الأصوات فافيلو بورميسيتروف نفسه ، وأرتيم الغدارة ، هذا الصياد الذي لا يكلّ ، والفنان الذي لا يتعب .

ولقد عبّر شاعر القرية سيما ديوسكين ، ذات يوم ، عن حالة أهل الضاحية النفسانية بهذه القصيدة الصغيرة :

فيما وراءنا — غابات ،
ومن أمامنا — مستنقعات ،
أواه يارب ، كن بنا رحوماً ،
فنحن منهكون . . .

★

الملل والهموم ،
ووجود كئيب مجرد عن السرور .
إن بيننا معمرين ،
ولكن ماذا يفعلون ؟



لربما نزداد حماسة
لو كنا نأكل شبعنا .
ولكننا ، نحن المساكين ، نموت سريعاً
مثلما يموت الذباب متهاوياً .

٣

كان ياكوف تيونوف أذكى رجال الضاحية باعتراف سكانها الاجماعي. كانوا ينتظرون منه أجوبة سريعة ، وحديثاً سلساً غنياً ، وإن كانوا يعجبون إذ يرون مشيتـه المتمهلة ، بجسده الطويل القـاسي ، المفتول العضلات ، وحركاتـه الثقيلة القوية ، وإذ يسمعون لصوته الهـادىء ، الأصم قليلاً .

كانت حياته ، من أولهـا لآخرها ، لغزاً غامضاً . كان صغيراً جداً بعد ، في الخامسة عشرة ، حين اختفى حيث لا يدري إلا الله ، وغاب سنوات عـديدة دون أن يرسل أخباره لا إلى أهلـه ، ولا إلى شقيقته الوحيدة . وهذا هو يعود ذات يوم جميل ، إذ رجعت الشرطة به إلى مسقط رأسه مريضاً ، فـاقداً عينه اليمنى وعدة أضراس ، يحمل على ظهره خرجاً فيه كتابين كبيرين مجلدين عنوان أحدهما « تاريخ المخترعين » ، بينا يحمل الثاني هذا الاسم الغريب : « الكتاب العمومي» .

كان أبواه قد توفيا في تلك الأثناء ، في حين غادرت أخته المنطقة ، بعد أن باعت أراضيهـا وكوخها ، دون أن تترك عنوان محل إقامتهـا الجديد . وأقام تيونوف مؤقتاً عند داريا ، وهي قابلة وساحرة في الوقت نفسه ، تلقب بالخرساء لاكثارها من الكلام بصورة لاتطـاق. ولم يك إنسان يدري على وجه الدقة كيف يعيش تيونوف ، وما هي موارده . كان يتجنب النـاس ، ويتحدث إليهم بلهجة قاسية ، بل عدائية ، ولا يتطلع إليهم مطلقاً وجهاً لوجه ، بل يطرف بعينه الواحـدة ، ويهز

ذقنه بصورة متوعدة كلما اقترب منه بعض الناس أو جربوا الاتصال بـه. وكان يخرج في المساء من مسكنه ويضرب على غير هدى ، وحيداً . في السهب المديد ، وقد علقت عينـه بالأرض ، ومال رأسه قليلاً على جانب واحد كما يفعل العوران عادة .

وكانت الاشاعات التي روجتها داريا تقول إن تيونوف لا يفعل في الدار شيئاً ، اللهم إلا قراءة الكتابين الكبيرين والتحدث إلى نفسه دون انقطـاع . وكانت عجائز الضاحية يتهمنه بالسحر ، ويدعين أنه يتصل بالموتى ، بينما الصبايا يخشين لقـاءه ، إذ يعتبرنه سارقاً للأرواح . وقـد حاول بعض الفلاحين الاقتراب منه عدة مرات ، لكن جهودهم ذهبت دائماً أدراج الرياح . وعندئذ سألوا الأعور أن يقـدم لهم عشراً من زجاجات الفودكـا ، وعندما رفض أساؤوا إليه كثيراً ، بحيث اضطر إلى ملازمة السرير عدة أيام متتالية . وعنـدما شفي عاود نزهاته الليلية الغامضة مثلمـا كان يفعل من قبل ، بل خرج ذات مساء ولم يعد إلا بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً .

كان في الخامسة والأربعين تقريباً عند عودتـه الثانية : إن خصلاً شائبة من الشعر تتهدل حول جمجمته المدورة ، ولحية صغيرة قد وخطها المشيب تختتم محيـاه المتعظم الذي يلوح كأن الدخان قد كساه بطبقة كثيفة قاتمة . وكانت عينه الوحيدة المظلمة تشخص إلى الناس بانتباه شديد يزيد عنه فيما مضى من الزمان .

وأقام عند الخرساء من جديد ، مع هذا الفارق الواحد ، ألا وهو أنه لم يعد يقضي أياماً بأسرها سجيناً في زاويته ، بل يغدو بـكل طيبة خاطر إلى كل مكان يجتمع الناس فيه ، يعني إلى حانـة سينيموخ شتاء ، وإلى ضفاف النهر صيفاً . واتضح للجميع أنـه يتقن إصلاح الأقفـال ، وتبييض الأواني — والسماورات بصورة مفضلة — وأنه ذو اطلاع واسع

في أمور الفراء ، بل حتى في أمور الساعات أيضاً . ومما لاريب فيه أن الضاحية لم تك تحتاج إلى خدماته ، فاذا حدث أن توجه إليه بعض الناس بأمر ما ، تناول ياكوف أجره على ذلك وقعة من الطعام أو كأساً من الكحول . ولكنه كان يجد في المدينة عملاً يكفيه كي يعيش بصورة أفضل قليلاً من حياة كثير من سكان الضاحية الذين لم يسعفهم الحظ مثلما أسعفه .

كانت حياته اليومية تنقضي ، عاقلة منتظمة . فالنساء يقلن لأزواجهن، عندما يوقظنهم في الصباح :

— إنهض ، أيها الكسول ! لقد دقت الساعة السابعة ، وهـــذا الأعور خرج من داره .

وكان الجميع يعرفون أنه سيرجع إلى داره في المساء ، في تمام الساعة السادسة . ولقد كان يغدو إلى الكنيسة في أيام الأعياد كي يحضر خدمة القداس الأولى ، ومن ثم يتوجه إلى الحانة بعد انتهاء الخدمـة الدينية ، ويمضي هناك زمناً طيباً كي يقفل إلى بيته بعـد الظهيرة يتناول غداءه ، ويظل يتجول في كل مكان ، حتى ساعـة متأخرة من الليل ، فيراه الناس في مركز الضاحية أو في دروبها الأكثر بعداً على حد سواء . كان يمشي ، مستبشر الطلعة ، دون عجلة من أمره قط ، يضرب الارض بعصاه الصغيرة المقطوعة من شجرة كرز برية ، ويدور برأسه في سائر الاتجاهات كي يرى كل شيء ، وكي يحيي في لطف سائر المارين ، مستعداً للجواب بتفهم على أكثر الأسئلة تعقيداً واضطرابـاً ، هذه الأسئلة التي تطرح عليه بوفرة من كل حدب وصوب .

ويوم انهال أحد رفاق الصدفة ضرباً على فيما بوشكاريفـا ، فأسرعت إلى تيونوف تسأله النصيحة والنجدة ، وطفقت تشكو له ، وقـد أخفت

رأسها بين ذراعيه، نصيبها الحزين التاعس، خاطبها الأعور قائلاً بلهجة ملاطفة وعليمة في الوقت ذاته:

— أصغي إليّ جيداً، يافيما: من الأفضل لك أن تحترسي من الرجال الذين تلتقي بهم في طريقك، بدلاً من أن تزمجري ههنا مثل كلبة جريح. انتخبي من بينهم واحداً يكون ذكياً ولطيفاً، وعيشي معه في سلام. لابدّ أنك تعلمين، مادمت لم تعودي فتاة بعد الآن، أن كل امرأة هي، بالنسبة إلى كل رجل، زوجة الساعة الراهنة لا أكثر، ولربما أقل من ذلك في بعض الاحيان. فاذا كنت تضمرين بعض الاحترام للصورة الالهية التي تحملين، فلا تعلقي بهوى أي جلف كان. أعيني نفسك، وعندئذ تعينك السماء.

وإذ انتشر خبر هذا الحادث في الضاحية، لم تتأخر النساء عن وصف الأعور بالرجل الصالح، الأمر الذي عرف تيونوف كيف يستثمره حتى درجة بعيدة، مادامت المعجبات به يتبارين بحماسة واندفاع في مضمار إرضائه.

لكنه كان يحب دائماً أن يتيه وحيداً في ضوء القمر، عبر الحقول المجاورة، وقد انحنى رأسه على كتفه، وافترت شفتاه عن ابتسامة غريبة غامضة.

وكان بعض الناس الميالين إلى التأمل يطرحون عليه أسئلة خطيرة في كثير من الأحيان، وهم جلوس في جماعات غفيرة تحت أشجار الحور الوارفة. وكان بورميستروف هو البادىء بطرح هذه الأسئلة على الدوام، فقد كان يحسّ أن الأعور يكسفه شيئاً فشيئاً في عيون مواطنيه، فيحاول أن ينحيه جانباً، حتى دون أن يجرب إخفاء عداوته وحفيظته، بأن يرميه بأسئلة غامضة مشبوهة.

كان يقول:

— قل إذن ، ياتيونوف ! أصحيح أنك اشتغلت بتزوير العملة ، الأمر الذي حملك على عض أصابعك ندماً فيما بعد ؟

فيجيب الأعور دون تردد ، وهو يشخص بعينه المتفحصة إلى محيا فافيلو الجميل :

— العملة ... إنها مزورة دائماً .

ويأخذ خصمه ، وقد أربكه الجواب ، بالاشتعال هياجاً .

— إني لا أفهمك جيداً . إذا أخذت أنا مثلاً بصنع روبلات من القصدير أو الزجاج أكسوها بالزئبق بعد ذلك ، بينا الخزينة من جهة أخرى تصنع روبلات من الفضة ، إذن ؟ . .

فيقول تيونوف بصوته المبحوح :

— إذن سيكون هناك روبلان مختلفان ، وفي مثل هذه الحال سيكون للقصدير والفضة ذات القيمة الواحدة . وما دام هناك روبل من الورق ، فلماذا لا يكون أيضاً روبل من الخشب ، أو من الطين ، إلخ .. إن الناس يستطيعون أن يصنعوا الروبلات من أي شيء ، وبالمقدار الذي يريدون . ولكن الأمر يختلف إذا صنعت الأحذية من لحاء الشجر ، لأن هذا سيكون خداعاً وغشاً ، مادامت الأحذية قيمة حقيقية ، بينما المال قذارة ليس غير . .

وإذ كان يتكلم في بساطة ، وإذ كانت عينه تلمع في صراحة وقسوة ، فقد كان يجبر المستمعين إليه على التفكير ، شاءوا أم أبوا .

ويمسح مرقص كلوشنيكوف ، صانع المدافىء الأعرج . قحفه الأصلع حائراً متعجباً ، ومن ثم يمرّ بيده على وجهه الأصفر المنتفخ ، ويقول منتزعاً كلماته في جهد بين :

— إليكم ، فكثيراً ما يحدث لي أن أفكر في روسيا . حسناً ! روسيا .. أي شيء هي هذه ؟ قل لي ، ياصاح ، هل تفهم ؟

فيردُّ عليه تيونوف دون تردد :

ــ ليس أبسط من ذلك ، ياعزيزي . روسيا ، إنها تراكم من المقاطعات ... دون ريب ... إن عندنا عاصمتين فقط ، ولكن هناك ألوفاً من المدن في قلب المقاطعات التي تعيش بحياتها الخاصة . تلك هي أمنا الصغيرة روسيا .

ومن ثم يضيف ، بعد برهة من التفكير :

ــ يبقى أن نعرف ما الذي يجمع سائر هذه المقاطعات ويوحدها . أهو خير ؟ أهو شر ؟ فلنتفحص ذلك قليلاً ...

فيقول بورميستروف ، ساخراً :

ــ يلوح أنك فقدت عينك اليمنى لأنك تفحصت كثيراً بعض الأشياء . أليس ذلك صحيحاً ؟

ويستدير فافيلو على جنبه الآخر ، وقد وجد سؤالاً جديداً يبدو له أنه لايقل إشكالاً عن سؤاله السابق ، ويقول بنغمة مستفهمة :

ــ إنك تتحدث كثيراً عنا ، نحن البورجوازيين الصغار ، ولكن هل تعرف في الواقع ما هو عددنا ؟

فيجيبه تيونوف بقوله :

ــ إنتم أشبه بالأسماك الصغيرة جداً التي يستحيل إحصاؤها !

ــ إنك تكذب ، أيها الأخ الصغير ، لقد أحصونا على أية حال قبل ست سنوات فقط .

ــ إذن ، فان أولئك الذين أحصوكم يعرفون عددكم . أما أنا فاني لا أعرف عن ذلك شيئاً .

ومن ثم يُردف ، وقد صعَّد زفرة ضئيلة ، وافترت شفتاه عن ابتسامة خبيثة :

ــ ليس من السهل إحصاؤكم البتة .

— لماذا ؟

— ولكن لأن البلهاء يتكاثرون بصورة عفوية !

وعندئذ يصيح بورميستروف ، سعيداً باسترداد مثل هـذا التفوق الواضح ، وهو يرسل الشرر واللهيب تباعاً من عينيه :

— هذا ، مثلاً .. فأنا أيضاً أبله ؟

ولكن أصدقاءه ، كلوشنيكوف ، وستريلتزوف ، وزوزيم بوشكاريوف المتواضع ، الملقب « بالشيطان الملبد » ، يسرعون فيسكتون من روع الفتى المغوار .

وبعدئذ يسأل كلوشنيكوف ، مبلبل الخاطر ، وهـو يوسع باصبعه شقاً هائلاً في سرواله :

— وموسكو ، مثلاً ؟

فيجيب الأعور في تماهل ، وهو يحملق بعينه القائمة التي تلوح محصنة وراء الحاجب الكث :

— حسناً ! موسكو ... حسناً ! إليك : تخيل نفسك وقـد لبست حذائين لم يعودا ينفعان شيئاً ، وأن قميصك لم يغسل منذ عام أو يزيد ، وأن سروالك لايخفي بؤسك إلا بصعوبة كبرى ، وأنه لايوجد في بطنك — كما في جيبك — إلا بعض الفتات والقذارات ، ولكنك تلبس مع ذلك طاقية جميلة ، فلنقل إنها طاقية من الفرو ... حسناً : هـذه هي موسكو ..

فيكب كلوشنيكوف بعض الماء على وجهه ، ومن ثم يجفف جبينه ، ويشخص برهة إلى الأعور ، وأخيراً يقول بلهجة متكاسلة :

— هذا ممكن . إنك على حق .

ويظل هؤلاء العاطلون متمددين عند أقدام الأشجار باستمرار ، وقد بليت أسمالهم ، وانتفشت شعورهم ، وطالت لحاهم الكثة كثيراً ، مثلهم مثل

كومة من الأقذار جرفها النهر حتى ذلك المكان . إن قناعاً واحداً من اللامبالاة الصلفة المشبعة بالازدراء ، الخاص بأولئك الناس الذين عركوا الحياة ولقوا من تجاربها صنوفاً كثيرة ، فهم عصيون على كل شعور ، مغلقون على كل مفاجئة ، إن مثل هذا القناع يغطي وجوه الجميع على حد سواء ، فهم يتطلعون ، وقد نعست عيونهم ، إلى النهر الذي يدحرج مياهه العكرة ، وإلى ضفة المدينة المتعرجة الصهباء اللون ، وإلى السماء المبيضة إلى الأعلى من جادة أوكوروف ، ولا يفعلون شيئاً آخر .

وكان هؤلاء الكسالى يعبقون بضجر لا جلاء له ولا نهاية ، مثلهم مثل الهواء الذي يعبق بالرائحة التفهة المنتشرة من أعشاب المستنقع المتفسخة.

إن الأعور يشخص إلى كل منهم بدوره ، بعينه القائمة ، ويزنهم في احتقار عظيم ، فهو يدور برأسه في كل الاتجاهات ، وكأنه يريد أن ينتخب بين فراء عتيقة قرضها العت جميعاً وأتى عليها .

إن الصموت بافل ستريلتزوف يعنى بصورة خاصة بالأمور التي تملك قيمة عملية ، فيسأل :

— قل ، ياتيونوف ، إذا نقعنا الشاي في الفودكا ، فهل نحصل على الجعة ؟

فيجيب الآخر في هدوء وثقة مطلقين :

— كلا ! فالجعة تصنع ، فيما أعلم ، من الشعير في المحل الأول .

وهنا يهتف بورميستروف غاضباً :

— إنك تكذب دائماً ، أيها الأعور ! إن أحداً منا لا يعرف شيئاً ، وأنت تنطلق في الميدان على هواك !

فيقول تيونوف :

— من يجبرك على تصديقي ؟

ـ ولكني لا أصدقك ! إن كلماتك تثير ألماً في قلبي ...اشدّ ما أضجر معكم !...

ويتنهدون ، ويبصقون في الرمال ، ويتثاءبون ، ويلفون بعض التبغ ويدخنوه . إن المساء يمتد ببطء في طول الظلال الدافئة التي تنشرها أشجار الصفصاف الباكي ، وهذه الاغنية التي تأخذ بالألباب تأتي بعذوبة فائقة من « جنة فيليسيتا » :

يا أصدقائي ،
يا أعزائي ،
تعـــالوا !

إنها روزا تغني بصوت ضعيف ، ترافقها لودكا بصوت لاهب :

تعـالوا ! تعالوا جميعاً
أفلستم تخجلون
من المرور أمام مطلعنا
دون أن تدخلوا لرؤيتنا ؟

ويلاحظ ستريلتزوف :

ـ إن لودكا هـذه ، لشد ما تسرّ في الاعالي وتغتبط : إن المرء ليتساءل لماذا ...

فيوضح تيونوف الأمر قائلاً :

ـ لأن المرء هناك يملك بصراً !

وفجأة ، يعتدي صوت فيليسيتا الخفيض ، عن بعـد ، على سكون المساء العذب .

إنها تصيح :

ـ ياروزا الصغيرة !

ـ ماذا إذن ؟

— إنها ساعة الشاي !

فيقول كلوشنيكوف وهو يحرك شفتيه :

— وأنا أيضاً أود أن أتناول الشاي .

فيضيف زوزيم بوشكاريوف :

— ههنا ، دون أن تتحرك ...

وفي هذه الأثناء ، يأخذ أهل المدينة بالتجمع في الجادة على الجانب الآخر من الماء ، فيستطيع المرء عندئذ أن يرى ، من خلال الأشجار، نساء زرقاوات ، وحمراوات ، وبيضاوات ، يمررن وهن يتأرجحن ، يرافقهن رجال رماديون أو ضاربون إلى الصفرة ، ويسمع قهقهات الضحك المترددة في مرح ، والنداءات الملقاة من هنا وهناك ، وشذرات من الأحاديث المتبادلة في لهو وعبث ، بل يستطيع أيضاً أن يميز صوت مازيبا الألثغ الذي يفتش عن أفراد جوقته .

ويترقب سكان الضاحية خصومهم ، ويتبادلون الأخبار الأخيرة ، فيقول بورميستروف وهو يتمطى على الرمال ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة احتقار :

— مفوض الشرطة ! قال لي ذات يوم ، وهو يرد لي حريتي : « أفلست تخجل إذن ، يافافيلو ، من قضاء حياتك بأسرها دون أن تفعل شيئاً آخر سوى السكر ؟ ينبغي عليك أن تشتغل ، وأن تكون عاقلاً » . ولقد أجبته : « يا صاحب السعادة ، لما كان جدي قد اشتغل طوال حياته ، وكذلك فعل أبي أيضاً ، فيتوجب عليّ إذن أن أرتاح من أجل كليهما معاً » . وعندئذ قال : « لسوف تفطس بسبب ذلك ، يا فافيلو » .

فقال كلوشنيكوف ، وهو يتثاءب :

— كلا ، يا فافيلو . إذا فطست ، فسوف أعلم السبب في ذلك .

لن تفطس إلا من أجل النساء وحدهن ، مثل المرحوم ، أخيك أندريه .

فيقول زوزيم :

— إن أندريه مات متأثراً بجراحـه . وفيما عدا ذلك ، فقد كان يحب الخمرة كثيراً .

ويعلن فافيلو في خطورة ، وهو ينقل بين الحضور نظرة متكبرة :

— إن ما قضى عليه ليس الخمرة ولا الجراح ، بل حبه لفيليسيتـا . لقد كان يحب فيليسيتا ، كان يحبها حباً حنونـاً مخلصاً ، إني أنا من أقول لـكم ذلك . ولو أنه لم يحبها ، فما الذي كان يحمله على القتال في سبيلها؟ لماذا ؟ ولـكن لماذا ؟

إن شاباً عاري الرأس ، حافي القدمين ، يحمل على كتفه صنـارة للصيد ، ويمسك بيده سلة من القصب ، يسير على طول الضفة ، مترنحاً على ساقية النحيلتين ، يتساقط معطف شتائي ممزق حول جسده الهزيل المنحني على هيئة القوس . إن عنقه طويل قاس ، ورأسه الضخمة بصورة تتجاوز كل قياس يتحرك بطريقة تبعث الفضول والدهشة ، فكأنه يريد أن يحيي كل ما يراه عند قدميه .

ويهتز بافل ستريلتزوف ، وينهض على قدميه ويصيح بالمتشرد الشاب :

— هيا ، ياسيما ، تعال وأسرع !

إن محيا الشاعر سيما مستدير المحيط ، مجرد تمامـاً عن كل تعبير ، وعينيه الجاحظتين ، المحملقتين كثيراً ، تشبهان عيني الخروف بصورة غريبة .

ويقترح ستريلتزوف عليه :

— هيا ، ياسيما ! إقرأ لنـا أشعارك .

ويقول كلوشنيكوف مؤيداً ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

— بلى ! اتل علينـا ، كما تجيد ذلك ، ياسيما ...

وعندئذ يتلو سيما ، بصوت سريع متردد النبرات ، وهو يدوم في مكانه على الرمال دون أن يتطلع إلى أي من الحاضرين :

يارب ، إننا جميعاً صنيعة يديك ،
ولكن الخبث يعيث فساداً في قلوبنا ،
منذ الولادة حتى القبر .
إننا جميعاً حيوانات قاسية ،
فكن معنا ، يا رب !
أ فلسنا أبناءك ؟
إننا نطلب الايمان .
أنت ، يا ضياءنا ، ياكلنا .

ولكن بورميستروف يقاطعه قائلاً :

— ليس هذا ما نريده اليوم ...

ويصر تيونوف في شيء من الوداعة :

— كلا ، يا سيما ... في الحقيقة ليس هذا ما نريده . يجب أن نعتقد بأن الأشعار المقدسة ليست من شأنك مطلقاً . يجب أن تسيل الأشعار المقدسة من ينبوع دافق . خذ مثلاً ، أصغ .

وراح يرنم ، متغنياً ، ببطء واتقان :

— يارب ! كن رفيقاً بنا ! يارب ! أنت يا من في السموات ، اغمرنا برحمتك !.. هل تسمع ، إن هذا يتدفق من ينبوع ، بينا أنت.. إن المرء ليقول إنك تعزف على البلاليكا .

ويعلن ستريلتزوف بدوره ، وهو يشير برأسه نفياً :

— إن هذا لا يساوي شيئاً .

ويظل سيما واقفاً ، مشرفاً على الآخرين ، وقد أطرق برأسه الثقيلة ، وطفق يحرك شفتيه ، ويحفر الرمال بقدميه دون هوادة . وهذا هو

يترنح على خـــين غرة حتى ليخيل إلى الناظر إليه أنه سيتهاوى أرضاً مثل كتلة من الجماد . ولكن لا ، فهو يبتعد ، وساقاه الشبيهتان بساقي طير اللقلق يتباعدان بصورة غريبة مضحكة .

ويلاحقه تيونوف بعينه القاتمة ، ومن ثم يهمس :

— وعلى أية حال ، فانه يعرف كيف يصنع الأشعار ! وهـو يلوح مع ذلك إنساناً مثل بقية الناس ، الأمر الذي يبرهن أننا لانعرف قـط ما يكمن في أعماقنا .

أما فافيلو فيصيخ بسمعه إلى ضوضاء المدينة وقـــد عقـد يديه على ركبتيه ، وأغمض عينيه بشدة . إن وجهه الرائع ، بسماه التي تـــكاد أن تكون كلاسيكية الجمال ، مكتئب كثيراً ، مقطب الحاجبين ، تكسوه دلائل التفكير العميق . وإن جدائله صهباوية اللون ، أما أهدابه فسوداوية قاتمة ، بينا شارب أصهب فاتن يبرز في جلاء شفتيه المكتنزتين جيداً ، المصطبغين بلون الكرز الناضج . وإن قميصه الأزرق مفتوح عن صدره ، يكشف عن بياض الجلد المزروع بأشعار مذهبة ، وجسده بأسره ، القوي ، الممشوق والمرن ، يثير في الذهن فكرة فتنة سمورية يتحلى بها حيوان متوحش .

غمغم من بين أسنانه ، دون أن يفتح عينيه :

— كل هـذا لايساوي شيئاً كثيراً . الشعر ، ما فائـــدته ؟ وماذا يمكن أن يستخرج المرء منه .

فقال كلوشنيكوف مبتسماً :

— بالنسبة إليك ، ليس سوى لودكا التي تفيد شيئاً .

وأضاف زوزيم بوشكاريوف في قناعة تامة :

— ولكن ، يالهما من زوجين رائعين على أية حال : لودكا وفافيلو ! كل منهما أجمل من صاحبه !

وسأل الأعور في صوت خفيض ، وعينه الثاقبة تشع مثل المخرز :

. لماذا؟ تقول إن الشعر لايفيد شيئاً ؟ إذا انسجمت قصيدة مع موضوعها ، فانها تستطيع إذن أن تلمس شغاف القلب منك ... الفولجا مثلاً .. كيف الحديث عنه ، إلا ... ؟

ولم يكمل جملته ، بل مدّ يده بحركة واسعة ، وأنشد بصوته الأصم ، في تماهل وخطورة :

فولجا ، يا أيها الفولجا . في الربيع ،
فصل النكبات العنيفة ،
لاتستطيع مياهك أن تقلب الحقول مثلما ...

— هل تسمعون ؟

... لايستطيع الحزن الشعبي العظيم أن يقلب الأرض الروسية .

وصاح تيونوف بحماسة مباغتة لم تكن في الحسبان :

— الأرض ! الأرض الروسية ! هذا شيء صالح ، ويذهب بعيداً جداً ...

ويقترب صانع المدافىء قليلاً ، ويسأل :

— هذه الأبيات ... أين تعلمتها ؟

— في موسكو ، في السجن ... لقد كان الطلاب ينشدونها ...

— أكنت في السجن؟

— ولكن بلى ...

— لأنك زوّرت العملة ، ما ؟

— ولكن لا ! كنت أهذر عندما قلت إني أزور العملة . تلك خدعة بريئة ، وليس أكثر من ذلك مطلقاً . إنهم لم يحبسوني إلا بجريمة التشرد . .

وأضاف :

— . . وبسبب السياسة أيضاً ، كما هو مفروغ منه .

فصاح ستريلتزوف ، مدهوشاً:

— السياسة ، أي شيء هذا ؟ إن الاشاعات تقـــول إنهم أوقفوا جندياً في البلدة ...

— أهو ابن الأم ليفوشكين ؟

— نعم ، هو ...

فقال تيونوف ، وقد تجمدت سيماؤه :

— إن السياسة شيء معقد جداً ، إنها شيء غامض يعامله كل إنسان على هواه بالطبع . إن بعضهم يقولون إنـه يجب إعطـاء سائر الأراضي للفلاحين ، أما الآخرون فلا يريدون ذلك ، بل يؤثرون أن تترك سائر المعامل والمصانع للعمال . وإن آخرين أيضاً يقولون ما يلي : « أعطونا كل شيء ، ونحن نقسمه بالعدل والقسطاط بين سائر أبناء الشعب » . ومهما يكن الأمر ، فـان السياسة تعنى برفـاهية الجنس البشري على وجه البسيطة ...

ويسأل ستريلتزوف ، قلقاً بصورة بينة :

— حسناً . . ولكن ماذا عن البورجوازيين الصغار ؟ ..

فيلاحظ فافيلو بلهجة لاتقبل الاعتراض :

— إن السياسة ليست من شأن البورجوازيين الصغار بكل تأكيد !

وعندئذ يشخص الأعور ، وقد التوى فمه ازدراء ، إلى هذا المقاتل الجاهل الذي يستدير حالاً برأسه عنه .

★ ★ ★

إن رائحة الأعشاب المتعفنة تعبق متزايدة الشدة على الدوام ، بمقدار ما تتصاعد الرطوبة من النهر وتتفاقم ، وتظلم السماء على مرمى البصر ، وتبدو الزهرة في القبة اللازوردية وتحتـــل مكان الشمس التي غربت ، وقد اكتست بغطـاء رقيق جداً من الضباب ، وتصطبغ قبـــة الناقوس

الرصاصية بالقرمز ، بينا المتنزهون في الجادة يمزحون ويضحكون بأصوات مرتفعة ، لكن دون أن يتوصلوا على أية حال إلى إغراق صوت مازيبا الأبح ، القادر على خنق سائر أصوات العالم وكتمها .

وفجأة تتعالى أغنية ، في مكان ما من المدينة :

في ذات يوم ، قبالة جبال
متشابهة الأصل والمنظر ..

ويصيح بورميستروف :

ــ انتظروا هنيهة !

ويلوح بقبضة يده منذراً متوعداً :

ــ انتظروا حتى يأتي أرتيم ، ولسوف نريكم عندئذ « جبالاً متشابهة الأصل والمنظر » ..

وما أسرع أن يطلق نداء مدوياً :

ــ أر ـ رتيم !

وعندئذ يبدو أرتيم الغدّارة ــ وهو صياد أسماك ، وقناص عصافير ، وصياد طيور من الدرجة الأولى ــ وقد صالب ذراعيه وراء ظهره ، وراح يصفر لحناً ما : إن مظهره منغولي بصورة جلية ، فوجنتاه بارزتان ، وعيناه ملجومتان تشوصان قليلاً ، وندبة طويلة عميقة تجتاز خده الأيسر بأسره تقريباً ، بحيث يلوح أرتيم وقد افترت شفتاه دائماً عن ابتسامة مشبعة بالازدراء .

قال ، وهو يهز رأسه :

ــ إنهم ينشدون كثيراً جداً منذ فترة من الزمن ! فلنجرب أن نلقنهم درساً صغيراً ، هيا !

وعندئذ يهب فافيلو بورميستروف على قدميه ، ويتمطى ، ويدفع إلى الأمام بصدره الصنديدي ، ويرسل هتافاً مشجعاً يكشف عن أسنانه جميعاً :

– هيا بنا ، يا أرتيم ! وأنتم هناك ، أيها البلهاء ، تماسكوا جيداً !
وتتعالى نبرات كئيبة متماهلة يصعّدها صوت نقي في جو السماء الدافىء الرطب :

آه ... آه ... يا عصفوري الطاطوي ...

ويظل أرتيم واقفاً ، يستند بظهره إلى جـذع شجرة ، وقد امتدت ذراعاه إلى الخلف ، وانقلبت رأسه إلى الوراء ، وانطبقت أجفانه على عينيه بشدة . ومن ثم تتعلق إحدى يديه بجذع الشجرة ، ويتسع صدره بقوة ، وتتحرك تفاحه آدم في عنقه ، وترتعش شفتاه قليلاً ، بل يرتعش فمه المشوه بأسره .

ويدير فافيلو في أثنـاء ذلك ظهره للمدينة ويواجـه رفيقه ، ويروح يرافقه بصوت خفيض غليظ ، لكنه عذب ودافىء في الوقت نفسه :

آه ... آه .. أيها الطير الشريد ،
هلاّ أخبرتني كيف ستكون حياتي ...

ويكشر فافيلو أثناء إنشاده . ويحرك رأسه في انشراح عظيم كلما أرسل نغمـة عالية مشربة بالحزن بصورة عجيبة ؛ إنه يضغط بيـديه على صدره ؛ إنه يرفع ، باكياً ، عينيه نحو السماء ، ويفتح ذراعيه مليئاً ، فكأنه يريد أن يضم بهما العالم المعذب ؛ إن أبسط حركاته تنسجم انسجاماً كلياً مع الأغنية ، كما أن ملامح محياه ، الشاحب تارة ، المتضرج قليلاً تارة أخرى ، تتبدل في كل لحظة ، فيلوح بأسره كئيباً قاتماً ، ووديعاً مرحاً في الوقت ذاته . وكان يبدو إنه يغني بكل كينونته ، بكل قوى نفسه ، بل إن حماسته لعظيمة جداً حتى إنه يتعثر ، فيسكره اللحن مثلما تسكر رائحة الخمرة ثملاً عربيداً .

ويلاحق الحضور لهوه المؤثر ، مسحورين بـه ، عاجزين عن أن يحيدوا عنه بأنظارهم ، اللهم إلا تيونوف الذي يتطلع وحـده ، جامداً ،

إلى النهر القريب . إن شفتيه تتحركان ، ولحيته الصغيرة تصعد وتهبط، مشيرة إلى عمل داخلي عميق .

ويخرج سيما من الظل ، أشبه ما يكون بشبح مقوس . إنه يحمل حالياً صنارة صيد على كل من كتفيه ، حتى ليلوح مثل حشرة كبيرة ذات لامستين تتجاوزان كل قياس ، ويتقدم دون ضوضاء من فافيلو ، ويجثو أمامه ، ويتطلع إليه فاغر الفم ، جاحظ العينين اللتين يستحيل سبر غورهما .

ويزداد صوت فافيلو اتساعاً ، ويطلق هذه الشكوى اليائسة :

هل أعرف أبداً
المصير المقدر لي ؟

٤

كان فافيلو يقف ، في ساعة مبكرة من صباح أحـد الأيام ، في مكتب مفوض الشرطة ، يتفحص وورمز ، الرجل الأشيب السالفين ، بعينيه الجميلتين الواسعتين . كان يضرب صدره في موضع القلب ، بقبضة يده المطبقة ، وقد اجتاحه شعور لم يجربه من قبل أبداً ، شعور عظيم من المذلة والحزن ، وهو يقول في صوت أبح يفضح انفعاله الشديد :

ـــ إليك ما قال : « نحن الآخرين ، البورجوازيين الروسيين الصغار ، لسنا نستطيـع شيئاً ضد النبلاء الذين كثرتهم من الألمانيين . يجب أن يتغير كل هذا » ...

فسأل وورمز ، وقد رفع حاجبيه الأشيبين بصورة رهيبة :

ـــ كيف ؟

فقال فافيلو :

ـــ ماذا ؟

ـــ أن يتغير كل هذا ... كيف ؟

ـــ آه ! هذا ، إني لا أعرف شيئاً عنه ... إنه لم يقل ...

فرفع مفوض الشرطة خنصره حتى مستوي أنفه ، وتأمله برهـة ، وعطفه دون أن يدري أحد مبرراً لذلك ، بينا تغضن جبينه وهو يقول :

ـــ والآخرون ؟

فردد فافيلو من بعده :

ـــ الآخرون ؟

وخفض صوته ، وتلفت حواليه ، ومن ثم استرسل قائلاً :

ـــ الآخرون ، لا شيء .. ولكن ما أهميـة الآخرين ، ما دام هو الوحيد الذي يتكلم ؟

ـــ وصانع المدافىء ؟ إن هناك صانعاً للمدافىء ، أليس كذلك ؟

فأجابه فافيلو ، أنبس الوجه :

ـــ بلى ، ولكنه يظل صامتاً .

ـــ أهذا كل شيء ؟

ـــ نعم ، هذا كل شي .

واستند مفوض الشرطة بجسده المتعظم إلى مسند الكرسي ، ثم قال وهو يقرع المكتب بأصابعه :

ـــ أنتم جميعاً ، هناك ، سكيرون ، ولصوص ، وأشقياء ، وأفضل ما يُصنع هو نفي قطيعكم الجربان بأسره إلى سيبيريا . أنت أيضاً ، إنك شقي ، حيوان متوحش ...

وبينا هو يتحدث دون انقطاع ، طفق فافيلو ، وقد صالب ذراعيه وراء ظهره ، يتطلع بثبات ، دون أن يراوده أدنى شعور بالقلق والحزن ، إلى المائدة المزدحمة بمختلف الأشياء الغريبة ، لكن المرتبـة مع ذلك بصورة متقنة . إن هناك تمثال كلب سلوقي من النحاس الأصفر ، ومكعباً صغيراً جداً من الفولاذ ، ومسدساً قصير المـدفع ، وأمرأة عارية من الصيني ، ووعاء من العظم يشبه من بعيد جمجمة بشرية ، قـــد امتلأ بأعقاب اللفائف ، وكوماً عالياً من الأوراق . وكان مصباح مرتفع رخامي القاعدة ، مزين بغطاء مربع ، يعلو هذه الأشياء جميعاً .

هدد المفوض فافيلو باشارة من إصبعه ، وقال في النهاية :

ـــ كن حذراً ، يا بورميستروف !

ومن ثم أضاف بلهجة خطيرة ، وقد دسّ يديه في جيبيه :

ـــ الآن لم يعد أمامك ما تصنعه سوى شيء واحد ، ألا وهو أن

تتبع بانتباه كل ما يجري في بيئتك ، وتقـدم إليّ تقريراً عنـــه بصورة منتظمة . إليك هذا الروبل ، خذه . اسوف أعطيك نفس هـذا المبلغ في كل مرة .

واحتج فافيلو في شيء من العبوس ، وإن مدّ يده كي يتناول المكافأة :

— هيا ، ليس المال هو الذي يعنيني ...

— هذا ليس بذي بال خذه ، على أية حال .

ورفع المفوض جذعه ، وهو منحن فوق ذراعي مقعده . مال بجسده إلى الأمام ، فكأنه يريد أن يقفز من فوق المكتب .

استوضح فافيلو بصوت مخفوض جداً :

— هل أستطيع الذهاب الآن ؟

— إذهب .

جرى ذلك ذات يوم كئيب من نهاية إيلول ، حين كان مطر دقيق يتساقط من السماء دون انقطاع ، وجداول من المـاء تتلاقى في الطريق وتتصالب ، متبـادلة الشكوى في همس خفيض ، وريح باردة تنفذ حتى العظام تهب في لفحات متتالية ، فتهز الأشجار التي تعرت من أوراقهـا في وقت مبكر هذا العام . وكانت بعض الغربان تنعق في مكان ما بصوت أبح ، وأجراس تدق من بعيد ، فيمتزج رنينها بأصوات مختلفة أخرى .

وكان فافيلو يغدو ، مشمئزاً من نفسه ، متخبطاً في الطين السائل ، مؤثراً فيما يبدو أن يمشي عبر البرك الأوسع والأعمق ، وقـد شدّ على الروبل الذي أعطاه وورمز إياه في يده اليمنى ، تبدو له هـذه القطعـة ثقيلة جداً حتى يحملها مثلما تحمل المرأة سطلاً من الماء ، إذ أن ذراعه اليسرى ابتعدت عن جسده ، بينا مال جذعه بأسره إلى اليمين قليلاً .

كانت الموجدة التي يحسها منذ زمن تجـاه الأعور قد تلاشت الآن

مؤقتاً ، مفسحة المكان لشعور من الفراغ انبـــارد يحس لزوجتـــه تغمر قلبـه وتعصره عصراً ... بينـــا ذاكرته تسترجع ذكريات تفوق في الغم بعضها بعضاً . كان فافيلو يدرك أن تيوتوف سيكسفه بعد الآن ، هو الذي أفسدته عنـاية الضاحية المشبعة بالاطراء ، فيدفعه إلى المحل الثاني من اهتمام الناس فيما حولها . ولقـد ساءه هذا الانقلاب غير المنتظر ، بل أحفظه أيضاً ، فاستسلم منذ بضعة أيام إلى أهواء غريبة صاخبة ، فهو يتنزه نصف عارٍ عبر الضاحية . بأسماله التي تزداد تعفنـاً باستمرار ، متخبطاً في الوحل ، متدحرجاً في الغبار ، يرمي كلاباً وقططاً حية في أعماق الآبار ، ويصاقب النساء ويضايقهن ، ويشتم الرجال ويهينهم ، ويزجر بأغنيات بذيئة ، ولا يني يكيل السباب دون حساب ، بينا ينحني جسده المشوق الرشيق ، فكأن ثقلاً باهظاً غير منظور يئيد عليه . إن ابتسامة بلهاء ترتسم على شفتيه ، وعينيه المتوسعتين المحمرتين تدمعـان ، مليئتين خبثاً ، طافحتين بنوع من العذاب الحيواني ، في هذه الأيام من الدعارة حيث تترهل تقـــاطيع وجهـــه الجميل ، وتلوح ملامحـــه كأنها امحت وانحلت . ولكن كان يكفي أن يقترب أحد الجيران منه ، ويوجه إليه بعض المديح لشجاعته وإقدامه ، حتى تدب الحياة في أوصاله ، مثل شجرة سندر مغبرة مزروعة على حافة الطريق العامـــة حين تتلقى لكزة بعد أسابيع طويلة من الجفاف . عندئذ كانت عينـاه الكبيرتان تستعيدان نارها ، وينتصب عموده الفقري المنحني ، فيضم إليه في حنان وعطف أصدقاءه بذراعيه القويتين . كان يغني إذن دون انقطاع ألحـاناً مرحة ، مفعمة بفرحـة الحياة ، وهو في هذه الأيام ـ النادرة على أية حال ـ على أهبة الاستعداد دائماً لمد يد المعونة للجميع على حد سواء ، وبصورة خاصة لذلك الذي يعرف كيف يصيب منه الموقع الحساس ، ويتوجه إلى شجاعته طلباً للمساعدة .

كان فافيلو يتقدم باستمرار . تهاجمه من كل حدب وصوب الذكريات المنبثقـــة إلى الوجود الواحدة تلو الأخرى ، مثلما تبرز بقع الرطوبة على الجدران عندما تصليها الشمس بأشعتها ، فترسل فيـه شعوراً حكمياً بالغثيان يثقل على فؤاده ، حتى وصل أخيراً ، دون وعي منه ، إلى دار الخرسـاء حيث يقطن تيونوف . وحين توقف أمام نافـذة الأعور ، بصورة آلية خالصة ، فتح فاه كأنه يريد أن يصيح ، ومن ثم اجتـاز عتبة الكوخ بحركة من يده عفوية حازمة ، ولم يكد يفعل حتى اصطدم بالساحرة العجوز ، فدس روبله في يدها ، وهتف بهـا بلهجـة آمرة :

— إذهبي واشتري قليلاً من الفودكا ، والخبز ، والخيـار المملح ، وسمكة داخنة ... أسرعي أكثر من هذا !

وخلع سترته المبللة بالمطر في غرفة تيونوف الصغيرة وألقى بها أرضاً ، ومن ثم راح يضطرب في أرجاء المكان ، يرفع ذراعيـــه إلى السماء ، ويزمجر ، ويضرب صـدره ورأسه بقبضتيـه المشدودتين ، شرس العينين بصورة متوحشة .

كان يصيح :

— يا كوف ، هذا أنا ، هذا أنا بالذات ، بلحمي ودمي . أواه ! إني شقي .. ماذا أنا في الحقيقة ؟ ذرة من غبار ! ورقة خريفية سقطت أرضاً ! متعفنة . . ماذا أفعل في هذا العالم ؟ أيان أذهب ؟

كان يمثل بشكل تأكيد ، ولكن يلعب دوره بصورة مخلصة ، بكل قوى نفسه . وكان محيـــاه يشحب ، وعيناه تترقرقان بالدموع ، وقلق لا حدود له يجتاح قلبه .

هتف ندامته طويلاً ، في هوى وحمية عظيمين ، وهو يرسل شكاوى حادة . دون أن يسمع شيئاً ممـا يقوله تيونوف له . كان يعجب بنفسه

وقد جرفه تيار لعبته ، فيصغر وجدانه كثيراً وينزوي في بقعة ضئيلة من قلبه الذي ظل جلياً نيراً .

تعب أخيراً من الصياح ، فسكت متعب القوى ، وعندئذ فقط رأى عن قرب وجـه الأعور ، أغرب منـه في أي وقت آخر ، بل غامض الرموز تقريباً . كان ياكوف تيونوف ينظر إليه ، جالساً إلى مائدتـه ، معتمداً وجنتيه البارزتين إلى راحتيه الصغيرتين الجافتين ، منفرج الشفتين عن أسنانه السود ، مفترة شفتـاه عن ابتسامة وضمت حـداً ، بصورة مباغتة ، لهياج فافيلو وحماسته .

قال فافيلو ، وهو يبتعد عن الأعور :

— ما بالك ؟ هل أنت ساخط عليّ لأني وشيت بك إلى المفوض ؟

فأرسل تيونوف زفرة طويلة ، وقال :

— على أية حال ، يا فافيلو ، فان لك قلباً طيباً ...

فهتف فافيلو ، سعيداً مرحاً :

— قلب طيب ! ولكن هذا القلب مفتوح على كل ما هو جميل !

— في الحقيقة إنك تعذب نفسك . من أجل لا شيء . لو كنت تغدو إلى مكان آخر ، تلاحق مصيرك ؟ إلى موسكو مثلاً ؟

فصاح فافيلو ، وهو يراقب في ريبة وجه محدثه القاتم المكفهر :

— أن أذهب ؟

وفكر :

— إنه لماكر ، هذا !

ومن ثم دبّ الهياج إليه من جديد :

— كلا ، إن هذا لمستحيل حـقاً . . . إنك تعرف جيداً أن الحب قيد لا يمكن تحطيمه . تصور لحظة أني ذهبت ... ولودكا ؟ .. الامَ ستصير إذن ، ههنا ، من دوني ؟ هل يوجد على وجه البسيطة كائن أجمل منها ، قل ؟

ـ خذها معك !

ـ إنها لن تقبل ذلك بكل تأكيد .

وعندئذ ضرب المائدة بقبضة يده بعنف عظيم ، وقد علت محياه سيماء الكآبة ، حتى إن الزجاجات رنت بصدى حزين .

قال :

ـ كم مرة قلت لها : « إصغي ، يا لودكا ، فلنذهب من هذا المكان ولنقطن مدينة كبيرة ... لسوف تدخلين في مؤسسة أنيقة يرتادها قوم أغنياء ، وأكون أنا رجلك الذي يسهر عليك » . ولكنها أجابتني دائماً : « كلا ، ليس هذا من شأني . هناك ، ربما أكون العاشرة ، بينا أنا الأولى ههنا . إني أملك كرامة مهنتي ، وأتمسك بها . ثم إنك تعرف ، على أية حال . . . » . وليس ما هو أكثر صحة من ذلك .

فأجاب تيونوف في تماهل :

ـ كل هذا سفاسف ليس غير ...

فنظر فافيلو إليه خائب الآمال ، وهزّ رأسه متشككاً .

قال أخيراً :

ـ طمئني على أية حال . هل تدرك ما فعلتُ تواً وتقدره ؟

فسأله تيونوف :

ـ لقد وشيت بي إلى مفوض الشرطة ؟ ليس ! لاتهتم لذلك ياجميلي ، فليس هناك ما أخشاه ، لأني لم أسمح قط لنفسي بأدنى إهمال . فلنكفّ عن الحديث في هذا الموضوع .

صاح فافيلو وهو يصب الفودكا في كأسه :

ـ يا لك من نفس كبيرة ! فلنشرب نخب الصداقة ! آه ! إني لأحسُّ أني لم أعد سيد عواطفي مطلقاً .

وشربا ، وتعانقا ، وجفف تيونوف شفتيه ، ومن ثم استرسلا في

الحديث بلهجة هادئة ، مشبعة بالصداقة .

قال الأعور في تماهل ، وازناً كلاً من كلماته :

ـ جرّب أن تفهمني . إن قلبك يترنح في إعياء ، مثل القبان ، يخدع كل الناس ، وأنت في المحل الأول منهم . أليس هذا صحيحاً ؟ ذلك أن الأساس ينقصك ، يا صغيري ! ذلك أنك عاجز عن الارتباط بأي شيء كان !

فقال فافيلو مؤكداً ، وهو يهز رأسه في عنف :

ـ هذا صحيح ! هذا صحيح ، وربي ! إن فيّ كل شيء ...

ـ ما عدا المحور ! إنك لا تدري أين تلقي مراسيك ، ولا كيف تتوجه . ونحن جميعاً سواء ، لا ننفع شيئاً . ومهما استدرنا في مختلف الاتجاهات ، فليس هناك ما نصنعه : إننا لا نملك أخلاقاً ، ولا استقامة ، ونحن قمينون بأن نبتاع كل شيء ونبيعه ، حتى المسيح نفسه ! وفي الحقيقة إن نفسنا هي بضاعتنا الوحيدة . ولكننا نحن نعيش بصورة يائسة ، ندنس الأرض في شبابنا ، ونجرب أن نربح السماء في شيخوختنا ، فنحج ، ونختبيء في الأديرة .

ـ هذا صحيح ! ياله من بؤس !

ـ عندنا يشبه القانون جواداً يمكن أن نديره في كل الاتجاهات . إليك أين نحن ، أيها الأخ الصغير .

إن كلمة تيونوف السلسلة تدوّم حول ذلك الطائش مثل شريط عريض تارة ، ضيق كالخيط تارة أخرى ، توقظ انتباهه وتحمل السلام إلى قلبه . بل لقد خيل إليه طوال لحظة قصيرة أن الجدال لن يفيد شيئاً ، فهذا الأعور ذو الأسنان السود لن يستطيع أن ينازعه مجده في الضاحية ، لأنه لا يعنى بذلك أو يفكر فيه مطلقاً . ويتأمل فافيلو لحيته القصيرة المنفصلة إلى جزئين ، المرتجفة من حين لآخر ، والغضون الدقيقة

التي تحدد صدغيه ، فيعظم اليقين فيه أكثر من أي وقت مضى بأنه يواجه إنساناً استثنائياً يرتفع فوق مستوى عامة البشر .

قال تيونوف ، مغرقاً أنظاره في عيني فافيلو :

— إسمع ، لقد وشيت بي تواً . .

فيرفع فافيلو كتفيه وكأنه يحس برودة تجتاحه .

— لقد ضللت سبيلك معي ، لأني لست ، ولم أكن قط ، مشاغباً ولكن ... — وعلا صوته الآمر لدى هذه الكلمات - ولكن ... سوف أقول لك بكل صراحة ما أفكر فيه .. إن روسيا جديدة تنبثق . إنها تولد من رمادها ، هذا يعني بكل بساطة أن حب الوطن ، حب الأرض الروسية العزيزة ، يستيقظ في الشعب .

ويصب الأعور لنفسه كأساً من الفودكا ، وهو يطرف بعينه ، ويبتلعها دفعة واحدة ، ومن ثم يصب كأساً أخرى .

قال فافيلو ، وقد بدا عليه اهتمام يقرب من درجة الاعجاب :

— لشد ما تستطيع أن تشرب !

فأجاب الحكيم في هدوء :

— إني أعرف أن أشرب مادام هناك شيء للشرب ، وعندما لا يعود هناك ما يُشرب ، فاني أكف عنه إذن ..

وأثار هذا الكلام قهقهة عظيمة من فافيلو الذي ضرب الأرض بقدميه ، وهز رأسه ، وصاح :

— إن هذا لقول حسن !

وظلا حتى حلول الظلام جالسين متجاورين ، يحس فافيلو السعادة في رفقة أذكى رجل على وجه البسيطة ولكنه كان يشعر دائماً ، وهو يقدم لتيونوف احتراماً مبالغاً فيه ، ببعض الضيق لدى ذكرى الوشاية التي أقدم عليها هذا الصباح !

كان يفكر :

ـــ إنه لا يُلمِّح إلى ذلك حتى ولا بكلمة واحدة ، هذا الشيطان الأعور ! ولكنه يترقّب ، وينتظر من دون ريب اللحظة التي يذلني فيها أمام الجميع .

وغلى الدم في أوردته لدى هذه الفكرة ، فتمخط ، موسعاً منخريه مثل جواد أصيل ، يحسُّ في غموض فاجعة عتيدة ، فينهض بقفزة واحدة ويندفع نحو « الجنة » كي يرى لودكا ، صديقة قلبه ومستودع أحزانه .

٥

كانت لودكا ، البالغة الثالثة والعشرين من سنها ، الفارعة القـــامة ، الممتلئة الجسد ، تتحلى بصدر ناهد رائع ، ووجه مدور حسن ، وعينين رماديتين ضاربتين إلى الزرقة ، بريئتين ومثيرتين في وقت واحد ، وشعر كستنائي غزير أملس ، مفروق عند منتصف رأسها بخط مستقيم تماماً ، يسقط على عنقها في ضفيرة ثقيلة مجدولة بعناية فائقة . وكان ثقل هـذا الشعر العظيم البهاء يجبر لودكا على تيبيس عنقها قليلاً ، الأمر الذي يسبغ عليها شيئاً من الكبرياء والأنفة والصلف . وكان أنفها الضيق ينتهي بحد مدبب ، يلوح دقيقاً جداً في ملء محياها ، بينا الفم الصغير يغوي بارتسام الشفتين الجلي الواضح ، هـاتين الشفتين اللتين تمـرّ لودكا عليهما بطرف لسانها دون انقطاع ، فتبدوان هكذا طريتين جذابتين دائماً . أما عيناها فبراقتان مشعتان أبداً ، تطلّ منها ابتسامة لطيفة تندّ عن امرأة راضية عن الحياة ، تعرف كيف تقدر نفسها بقيمتها الحقيقية .

إن مشيتها رخوة متأرجحة ، فاذا جلست انحنى مذمرها العبل إلى الأمام قليلاً ، مثله مثل شجرة تنعطف تحت ثقل أثمارها البـــاهظة ، فينبعث عن هذه الحركة غير الواعية ما لست تدري من الشهوانية والاغواء . وكان جوكوف ، معلم المدرسة المكتئب السيماء ، السكران أبداً ، يهتف بصوت حاد كلما وقعت أنظاره اللاهبة رغبة واشتهاء على هـذا التأرجح الأبدي الذي يخضع جسد لودكا له :

ـــ كفى ، أيتها الشيطانة ! إهـدئي قليلاً إذن ، فانك تضايقينني بطريقتك هذه في الاهتزاز ! كفى ، أقول لك !

كان الطبيب المرح رياخين يدعوها ، معجباً بها أعظم الاعجاب ، « الكرزة بالقشدة » ؛ ولكنه لم يك يلمسها أبداً ، مؤثراً عليها روزا ، الفتاة الناحلة الرشيقة التي لا تكل عن الغناء ، والتي تشبه كلباً أسود صغيراً جداً جداً . كانت روزا ، هذه الفتاة المدللة المتقلبة الأهواء ، برأسها المكسوة بجدائل سمر ، وبما نبت على شفتها العليا من وبر غزير ، وبما ازدان به فمها من أسنان بيض ، ناصعة حتى أتبهر الأبصار ، تعرف كيف تجبر الطبيب رياخين على احترامها ؛ إنها تدعوه « هيكلي العظمي الأخضر الصغير » ، فهي تحب بصورة عامة أن تطلق الألقاب على الجميع ، أصدقائها وأعدائها على حد سواء .

أما الفتاة الثالثة ، باشا الصغيرة الصهباء ، الصموت بالأحرى ، فهي تؤثر النوم على سائر ملذات الدنيا ! إن عواء مشؤوماً طويلاً ينطلق من فمها الكبير ذي الاسنان البارزة غير المنتظمة حين تتثاءب ، بينا عيناها الخضراوان العكرتان تستقران على الناس والأشياء كسيرتين حيناً ، مزدريتين حيناً آخر . وكان شيتيخ ، الغفير العملاق ، هو الوحيد الذي عرف كيف يملي عليها نوعاً من الاحترام الذي يضاعفه الفضول ... إنها تحب الرجال الأقوياء الذين يذكرونها بأبطال حكايات الجنيات والأساطير .

أما الرئيسة ، فيليسيتا الجميلة ، فقد ناهزت الأربعين من العمر . إنها تعامل بناتها المجدات في لطف كثير ، وتحمي حبهن وتشجعه ، تتدخل في خصوماتهن ، وتعرف كيف تصلح ذات البين فيما بينهن في رعاية أمومية تقريباً . إن محياها لطيف ، بل طيب أيضاً ، وابتسامة أبدية ، غامضة ، متبدلة التعبير ، تسود أبداً في عينيها اللتين تلوحان كأنهما غارقتان على الدوام في أبخرة ضئيلة من النشوة . وإنها لتعرف ، عند الحاجة ، كيف ترقص عدداً كبيراً من الرقصات الروسية وكيف تعزف على القيثارة كفنانة حقيقية ، وكيف تغني أناشيد الحب والهوى في اندفاع وحمية .

إنّ صوتها المرن ، المتصنع العذوبة والحلاوة ، ليأخذ بألباب المستمعين بالرغم من بعده عن الجمال والطلاوة ؛ إن ذلك الصوت يخدر في هؤلاء المستمعين كل المشاعر ، أللهم إلا شعوراً واحداً فقط . وفيليسيتا مغرمة أيضاً بالتسريحات الجميلة ، كلفة بآخر ما توصل إليه فن التزيين من أزياء وألوان ، وهي مشتركة منذ زمن طويل في مجلة للأزياء . ولقد كانت تتلو دون هدنة ، إذا ما سكرت ، أشعاراً حفظتها منذ الأيام التي كانت تواظب على المدرسة فيها ، بينا أعمالها لاتكف عن الازدهار بالاضافة إلى ذلك ، تقول الاشاعات إن لها حساباً جارياً في المصرف وصندوقاً للتوفير مكتنزاً حتى درجة بعيدة .

عندما اقترب فافيلو من « الجنـة » ، لطم شيتيخ ، الرجل القرد ، الباب الحديدي الصغير بقدمه لطمة حاذقة ، ففتح هذا الباب في الحال .

هتف به فافيلو محيياً :

ــ طبت مساء ، أيها الشيطان الشرير !

وألقى نظرة سريعة على الذراعين الهائلتين اللتـين يدسهما البواب في جيبي معطفه .

أجاب شيتيخ في لا مبالاة :

ــ طاب مساؤك ، أيها الأبله !

لقد جرب فافيلو مرتـين أن يصارع هذا العملاق ، ولكنه مُني في تينك المرتين بفشل دامٍ ، الأمر الذي يجعله ينضح بخبث مرير كلما وجد نفسه في حضور قاهره العملاق .

دخل فافيلو ، دون أن يكـثر من الـكلام ، إلى غرفة لودكا ، فتقدمت المرأة إلى استقباله كما هي عادتها دائماً ، تترنح وتمر بلسانها على شفتيها ، وقد أظلمت عينها الرمادية المزرقة ، وفتحت ذراعيها كي تتلقاه فيها .

قالت بصوت متكاسل ، وقد افترت شفتاها عن ابتسامة مشبوهة :

— آه ! يا عزيزي ، لقد تعبت من انتظارك .

فردَّ فافيلو عليها ، باسر الوجه ، هارب النظرة :

— أكنت تنتظرينني حقاً ؟ ولكني جئت قبل البارحة ...

فشدَّت بنفسها إلى صدره الهرقلي ، وغمرته بأنفاسها الحارة قال :

— إنك لاتخلطين بيني وبين رجل آخر ، صدفة ؟

فقالت في دهشة :

— أنت ! أخلط بينك وبين رجل آخر !

وبعد أن انتهيـا من الخصام ، قدمت لودكا جعة إلى عشيقها . لكن فافيلو طفق يزمجر باستمرار ، بينا هو يرتاح بين ذراعي المرأة الطريتين :

— لقد بلغتُ الثلاثين ، وبالرغم من قوتي ، فاني لا أنجح في العثور على زاوية ألجأ إليها من المضايقات ..

فاقترحت لودكا عليه ، وهي تُنهض جذعها :

— ولكن ما عليك إلا أن تأتي إليَّ ، في أي وقت تشاء .

فقطب فافيلو حاجبيه ، وهزَّ رأسه وقال بصوت حزين :

— أتحسبين ؟ أنتن الأخريات ، النساء ، مهما بـــلغ عددكن ، فانكن لاتسـاوين خمسة كوبيكات بالنسبة إليَّ ... كل كومة منكن ! اسوف أظل جائعاً أبداً ، معك أو من دونك !

— أواه ! ياالخبيث ! إذن فأنا لا أطعمك جيـــداً ؟ لا أعطيك كل ما أستطيع ؟

— ... ليست هذه هي المشكلة ، أيتها البلهاء ! إني أحدثك عن نفسي ! مالك ، ماالذي يساويه عندي ؟

كانا يثرثران في بطء وتكاسل ، لايجهدان في الدفاع عن أفـكارهما ومطامحها ، لأنهما اعتـادا منذ زمن طويل عـــدم التفاهم القـائم بينهما .

سألت لودكا، متأرجحة في فتور :

— ولكن ماذا تريد ؟ عما تبحث أخيراً ؟

فأغلق فافيلو عينيه كي لا يرى جسد المرأة المثير، وفخذيها العاريتين، المدورتين والبيضاوين مثل فجلتين طازجتين.

غمغم، وكأنه يتحدث من خلال ضباب كثيف :

— أتريدين أن تعرفي عما أبحث ؟ إني أبحث عن طريقي، إني أريد أخيراً أن أجد درباً كبيرة.

فأجابت لودكا، وعلى شفتيها ابتسامة كسول :

— إذهب إذن ! فما الذي يمنعك من الذهاب ...

— ولكن الناس جميعاً ! وأنت أيضاً، أنت بصورة خاصة !

كانت الغرفة الدافئة كثيراً تعبق برائحة الثياب المغسولة حديثاً، ودهون الجلد، والجعة، والمرأة. وكانت مصاريع النوافذ مقفلة كالعادة، وذبابات كبيرة سود تدوي، مستوحشة، في حرارة المساء الخانقة، وقنديل من الزجاج الأزرق يحترق مطقطقاً في إحدى الزوايا، أمام أيقونة عذراء قازان، شبيهاً بعين ضخمة تطرف باستمرار بتأثير الخوف. إن جسدين ذابلين دافئين، مغمورين بالعرق، يتحركان في نصف الظل القيلولي، تحت أصداء الكلمات التي تتشابك ببطء، أشبه بشرارات أخيرة تنطلق من الجمرة التي انطفأت في التو واللحظة.

ولكن فافيلو يحضر إلى مخدع لودكا، عادة، عاري الرأس بأناقة عظيمة، مفتوح القميص على الصدر، ملتهب العينين جرأة وشهوة لا يروى لها غليل، قد تجسد فيه كل ما في الكون من قلق واضطراب نفساني.

إنه يهتف، وهو يضرب صدره بطريقته الخاصة :

— لودكا ! إني شيئك، يا لودكا ! خذيني، املكيني، يا حيواني المتوحشة !

وعندئذ تتضوأ عينا المرأة بشعلات خضر ، فتنحني إلى الامام ، وتتأرجح، وتشحد بصوت أخن غنائي ، مثل فقيرة معدمة ، متيقنة سلفاً من أنها ستتلقى صدقة غنية :

— ياحبيبي ! تعال ، يا أخي الصغير المنسي من الناس جميعاً . . . تعال كي ألاطفك هكذا وأمسح عليك ، كي أقبلك وأعانقك ، ياصغيري المهجور المسكين ...

ويهتف فافيلو ، وهو يغوص جسداً وروحاً في نشوة لامتناهية :

— لودكا ! خذي قلبي ، يا لودكا. خذيه ، لأنه يخنقني . آه ! إن النَفسَ يُعوزني ...

إنه لجميل بصورة خاصة في مثل هذه اللحظات ، وهو يعرف ذلك أفضل من أي إنسان آخر . إنه يمتدح رشاقة جسده القوي ومرونته ، هذا الجسد الذي يحيط به ذراعا المرأة العطرتان ، أما اللهيب الأسيف المحضون بعد في عينيه ، فانه يشمل الشهوة كلها في لودكا ، ومع الشهوة تلك الشفقة الأنثوية الفائقة العذوبة .

ويزمجر الرجل :

— إني في حاجة إلى تنفس هواء الفضاء العريض ! لودكا ، أعطيني الحرية ، يا لودكا !

ويخال أنه مضطهد حقاً ، بينا ترى عشيقته إليه في هوى وحب عظيمين. إن عبرات تبرق عند حفاف أهدابه ، فتلفه بأنفاسها اللاهبة ، وتضمه إليها مثلما تعانق سحابة رطبة الأرض المنهوكة بالحرارة الحارقة .

وفي الأحايين . بعد هذا المشهد العاطفي ، يرفع فافيلو بلطف رأس المرأة ويتطلع طويلاً ، في فضول ، إلى محياها الشاحب المتعب . إن عيني لودكا مغلقتان ، وشفتيها ما برحتا تحتفظان بارتعاش شهواني . إن المرء ليخال أنه يسمع ضربات قلبها . وأن شيئاً حياً يخفق على عنقها

الطويل ، هناك ، فوق الأذن قليلاً .

وعندئذ يخلص الرجل فخذيه من عناقها في عناية فائقة . إن رغبة مفاجئة في الفرار بأقصى سرعة ، دون أن يوقظ رفيقته ، تجتاحه وتملك عليه مشاعره جميعاً .

وإنه لينجح في ذلك أحياناً ، ولكن المرأة غالباً ما تسترد وعيها لدى أول حركة يقوم بها . فتجتاز جسدها السموري عندئذ قشعريرة مقتضبة، فتنهض وتجلس على السرير ، صارمة أو متوسلة .

إنها تسأل :

— ماذا هناك ؟

فيجيب باختصار ، مستديراً بعينيه عنها :

— إني ذاهب !

فتتكوم على نفسها ، وترمقه طويلاً وهو يرتدي ثيابه .

وتسأل أخيراً :

— متى ستعود ؟

— لسوف تعرفين ذلك جيداً حين أصير هنا .

إيه ! حسناً ، إلى اللقاء .

ولكن هذه نقمة رهيبة تتسلط عليه ، وهو على وشك الرحيل ، وحقد مفاجيء يدفعه إلى قرص وتعذيب المرأة الوحيدة التي تحبه باخلاص، دون غاية أو مصلحة ، فيصر بأسنانه ، ويطلق من بينها كلمات جافية ، قاسية مثل لسع السياط ، وجملاً متكسرة لاسبيل إلى إدراكها .

— آه ! أيتها الشيطانة !.. كل هذا من جريرتك . .من دونك. . . يا لطيف ! .. من دونك ..

وإنها لتضحك في البدء ، وتطلق صيحات مرحة مسرورة :

— دعني ... لا تدغدغني .

ولكن حين يشرع فافيلو بضربها ، وقد أثاره ضحكها ، وصيحاتها ، ومقاومتها ، تفلت لودكا منه ، وتركض حتى النافذة ، وتفتح مصراعيها الخشبيين ، وتروح تنادي بملء صوتها :

— كوسما بتروفيتش ؟

وعندئذ ينبثق شيتيخ الهائل في الغرفة ملبياً نداءها ، ولكنه لا يكاد يبدو حتى يجد التفاهم تاماً بين الفريقين . إن الثنائي الجميل يجلس على حافة السرير ، وقد عُقدت أسباب الصلح بين طرفيه من جديد ، بينما تفتر شفتا المرأة عن ابتسامة ساذجة لا تترك مجالاً للسخط والحفيظة ، وتتوجه إلى الخفير بقولها :

— أوه ! إني أسألك المعذرة ، يا كوسما بتروفيتش ! إن ذلك لسخيف جداً ! إني أتسلى ، وأرتكب الحماقات ... خذ قدحاً من الجعة ، هل تريد ؟ لا تنزعج ... هذا بعض الخيار المملح ، واللحم المقدد أيضاً ...

ويملأ شيتيخ حلقه بالجعة والفودكا دون أن ينبس ببنت شفة وهو يقيس فافيلو بأنظاره أثناء ذلك ، ثم يتقهقر ، شاهقاً بصوت رنان ، ويجتاز العتبة دون أن تغادر أنظاره المحرض على تلك الفضيحة . وعندما يغلق الباب وراءه ، يتمتم فافيلو من بين أسنانه ، وقد أعياه الانفعال الذي اجتاحه :

- أيتها البلهاء ! إنك لا تفهمين قط مزاحي .

أما هي فتلعق شفتيها ، ضاحكة متدللة أكثر منها في أي وقت آخر ، وتقبله ، وتغمس نظرتها المثيرة في العينين اللتين تحرقانها .

وحين يتحدث فافيلو عن تيونوف ويأتي على ذكر أقواله ، تأخذ لودكا تتثاءب في ضجر ، لا مبالية بكل ما يقال لها في هذا الشأن . لكنها تضيف دائماً على أية حال :

— إن نيقولاس موظف البرق يرى ، هو الآخر ، أن أوار ثوره سيشتعل عما قريب إنه يكره الألمانيين .مثل تيونوف ، لأنهم وحدهم المسؤولون عن كل شيء .

ويزمجر فافيلو :

— يا المحرضين السخفاء ! إنهم يعيشون بصورة حسنة كثيراً ، وهم بدينون كثيراً جداً ... هذا ما تتألمون منه !

فاقترحت لودكا ، دون حماسة :

— إذا أردت أن أتحدث عن ذلك إلى رئيس الشرطة ؟ .

— وماذا ستقولين له ؟

ولكن المرأة تضفر جديلتها أثناء ذلك ، وتبرز صدرها الجذاب الناهد ، ومن ثم تجيب بقولها :

— أنا ، إني لا أدري عن ذلك شيئاً . قل لي ما تريد ، فذلك سواء عندي .

ويفكر فافيلو برهة ، ومن ثم يباعد ما بين ذراعيه ، ويتركها تسقطان على جانبي جسده في عجز وحيرة .

ويقول :

— كلا ، من الخير أن لا ، لا تتدخلي فيما لا يعنيك . وبالاضافة ، فاني لا أعنى ، أنا الآخر ، بذلك البتة .

ومن ثم يضيف ، وهو يتنهد :

— من يدري ، على أية حال ! لعل الأعور على حق عندما يتحدث عن ثورة عتيدة .. وبالرغم من أن سائر هذه الحوادث ليس لها رأس أو ذنب ، فلن أستاء بصورة عامة إذا حدثت ثورة صغيرة . إني صادق فيما أقول ! فأنا أضجر بصورة فظيعة ؛ إني لا أدري ما أصنع بقواي ؛ إني أختنق !

وتقول لودكا مستهزئة ، وهي تضم فافيلو بين ذراعيها :

— أنظر إلى هذا الثوروي الصغير !

ويصيح فافيلو ملتهباً ، وقد رمى برأسه إلى الخلف في حركة مفعمة بالكبرياء :

— يا لطيف ! .. إذن فسوف أريك عندئذ ما أنا قمين بفعله ! كلا ، إنك لا تستطيعين أن تعرفي أي إنسان أنا !..

٦

في ذات يوم ، قبيل القيلولة ، كانت نزيلات فيليستيا الثلاث يتنزهن في الحديقة ، ولودكا وروزا تتجولان في الممرات غدواً ورواحاً ، وتتسللان أحياناً بين شجيرات العليق المتوحشة من جديد ، بينا باشا تقطف الثمار الموجودة بغزارة في كل مكان .

كانت روزا تتلو ، في حمية ، أشعاراً بذيئة ، في حين طفقت لودكا تقهقه ملء شدقيها ، وتردد السؤال نفسه بين الفينة والفينة :

— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

ومن ثم تسترسل ، مدهوشة متعجبة :

— ولكن ، أية ذاكرة لك ! أنا لا أستطيع أبداً أن أحفظ كل هذه الأشياء ...

فأوضحت روزا الأمور لها :

— ذلك أنه ينشئني مثل الببغاء . إنه يجلسني على ركبتيه ، ويمسك بأذني ، ويروح يتلو علي فماً لفم إن جاز التعبير ، وعيناه في عيني مباشرة .

— إن هؤلاء الأطباء اللعينين يعرفون كل شيء ، وليس من لغز يعصى عليهم . وصاحبك رياخين ، من بينهم ، لا يتراجع أمام أي شيء كان ...

— أي شيء ! إسمعي ، إليك أبياتاً أخرى ...

وتنطلق روزا بالتلاوة ، متلذذة ، مغرقة في البذاءة أكثر فأكثر .

وإذ مرتا في تلك اللحظة أمام باشا ، ألقت الفتاة الصهباء عليهما نظرة معنفة .

صاحت :

ـ يالكما من فاجرتين ! ياإلهي !

فأجابتها روزا في عنف ، وكأنها ترميها بحصى :

ـ ابتلعي ثمارك واخرسي !

وقالت لودكا في تمهل ، حالمة أبداً :

ـ بلى ، صحيح أنه لايخاف شيئاً أو إنساناً مطلقاً ، طبيبك هذا ! إنه لايحترم حتى ولا العذراء القديسة أو الملائكة .

كانت الدبابير وأسراب النحل تدوي فوق أشجار التوت ، وغربان صغيرة جداً تقفز دون انقطاع بين أوراق الصفصاف الأبيض المتكاثفة ، ورنين ناقوس يدفدف من المدينة الحزينة يدعو المؤمنين إلى خدمة المساء ، وصفير حاد ، طويل ومنتظم ، يتردد من حين لآخر قادماً من مكان ما ، منبعثاً من آلة خفية عن العيان ، وطفل يعول ، وضوضاء المداريس تسمع على ضفاف النهر .

سألت لودكا صديقتها ، خافضة الصوت :

ـ أتحبين رائحة الفنول ؟

لكن روزا استرسلت في حديثها ، بكبرياء ، دون أن تردّ على سؤال صاحبتها :

ـ كل شيء سواء عنده ، وهو لايخاف شيئاً على الاطلاق . اسمعي ، مثلاً ...

وبعد أن تلتفت عن يمين وعن يسار بدأت تقول بصوت خفضته أكثر من ذي قبل :

ـ « إذ استيقظ الله الطيب ، ذات صباح جميل ... » ولكن

انظري ، يالودكا ، هذا سيما يتجسس علينا !

استدارت لودكا في الاتجاه المشار إليه ، وهي تطرف بعينيها . قالت :

ــ بلى إنه سيما بعينه . هو الآخر ينظم الأشعار .

فصاحت روزا ، شامخة برأسها في احتقار عظيم :

ــ حقاً ! أتعتقدين أن مثل هذا المجنون يستطيع أن ينظم الشعر ؟

ــ ماذا لو سعينا إليه . هل تريدين ؟

فوافقت روزا :

ــ بلي، كي نضحك قليلاً !

كان سيما يقف في فرجة مفتوحة في السور ، يبدو كأنه مسحور بقوة علية ، وهو يمسك بصنارة صيد في يده ، بينا عيناه الكبيرتان اللتان لايسبر غورهما تشخصان بثبات إلى الفتاتين ، مثلما يرمق الضرير الشمس دون أن يطرف جفناه .

اقتربت لودكا وروزا منه ، وعلى شفاههما ابتسامة تصنع الوداعة ، وأغصان العليق والأعشاب العالية تتعلق بثوبيهما ، فتنتزع الصديقتان نفسيهما من العائقات التي تعترضهما انتزاعاً ، وتنحنيان تارة عن يمين ، وتارة عن شمال ، وتنقلبان بجسديهما إلى الخلف حيناً ، كي تنتصبا في الحال ، وهما تملآن الجو أثناء ذلك بصيحاتهما الحادة المكبوتة .

سألت لودكا في لطف :

ــ أنت ذاهب إلى صيد السمك ؟

فأجاب سيما دون أن يتحرك ، منتصباً باستقامة مثل الشمعة :

ــ نعم .

ــ أفليس الوقت باكراً بعد قليلاً ؟

فأوضح الشاب ، وعيناه الفارغتان معلقتان بمحيا لودكا دون انقطاع :

— هذا هو بالضبط الحين الذي تعضّ السمكة فيه الصنارة أفضل منها في أي حين آخر .

سألت روزا ، وهي تقرص صديقتها :

— هل سمعت الأبيات التي كنت اتلوها قبل برهة وجيزة ؟

فأشار سيا برأسه مؤكداً .

قالت الفتاة السمراء ، وفي عينيها نظرة نبيئة :

—إنها أفضل بكثير من أشعارك ، أليس كذلك ؟

فأجاب سيا بصوت مخفوض جداً :

— كلا !

فثارت ثائرة روزا ، وصاحت :

— آه ! هذا مثلاً : ياللتطاول ! ولكن قل ، إنك لاتعرف كيف تنظم الأشعار أنت ! ميا ، ميا ، ميا ، هـذا كل ماتعرف أن تصنع ، أي شيء قليل جداً في آخر تحليل ، كي لا أقول إنه صفر لا أكثر !

فقال سيا ، ملتفتاً نحو لودكا :

— إني أريد أن تتردد أبياتي مثل صلاة مرفوعة إلى السماء .

كان البريق السفيه الذي يلمع في عيني هذه المرأة المبتذلة ينطفىء كلما وقعت أبصارها على سيا ، فتتمدد حدقتاها كثيراً ، ويتبدل لونها ، وتجمدان تماماً . إن نوعاً من القشعريرة تنتابها في جوف معدتها ، فتمر بلسانها على شفتيها بعصبية ، ويجتاح جسدها بأسره اضطراب لم تجربه من قبل أبداً .

وفي ذلك المساء ، كان هذا الاضطراب أشد منه عادة .

كانت تحاول أن تقنع نفسها : « ما أشد قباحته ! » . فتفصّل في ذهنها تقاطيع وجه سيما الشاحب المهزول ، وأوصال جسده المقوس الطويل الذراعين جداً ، هاتين الذراعين المتهدلتين مثل سوطين مديدين على جانبي جسده ، ومفاصل يديه الجافتين فكأنهما قدّتا من خشب صلد لكن عينيها كانتا تضيعان في عيني سيما ، تغوصان في مياههما النقية ، المغناطيسية ، وتغرقان . وكانت نفس الجاذبية الراعشة تدفعها دائماً نحو هذا الكائن المعيب ، فهي رغبة لاتقاوم في أن تلمسه ، أو تمسك بيده على الأقل .

لقد تلا سيما عليها من قبل أشعاره في مناسبات عديدة ، فكانت لودكا تحسّ ، حين تصغي إلى الأبيات العذبة اللاهبة ، شيئاً من الاضطراب ، بل من السخط ، يجتاحها ويطبق فمها . ولكنها لم تك تتوانى ، بالرغم من ذلك ، عن سؤاله دائماً :

ـ هل نظمت أشعاراً جديدة ، ياسيما ؟ اليوم أيضاً ؟ ...

وفي هذه المرة أيضاً أجاب سيما على السؤال التقليدي :

ـ نعم .

وأطرق برأسه .

صاحت روزا ، وهي ترميها بنظرة ساخرة :

ـ آه : ياللشيطان ! إني أنجو بنفسي إذن ! اسمعي ، يالودكا ، قبليه إذن . رافقيه في نزهة !

وانطلقت بين الأشجار وهي مغرقة في الضحك ، وسرعان ماتردد صوتها من بعيد ، يتلو أبياتاً بذيئة أخرى .

اقترحت لودكا ، وهي تصعّد زفرة ضئيلة :

ـ حسناً ! قل لي شيئاً ، ياسيما !

فرفع سيما رأسه ، وابتسم لها في امتنان ، وبدت على خديه بقع

زاهرة ، بينا التمعت عيناه المكرتان ببريق نديان أما هي فلم تتمالك أن تتراجع القهقرى خطوة قصيرة :

تلاسيما :

أيتهـا العذراء القديسة ،
يا أم مخلصنـا ،
أخفضي نظرتك الوديعة
نحو أبنائك البائسين .

وارتجف ذقن سيما . كان يتـلو بصوت بطيء واضح النبرات ، يترقب لودكا خفية ، جامداً ، مستنداً بظهره إلى السور ، مثل شحاد خجول . أما هي فكانت ترافق نظم الشعر بحركة موقعة من رأسها ، وقد قطبت حاجبيها ، بينا اعتمدت إلى السور بيدها اليمنى ، وراحت تعبث بيدهـا اليسرى بأحد أزرار قميصها .

في الأكواخ المظلمة أطفال صغار
يموتون من الجوع والبرودة .
إن أدواء رهيبة تنخر أجسادهم ،
والموت القـاسي يطفئ أعينهم ،
وما أندر ما تأتي مداعبة أم حنون ،
فتفرح قلب الصغير البـائس .
إن الملاطفـة لن تأتي
إلا عندمـا يصبح ميتـاً ،
وهو لن يُحـبَّ
إلا على طريق المقبرة .

صاحت لودكا بحركة تراجع ندّت عن جسدها :

— كفى !

فسكت سيما ، مكتئباً ، مبلبل الخاطر . لقد خيل إليه أن لودكا قد غضبت ، فقد شحب لونها في الحقيقة ، وأظلمت عيناها واتخذتا بريقاً أزرق غامقاً ، وطفقت تعض شفتيها .

جرب سيما ، وعليه سيماء المذنب المأخوذ بجريرته ، أن يوضح لها :

— ذلك أن ليزا ، ابنة آل ستريلتزوف الصغيرة ، توفيت حديثاً . لقد كانت مريضة جداً ، ملازمة للفراش منذ عهد بعيد ، وإذ كانت أمها تقوم بخدمة البيت عند بعض البورجوازيين ، فقد كانت تهتف بها على الدوام : « آه لشد ما اكتفيت من كل هذا ... إنك أنت التي تمنعينني عن العمل ، عن كسب حياتي . . » . والآن ، بعد أن ماتت الصغيرة المسكينة ، ثلاثة أيام ، فان الأم لا تكف عن البكاء .

قالت لودكا بصوت واطىء :

— إني أفهمها ، أنا الأخرى فقدت أطفالاً .. الطفلين اللذين رزقتهما ...

فقال سيما :

— آه ! ...

واصطفقت أهدابه .

تطلعت لودكا فيما حولها . إن قيلولة زاهرة تجتاح الحديقة ، والشمس القرمزية تلمع على الأشجار المرتدية ببؤس كثير أوراقها الخريفية .

وعلى حين غرة ، أمرت المرأة سيما ، هاتفة به :

— تعال !

فوضع الشاب صنارته أرضاً ، وتقدم خائفاً ، ناقلاً خطواته في خراقة وحرج . أما لودكا فقد انطلقت مسرعة إلى الأمام منه ، محنية الظهر كأنها تختفي عن الأنظار واجتذبت سيما إلى زاوية مظلمة من الحديقة ، ودلته على كومة من الحشائش الجافة .

همست :

ـ إجلس .

ولم يكد يجلس حتى أحاطت عنقه بذراعيها ، وسألته بلهفة :

ـ إنك تحبني ، يا سيما ، أليس كذلك ؟ قل لي إن كنت تحبني ؟

فأجاب سيما ، مرتجفاً :

ـ بلى، إني أحبك .

ـ حسناً ! أنا أيضاً ، إني أحبك .

فتراجع عنها ، وألقاها بنظرة مفعمة رعباً .

قال :

ـ هذا ليس صحيحاً ...

ـ بلى ، بلى ، أقسم لك على ذلك ، بإلهي ! إذا أردت ، فسوف أرسم إشارة الصليب ، وعندئذ تصدقني .

هزّ نشيج عنيف جسد سيما ، فاندفع نحو لودكا ، وأخفى رأسه في حجرها ، وطفق يغمغم ، متلعثماً ، بصوت يلهث غبطة وسعادة :

ـ لقد انقضى زمن طويل منذ أحببتك ، أنا !

ودفعت لودكا الرأس الأشعث ، وهمست بدورها :

ـ ولكن تعال إذن ... تعال سريعاً ...

وإذ لم يفهم سيما منها ، فقد أمسكت بمعصمه بقسوة ، وبحركة متوحشة أعطته نفسها ...

ومن ثم قالت له بنغمة هادئة ، مختلفة عن لهجتها قبل حين :

ـ إيه ! حسناً ، هكذا ... الآن ، إنك تستطيع أن تأتي لرؤيتي ماشئت ، أليس كذلك ؟ سأقول للغفير أن يسمح لك بالدخول.

ونحته عنها بحركة من مرفقها ، ومن ثم نهضت ، قوية رائعة .

سألته ، وهي تتفحص محياه السكران ، وسيماءه المذهولة :

— أتعرف أن لي زوجاً ؟

فقال متردداً :

— بلى ، إني أعرف .

— إن لي عاشقاً أيضاً .

فابتسم ، مرتبكاً ، وترنح دون أن يجيب .

فسألت ،وعليها دلائل الفضول :

— إيه ! حسناً ، كيف سنفعل الآن ؟

فقال :

— سأقول له كل شيء . ،

فانتفضت لودكا ، ومن ثم انتصبت من جديد شامخة العود .

قالت :

— ماذا ستقول له ؟ ولمن ؟

فصاح الفتى ، طاهر المحيا :

— لفافيلو . ليس ! لا تقلقي ، فاني أعرف ما بقي عليّ أن أفعل .

فمر تعبير عذب ، أمومي تقريباً ، في عيني لودكا ، ومن ثم صاحت فوراً في قسوة وصرامة :

— إني أمنعك عن ذلك ! إنـــك لقمين بأن تفعل ذلك ، أيهـا المعتوه الكبير !

ومن ثم أضـافت ، وقد وضعت يديهـا على كتفي سيما المتعظمتين :

— إنه سيقتلك بكل تأكيد ، أيها الصغير ، فاصمت !

وانتابها شعور بالشؤم بغتة ، فأدارت عشيقها الجديد نصف دورة ، ودفعته وهي تغمغم :

— إذهب الآن ، هيـا . إلى اللقاء ! وإذا كانت حياتك تعنيك ، فلا تنس أن عليك أن تكون أخرس كالقبر .

فاستدار إليها ، وأراد أن يقبلها مرة أخرى ، ولكنه رآها تبتعد عنه ، سريعاً ، دون أن تلتفت ، فظل واقفاً لاحراك به ، قريباً من كومة أقذار تفوح رائحة العفونة منها . ومن ثم ابتسم ، ناعس الملامح ، بينما ضاعت عيناه الرطبتان بين الأغصان التي اختفى فيما بينها ، قبل برهة واحدة ، ثوب لودكا الأبيض ، السابح كسحابة في الفضاء .

كانت لودكا تحث الخطا باستمرار ، بل إنها تركض حالياً تقريباً ، فكأنها تريد أن تفلت من كارثة عتيدة . قفزت من فوق الحجارة التي تشكل درجات السلم ، وتسللت حتى غرفتها ، وأغلقت الباب عليها بالمفتاح، وأمسكت خشب السرير بكلتا يديها ، ومن ثم أطلقت تنهيدة طويلة .

كانت عين القنديل الزرقا تطرف بكآبة في الظل القليل الذي يغمر الغرفة ، وأخيلة رمادية تحتفٌ بصورة العذراء .

ألقت المرأة نظرة طويلة على الأيقونة ، ومن ثم جثت أمامها ، وصالبت ذراعيها على صدرها ، سعيدة لاختفائها هكذا وراء السرير ، وطفقت تهمس بنبرات متسارعة وبصوت متوسل :

— أيتها العذراء المقدسة ، كوني رحوماً بعبدتك ، واغفري للودكا ، الخاطئة غير التائبة ...

٧

تجاوزت شهرة سيما النهر إلى المدينة ، فأصدر رئيس الشرطة أمره يوماً باحضار شاعر الضاحية إليه ، وأصغى إليه يتلو أشعاره برهة ، وأخيراً خاطبه قائلاً ، وقد أغلق عينيه وطفق يهزُّ رأسه بحركة ذات مغزى :

— يجب أن تدرس ، لأنك أميٌّ في آخر تحليل . أتحب القراءة ؟

ولكن احتمال سيما كان قـــد نفذ . يكفي أنهم أجبروه على التلاوة . وكان يهاب محيـا رئيس الشرطـة القاتم ، فهو يلوذ بالصمت مطرقاً برأسه .

أمرٌ سترتخل يديه على وجهه الأجرد ، واسترسل يقول شاخصاً في فضول إلى الجسد المهلهل الملتصق ، عاجزاً ، بمصراع الباب :

— يجب أن تقرأ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، أيها الأخ الصغير . هل تعرف پوشكين ، مثلاً ؟ .. إني أسألك إذا كنت تعرف پوشكين ، شاعرنا القومي العظيم .

— كلا !

فهتف الشرطي مدهوشاً :

— كيف لا ؟ أفلا يقول هذان البيتان شيئاً لك ؟ ..

قدم النهار ، وأشرق الفجر ، فظهر البائع المتجول ،

وجر السائق نفسه حتى الساحة العامة . .

واسترسل :

— هذه أشعار من پوشكين . فلنر ، أين تابعت دروسك ؟

— في مدرسة الحورانية .

ـ حقاً ، ولكن هذا لايمنع من معرفة پوشكين . سوف أرسل لك بعضاً من مؤلفاته .. إنها تنقصني في الوقت الحاضر ... قل لي لِمَ سحنتك منقلبة هكذا ؟

فأجاب الشاعر بصوت بعيد ، أشبه بالصدى :

ـ ليست صحتي بجيدة .

ـ إذن يجب أن تعنى بنفسك . يجب أن تنتهز سائر الفرص كي تغدو فتتنزه في الغابة حيث يوجد كثير من الصنوبر ، وسينفعك هذا كثيراً .

وأعطى سيما خمسين كوبيكاً ، ورافقه حتى الباب بعناية أبوية .

وقد أبدى الخوري أشعيا كودريانسكي ، من جانبه ، تقديره لقصائد سيما ، فكان يقول ، وهو يهز رأسه الجميل في خطورة :

ـ إن ماتفعله ، ياسيمون ، لحسن .. بل إنه حسن جداً أيضاً . إني أحب أشعارك ، كما أن روحك ، وبساطة أسلوبك ، يؤثران في قلبي بصورة مباشرة .. اجتهد ، يابنيّ ، واسعَ ألا تقبر الموهبة التي منحك الله الطيب إياها ، وتوسل ليلاً ونهاراً إلى شفيعك القديس سيمون ، واجهد أن تخرج من الظلمة وتبلغ القمم الجديرة بشاعر حقيقي ... أتريد أن تشرب شيئاً ؟

فأجاب سيمون ، متنهداً :

ـ كلا . إن صحتي لا تسمح لي بذلك .

فلعلع الأب أشعيا :

ـ رائع ! إن هذا لقمين بالمديح أيضاً !

ومنحه البركة التقليدية ، ودفع في يده ثلاث قطع من ذات الخمسة كوبيكات وهو يفعل ذلك ، ثم أضاف بصوت دافىء :

ـ اقبل منحتي التي أنت بحاجة إليها بكل تأكيد ؛ إني أعطيك

إياها كي أشكرك على قراءتك أشعارك لي . وإني لاقول الك مرة أخرى إني أجدها جيدة جداً . .

وأخذ آخرون ، من عداد سكان القرية المثقفين ، يدعون سيما إلى دورهم ، فيتلو الشاعر عليهم أشعاره في حياء عظيم ، وهو يحسّ الوحشة في هذه البيئة الغريبة عليه ، ويبتلع في اضطرابه بعض المقاطع ، بله كلمات كاملة أحياناً . وكان يعود أدراجه دائماً بقطع العشرة أو العشرين كوبيكاً التي يُعطاها .

بل كان يحدث أن يُدخله بعض التجار إلى محلاتهم ولايتوانون عن مكافأته ببعض القطع المالية الصغيرة ، بعد أن يصغوا إليه بانتباه مركز . وكان الشبان ينصحونه بأن ينوّع قليلاً من مواضيع قصائده . كانوا يقولون :

— أصغ ، يا صاح ، يجب أن تنظم شيئاً فرحاً . أتكون قادراً على ذلك ؟

فيجيب سيما بلهجة حزينة مذنبة :

— كلا .

— ياللأسف !

وبعد أن أصغى الطبيب رياخين إلى قصائده ، صاح وهو يضحك في سره :

— ضحية أخرى لا جدوى منها أيضاً ! ..

ولكنه نقل بعض أشعار سيما في دفتره رغماً عن ذلك ، ووعد أن يرسلها إلى مكان ما . ومن ثم توجه إلى ضيفه قائلاً ، قبل أن يصرفه ، وهو يفرك يديه الخشبيتين في حمية :

— إسمع ! يا صديقي ، لا تضع كثيراً من الوقت . لعل ما تنظمه ليس بالشعر الرديء ، ولكني أتساءل إن كانت يتفق جيداً مع روح الزمان

الراهن . غير أني لن أتأخر مع ذلك ، دون أن أعـــدك بأي شيء وعداً قاطعاً ، عن إرسال أشعارك إلى أشخاص مختلفين . اعتمد عليّ .
ولم يعط ، هو ، شيئاً لسيما .

وابتدأ سيما ، متعباً مضطرباً ، يفر من وجة الناس ، فلا يغدو إلى المدينة إلا قليلاً ، وفي حال الضرورة القاهرة فقط . كان يدرك تماماً أنه لا يروق أي إنسان في الواقع ، وإنه لا يفعل سوى إثارة فضول وخيم ، وأنه لن يجد في أي مكان قوماً قمينين بفهم قلبه العليل .

إنما كان هناك شخص واحد على الأقل ، من بين سكان أوكوروف وساريتز الذين يعدون سبعة آلاف ، ينظر إلى الشاعر في جد واهتمام . فكلما خرج سيما من « الجنة » حيث ترهقه لودكا بتيار ملاطفاتها ، كان شيتيخ ، الغفير العملاق ، يعترض سبيله ، فاذا عرف جسد الشاعر الجاف غير المتناسق ، سأل :

— أهذا أنت ؟ حسناً ! أجلس برهة ولنتجاذب أطراف الحديث قليلاً !

ويتخذ سيما ، طيعاً على الدوام ، مكانه على الدكة الآجرية فيضع شيتيخ يده العريضة على كتف صديق الصدفة أو ركبته ، ويرجوه بصوت وديع :

— أتريد أن تتلو عليّ بعضاً من أشعارك ؟

وإذ يحقق سيما الرجاء بكل طيبة خاطر ، يتنهد شيتيخ ، ويرسم إشارة الصليب خفية ، ومن ثم يطلب من جديد :

— زدْ !

كان الفتى يحب أن يتلو أشعاره الساذجة على هذا العملاق القادر على سحقه دون أدنى جهـد على الاطلاق ، فهو يقرؤها له بصورة خاصة ، دون عجلة ، بل بصوت وديع كثير العذوبة ، مجرباً أن يشـــدد على كلماته المفضلة . وفي الأحايين ، كان يصمت بصورة محفوفة بالألغاز ،

وهو يلكز المستمع إليه بمرفقه ، مشيراً بذلك إلى المقاطع التي تفوق في نظره غيرها أهمية .

ومن أعماق أطلال المقام الرئاسي القديم ، هذه الأطلال التي لما تبرح مهيبة ، كانت تدفدف أحياناً صيحات الفتيات الحادة ؛ أو الغناء الذابل الذي ينطلق من حنجرة كوليا موظف البرق ؛ أو الصوت الرنان الذي تحلى به فانيا خريابوف ، ابن المرابي الكبير ؛ أو بعض الأغاني المبتذلة السفيهة ؛ أو أنغام القيثارة الناعمة - ولكن هذه الأصداء المصطنعة النشوة لم تك تعكر أبداً صفو سيما أو صفو المستمع إليه .

وكان هذا يطلب إلى الشاعر دائماً :

— زدْ !

إن نظرته تتأمل في السماء ، من خلال ياقتي حاجبيه الصهباوين الكثيفين ، شعاع المجرة الفضي ، وبريق الكواكب الفرح ومسير الهلال النحاسي البطيء ، أو عدو السحاب الهاديء الرزين إن شيتيخ يرى إلى الجلد ، ويسمع إلى الشاعر ، ويرسم إشارة الصليب خفية ، وهو يهز كتفيه كلما فعل ذلك .

إن الأكواخ تلوح ، وقد ازدحمت حول قصر ويفودين ، كأنها ترقد إلى الأبد مثقلة الأجفان ، قد أحالها فقر الفلاحين وبربريتهم أكواماً هائلة من الأقذار .

لم يكن سيما يكلّ من التلاوة وقد استند إلى البوابة بظهره . ولكنه تذكر مداعبات لودكا من حين لآخر ، هذه المداعبات التي تلوح له متعجلة ، مترددة ، وكأنها اضطرارية لا سبيل إلى تفاديها ، فيجتاحه سخط عظيم هو بالأحرى ثورة على عشيقته وتمرد على حبها .

إنه تفكر :

— آه ! لو أعطي لي أن أعجب بها على هواي ، دون ما يثيرني

ويدفعني إلى ذلك ، مثل الباقين الذين يبطئون قربها ما شاءت لهم رغبتهم فقط !

وفي مثل تلك اللحظات ، كان يحس الضعف أكثر من أي وقت آخر . لم يكن إذن يعنى بتلاوة الأشعار ، أو حتى بالحديث أيضاً ، فيتردد صوته رخواً ، خالياً من كل تعبير . إن قلبه ليغيب إذن .

ويخاطبه شيتيخ بقوة ، وهو يدس ثلاثة أو خمسة كوبيكات في يده :

— ليس ! ليس ! إني أشكرك على أية حال .

ويحتج الشاعر قائلاً ، وهو يرد يده عن القطع المالية :

— ولكني لا أريد شيئاً من مالك !

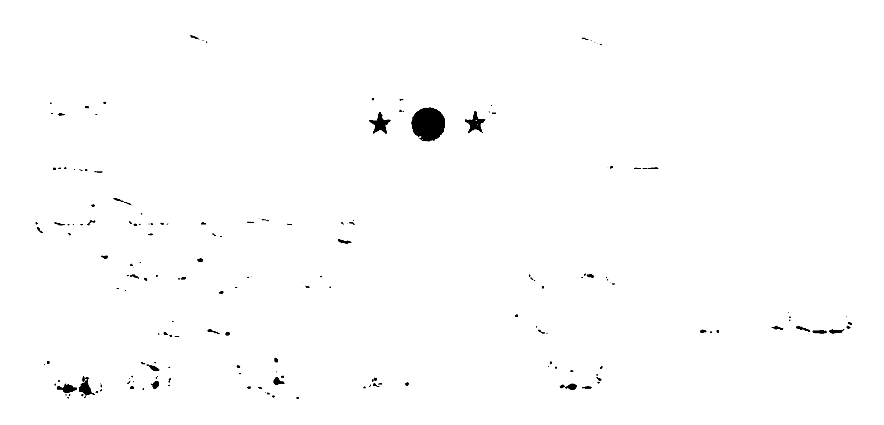
فيرد الغفير عليه :

— خذها !

ويكاد أن يغضب :

— مادمت أقول لك أن تأخذ ! إن لديَّ كثيراً منه ! وأنا وحيد في هذا العالم ...

وعندئذ يخضع سيما ، راغباً قبل كل شيء ألا يجرح شعور الرجل الطيب . ومن ثم يغدو عبر السهب ، تائهاً على غير هدى .



٨

كانت پاشا ، الفتاة الصهباء ، تقوم بخدمة البيت بالاضافة إلى عملها المهني ، فتوقظها الطاهية في ساعة مبكرة جداً قبل رفيقاتها ، فلا تكاد تفيق حتى تشرع بترتيب الصالون حيث يُستقبل الزبائن عادة . وهذا الصالون قاعة شاسعة الأبعاد ، أشبه ما تكون بمأوى العربات ، ذات خمس نوافذ بيضوية الشكل ، من بينها نافذتان قد اختفيتا وراء ستائر من اللباد ، فهما لاتبرحان مغلقتين بصورة دائمة .

كان السقف مزيناً بعدد وفير من عناقيد الازهار والورود من مختلف الأجناس والألوان ، تضيع في ثناياها عصافير خضر وصفر غريبة المنظر ، وملاكان صغيران قد جرد لون محيا أحدهما ، بينما نقص الآخر ساقاً واحدة ، وجزءاً من البطن أيضاً .

ولقد روت الطاهية ماتريونا لپاشا ذات يوم أن هذا السقف زُين هكذا في سنة ١٨١٢ ، من قبل أحد أسرى الحرب الفرنسيين . وهكذا كانت پاشا تتوقف كثيراً على عتبة القاعة الواسعة كلما همت أن تدلف إليها بمكنستها ، ومنفضتها ، وخروقها ، كي تروح تعجب ، وقد أشرعت أنفها في الهواء ، بالنقوش البارعة المحفورة أو المرسومة في هذا السقف ، والمغطاة بلطخ واسعة من الرطوبة ، والعديد من الشقوق ، وطبقة كثيفة من دخان التبغ .

وتوبخها ماتريونا ، وهي شخصية هامة في الدار :

ــ أأنت مجنونة ؟ أفلم تنتهي من الوقوف ، فارغة الفم ، جاحظة العينين هكذا ؟ أسرعي ، فقد حانت ساعة اليقظة ...

وتجيب باشا بابتسامة بلهاء ، وهي تشرع بالعمل :

— حسناً ، حسناً . . لكم كان بارعاً ، على أية حال ، هذا الفرنسي الصغير ! كيف أمكنه أن يفعل ؟ لاريب أنه اشتغل مضطجعاً ، أليس كذلك ، أيتها العمة ماتريونا ؟

وعندئذ تغضب ماتريونا :

— بالنسبة إليك ، ليس سوى أسلوب وحيـــد في العمل . . . الاضطجاع ! . .

ولم تكن المرأة الشابة تسمع في بعض الأحيان ، وهي غارقة في أحلامها ، صيحات رفيقتها الغاضبة وهتافات فيليسيتا أو توسلاتها . وعندئذ ترتمي الفتاتان عليها وقد صيّرهما إعياء العشية خبيثتين شريرتين ، مثلما ترتمي القطط على فأرة مسكينة ، ويلقيان بها أرضاً ويجرانها على البلاط تجمع غباره وأوساخه .

لم تك باشا تدافع عن نفسها عندما تنهال رفيقتاها عليها ضرباً على هذا الغرار ، بل كانت لا تزيد في البدء عن النشيج ، وقد أطبقت عينيها وفمها جميعاً . ولكن ما أن ينتهي اضطهادها ، حتى تشرع شيئاً فشيئاً بالأنين والشكوى . إنها تبدأ بتفحص الأضرار التي لحقت بثوبها ، ومن ثم تخرج إلى الباحة الواسعة كي تبكي وتكيل الشتائم بصوت غليظ صاخب . وعندئذ كان الباب الحديدي الصغير يفتح سريعاً ، ويطل شيتيخ برأسه من فرجته كي يرى إلى ما يجري في الداخل . إنه يصغي طويلاً ، كئيباً صامتاً ، إلى بكاء باشا ، وأخيراً يجرب أن يسكن من روعها ، وقد تعب من تلك الشكوى وضجر .

إنه يقول إذن :

— هيا ! كفى بكاء ، أيتها الفتاة الطائشة ! إنك تصيحين مثل المجنونة ، وتنسين أن العابرين ، في الطريق ، يمكن أن يسمعوك .

فتوضح باشا له ، وقد هدأت لبرهة قصيرة :

— إن سائر أعضائي توجعني !

فيجيب شيتيخ ، الذى لم يكن يعوزه الحس السليم :

— وهذا هو السبب في أنهما تضربانك !

وذات ليلة ، في ساعة متأخرة جداً ، أقدم اثنان من الزبائن أفقدهما السكر وعيهما تماماً على إدانة باشا كما لا يمكن أن يوغل الرجل أكثر في إهانة المرأة ، حتى إذا تمكنت من الخلاص منهما أخيراً ، ولت الادبار إلى الباحة ، وقد أخفت بين يديها وجهها المحترق عاراً وذلاً ، والتصقت بالبوابة الكبيرة ، وأطلقت العنان لعبراتها .

سألها شيتيخ ، وهو يفتح الباب الصغير قليلاً :

— إنك تبكين أيضاً ؟

فهتفت الفتاة ، والنشيج يهز جسدها هزاً :

— أواه ! أيها العم شيتيخ ، لو تدري كم أنا بائسة !

فنصحها الغفير :

— كفاك شكوى إذن !

ولكن الفتاة استمرت في بكائها ، فأصغى شيتيخ إليها برهة أخرى ، ثم قال وهو يتنهد :

— يا إلهي ! ما أكره صوتك ! أخذك الشيطان !

ولكنه أضاف في الحال :

— تعالي إلى هنا !

وأخرجها إلى الطريق ، وألقى نظرة حريصة فيما حولها ، ومن ثم أجلسها على دكته ، واتخذ مجلسه إلى جانبها .

قال :

— حسناً ! أصمتي . إهدئي ولا تبكي بعد الآن . إن الليل فاتر ..

وليس هناك أي إنسان .. من ذا أهانك ؟

وأخذت باشا تروي له كل شيء بصوت راعش ، من خلال دموعها ولكنه قاطعها في اشمئزاز :

ــ حسناً ! كفى ، فأنا أبغض هــذه القــذارات . يفضل ألا نتحدث عنها .

فصمتت ، طيعة بصورة غريبة ، واستندت إلى كتف شيتيخ بجسدها . حاول الرجل أن يبعدها قليلاً ، ولكن عبثاً فعل . وعندئذ دس ذراعيه الهرقليتين بين ركبتيه ، وعطف رأسه إلى الأمام ، وطفق يتحدث دون أن يتطلع إلى جارته :

ــ أتسمعين كلب ماركوشا ينبح ؟ إنهم يقيدونه إذا حلّ المساء دون أن يقدموا له طعاماً ، كي يصيّروه أشد خبثاً ، فيما أعتقد ... أنظري الآن مبلغ هدوء الطريق ، في الليل . إنك لا تجدين أي إنسان تقريباً ، في مثل هذه الساعة من المساء . . إليك ، يا باشا ، أنظري هذا الشهاب ! يقولون إن عدداً هائلاً من الشهب سيتساقط عشية نهاية العالم . . . ذلك يستحق عناء التفرج عليه في الحقيقة ...

وتحدث طويلاً هكذا . إنه يأخذ أحياناً ، بالرغم منــه ، باختلاس النظر إليها ، والتطلع بعين واحدة إلى فخذي الفتاة المــدورتين ، وإلى ذراعيها وصدرها نصف العاري . إنه يحس ، في كل لحظة ، جسد باشا الثقيل يئيد عليه أكثر فأكثر ، ويبعث فيــه رضى عظيماً . وعندئــذ خلّص يده اليمنى من بين ركبتيه ، من دون أن يباعد ما بينهما ، وأحاط خصر باشا بذراعه . غير أنه سمع ، بغتة ، شخيراً طويلاً ومستكيناً . سأل ، مدهوشاً :

ــ أتنامين ؟

وإذ لم يتلق جواباً ، أضاف :

ـ هيا ! تحركي قليلاً !

ولكن پاشا لم ترد عليه إلا بطقطقة شهوانية من لسانها ، وتصعيد زفرة عميقة هادئة . تطلع الرجل إلى محيا الفتاة المغطى بجدائل صهب : لقد كان فمها منفرجاً ، وبعض العبرات مابرحت تبرق في عينيها وذراعاها تساقطان ، عاجزتين ، على طول جسمها .

وافترت شفتا شيتيخ عن ابتسامة عطوف ، وغمغم وهو يهز رأسه في وداعة :

ـ يالها من حمقاء ! كلا ، يالها من حمقاء !

إن نوم پاشا الهادىء واستسلامها الصبياني قد وقعا من نفس شيتيخ موقعاً حسناً ، فتطلع إليها بصورة جانبية ، وهو يجهد بصعوبة كي يسيطر على حركات يديه غير الارادية . ظل قريباً منها ، عاقلاً زمناً لا نهاية له ، حتى الفجر تقريباً ، مصغياً إلى السكارى يتخبطون في « الجنة » بجنون ، حتى إذا دقت ساعة الكاتدرائية الرابعة ، أيقظ پاشا وقال لها :

ـ إنهضي واختبئي في كشكي ، لأن القوم الذين هناك سيخرجون بين لحظة وأخرى .

فسألت پاشا ، وهي تتطلع بدهشة في كل حدب وصوب :

ـ كيف أمكن أن أنام ؟

ـ ولكن فلنر ... إن ذلك يسير جداً ، إنك تغمضين عينيك ... وتنامين ...

ـ آه ، يا إلهي !

ـ هيا ...

فتح الباب الصغير أمامها ، وظل واقفاً على العتبة حتى تلاشت الصورة البيضاء في غرفتها الصغيرة ، إلى جانب المطبخ . وعندئذ أغلق الباب ،

وتطلع بثبات إلى التربة ، مطرق الرأس ، متباعد الساقين ، فكأنه يفتش في الأرض عن أمر خطير .

★ ★ ★

لم تبدل تلك الليلة شيئاً في علاقات شيتيخ وباشا . ولكن حادثاً جديداً وقع بعد بضعة أيام . كان أكثر جـــداً وخطورة من الحادث السابق بما لا يقاس .

استيقظت لودكا ذات يوم عند الظهيرة متألمة سيئة المزاج ، بعد ليلة من الدعارة عاصفة حمراء : إن عينيها توجعانها ، ومعدتها تحرقها ، وسائر أعضائها تؤلمها دون استثناء أخذت تضرب أرض الغرفة بقدمها ، وإذ لم تتلق جواباً سريعاً على ندائها ، فقد دقت الأرض مرة أخرى ، ومن ثم طفقت تقرع قرعاً متواصلاً بكلتا قدميها ، وقد قست نظرتها ، وظلمت عينها ، وتأجج أوار غضبها .

وعندما بدت باشا أخيراً على عتبة الغرفة ، رمتها لودكا بحذائها في ملء وجهها ، وشدت قميصها فمزقته ، وراحت تكيل لها الشتائم البذيئة دون حساب ومن ثم دفعتها على السلم بقسوة فأوقعتها عنه .

وهكذا خرجت باشا مرة أخرى إلى الباحة كي تبكي سوء مصيرها ، ومرة أخرى ظهر شيتيخ ، الذي استيقظ لتوه ، فهو ما برح مشعث الشعر ، حتى لقد أشبه فزاعة للعصافير الدورية .

سأل :

ـــ ماذا جرى ؟

ـــ لقد انهالت لودكا الكماً عليّ .

لماذا ؟

ـــ ولكن هل أعرف ، أنا ؟ يا إلهي !

فردد شيتيخ مقلداً لهجة باشا المبتذلة :

ـ يا إلهي !

ومن ثم أضاف بلهجة آمرة :

ـ إذهبي واغسلي وجهك .

تمخطت الفتاة بصخب ، وشهقت من أنفها شهقة عنيفة ، ثم قفلت إلى الدار ، بينا راح شيتيخ يلوح بيده متوعداً في اتجاه الدار ، وهو يغمغم ساخطاً :

ـ آه ! يا للسفيهات ! لسوف تبلغكنّ أخباري !

وضرب ، برفسة هائلة من قدمه ، قمر زجاجة داس عليه فقذف به بعيداً ، ومن ثم توجه حازم السيماء ، مغضن الجبين ، نحو المطبخ حيث كانت فيليسيتا وماتريونا تتناقشان في حمية ، وقد رفعتا أيديهما نحو السماء فكأنهما تستشهدانها على ما تقولان . فتح الباب ، وظهر في فرجته مالئاً إياها بجسده العملاق ، وقطع الحديث على المرأتين قائلاً :

ـ لماذا تضربن باشا ، دون سبب أو مبرر ؟

فسألته ربة البيت بصوت متعب ، دون أن تفهم عما يتحدث عنه :

ـ ما الذي أصابك ، يا كوسما ؟

فعاد شيتيخ يقول ، بينا تعلقت يداه ، القمينتان بغول حقيقي ، بمصراعي الباب :

ـ أقول إنه لا يحق لكن أن تضربن باشا دون مبرر .

حملقت ماتريونا وفيليسيتا به ، مدهوشتين مذهولتين . إن هذا الرجل قد وقف عند البوابة طيعا ، صموتاً على الدوام ، راضخاً لارادة الجميع ، لا يتدخل في أي أمر كان ، طوال ثلاث سنوات كاملة . ولكن هذا هو الآن يسمح لنفسه بابداء الملاحظات للرئيسة بالذات ؟

قال :

ـ يجب ألا تضربنها بعد الآن أبداً إنها بريئة مثل طفل صغير .

افترت شفتا فيليسيتا عن ابتسامة عذبة ، ورفعت رأسها شامخة به ، وتقدمت في تماهل نحو الغفير . كان شعرها الجميل مجموراً في ذلك اليوم على هيئة إكليل ، الأمر الذي أضفى عليها شيئاً من العظمة والرصانة يزيد عنه في الأيام الأخَر . وكان مئزرها الأحمر الفضفاض ، والأساور في معصميها ، والخواتم في أصابعها ، ورنين المفاتيح في زنارها ، وأسنانها المكشوفة بصورة واسعة وعيناها ، أكثر العيون سخرية في العالم ، تفرض الهيبة على شيتيخ الذي سرعان ما أفلت الباب ، وأطرق برأسه في شيء من الاذعان

سألت فيليسيتا في خبث :

— قل لي ، من عساك تكون إذن كي تجرؤ على خطابي هكذا ؟

فتمتم الرجل ، متلعثماً ، ببعض كلمات غير واضحة

أمرته ربة الدار ، وهي تشير بيدها إلى الباب :

— أخرج من هنا !

فاستدار شيتيخ حول نفسه ، ثقيلاً مثل الفيل ، وقبل أن يغلق الباب وراءه سمع فيليسيتا تقول للطاهية :

— ماعسى أن يكون أصابه اليوم ، هـذا الرجل الساذج ، حتى يتصرف هكذا ؟ ذلك غير ممكن ، فلا بد أنه شاهد أحلاماً رديئة !

وقف برهة قريباً من الباب لا يأتي نأمة ، ومن ثم أمسك بدرابزون السلم وهزّه ، فاذا الخشب المنخور ، الراجع عهده إلى زمن عفا عليه النسيان ، يرسل أنيناً شاكياً . ولكن صوت ماتريونا تردد في أثناء ذلك . يقول في خبث يتصنع الوداعة :

— يالطيف ! لقد أخضعتِه بقسوة حقاً !

— يا الله ! إنك تعرفين أن الأمور ، معي ، لا تطول البتة ...

— إنك في الحقيقة امرأة متفوقة !

— لاتنسي أن دماً أزرق يسيل في عروقي ، يا ماتريونا

— بل إنهم يدعونك «الجنرالة» لأنك تقودين قومك بصورة رائعة .

إن النبلاء لايخافون شيئاً . أما عما حدث الآن ، فيكفي أن أذكره بكلمة عند مفوض الشرطة حتى يسحق هذا الكاسر سحقاً . فاذا هو ملقى في غياهب السجن إن المدينة لملأى حالياً بالاشاعات المشؤومة ، وستهب ريحها على كوسيا إذن بكل بساطة . إن وقعته معي سوداء ، لأن إخافتي ليست بالأمر اليسير . آه ! كلا !

تطلع شيتيخ فيما حوله ، وزمجر مثل ثور جريح ، ثم هبط إلى الباحة تدفع ساقاه المقوستان دون هوادة قطع الخشب ، والآجر ، والحجارة ، وكل ما يلقاه في طريقه

في أثناء ذلك احتست لودكا ، وهي لما ترتد ثيابها ، قدحاً من الشاي الثقيل ، ثم عادت إلى الاضطجاع متكاسلة في فراشها . كان الصداع يثقل عليها كثيراً ، فيخيل إليها أن علقة سوداء ضخمة قد تعلقت بقلبها ، تمتص دماءها دون هوادة ، وتنتفخ بها ، وتزحف على لحمها ، وتقطع عليها أنفاسها .

وفجاءة ، بينما هي لا تتوقع ذلك مطلقاً ، في حين أوشكت أن تغطس جسداً وروحاً في هاوية النوم السوداء ، فتح الباب بهدوء كثير ، فرفعت المرأة الشابة رأسها كي ترى وجه سيما الشاحب يبتسم لها في شيء كثير من العذوبة .

سأل دون أن يجرؤ على الدخول :

— أنت لاتنامين ؟

أغلقت لودكا عينيها ، ومن ثم فتحتها من جديد ، مستاءة ساخطة ، وأجابت بصوت مخفوض .

— إني متوعكة الصحة قليلاً ... أدخل على أية حال .

اقترب الفتى من السرير في حرص شديد ، يمشي على رؤوس أصابعه ، وانحنى فوق الفراش ، وشخص إلى عشيقته في ملء عينيها .

سأل :

— هل أستطيع البقاء برهة ؟

فأشارت بالايجاب ، وعندئذ جلس سيما ، سعيداً ، على حافة الفراش ، ووضع أصابع لودكا البيض على ركبتيه ، وأمرّ راحة يده على ذراع المرأة ، الدافىء المخملي ، بين المرفق والمعصم .

قال :

— لقد قضيت يوم البارحة بكامله تقريباً على حافة الطريق الكبيرة وكتبت كثيراً من الشعر . . أتريدين أن أتلو عليك بعض الأبيات ؟

فغمغمت لودكا :

— عن العذراء القديسة كالعادة ؟

فأجاب سيما :

— كلا ، بل عن الحياة ... بالأحرى ... أتريدين أن تسمعي إليها ؟

فوافقت المرأة ، وهي تتنهد

— إذا شئت .

طفق سيما يتلو ، بصوت مخفوض :

إيه يارب ، كن رحوماً بنا ،

نحن عبيدك !

ولكن لودكا قاطعته في الحال ، دون هوادة .

قالت :

— هذه اللازمة دائماً ! لقد قرفت منها واشمأزت نفسي . ليس من الخبث في شيء أن يجتر المرء نفس الشيء إلى الأبد .

فأطرق سيما برأسه ، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة حزينة ، وسكت .

قالت لودكا ، وهي تغلق عينيها في إعياء :

ـــ حسناً !

فعاد سيما يقول ، بصوت متسارع النبرات ، يكاد أن يصعب تمييزه :

إيه يارب ، كن رحوماً بنا ،
نحن عبيدك !
أين نجد ما يكفي من القوة ،
كي نحارب الحياة الشريرة ،
والبؤس المرهق ؟
فعلى مَ نقدر إذن ؟
إننا نخضع لارادتك المقدسة ،
دون أن نناقش نواميسك أبداً .
ولكن الموت يحوم حولنا ،
وبمساعدة الاحزان التي لا تنتهي ،
أنت تقتلنا ،
في كل يوم ،
وفي كل ساعة !

سألته لودكا في شراسة :

ـــ لم لا تكف عن الشكوى والتفجع أبداً ؟ إنك تحسن إذا كتبت أغاني عن الحب مثلاً . ولكنك ، بدلاً من هذا ، لاتفتأ تكرر ، مثل محكوم بالاعدام ، « يارب ! يارب ! » . ليخال المرء أنك كاهن . . . إنك تحبني ، ولكنك لا تعرف حتى كيف تنظم شعراً من أجلي . إن هذا لمحير بالأحرى .

فكف سيما عن مداعبة ذراع لودكا ، وهز رأسه نفياً .

قال :

— بلى ، ذلك صحيح ، فأنا لا أعرف أن أكتب عن النساء .

فقالت في خطورة :

— لقد تعلمت جيداً كيف تحبهن ، فلمَ لا تستطيع ذلك إذن ؟

أنهضت جذعها باندفاع وحمية ، وجلست في فراشها وطفقت تتأرجح ، معقودة اليدين حول ركبتيها ، مستغرقة في تفكير عميق . وألقى الفتى نظرة مكتئبة على الغرفة حيث كل شيء معروف لديه ، يبعث الاشمئزاز في قلبه : الجدران المبطنة بورق زهري اللون ، والسقف الأبيض اللماع المشقق ، ومائدة الزينـة ، والمغسلة ، والخزانة العتيقة الواسعة البطن ، والمدفأة الداخنة في إحدى الزوايا . إن الظل يسيطر ليل نهار في هذه الغرفة السيئة التهوية ، الخانقة الجو .

قالت لودكا أخيراً ، وهي تجرّ كلماتها جراً :

— أنت تكذب ! ليس صحيحاً أنـك لا تعرف أن تكتب عن النساء . أفلا تغني سائر أبياتك مديح العذراء ؟ إذن . . إذن .

ودبت الحميه فيها وهي تردد الكلمتين الأخيرتين ، فشرعت تطقطق بلسانها ، وتطرف بعينيها .

اختلس سيما نظرة سريعة إلى صدر لودكا العاري ، ومن ثم باعد بين ذراعيه ، وتركهما تسقطان على جانبي جسده ، مشيراً إلى عجزه

قالت :

— لو كنت تسمع الأبيات التي يتلوها ذلك الطبيب الخنزير !

مدت ساقيها ، وجذبت سيما بلطف على ركبتيها ، وانحنت فوقـه ، ومست محياه بثدييها مساً خفيفاً ، فاجتاح الفتى لقاء ذلك إحساس لذيذ ، وانتابه الضيق في الوقت ذاته . وأحس مغصاً في ظهره . وأخذ جسده الطويل جداً ينزلق عن السرير ، فجرب أن يستند إلى الأرض كي ينهض دفعة واحدة ، لكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح .

قال في حيرة وارتباك :

ـ إني أقع .

ـ ما أخرقك !

وأعانته على النهوض وقبلته طويلاً . وأخيراً توسلت إليه ، وقد غمست عينيهـا في عينيه :

ـ قل ، هل ستفعل ذلك ؟...

ـ ماذا ؟

ـ أبياتاً مرحة مسلية .

فسأل بصوت خفيض :

ـ ولكن المرح . . أي شيء هو هذا ؟

ـ مثلاً : شيء مرح عني !

سكتت ، وتفحصت طويلاً عيني سيما النيرتين ، العميقتي الغور ، ومن ثم وضعت عليهما راحة يدها الطرية .

قالت :

ـ كلا ، إنك لن تستطيع ذلك بكل تأكيد ، فأنت كثير الحياء . ألا بئس ذلك !

فقال سيما ، دون أن يعرف لذلك سبباً :

ـ يجب أن تحذري من الكفر .

فدفعته لودكا في ظهره ، وقد حردت بصورة مباغتة .

قالت ، متقلبة الأهواء :

ـ لا تدغدغني ، فيداك باردتان . لا تلمسني ، دعني في سلام .

فرفع سيما رأسه بعنف فجائي بحيث انزلقت يد لودكا على جبينـه ، وألقى عليهـــا نظرة قمينة بمتسول بائس ، وقال بابتسامة حزينـة لوت شفتيه لوياً :

— إنك لا تحبينني ، يالودكا ، إني لا أروق لك .

فأجابت ، وقد صالبت ذراعيها وراء رأسها ، ورفعت عينيها إلى السقف

— أنا لو كنت أعرف أن أكتب ، لما نظمت إلا أشعاراً فاضحة تحمل الناس على الاحمرار خجلاً .

ولكن سيما عاد يردد ، وإصبعه الواحدة على صدر المرأة :

— كلا ، يا لودكا . إنك لا تحبينني .

فأجابت في هدوء :

— ياللهذر الفارغ ! كيف يمكن أن تقول هذا ، ما دمت لا أطلب منك مالاً قط ..

وأضافت بعد برهة ، وهي تغمزه في دلال :

— أولاً ، إني أحب سائر الرجال ... تلك هي مهنتي .

فتنهد سيما ، ووضع قدميه على الأرض وجلس وقد أدار رأسه عنها .

قال :

لو كنت حقاً تحبينني قليلاً ، لوجب أن نبوح بكل شيء لفافيلو ... وإلا . فيالخجلي !

فقفزت ، وقد تملكها القلق ، وأمرت ذراعيها حول عنق الفتى ، وسعت إلى إقناعه بكل ما تملك من قوى :

— لا تفكر في ذلك أبداً ! هل تسمعني جيداً ؟ ليس من أحبه سواك ! أما عن فافيلو ، فانه ، كما ترى ، رجل لا كالرجال ...

وانبطحت على طول جسدها ، مغمضة العينين ، واسترسلت بعد برهة بصوت أكثر ثباتاً ، وقد استردت هدوءها :

— ولسوف تقول : لمَ أبقى معه ، أليس كذلك ؟ إن الخوف وحده يحملني على ذلك . اذا لم أخضع له ، فسوف يقتلني ... إني على يقين من

ذلك ! أما أنت ... فاني أحبك جيداً . إني أحبك . . في سبيل خلاص نفسي ، هل تفهم عني ؟

كانت تمسك بجسد سيما الناحل المتعظم ، وتضمه إليها بصورة متزايدة العنف ، وتتطلع إليه في هوى عظيم ، متوسعة الحدقتين . وهي توضح له من خلال قبلاتها

– إن الله سيغفر لي عدداً كبيراً من الخطايا من أجل هـذا الحب الطاهر ، إني متأكدة من ذلك . كيف يمكن إذن أن لا أحبـك ؟

كان سيما يرتعش ، بفعل قبلاتهـــا ، مثل لقلق جريح ويلتهب بنار متأججة حارقة ، ويفتش ، مغمض العينين هو الآخر ، عن شفتي اودكا التي تستسلم له ـ أكثر عطفاً منها عادة ـ ولكن دون مرح أو رغبة .

كانت تقول بنغمة مذنبة :

– لا تحزن من أجـــل ذلك ، ياسيما ، فـكل شيء سينتهي على خير وجه

ومن ثم تهمس بصوت مخفوض يوقع الفتى في شباك سحر أسود :

– جرب ، ياصغيري . أن تكتب شيئاً جيداً حقـاً ، كي يحترمـــك الناس ، تشجع ! إن المرء يستطيع أن يقول كل ما يريد بكل تأكيد ! أنظر مثلاً ما يفعلـه القوم الأثرياء الذين لايخشون حتى من السخريـة برؤساء الملائكة . هل يقل احترام الناس لهم بسبب ذلك ؟ كلا ، بكل تأكيد . بل إن العكس هو ما يحدث !

إن شرارات خضراً تبرق في عينيها الواسعتين ، وحمرة قانية تصعد إلى وجهها اللاهب الذي أثارتـــه الشهوة ، وصدرها يرتفع في أنفـاس متلاحقة ، وثدييها يخفقان مثل حمامتين بيضاوين .

ويمسح الفتى بيد راعشة على خد لودكـا ، ويتطلـع إلى عينيهـا

الساذجتين الخداعتين ، ويتأرث من جديد ، وهـــو يصغي إلى الهمس العذب الحنون الذي يهدده :

ـــ إن حبي لك هو جدارتي الوحيدة ، ياسيموشكا . إني أعرف جيداً اني لست سوى خاطئة مسكينة بائسة ...

٩

كانت بعض الشائعات تنتقل في المدينة ، مثيرة ضوضاء غامضة ، مشحونة بالشؤم ... فالأهلون والسلطات يهمسون في شيء من الغيرة ، دون من يدري ماهية الأمر على وجه التحقيق ، وليس من يجسر على رفع صوته ، أللهم سوى كوليا ، موظف البرق ، الذي تزداد أحاديثه وقاحة وتحدياً يوماً بعد يوم .

إنه ينطلق عبر المدينة بأسرها ، ناحل القوام ، رشيق الحركة ، أنيقاً حتى الدرجة القصوى ، ويرسل أنفه المدبب في الفضاء عالياً ، ناقلاً إلى كل مكان الشائعات المخوفة التي ربما كان يجهل هو نفسه مصدرها وأصولها .

وإذا سُئل :

— ولكن كيف وصلتك هذه الأخبار كلها ؟

كان يجيب في شيء من الخطورة :

— إنكم تستطيعون أن تصدقوني .

ويُصلح من وضع بزته الأنيقة إثر ذلك ، وفي ملامحه كثير من الكبرياء والاعتداد بالنفس .

وكان الطبيب رياخين يقول مجرباً أن يلقي الاضطراب في قلبه ويعكر صفوه :

— وي ! وي ! .. إنك تخطىء بهذا التصرف ، ياعزيزي ! يجب أن يفكر المرء كالفلاسفة : إن الانسان لعاجز عن التعجيل بالحوادث ، وأشد عجزاً أيضاً عن اعتراض سبيلها ، كما أنه لن يستطيع أبداً منع

الأرض عن الدوران ، والشلل العام عن التطور ، أو هذا الغيث الأبله مثلاً عن الانهار . إن ما سيحدث حادث من كل بدّ ، بصورة محتومة ، أشئنا ذلك أم أبيناه . وعلى العكس من ذلك ، فان ما لن يحدث ان يحدث البتة ، مهما كان مدى معجزاتنا . لقد برهن كل هذا ماركس منذ زمن بعيد ، ونحن لانستطيع شيئاً ضده ، لانستطيع شيئاً على الاطلاق !

ويهتف كوليا مغتاظاً :

— عفواً ، يادكتور ! لكن يجب أن نحاول صنع شيء ما ، على أية حال .

— إن الناموس العمومي يحثنا على النمو والتوالد وإملاء الأرض ، أما مابقي فليس من شأننا في حال من الأحوال . وإني لأرجوك أن تؤمن ، ياصديقي الفتى ، بأن الانسانية جمعاء ، بما فيها أنت وأنا ، لم توجد إلا في سبيل تحقيق هذه المهمة ، البسيطة بقدر ماهي لذيذة على أية حال ، والتي تبرر وحدها وجودنا في هذا العالم .

ويقول كوليا :

— يا إلهي ! يالك شخصية رهيبة بمثل هذه المحاكمات !

ولكن الطبيب يردّ عليه :

— ولكن هذه محاكمات كل روسي ريفي ، لأنه ليس إنسان يجهل أن الريف الروسي آهل بقوم يعرفون أن يشربوا ، ويلعبوا الورق ، ويتصرفوا كمتفائلين ، في حين تضطرب أنت وتهتاج دون هوادة . لماذا ؟ انك تطمح إلى دستور ليبرالي ؟ خذ حذرك ، ياعزيزي ، ولا تتعجل الأمور كثيراً ! لسوف يأتي الحين الذي تنال فيه دستورك هذا مع مختلف التقدمات الاجتماعية ، أو المزعومة هكذا . وفي انتظار ذلك اهدأ ، ولا تتحرك ، واقرأ تولستوي — إن هذا كل مايلزمك في الوقت الراهن .

إن دليلنا الحقيقي هو تولستوي ، فقد كان يعرف أفضل من أي إنسان آخر معنى حياتنا على هذه الأرض الدنيا ، يعني «ألا نفعل شيئاً ، لأن سائر الأمور تتحقق عفوياً في سبيل سعادتنا وسرورنا » . هذه هي الفلسفة الأكثر أهمية وفائدة ، القمينة بالريفيين الروسيين أو الأجانب أيضاً .

فقال كوليا في موجدة :

— إنك تتكلم مثل تيونوف بالضبط .

تيونوف، المجلّد ؟..

— الساعاتي بالأحرى . .

ربما الساعاتي أيضاً . إن الريفي الروسي يشتغل بسائر المهن دون أن يعرف شيئاً ...

فتنهد الفتى قائلاً :

— يا إلهي !

وذهب مبلبل الخاطر .

كان الطبيب رياخين ، يدفعه هوس غريب ، يثير فضول كوليا وعجبه دائماً ، ويجتذبه إليه بمثل هذه الأحاديث الهازلة التي ترسل في رأس موظف البرق أفكاراً جريئة ، بل متهورة أيضاً . وكذلك كان كوليا يحبُّ مظهر الطبيب الذي يثير فيه فكرة أداة جراحية دقيقة جداً ، موضوعة في غمد غالي الثمن ، كما كان يحب ربطات عنقه ، وقمصانه ، وبزاته الجيدة القماش ، والاشارات المهيبة الرشيقة ، الصادرة عن يديه البيضاوين . وكانت تهكمات الطبيب تولد في قلب الفتي الحساس عذاباً قلقاً في بعض الأحيان . لكنها توحي إليه على الأغلب بشيء من الكبرياء والغرور ، فيردد بكل أمانة على أصدقائه تعابير ذلك الأبيقوري ويدهشهم ، الأمر الذي يجعله في نظر الناس كائناً غير عادي ، لكن ذكياً يتمتع بفكر واسع الثقافة ، لاذع السخرية .

إنما كان كوليا يدرك ، بالرغم من أحاديثه المخيبة الآمال مع الطبيب، أن فضولاً مكتئباً يسيطر على المدينة بأسرها ، في كل زاوية من زواياها تقريباً ، دلالة على قلق حقيقي لا مراء فيه كان سائر الناس تقريباً يتوقعون شيئاً مجهولاً سوف يقلب النظام العمومي رأساً على عقب ، فهم يتخفون في الشارع أو في السوق ، كي يتناقشوا طويلاً في حمية ، بله في هوى متأرث ، وسط حلقة من المستمعين الذين يصغون إلى الخطباء في شيء من الانتباه المشبع بالاحترام .

وكان كوليا يندس في المناقشات بجرأة :

— يستحيل أن نستمر نحيا كما في الماضي ...

فيسأل بعض المواطنين المتعجبين المتشككين :

— ولماذا ؟ ولماذا ؟ حتى الآن اكتفينا من هذه الحياة جيداً !

فيؤكد كوليا ، دون أن يتأثر :

— بدافع من الحماقة !

— عفواً ! عفواً ! لكن من المذنب ؟

فيصيح الفتى ، وقد تذكر نظريات الطبيب رياخين :

— حماقة الشعب بأسره ! وحماقتكم ! ...

ويغضب البعض ، فيلاحظون :

— وعلى أية حال ، فانك تذهب بعيداً نوعاً ما ! ما الذي أصابك ؟

كان الجمهور يصغي إلى كوليا في نهم ، بله في لذة ، ويطرح عليه أسئلة مختلفة . ولما كان معظم هذه الأسئلة من المرتبة العملية ، فقد كان موظف البرق يلقى عناء كثيراً أو قليلاً في الرد عليها .

كان يلوح أن المدينة بأسرها تعيش ، منذ فترة من الزمان ، ليومها الراهن فقط ، فكأنها على عتبة رحيل عظيم نحو المجهول . وكان الأزواج يقولون لنسائهم اللائي يردن أن يشترين بعض الحاجيات لمؤونة الشتاء :

— انتظري بعض الوقت أيضاً ، ففي الساعة الحاضرة ليس من يدري ما سيحدث . الأفضل ألا نتعجل ما تطلبين ! فلنكن عاقلين .

وعلم الناس ذات يوم ، والدهشة تملك عليهم مشاعرهم ، أن سلطات المنطقة عقدت سلسلة من المشاورات بغية التفتيش عن أفضل الوسائل لحفظ النظام مهما جرى من أحداث ، ومن ثم أعلن للأهلين أخيراً أن الأب أشعيا سوف يلقي موعظة يوم الأحد القادم ، في خدمة المساء ، تضع حداً لمختلف الاشاعات الكاذبة . ولكن الخبر الرهيب سرى ، في الوقت نفسه تقريباً ، بأن السلطات أرسلت في طلب فيلق من الجيش على وجه السرعة ، وأن هذا الفيلق سوف يصل الى أوكوروف بين لحظة وأخرى .

وصاح الخياطميناكوف ، الثمل أبداً :

— جنود ! إني أفهم الآن كل شيء ..

سوى أن الخياط الصغير ، بالرغم من إلحاح رفاقه وإصرارهم ، رفض بعناد أن يسرّ إليهم بما فهمه .

وكان ميناكوف ، في ذلك اليوم نفسه ، يشكو أمره وقد جلس على كوم من الأنقاض تجاه كنيسة القديس نيقولاس ، قائلاً والدموع تترقرق في عينيه :

— أواه ! يا إلهي ! هذه ساعتنا الأخيرة قد أذنت من دون ريب .

وكان الشرطي كابندوك يقف إلى جانب الخياط ، ويسعى جهده لتهدئة روعه ، قائلاً :

— هيا ! هذا أنت تبكي مثل امرأة ثكلى ! لمن المحتمل ألا يحدث شيء البتة ... إن المرء لا يعرف ، سلفاً ، أي شيء على الاطلاق !

واتضح في تلك الاثناء أن الشائعات المتعلقة بالتدابير التي تنوي السلطات اللجوء إليها قد ازداد حظها من اليقين . وعلى أية حال فان رئيس الشرطة

استدعى إليه كوليا ، موظف البرق . على وجـه السرعة ، وأصدر اليه الأمر بضبط اسانه . ومنذ ذلك الحين انقطع الثرثار الفتى عن الركض في أنحاء المدينة وزرع الهلع في أرجائها .

وكذلك غدا الشرطي كابندوك . ذات صباح جميل ، إلى دار صديقه الخياط ميناكوف ، وقال له :

— اتبعني إلى المركز ، يابيجور ...

— لماذا ؟

— كي تتعلم كيف تنشر الاشاعات الكاذبة عن الأمور الجارية . .

وقد أوقف بعض المتشردين بالاضافة ، كما اختفى فافيلو بورميستروف واثنان أو ثلاثة من رفاقه عن العيان فترة من الزمن .

وفي الأحد التالي ، كانت الكاتدرائية تعج بالناس في خدمة المساء حتى تكاد أن تنفجر . وأصغى المؤمنون بانتبـاه عظيم ، في جو ينضح عرقاً ، إلى الموعظة الجميلة جداً التي ألقاها الخوري أشعيا وتكلم فيها عن أبشالوم ، وعن بطرس الأكبر ، وعن حكمة الملك سليمان ، وعن عام ١٨١٢ ، وعن نابليون وسباستبول ، وعن إلغاء نظام العبودية ، وعن الغيرة التي تبعثها روسيـا في بعض الدول الأجنبية وكذلك عن أخطار استعداد كثير السذاجة يبديه الناس في تصديق كل ما يقال لهم .

وعقّب أهل المدينة ، في طريـق العودة ، على كلمات الأب أشعيـا بكثير من الحرارة والاندفاع :

— مما لا يتطرق الشك إليه أننا على أبواب أحداث خطيرة جداً ، وإلا ما كان الخوري أزعج نفسه أبداً .

كان الذعر يتفاقم يوماً بعد يوم ، عن حق أو عن باطل ، وكل شائعة تقابل بالتصديق من الجمهور اللاهب ، أكانت تقوم على أساس من الصحة أم لا . وكانت جماعات كثيفـة من الناس تتشكل ، ليلاً ونهاراً ، في

الشارع الرئيسي حيث ينتصب بنيان الآراء المختلفة المتضاربة .

ويقول بعضهم :

ــ إن كل هذا من خطيئة الألمانيين ، كما هي الحال دائماً .

ويقول آخر :

ــ كيف السبيل إلى تفسير تعمد الألمانيين التحرش بنا على الدوام؟

فيجيب ثالث بلهجة من يعرف خفايا الأمور حق المعرفة :

ــ ذلك أن الألمانيين في ضيق من أمرهم في بلادهم ، بمقدار ما يزداد عددهم دون انقطاع . خذ خارطة جغرافيا ، وسوف ترى بكل وضوح أننا طردناهم حتى أقاصي الارض ، بحيث لم يتبقَ لهم شيء البتة ، اللهم إلا الرمال والمياه المالحة . إنهم شعب من المشردين الحفاة .

وعندئذ يقول السائل :

ــ إذن فأنا أفهم الآن لم يغارون من الروسيين !

ويتردد صوت تيونوف الأبح قائلاً :

ــ لسوف يأتي يوم بكل تأكيد يُوجه النداء فيه إلى الروسيين الحقيقيين في ديارنا .

ــ من يقول هذا ؟

ــ أعور الضاحية .

فيعلن القوم في الحال :

ــ إنه لا يستحق عناء الاصغاء إليه .

ويذهبون كل في حال سبيله بعد أن يلوّحوا بأيديهم دلالة على ازدرائهم

ويعبر تيونوف المدينة والضاحية في كل الاتجاهات ، ملوّحاً بعصاه المقتطعة من شجرة كرز برية ، مرهفاً السمع إلى كل ما يثرثر الناس به شاخصاً بعينه القائمة إلى هذا المحيا تارة ، وإلى ذلك المحيا تارة أخرى، مثل غجري يتفحص جياداً في السوق العامة .

وكثيراً ما كانوا يسألونه :

— ولكن ما الذي يجري في آخر حساب ؟

فيردُّ عليهم ، وقد قلب إحدى شفتيه :

— ليست معرفتي أفضل من معرفتكم .

وما أسرع أن يتسلل متخذاً طريقه إلى مكان آخر ، حيث يطرحون عليه دائماً ذات الأسئلة التي تفضح القلق المعتمل في النفوس .

كان الاضطراب يرتسم على محياه الأعور المتعظم ، وقد بليت خروقه أكثر من أي وقت مضى ، فكأنه هبط من مدخنـــة مدفأة ضيقة .

وكان يُرى كثيراً يتنزه برفقة ماتفي كوجيمياكين ، المؤرخ الهادىء الذي كانت عيناه الكئيبتان باستمرار ، ويداه الصفراوان اللتـان تشدان دون انقطاع على لحيته البيضاء ، تخيف المارين ، والحوامل منهم بصورة خاصة .

كان ذانك الشيخان المخوفان أول من حمل إلى الضاحية الخبر الأخير القائل إن اجتماعاً سيعقد عما قريب في السوق ، في حانة سيميانيكوف .

وتأكد هـذا الخبر فيما بعد ، فاذا أهل الضاحية يفـدون جمـاعات جمـاعات ، مضطربين صاخبين ، إلى المقر المعين من قبل امرىء لا يعرفه سوى الله

وفي الحانة ، ابتدأ الأحدب شيشماريوف ، موظف الاحصاء ، المناقشة في سلطان وهيبة ، واقفاً على إحدى الموائد ، مستنداً بظهره إلى الجدار .

رفع ذراعيه نحو السماء ، وصاح بمـــلء صوته كي يحمل الحاضرين على الصمت والسكون :

— لقد جاء أخيراً اليوم الذي أخذت روسيا تدرك فيه !

كانت رأسه الضخمة تتأرجح في كل حدب وصوب بصورة فاجعة ، وصوته يخونه في كل لحظة ، والعرق يتلألأ على جبينه . وكانت الحانة غاصة بالناس ، يتردد في أرجائها أصوات طقطقة الموائد ، والمقاعد ، وزمجرة

ألواح الأرض ، بينا يزدحم على الباب جمهور غفير ، متزايد الكثافة باستمرار ، وصاحب الحانة سيميانيكوف لا يكفّ عن التفجع بصوته الهزيل المرتجف ، المخنث تقريباً :

– آه ! يالبؤسي !... من ذا الذي سيعوضني عن الخسائر ؟

وتوجهت بعض الأصوات الفارغة الصبر إلى شيشاريوف بقولها :

– اختصر ! لاتطل الحديث كثيراً !

– تحدث إلينا عما يتعلق بنا!

– في الوقت الراهن ، لاتعنينا بقية روسيا ، بل قريتنا الصغيرة بكل بساطة !

– هذا العجوز ! إنه لايفهم شيئاً من شيء !

وفي تلك الأثناء ، كانت ساحة السوق قد أصبحت أشبه ما تكون بقدر يدوّم فيها الناس دون انقطاع مثل حبات الخردل في الماء الآخذ بالغليان. وكانت السماء تغطي الأرض بغطاء رمادي ثقيل ، وتلف السهب بوشاح كثيف مشبع برطوبة تخترق الجسد حتى العظام .

كان شيشاريوف يصيح ، وقد انقطعت أنفاسه :

– إن فكرة الحرية ، والتضامن ، والتقدم ...

وكان سكان الضاحية ، وقد تكدّسوا في الساحة الخارجية ، يقتحمون الباب ، ويتسللون إلي الداخل عبر النوافذ المفتوحة للمصاريع ، وينقون بأصوات مبحوحة :

– إرفع صوتك ! إرفع صوتك !

– أنت ، هناك ! إننا لانسمع شيئاً !

– إلى الخارج ، كي يستطيع سائر الناس أن يسمعوك !

ويهتف موظف الاحصاء الأحدب :

– ... وهذه سائر طبقات المجتمع تتفق أخيراً كي ...

كان عدد لا يستهان به من الناس الثملين يرتع بين الحاضرين ، والهياج يجتاح المجتمعين أكثر فأكثر ، مثلما يجتاح الحريق غابة كثيفة الأشجار . وكانت بعض العيون تبرق ، هنا وهناك ، بنار تبعث على القلق ، وابتسامات رديئة ، تفضح السكر الذي طفق يلعب بالرؤوس ، تشوه وجوه الزبائن المحتشدين حول الموائد الصغيرة . وكان الخياط ميناكوف ينسل خلال الجمهور ، مثل سمكة لزجة ، ويهمس بصوت يدعي العذوبة والوداعة ، مفترة شفتاه عن ابتسامة مشبوهة :

ـــ آه ! يا إخوتي الصغار ! هذه كلمات خطرة تحمل على التفكير ملياً ، من دون أدنى ريب . .

ومن ثم يطرف بعينيه ، وتتسلط على محياه ابتسامة غامضة محفوفة بالألغاز والأسرار .

كان فافيلو بورميستروف يتجاوزه أبداً ، داعماً سائر الحاضرين دون أدنى مبالاة مطلقاً . . كان يلوح أنه سيد الساحة بقميصه القصير الأكمام ، وعينيه المشعتين مرحاً ، وهو يصيح بصوت جهوري بغية التغلب على الضوضاء الصاخبة وقهرها :

ـــ ذلك صحيح ! لقد جاء اليوم المنتظر بفارغ الصبر ! بعد الآن ، سوف يتبدل كل شيء !

ولكن القوم الذين يتمتعون بحس سليم ، والذين كانوا يرقبون ذلك الازدحام في هدوء كثير ، توجهوا بالسؤال إلى فافيلو قائلين :

ـــ مابالك تصيح هكذا ؟

فأجاب المقاتل الجميل :

ـــ أنا ؟ ما بالي ؟

وفجأة ، أحاط بذراعيه القويتين الناس الذين يدعونه إلى التعقل ، وقال مستبشر الطلعة :

— أفلستم تدركون أن حياة جديدة تبدأ ؟ إن الشعب يجمح ويتمرد ، وذلك رائع ! إن اليوم الذي سيحمل لنا الحرية أضحى قريباً ! الحرية . أتعرفون ما معنى هذا ؟ إني حر في أن أحيا أو لا أحيا ! إني حر في أن أفعل كل مايروق لي ! هل فهمتم أخيراً ما معنى الحرية ؟ ولكن ذلك رائع حقاً !

ويسأل المتشككون أيضاً ، وهم يبتسمون بالرغم منهم :

— الحرية ، ماعساها تحمل لنا ؟

فغنى فافيلو مشرق محياه ، ضارباً صدره بقبضة يده :

— يا إخوتي ! إن النفس تتلقى الحرية ! يا نفسي ، افرحي ! هكذا ...

وقال الناس العاقلون :

— إنه سكران ، بكل بساطة !

وأسرعوا يغادرون المكان وقد علا العبوس سيماءهم .

كانت بعض النسوة يتفحصن ذلك المحب للقتال خلسة ، ويعضضن شفاههن ويهمسن ، وقد خفضن أعينهن في مراءاة :

— ياللوقاحة !...

وكان الخياط ميناكوف ، بوجهه الملطخ بالسمرة ، يتسلل دائماً في أعقاب فافيلو ، ولايكف عن التلميح بصوت خفيض ، في كل حدب وصوب :

— كي يجرؤ المرء على قول مثل هذه الأمور ، لابدّ له من الجرأة كما تعلمون ! إنه مغوار شهير !

كان الناس ينصبون من الحانة في الشارع بصف طويل متراص ، وفلاحون ينضحون عرقاً يدفعون الأحدب الذي أشبه في تلك الأثناء كرة من الخروق البالية المشعثة .

وارتفع صوت يقول :
ــ انقلوا المائدة إلى الساحة !
فصفق الجمهور بحميسة لذلك الاقتراح ، بحيث لم يجد شيشماريوف بداً من الخضوع .
ولم تمض دقائق قليلة حتى كان يشرف على الناس أمام الحانة ، ورأسه الضخمة تترنح من جديد ، فكأنه على وشك السقوط في كل لحظة .
كان يفتح ، بصورة رهيبة ، فمه الكبير الخالي من الأسنان ، ويطلق صيحاته التي تكاد أن تثقب غشاء الطبل في آذان المستمعين إليه :
ــ إن ما يلزم هو التكاتف . . . والسير معاً ، دون تردد . . أنظروا ، مثلاً ...
ولكنه لم يجد الوقت كي ينهي جملته ، إذ تعثر على حين غرة ، ومدّ ذراعيه الناحلتين ، ولم يلبث أن أختفى كما لو سُحر ، مفسحاً المكان لفافيلو الذي تسلق المائدة ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص عن صدره بصورة واسعة ، هرقلاً رهيباً ورائعاً في وقت واحد .
زمجر ، فاتحاً ذراعيه في حركة عفوية :
ــ أيها الشعب ! أيها الشعب ! أصغ إليّ ! هاأنذا ، أيها الرفاق... أعطوا الحرية لنفسي ، لأني أختنق ههنا !
وخيم صمت امتد برهة وجيزة ، ولكن صوتاً هزيلاً تردد على حين فجأة ، أشبه ما يكون بصيحة عصفور جارح من طيور الليل ، قائلاً :
ــ يا رب ، أين عسانا نذهب ؟
ومن ثم أبرز فافيلو صدره ، وزمجر :
ــ أتعرفون ، أيها القوم الطيبون . ماذا قال لي رئيس الشرطة منذ أيام ؟ لقد قال لي : « منذ اليوم ، يجب عليك يا بورميستروف أن تراقب كل إنسان وسائر الأمور التي تجري فيما حولك ، وتقدم لي تقارير

مفصلة من حين لآخر عن ملاحظاتك . وإذا استشميت مرة رائحة خطر ما ، فما عليك إلا أن تخبرني بذلك » ...

فقال بعض الحاضرين :

— يالطيف !

وعاد فافيلو يصيح ، فاقداً كل سيطرة على أفكاره :

— أيها الشعب ! أيها المسيحيون ! أهناك خطر أعظم من خطر حياتنا الراهنة ؟ لقد آذن اليوم الذي سيقرر مصيرنا . فليستعد كل منا لمقاتلة القضاء وجهاً لوجه ، فقد زال بؤسنا ، وألغى نظام العبودية ، ونحن نستطيع اليوم أن نعيش كما يروق لنا ، دون ضغط أو مراقبة من أي كائن على الاطلاق . أيها الشعب . إنهض في وجه مصيرك ! هذا هو الأوان ، وإلا فلن تسنح الفرصة لك قط !

وصاح واحد من عداد الموجودين ، قد اعتصم في حذر فائق قريباً من أحد الأسوار :

— إن ما يقوله غير معقول !

وثنّت أصوات أخرى عليه :

— اطردوه !..

— أنزلوه عن المائدة !

— إذا أخذ كل منا يتحدث على هذا الغرار ، فان الأمور ستنتهي إلى كارثة بشكل تأكيد

ووجد البعض أن من الحكمة بمكان أن يقفلوا راجعين إلي دورهم بأسرع وقت ، ولكن الازدحام لم يتضاءل بالرغم من ذلك ، بل كان يتفاقم بالأحرى ، فيزداد الجمهور كثافة ، وصخباً ، وضجيجاً على الدوام . وكان أولئك الذين يقفون في ساحة السوق يدفعون بعضهم بعضاً باستمرار ، والجو يزداد لهيباً وحمية دون انقطاع . وما أسرع أن قدمت بعض النسوة ،

ولم تلبث أخريات أن لحقن بهن ، فاختلطت أصواتهن المرتفعة الثاقبة بهرج الجمهور المتلاطم الأمواج ، الغالي مثل جمة فائقة القوة . وكان التحفز العمومي أبعد من أن يستكين ، والقوم لا يفهمون مما يقال شيئاً ، فهم عاجزون عن الاشتراك في فكرة واحدة والاتحاد في شعور واحد يبرر الحميا الشاملة . لم يكونوا يستطيعون ، هم الذين يختلفون عن بعضهم البعض ، والذين يضمر معظمهم العداوة لبعضهم البعض ، ن يشكلوا ، مادياً ، قوة فعالة واعية . تكتلها وترصها مطامح ورغبات مشتركة . وعندئذ حملت النساء إلى الشارع كل ما يميزهن : أنظاراً كاذبة مفعمة بالارتياب ، وابتسامات خبيثة ، وتلميحات بذيئة ، وخصومات قد مضى عليها شهور عديدة ، محضونة تحت الرماد ، نصف منسية ، فاذا هي تبعث إلى الحياة الآن ، ويتصاعد دخانها مشيراً إلى بؤرها الصغيرة الخائنة التي لم تطفأ جيداً .

— اسوف ترين ، يا أميمتي ؛ لسوف تدفعين ثمن كل الأذى الذي ألحقته بي !

— وأنت أيضاً ، ياعجوزتي ، سوف تسمعين أخباري !

ويشتد الخصام حول قصة رأس من الملفوف سرق من قبو مريم العرجاء ، أو قصة فانيا كيبرياكوف الذي لايريد أن يتزوج من ليزا ماتوشكا ، أو قصة أمين صندوق متجر كبير جلد ابنته .

وانهال البعض على مينا كوف ، الخياط ، ضرباً مبرحاً بصورة وحشية ، فعاد الشيطان المسكين إلى داره وهو يستند إلى الجدران بيديه المرتجفتين ، ويبصق الدم من فمه ، ويتأوه باكياً .

كان يزمجر ، نصف أعمى :

— يا إلهي ! لماذا ؟ ولكن لماذا ؟

وكانت الريح تهبُّ على المدينة ، مرسلة زمجرات مرتفعة ، منضمة إلى الضوضاء ، مجمدة الجمهور الهائج ، طاردة إياه من الشارع ، دافعة به في الحانات والدور المتواضعة البائسة ، المفعمة شقاء وكآبة .

وكانت الأشجار تحفُّ ، مصعّدة شكوى حزينة فاجعة ، وبعض الكلاب تنبح دون هوادة في وجه الموت ، وقد غمرها شعور مشؤوم لم يلبث أن امتدَّ ، شيئاً فشيئاً ، إلى سائر أهل الضاحية .

١٠

كان تيونوف يجسُّ الأرض بطرف عصاه الصغيرة في الظلمة المتكاثفة لحظة بعد لحظة ، وهو يخبُّ في صمت إلى جانب فافيلو بورميستروف الذي يلوح بيديه ويصيح دون انقطاع ، متزحلقاً ومتعثراً لدى كل خطوة .

سأل أخيراً ، يائساً من خرس رفيقه :

— أتفهم شيئاً من كل هذا ، أنت ؟

فأجاب تيونوف في خضوع ، خشية أن ينهال صاحبه عليه ضرباً ولكماً :

— ليس شيئاً كثيراً ، على العموم ...

فأمسك به الآخر من كتفيه ، وهو الذي يبحث أبداً عن فرصة للخصام ، وقال له بنغمة عتاب :

— إنك عاجز بهذا عن الشفقة ، أليس كذلك ؟

لكن الأعور ظل بالصمت معتصماً ، شاخصاً إلى نيران الضاحية الشاحبة ، هناك ، في نور القيلولة

قال فافيلو بصوت ثابت النبرات :

ـــ هذه هي القضية ! إني أساوي أكثر منك . ذلك لامراء فيه . إني أرثي لسائر الناس اليوم ، مثلاً ، فأجد أخاً ، أو مايقرب من الأخ، في كل إنسان . أما أنت ، فانك تتكلم دائماً باحتقار عن الناس الصغار، بينا أشفق أنا عليهم من أجل تعاساتهم ، حتى الألمانيين منهم . الألماني، من هو هذا ، في المحل الأخير ؟ إنسان مثل باقي البشر ، فيما أعتقد . وإن الألمانيين أنفسهم لايتسلون كثيراً في الأيام كلها . إن روحك هي العوراء . وَيّ ، ما رأيك في الانسانية ؟ هيا ، أجب ، وعجّل في الجواب أيضاً !

لم يكن تيونوف يشعر بأدنى رغبة في الاجابة على هذا الرجل نصف السكران ، ولكنه لم يجرؤ على الصمت أكثر مما فعل .

قال :

— حسناً ! مما لاريب فيه أن الأمور تسير على أسوإ ما يمكن بالنسبة إلى كل واحد من البشر .

فصاح فافيلو ، وقد سيطر عليه الحزن على حين بغتة :

— هكذا !

— سوى أن جريرة ذلك تقع نوعاً ما على عاتقنا ...

فهتف فافيلو :

— صحيح ! كم من الناس يسيئون التصرف .. نحوي ، ما ؟ ... إنهم يتساءلون ، في القرية : « فافيلو بورميستروف ، أي شيء هو هذا الرجل أخيراً ؟ » . ولكنك رأيت جيداً اليوم ، أليس كذلك ؟ إني أشرف عليهم جميعاً . عندما أتكلم ، فان الحشرات تلوذ بالصمت إني أجبرهم على الاصغاء إليَّ ، هل تفهم ؟ إني أحملهم على أن يأتوني بمقعد كي أجلس إلى المائدة . لقد قلت : « ضعوا المقعد هنا ، لأني أريد أن أتحدث جالساً » وهم لايتأخرون في تلبية طلبي ، فأجلس ، وآخذ بالحديث — والآخرون ، أين هم ؟ في الأسفل ، عند قدميَّ . على الأرض ، هل تدرك ذلك ؟ إنهم على الأرض حقاً وفعلاً ، وأنا فوق الباقين أسمو عليهم . وهذا هو السبب بالضبط في أني أرثي لهم

بلغا الجسر أخيراً ، فشرعا باجتيازه . كانت المياه تصطفق ، لاحسة الأوتاد المغروسة في قاع النهر ، كي تتدحرج فيما بعد إلى اللانهاية ، سوداء ، غامضة الأسرار . وكانت أقدام الرجلين تطرق أرض الجسر المتعفنة المتعددة الألوان بضوضاء صماء تعكس تردد خطواتها وعدم ثباتها

صاح فافيلو ، وهو يترنح :

بلى ، إني أرثي لكم جميعاً ! بالنسبة إليّ ، فاني لا أرى غير دواء واحد : أعطوني الحرية ... فليقدّر كل واحد منا ما يجب فعله وما لا يجب فعله ... فليتدبر كلٌ أمره وليدافع عن نفسه حسبما يفهم ذلك... واه ! إني لأود ، هنا ، أن أنشد شيئاً ما . . . مما يؤسف له ألا يكون أرتيم هنا !

توقف في منتصف الجسر ، وصاح بملء صوته في الليل المظلم :

— أر – تيـ – م !

وأسرع تيونوف فتقدم بضع خطوات ، ومن ثم أحنى ظهره وانطلق خبباً في اتجاه الضاحية .

— أرتيم ! أرتيم !

كان نداء فافيلو المخدوش يتوالى إلى الوراء منه ، بينا تكاد أنفاسه، هو تيونوف ، أن تنقطع وهو يكردح بسرعة متزايدة دائماً ، مفتوح المعطف ، متأبطاً بشدة عصاه القصيرة .

— هِيْ ! أيها الأعور ! أين أنت ؟

كان الصوت قادماً من بعيد فأدرك تيونوف أنه نأى مسافة كبيرة عن رفيقه ، فتوقف برهة وجيزة كي يسترد أنفاسه ، ومن ثم عاد فانتصب ، متنفساً الصعداء .

غادر فافيلو الجسر أخيراً ، وهبط على الضفة الرملية من ناحية الضاحية ، فراوده شعور مقيت بأن الرمال تختطف عقبيه ، وتجذبه إلى الأسفل ، إلى حيث لا يدري إلا الله ، بينا هواء الليل الثقيل والكثيف يئيد في إيلام على جفنيه المتعبين .

كان صوته مبحوحاً . وفجأة ، انتابته قشعريرة باردة ، فغمغم مضطرباً ، وقد أفاق نوعاً ما من سكرته :

— لقد ذهب ، هذا الشيطان الأعور ! حسناً ! ... حسناً ! ...

ورجع إلى وسط الجسر ، ومن ثم عاد فغادره بخطوات سريعة ، وألواح الأرض الخشبية تئن تحت قدميه وتزمجر ، ومن ثم توقف بغتة ، وقد ملك الهلع مشاعره .

همس في نفسه :

— وإذا كان وقع في الماء ؟ ..

اقترب من الحاجز ، وألقى نظرة سريعة على الموج المتحرك الذي يبرق تحت قدميه ويتلألأ ، ومن ثم هزّ رأسه مرات عديدات .

قال :

— وَي ! وَي !

ومن دون سبب أو مبرر ، طفق يلوح بيديه ويغني :

آه ! محياك الرخامي الصغير ،
لكم أود أن أدفئه بقلبي !

وعاد يغمغم :

— لقد خدعني هذا الأعور . لقد ضجر مني .. بكل تأكيد .

ومن ثم عاود الانشاد :

كلا وكلا ! إني لا أستطيع
أن أعيش من دونك ، يا عزيزتي ...

كان يرى نظرات أهل الضاحية الفضولية تبرق وتتلاشى في ذاكرته المهتاجة . يتطلعون إليه من الأسفل ، بينا يرمقهم هو بشيء من الازدراء من الارتفاع الذي يحتله ، وفي عينيه شيء يتذبذب مثل ذبالة الشمعات المشتعلة أمام الأيقونات في الكنيسة . وكان ذلك الاحساس الرائع ، المنتظر طويلاً ، الذي لا يعرفه إلا أولئك الذين يحلمون بالفتوحات ويطاردون المجد ، ذلك الاحساس الذي يثير عطشاً إلى الضوضاء ، والحركة المتسارعة ، والأفعال الخاطفة ، المفعمة جرأة وبطولة ، يستيقظ في قلب الرجل بين

ضلوعه ، ويتدفق عنيفاً آتياً جارفاً .

وكان يجرُّ قدميه في الرمال جراً ، ولا يني يتحدث لوحده بصوت مرتفع ، بالرغم من صحوه من ثمله ، ويرفع يديه في اتجاه السماء ملوحاً متوعداً . إن عضلاته ترتخي ، فيترنح تحت عنف الريح أشبه ما ويكون بجذع شجرة فتية مرنة .

وكانت بعض النيران ترى هنا وهناك في نوافذ الضاحية ، و« جنة فيليسيتا » ترتفع إلى الأعلى من الأكواخ مثل طاحون ينتصب وسط حقل مزروع بالأكمات الخفيضة . ولكن النور لم يك يتسلل مطلقاً من خلال المصاريع المغلقة .

قرر فافيلو بصورة مباغتة :

— سوف أذهب لرؤية صديقتي العزيزة لودكا .

واستولت على جسده موجة دافئة لذيذة لدى هذه الفكرة ، فاسترسل يقول في نفسه :

— سوف أروي لها كل شيء ، وسوف تفهمني . ذلك أنها الشخص الوحيد الذي يحبني . إن هذا الأعور الكلب قد غادرني مثل الآخرين. هيا ، إلى الجحيم ! .

وعندما اقترب من بوابة مسكن ويفودين القديم ، تقدم شيتيخ لملاقاته كعادته ، مع فارق وحيد . ألا وهو أنه انتصب هذه المرة في حزم أمام الباب الحديدي الصغير ، وسدّه بجسده الضخم العملاق

قال فافيلو بفظاظة :

— حسناً ! ألا تفسح لي الطريق ؟

فأجاب شيتيخ :

— في هذا اليوم ، ليس من سبيل إلى ذلك .

— كيف ؟

— إن لودكا مشغولة .

— أنت تكذب !

فلم يحتج الغفير على هذا القول ، ولم يحر جواباً .

قال فافيلو :

— إذن ، ما دام ليس إنسان عندها ...

فقال شيتيخ :

— بلى ، إن هناك بعض الناس .

كان العائق يهيج فافيلو ، فيرتعش رغبة لذكرى سرير لودكا الناعم المضياف ، ويحس القشعريرة تنتابه وتنفض أوصاله جميعاً .

استوضح ، أنبس الوجه :

— أهو المفتش جوكوف ؟

ولكن صُوِّر له ، لدى هذه الكلمات ، أن شيتيخ يتضاحك منه في سره ، فرمق الغفير طويلاً ، ورأى كتفيه العريضتين ترتجفان ، ورأسه تهتز أيضاً .

قال :

— ما بالك ؟

وإذ نسي ، في انفعاله ، أن شيتيخ يفوقه قوة ، فقد رفع قبضته في الهواء متوعداً ، ولكن أصابع شيتيخ الحديدية أطبقت على معصمه بعنف كثير .

قال غفير الجنة بصوت هادئ ، يكاد أن يكون مرحاً :

— إسمع ، أيها الأبله : لاتجمح ، وبصورة خاصة لاتصح ولاتعجل الأمور . إذا كنت تصرّ ، فسوف أفسح لك طريق المرور ، أخذك الشيطان ، ولكن بشرط وحيد .

— أي شرط ؟

— أن تظل عاقلاً ! إن سيما هو ضيف لودكا ، حالياً ؟

فصاح فافيلو ، وهو يخلص معصمه من يد الغفير ، ويتراجع إلى الخلف قليلاً ، مدهوشاً :

— من ؟

من ، من ! لقد قلت لك إن سيما ديفوسكين عندها الآن .

فردد فافيلو :

— سيما ؟

كانت المفاجأة تجمده في أرضه ، وتطبق على خناقه بشدة .

قال شيتيخ في خطورة :

— اذا ألحقت به أدنى أذية ، فالويل لك ! إنك تستطيع أن توجه إليه ضربة أو ضربتين كي تلقنه درساً ، لكن لا تذهب إلى أبعد من ذلك . هل تفهمني جيداً ، يا فافيلو ؟ أما لودكا ، فذلك شأن آخر . . إنك تستطيع أن تضربها ما شئت ، لا تحرم نفسك من لذة ذلك إنها لم تسرقه ، كما نها لم تحرم نفسها من ضرب الآخرين إنها حيوان كاسر ، ولابدَّ من عقابها ! اصفعها بقبضتك على بوزها ، حتى تتذكر ذلك مدى العمر لكن إياك أن تمسَّ سيما ، هل فهمت ؟ حسناً ! إنك تستطيع أن تذهب ، الآن ..

وفتح الباب الصغير ، لكن فافيلو ظل مشدوداً مامه ، جامداً لا حراك به ، وكأنما أوثق قياده ، متصالب الذراعين خلف ظهره ، مطرق الرأس فوق صدره .

قال شيتيخ دافعاً إياه :

— ولكن هيا إذن ، فلنرَ !

رفع فافيلو إحدى قدميه ، مثل جواد متعب ، محني الظهر ، واجتاز الباب الصغير دالفاً إلى الباحة . وهناك جرَّ نفسه في العتمة حتى عتبة الدارِ ، وجلس على إحدى الدرجات المبتلة ، مستغرقاً في التفكير .

ـــ « ياعزيزي الصغير ، المنسي من الناس جميعاً ... » .
كان يتذكر الكلمات العذبة التي تحبُّ صديقته أن تهدهده بها .
إن هياجاً مضنياً ، مجهولاً ، يمزق صــــدره ، ورأسه تدوِّم دون انقطاع ، ويديه ترتعشان بشدة ، والقلب منه يوجعه كثيراً .
قال في نفسه ، لكن دون قناعة :
ـــ لقد كذب شيتيخ عليَّ . إنه يكذب دون حياء ، الأبله ؟
تخيل سيما إلى جانب لودكا ، هذا الرجل الأخرق القبيح ، الباعث على السخرية ، وهو نفسه ، فافيلو ، الجميل القوي ، الذي تخشاه المدينة بأسرها .
وتساءل ، مطبق الفكين :
ـــ أفلا يكون سيما ساحراً ، مثلاً ؟
وفكر في عيني الشاعر الزجاجيتين .
رفع رأسه ، ونهض أخيراً على قدميه ، وأخذ يتسلق السلم ، ضارباً الدرجات بعنف ، وهازاً الحاجز بقوة كي يُصرَّ تحت ضغط قبضته . وراح يسعل ، ويتمخط ، مستهدفاً بذلك أن يعلن عن مجيئه قبل أن يحدث ما لا يمكن إصلاحه بعد ذلك . وعندما وصل إلى أمام باب لودكا ، ضربه بقدمه ، ومن ثم هتف بصوت مرتفع :
ـــ إفتحي !
فتردد صوت لودكا الهادىء في التو واللحظة :
ـــ من هذا ؟
فأجاب :
ـــ إفتحي الباب !
كان فم فافيلو جافاً ، ولسانه لايتحرك إلا بعناء عظيم .
ـــ أهذا أنت ، يافافيلو ؟

ولكن فافيلو ردّ عليها بأن دفع مصراع الباب بمنكبه ، وخلعه دون جهد تقريباً ، فتساقطت قطع من الخشب عند قدمي لودكا التي فتحت الباب بسرعة ، وصاحت وهي تعود القهقرى :

— ما الذي أصابك ؟ ماذا هناك ؟

جمد فافيلو برهة وجيزة على العتبة ، ومن ثم تقدم نحو المرأة ، وأحدّ النظر بعينيه الجاحظتين إلى محياها الشاحب ، المتجهم ، المفعم خبثاً . فانتصبت لودكا على طول قامتها ، حافية القدمين ، عارية إلا من قميصها ، وذراعها اليمنى إلى الوراء من ظهرها ، ويدها اليسرى تضغط حلقها مختلجة مضطربة .

بدأ فافيلو يقول بصوت متماهل مجروح :

— لودكا ! أهكذا تتصرفين معي ، أيتها الشيطانة ، ما ؟ أريد ...

وارتفعت قبضته ينتابها الارتعاش ، متأهبة لتوجه لطمة قاسية قد تكون مميتة . وكان الرجل عاجزاً عن الابتعاد بعينيه عن نظرة لودكا المخادعة العتيدة ، وهي تنتصب أمامه ، مستقيمة العود ، مثل وتر مشدود .

ولم يجد الوقت كي يعبر عن فكرته ، أو كي يضرب الفتاة أيضاً ، لأن هرجاً صاخباً ارتفع من تحت السرير في تلك اللحظة بالذات ، وذا رأس سيما الكثيف الشعر ينبثق من هناك على حين غرة .

أسرع الفتى يصيح :

— انتظر ، يا فافيلو ، انتظر حتى أوضح ...

أفلتت لودكا صيحة ثاقبة ، ثم انطلقت خارج الغرفة عدواً وخيل إلى فافيلو أنه تلقى ضربة هائلة على رأسه لم تك في حسبانه مطلقاً ، حتى لقد اهتز لها جسده بأسره وترنح ؛ وراحت دوائر حمر وخضر تتراقص أمام عينيه فلم يستطع أكثر من إلقاء نظرة سريعة في اتجاه الباب المفتوح على مصراعيه ، ثم سقطت ذراعاه دون قوة على طول

جسده ، وطفق يرى إلى سيما الخارج من تحت السرير زاحفاً بصعوبة جمة ، نصف عارٍ ، أشبه ما يكون بحرباء رمادية ضخمة الجثة .

تلعثم الشاعر ، مرتجفاً بهذه الكلمات :

-- إصفح عني ، أيها الأخ . إصفح عني .. إذا قبلت لودكا ، فقد كان ذلك إشفاقاً منها عليّ ليس غير . أقسم لك على ذلك وأنا ... فيما عداها ، لم يكن لي ، ليس أبداً أي إنسان . نت ، يا فافيلو .. أنت الانسان الشجاع .

كان فافيلو يحملق فيه بعينيه وكأنهما عميتا . وينحني أكثر فأكثر نحوة باستمرار ، ماداً ذراعيه بصورة غريزية في اتجاهه ، حتى أطبق أخيراً على عنقه الناحل الخافق في ذات اللحظة التي توصل المسكين فيها إلى الجلوس على أرض الغرفة . ورفعه قليلاً عن الأرض ، وتطلع طويلاً في عينيه ، فطفق سيما يحشرج ، وأظافره تخدش اليد العاتية التي تخنقه ، ومن ثم ألقى برأسه إلى الوراء ، وشرع يحرك لسانه وكأنه يريد أن يهزأ بجلاده ويستخف كما راح يدير عينيه في محجريهما بصورة مجنونة ، وقد انطبع فيهما منذ الآن عذاب الموت العتيد .

عندئذ ألقى فافيلو بسيما على الحائط و طبق على عنقه بأصابعه العشر ، وراح يشدّ عليه بقوة متزايدة ، فطقطقت الغضاريف بضوضاء مخيفة ، بينا راحت ذراعاه تسقطان ، عاطلتين مرتخيتين ، على طول جسده . وإما ازداد سيما ثقلاً شيئاً فشيئاً ، فقد هزّه فافيلو عدة مرات متتابعات ثم حل عقدة قبضتيه عن عنقه ، ودفعه عنه في نفور واشمئزاز ، فتهاوى عند قدميه دون ضجيج ، مرسلاً لدى سقوطه صدى الطابة الجوفاء حين تسقط على الأرض . وترنح فافيلو ، وتعلقت يداه المثخنتان خدوشاً بالأثاث من حوله . وأخيراً ارتمى على السرير دون حراك .

وحين وصل شيتيخ ، بعد زمن بدا له لا متناهياً في الطول ، يلحق

به شبحا فيليسيتا والطاهية الأبيضان ، وجد فافيلو متصلب الأعضاء ، منقبض الفم ، زائغ البصر ، يتأمل في شرود جثة سيما المطروحة عند قدميه.

سأله شيتيخ :

ـ ماذا فعلت ، أيها البائس ؟

فرفع فافيلو رأسه وتفحص الغفير من قمة رأسه حتى أخمصيه ، ومن ثم هب بقفزة واحدة ، وارتمى عليه بشراسة مثلما يرتمي كلب الحراسة الليلي على متطفل غريب . ولكن شيتيخ رده عنه بضربة حاذقة من قبضة يده أصابته في صدره ، فتراجع فافيلو تحت عنفها ، وتعثر بقدمي الميت ، فسقط على الأرض جالساً

طفقت النسوة يزعقن ، وشيتيخ يصيح دون هوادة ، ماداً قبضته نحو فافيلو ، ومن ثم اختفى الجميع ، ما عدا الغفير ! كانت شمعة متذبذبة اللهيب مشرفة على التلاشي تحترق على المائدة ، وظلال غير واضحة تتلاعب فوق الغطاء الرمادي ، وحول الشمعدان النحاسي ، وصمت جليدي يخيم على المكان، مرهق الوطأة .

وأخيراً عاد فافيلو إلى النهوض ، واتجه نحو السرير متمهلاً وجلس على حافته ، وطفق يسأل نفسه بصوت مخفوض ، وهو يمر بيـــده على صدره دون انقطاع :

ـ أيمكن أني قتلته ؟

فأجاب شيتيخ ، وهو يهز رأسه معاتباً معنفاً .

ـ مادمت أنذرتك ، أيها الوغد ، ألا تضربه ...

فهمس فافيلو :

ـ إني لم أضربه !

انحنى شيتيخ ، دون أن يرفع أنظاره عن فافيلو ، وجس جسد سيما ، ثم قوم عوده من جديد .

قال :

— يلوح أنه لا يتنفس مطلقاً ... ماذا لو حاولنا أن نرمي قليلاً من الماء على وجهه ؟

وعندئذ باعد ما بين ذراعيه ، وتركهما تسقطان على جانبي جسده واسترسل يقول وقد علت محياه سيماء الدهشة :

— يا لك من أبله ! يا لك من كلب متوحش ! ترى أتدرك ما صنعت يداك ؟ هل تعرف أي رجل قتلت ؟ في عداد الأشقياء ، واللصوص والقتلة الذين أنتم ، لم يكن سواه محبوباً من الله ... لم يبقَ أمامنا سوى تقييدك ، ما ؟

كان فافيلو يجلس على السرير دون حراك ، معتمداً إليه بكلتا يديه ، مخدد الجبين بالغضون . وتناول الحارس الشمعدان ، واقترب من القاتل مصوباً النور على وجهه ، فرأى قطرات العرق الكبيرة المتلألئة على جبهته ، وفكه السفلي المرتجف ، فكأن نوبة من الحمى غلبت أوصاله .

سأل ، وهو يضع الشمعة على المائدة من جديد :

ممن تخاف ، أيها الأبله ؟ نعماك إذا أصبحت مجنوناً .

وأرهف أذنيه : إن سكوناً ثقيلاً يسحق المنزل بعبئه وليس من ضوضاء ترتفع في الشارع ظل برهة في وسط الغرفة ، أخرس ، قد دسّ يديه عميقاً في جيبيه ، مختلساً النظر بطرف عينه إلى فافيلو الجالس أبداً في المكان نفسه ، محدودب الظهر ، مطرق الرأس .

وأخيراً تردد صدى خطوات لطيفة على السلم ، واقترب شخص ما في الظلمة حتى علا صوت تنفسه .

سأل الغفير :

— من هناك ؟

فأجاب صوت باشا الناعم :

ــ هذي أنا ، يا شيتيخ .

ــ حسناً ؟

ــ لم أجد الشرطة .

ــ إذن ينبغي الاسراع إلى المدينة .

فقالت باشا بصوت خفيض جداً ، بعد فترة وجيزة من السكون :

ــ أين يجب أن أقف ، أيها العم كوسما ؟ إني خائفة .

فأجابها الرجل :

ــ أجلسي على السلم وانتظري هناك ، فأنا باق هنا ، وليس ما تخافينه .

وسأل فافيلو ، على حين غرة بصوت يكاد ألا يُسمع :

ــ مع من تتكلم ؟

ــ أمن شأنك هذا ؟

ــ لمن الأفضل أن تتحدث معي .

فغمغم شيتيخ :

ــ أتظن ؟

ولكنه أضاف في صرامة :

ــ لماذا قتلت ؟

فأجاب فافيلو كمن يتكلم في حلم :

ــ وهل أدري ، أنا ؟ لقد فعلت ذلك دون إرادة مني ، صدفة فيما أظن . لقد سقط تحت الدولاب ، وهكذا ... أي سبب كان يدفعني إلى قتله ؟

واضطرب على السرير ، وصعّد زفرة طويلة .

اقترح :

ــ أفسلت تريد أن تجر الجثة حتى الدهليز ؟

فقال شيتيخ عابساً :

ــ ماذا ؟ إنك تجن ! أألمس هذا قبل قدوم الشرطة ؟

ــ لشد ما أريد أن يأتوا !...

ــ بدأت تشعر بالندامة منذ الآن !

فقال فافيلو ، متردداً :

ــ كلا . قلت ذلك هكذا ... وعلى أية حال ... فقد كان سيما شخصاً طيباً في الحقيقة ، كثير الخدمات .

وطقطقت ذبالة الشمعة ، وتذبذبت ، ثم انطفأت .

زمجر شيتيخ :

ــ يا للشيطان !

وعاد فافيلو فجلس على السرير وقد طوى ساقيه تحت جسده ، وصالب ذراعيه على صدره ، بينما تعلقت أصابعه بكتفيه ، وراحت أسنانه تصطك .

قال :

ــ أغلق الباب .

فسأل شيتيخ :

ــ وكيف ؟

وأضاف دون أن ينتظر جواباً :

ــ ولا تفكر ، على الأخص ، في الهرب ! إبق هادئاً !

فقال فافيلو :

ــ إنك أحمق ! أين تريد أن أهرب ؟ إذا أردت فاني أذهب إلى مركز الشرطة من تلقاء نفسي .

ــ حسناً ! لاتتحرك !

غمغم فافيلو ، تجتاح قلبه الخشية من السكون فيما يبدو :

ــ أتظن أني مغتبط بكل ماحدث ؟ ولكن لودكا .. لِمَ احتالت عليّ على هذا الفرار ؟

ــ إنكم جميعاً لا تساوون شيئاً .

ــ لقد أفسدتُ حياتي ، في سبيل لاشيء .

فأجاب شيتيخ بهدوء لا يتأثر :

ــ ذلك صحيح كثيراً ! الآن ، إنك إنسان قد انتهى !

وسكتا من جديد .

ابتدأ الليل يشحب فيما وراء الباب ، مفسحاً المكان لنهار رمادي ، عكر مثل الدخان . وفجأة تردد أنين شاك عند أسفل السلم ، ومن ثم أنين ثان ، وثالث أيضاً . كان شخص ما يصعد الدرج ببطء .

سألَ شيتيخ :

ــ من هناك ؟

فأجابت پاشا في تردد :

ــ الصياد .

وتضوأ عود ثقاب عند الباب ، تحت رأس الغفير مباشرة ، منيراً وجه أرتيم الغدارة المشوه ، فنهض شيتيخ في تثاقل ، وقد علت محياه أمارات الرضى بصورة بينة ، وقال :

ــ لقد فعلت حسناً إذ جلبت بندقيتك معك ، يا أرتيم .

فقال أرتيم موضحاً :

ــ كنت ذاهباً إلى الغابة عندما سمعت ماتريونا الطباخة تهتف بي : « تعال هنا ، أسرع » !

وأضاف

ــ أين فافيلو ؟

وأجاب فافيلو بصوت متكاسل :

ـ هنا .

ـ يا لطيف ، أيها الأخ الصغير ! لقد ارتكبت حماقة !

فصاح فافيلو مضطرباً :

ـ ولكن ما الذي يدعونا إلى البقاء في الدياجير ، ياكوسيا ؟ يجب أن تشعلوا نوراً .

ورآه شيتيخ ، في الظلمة التي تتبدد ، متكوماً أبداً على حافة السرير ، يرمع ذراعيه عالياً

قال :

ـ أواه ! يا أرتيمي المسكين ! إنك تراني في مأزق حرج . اقد ضيعني القدر ... بسبب امرأة ، بالطبع !

فصاح شيتيخ في ازدراء :

ـ يا للثرثار !

وأضاف ، مستديراً نحو باشا

ـ آتينا بقنديل ، يا پاشا .

ولكن فافيلو استرسل يقول في لهجة جريح ، متعجلاً التعبير عن نفسه :

ـ كنت أعرف جيداً أن ذلك سينتهي إلى سوء ، ومن سوء الحظ إني لم أخطىء . أما عن سيما ، فأقسم لك إني لا أفهم حتى الدور الذي يلعبه في هذه القضية . لقد كان كوسيا على حق ، كان يجدر بي أن أقتل لودكا .

فصاح شيتيخ ، مقترباً من القاتل متوعداً :

ـ إني لم أقل لك شيئاً ...

ـ بلى ! عند الباب ...

ـ من الذي سمع ذلك ؟ أهناك شهود ؟

ـ أنا الذي سمعت كل شيء . ولكن انتظر ، انتظر قليلاً ...

— لن يصدقك إنسان !

احتدم غيظهما وطفقا يصيحان وهما على أهبة أن يتماسكا بالأيدي ويتصارعان . ولكن پاشا رجعت بقنديل شاعل في تلك اللحظة ، فتناوله شيتيخ منها ، ورفعـــه عالياً فوق رأسه ، وأنار به فافيلو المكوم على السرير أشعث الشعر . منقبض اليدين على صدره ؛ ومن ثم جســـد سيما ، المنطرح أرضاً ، وأخيراً أرتيم الواقف قريباً من المدفأة . كان الصياد يشد على مدفع بندقيته ويبتسم ابتسامته الأبدية غير الارادية ، هذه الابتسامة التي لاتفارق شفتيه قط .

قال فافيلو ، متطلعاً إلى الآخر في نهم :

— ذلك صحيح ؛ إننا لن ننشد معاً بعد الآن قط . ما رأيك في هذا ، أيها الرفيق !

فبصق أرتيم من بين أسنانه .

قال :

— لو كنت أستطيع أن آخذ مكانك ، لذهبت إلى سيبيريا بدلاً منك بكل طيبة خاطر . لِمَ لا ؟ إن المرء يستطيع هناك أن يصطاد جيداً — وذلك يستحق ماتتكبده في سبيله من عناء — بينا هو يتعب نفسه ههنا مقابل لا شيء ! ثم إنه لايوجد كثرة من الناس هناك ، كما هي الحال هنا ... يا للخلاص !

فوافق شيتيخ ، وهو يتثاءب :

— هذا صحيح !

وصاح فافيلو في كآبة :

— آه ! وعلى أية حال ، ياصديقيَّ العزيزين ، يالبؤسي ! لسوف يحاكمونني . وإني لأوثر أن يرسلوني إلى السجن مباشرة ، بدلاً من سائر هذه الاحتفالات . ذلك أفضل بما لايقاس .

وطفق الغدارة يساقط كلمات عزائه من جديد ، في تماهل وفتور :
- مادامت الحياة في هذه الأرض الدنيا تساوي أقل من لاشيء ...
ردد هذا في نفسك ، ياصاح . أفلم يكتب سيما :
« الملل والهموم ،
ووجود كئيب ، مجرد عن السرور .
إن بيننا معمرين ،
ولكن ماذا يفعلون ؟ »
إذن فليسع كلٌ منا أن يبتدع شيئاً ما يخدع الملل به
فقال شيتيخ شاخصاً إلى الجثة :
- مثلاً ، لقد كان سيما يصنع الأشعار .
ورسم إشارة الصليب خفية كي لايراه أحد .
فقال أرتيم ، وقد ارتسمت عرة على خده المشوه :
- الله يعلم أي شيء لايمكن ابتداعه في عالم مثل عالمنا .
وتنهد .
واسترسل يقول بعد برهة :
- إني في السابعة والعشرين فقط ومع ذلك فكثيراً ما تراودني هذه الأفكار . وإني لأخاف بكل بساطة وربي . وهذا هو السبب في الحقيقة في إيثاري العيش وحيداً ، بعيداً عن الناس . تلك هي الوسيلة الوحيدة كي يتجنب المرء ارتكاب الحماقات .
فقال شيتيخ موافقاً :
- بلى . وأنا أيضاً .. عندما أجلس أمام البوابة الكبيرة ، فاني أفكر وأفكر ، ومن ثم أقول في وليجة نفسي ، على حين غرة : « ألا فليأخذكم الشيطان جميعاً ! ألا فلتلتهمكم النار عن آخركم ! » .
كان لايبرح ممسكاً بالقنـــديل ، يعلو بالذبالة ويهبط ، فينمو اللهيب

أو يتناقص ، جاراً معه مــد الظلال الرمادية وجزرها على الجدران ، والسقف ، والأرض .

غمغم فافيلو ، مرهقاً :

— ليقال إنه احتفال جنائزي .

ونظر أرتيم إلى شيتيخ وعليه سيماء المذنب تقريباً ، ومن ثم استرسل دون أن تغادر الابتسامة شفتيه :

— ويحدث لي أيضاً أن أعتبر نفسي أشبه بهمٍ عاش حتى الآن ماية من الأعوام ، وهو يعرف كل المعرفة ما سيجري غداً ، وبعد غد ، ودائماً ، من أمور .

ولاحظ شيتيخ ، مستغرقاً في التفكير :

— إنهم يضطربون كثيراً في المدينة في الوقت الراهن .

فأجاب أرتيم :

— هــذا صحيح ، فهناك صخب عظيم . كنت هناك البارحة ، وقبل البارحة أيضاً ... إن سائر النــاس يصيحون ، في وقت واحد ، دون أن يفهموا حقيقة الأمر . خذ مثلاً ، لقــد كان فافيلو يصيح ، هو الآخر قائلاً : إن الحرية تلزمنا كي يستطيع كل إنسان أن يفعل مايشاء . ربما كان على حق في ذلك . أما أنا ، مثلاً ، فلست في حاجة إلى مثل هذا النوع من الحرية . إني لا أريد أن أتقاتل مع أي إنسان كان ، إذ ماجدوى ذلك ؟ إن همي الوحيد هو أن يتركوني في سلام .

وأشار لدى هذه الكلمات إلى الجثة بحركة من رأسه .

واسترسل يقول :

— إليك هي ، الحرية ، أليس كذلك ؟ ما عسانا نفعل إذن « بهذه » الحرية ؟ ههنا تقوم المشكلة بأسرها . إن ستريلتزوف ، مثلاً ، لمغتبط

جدا . قال لي البارحة : « سوف أحصل على عدد من جوازات السفر ، كي يظنني الناس نبيلاً طوال شهر من الزمـــان ، ثم تاجراً في الشهر التالي ، وهكذا دواليك » .

فأعلن شيتيخ :

ــ إنه يذكرني قليلاً بسيما .

فوافق الغدارة ، بعد برهة من التفكير :

ــ بلى ، قليلاً .

وسكتنا فترة من الزمان .

أخذ شخص ما يتسلق السلم ببطء ، مرة أخرى ، فرفع الغـدارة رأسه ، متلصصاً ، مرهفاً السمع .

نادت روزا بصوت خفيض :

ــ كوسما !

ــ ماذا ؟

ــ إن الشرطة لم تأت بعد ...

ــ حسناً ؟

ــ أقول لك إن الشرطة لم تأتِ .

ــ إذن ما العمل ؟

ــ لست أدري .

قال فافيلو ، مستاءً :

ــ ما داموا لا يأتون ورائي ، فبئساً لهم ! سأذهب إلى المركز من تلقاء نفسي .

فصاح شيتيخ ، وقد قطب حاجبيه :

ــ عندما تقع جريمة قتل ، يتوجب على الشرطة أن تقدم إلى مكان الحادث دون تأخير ! إني أعرف القانون ، فقد كنت من رجال الاطفاء . .

وسألت روزا ، وهي تلقي نظرة مذعورة على الغرفة :
— ولكن لِمَ يلتهب القنديل دائماً ؟ إن النهار أشرق .
تطلع شيتيخ إليها في ارتياب ، لكنه أطفأ القنديل مع ذلك ، فأفسح الضوء الأصفر المكان لنهار ضارب إلى الرمادي . كان وشاح كثيف لا يبرح يخفي السماء وراءه .
أعلن شيتيخ :
— صحيح أن النهار أشرق .
واستدار نحو زاوية الغرفة ، ثم نحو الزاوية المقابلة ، وأخيراً قال مرتبكاً متضايقاً :
— ليس من سبيل آخر ، يا فافيلو . هلمَّ إلى المركز .
فوافق المجرم ، دون أن يتحرك من مكانه :
— هـــلمَّ !
فاقترح الغفير ، وهو يتناول حزامه من خصره :
— دعني أوثق يديك !
— حسناً ! هيا !
نهض فافيلو ، ومرَّ من فوق الجثة وقد أغلق عينيه ، واقترب من شيتيخ ، ومن ثم مدَّ له كلتا ذراعيه وقد أدار ظهره نحوه . ولكن شيتيخ بكَّل أزرار سترته على صدره ، وأصلح من وضع حزامه القماشي ، ولوى فمه قليلاً . ومرَّ بلسانه على شفتيه ، ولم يقيد وثاقه .
قال :
— ليس من ضرورة لذلك ! لست أظن أنك تريد أن تهرب !
فوافق الغدارة في سلطة :
— إنه لن يهرب أبداً بكل تأكيد !
وقال فافيلو بدوره

ـــ إني لن أهرب ، بشرط ألا « ألقاها » .

فغمغم الغفير :

ـــ أتظن ؟ مما لا ريب فيـــه أنها اختبأت في القبو حيث ترتعش فرقاً . هيا ، سِرْ !

وطفق يشخر على السلم ، ويتمخط ، ويتنهد دون انقطاع .

قال :

ـــ إني لأرثي لسيمون .. ألا فليمنحه الله الراحـة ! إني أرثي لك ، أيها الأحمق الكبير ... يا لك من أبله !..

وترددت صيحة معذبة في رأس السلم :

ـــ أيها العم كوسما !

كانت پاشا محنية فوق الحاجز ، تحرك يديها كمن يعقد حبلاً .

رد شيتيخ عليها ، وهو يلوح بيده في استياء :

ـــ حسناً حسناً ، يا دجاجتي الصغيرة !

وعندما خرجوا إلى الشارع ، توجه إلى أسيره ، مفترة شفتاه عن ابتسامة عريضة :

ـــ إن پاشا ، هذه الدجاجة ، تزعم أنه يجب تقييد وثاقك .

فسأل فافيلو بصوت أصم :

ـــ أي أذى ألحقته بها ؟ إني لم ألمسها قط ، ولم أتوجه إليها أبداً بأية كلمة جارحة .

فأوضح شيتيخ في رضى وحبور :

ـــ إنها لا تقلق من أجلك ، بل من أجلي بالأحرى .

وأضاف ، مستديراً نحو الغدارة :

ـــ يا لهـا من طفلة ، على أية حال ! طفلة مجردة عن كل ذرة من العقل ، بكل تأكيد . كان يجب أن تكون في دير للنساء . ولكنها

تعيش ههنا ، بدلا من ذلك .

كان أرتيم الغدارة يسير إلي جانب فافيلو دون أن يتطلع إليه أبدا ، ممسكاً ببندقيته تحت إبطه ، ومدفعها نحـو الأرض ، داساً يديه عميقاً في جيبي سترته المصنوعـة من نسيج أزرق اللون رخيص الثمن . وكانت حفاف قبعته الجلدية الكبيرة تقنع عينيه . ملقية بظل أسود على المحيا بأسره .

مشوا برهة من الزمـان في صمت ، وطبقة رقيقة من جليد الصباح تطقطق تحت أقدامهم وتتكسر .وكان الطقس أرزاً ، وألواح زجاج النوافذ الصغيرة تلوح كأنها تراقب جانبي الطريق ، ناعسة المظهر . إن الضاحية ما برحت غارقة في النوم ، غير مرتابة في شيء مما حدث مطلقاً .

أعلن الغدارة ، وهو يقف عن المسير :

ــ حسناً ، فأنا لن أصحبكما إلى أبعد من ههنا ... إني ذاهب إلى الغابة ، ولم أمر على « الجنـة الصغيرة » إلا كي أرى إذا كان فافيلو ارتكب جريمه قتل حقاً . وإن ذلك لصحيح من سوء الحـظ . إذن فاني أقول لك وداعاً ، يا فافيلو ، أليس كذلك ؟

مدّ فافيلو إليه يده وفي عينيه نظرة لاتفهم شيئاً ، فيما يبدو ، ممـا يجري حوله . فأمسك أرتيم بهذه اليد ، وهزها ، ومن ثم أدار ظهره بصورة مباغتة عنيفة ، وذهب دون أن يلتفت مرة واحدة .

أتبعه فافيلو نظاره طويلاً ، ثم غادر الرصيف كي يهبط إلى أرض الشارع

هتف شيتيخ به ، مثل الراعي الذي يحرس خرافه :

ــ أيان تذهب ؟

فأجاب فافيلو في خطورة :

ــ أفلست ترى ؟

فقال شيتيخ في دماثة :

— حسناً ، فأنت تعتبر نفسك أسيراً حقيقياً . حسناً ! لقد ابتدأت إذن تدرك جريمتك .

كان فافيلو يسير على طول الطريق ، متعثراً قليلاً ، وقدماه تحطمان الجليد الهش بين الفينة والفينة ، أو تتخبطان في الطين ، فيتابع طريقه بالرغم من ذلك جامد السيماء ، غير آبه ببرك الماء التي تغطيها قشرة رمادية ضئيلة من الجليد ، والتي لا يني يدوس في مثلها .

وفجأة ، انبثق كلب من مكان ما ، داساً ذيله بين طرفيه الخلفيين . راح يخب ، متخطراً ، هازاً صوفه القذر .

قال فافيلو ، دون أي خبث مطلقاً

— إذهب عني ، أيها الكلب الصغير .

فتطلع الكلب إليه بصورة جانبية ، مثل تيونوف ، وتوقف برهة وجيزة ، مركزاً انتباهه فيه ، ثم ذهب ، مولياً الادبار مثل لص خائف ، خفيض الذيل حتى الأرض .

وكانت الديكة تصيح بكل قواها ، هنا وهناك في أرجاء الضاحية ، تحيي الفجر الخريفي المشرق .

١١

خرجت لودكا من غرفتها منطبقة الفم ، واندفعت تهبط السلم بأقصى مايمكنها من سرعة ، ثم انطلقت في باحة الدار الخارجية حيث راحت تمشي في حذر فائق ، فهي حافية القدمين ، تخشى أن تُجرح بما انتثر على الأرض من قطع الزجاج والأنقاض . وأطبق الليل العليل على جسدها، فاقشعرت بفعل برودته ، ومدّت يدها في اتجاه البوابة الكبيرة تريد أن تنادي شيتيخ ، ولكن فكرة راودتها في تلك اللحظة فمنعتها عن ذلك .

قالت في نفسها :

— من سوء الحظ أنه سيما ، وليس رجلاً آخر . لسوف يسخر الجميع مني بكل تأكيد ... ياللعار !

ولكن الباب الحديدي الصغير فتح أثناء ذلك مرسلاً صدى قاسياً ، وتردد على الأرض وقع خطوات ثقيلة

سألت لودكا :

— أهذا أنت ، يا كوسما يتروفيتش ؟

فأجاب شيتيخ ، مقترباً منها :

— نعم ، هذا أنا ، ياحلوتي ! إذن فقد وليت الادبار بكل بساطة ؟ ..

— أسرع إلى الطابق الأول . سيمون ! لسوف يقتل سيما ! لماذا تركته يدخل ؟

عندئذ أمسك شيتيخ بلودكا من قميصها . وجرها إلى الوراء ، مزمجراً بصوت أبح :

— كي يضربك كما تستأهلين ! ... لماذا تذلين باشا دائماً ؟

وقبل أن يجد الوقت كي يضربها ، أفلتت منه وعبّدت تعدو في اتجاه الدار ، وهي تزقزق :

— فيليسيتا !

فقال شيتيخ بصوت خفيض ، وهو يتلاشى :

— حسناً ، حسناً ! لسوف أنال جلدك في أحد الأيام ، ولن تفلتي مني !

كانت بعض الأبواب تصطفق في الدار ، وصوت ربة البيت يتردد ، فيما يبدو ، في كل مكان في وقت واحد ، وأصوات غريبة ترتفع من كل حدب وصوب ، فكأن أثاث البيت بأسره ينقل من مكان إلى آخر .

توجهت لودكا نحو العتبة ببطء ، متجلدة الأعضاء برداً . ممسكة بيديها المرتجفتين قميصها الممزق في مواضع شتى ، مفعمة القلب حنقاً وألماً مبرحاً . وأوقفتها خشية معرفة ما وقع في الداخل برهة عند أسفل الدرج ، فاذا صوت روزا يطرق سمعها على حين بغتة .

كانت تصيح :

— النجدة ! النجدة !

وكانت ربة الدار تزعق بدورها :

— استدعي طبيباً بأقصى السرعة ، ياروزا ! وأنت ، يا باشا ، أسرعي في طلب أحد رجال الشرطة . ولكن أسرعي ، هيا !

اختفت لودكا ، دون أن تثير أية ضوضاء ، في زاوية من الرواق ، وراحت تنتظر الفرصة السانحة كي تمرّ إلى غرفة فيليسيتا . وهناك خلعت قميصها الممزق ، ووقفت برهة عارية لاتدري ماتفعل في حيرتها . وأخيراً حزمت أمرها : « يجب أن أذهب حالاً ! » .

ووقعت أبصارها في هذه اللحظة ، في المرآة ، على محياها المنقلب ، فانتفضت أوصالها جميعاً ، لكنها أسرعت تكسو نفسها بالثياب دون أن تضيع دقيقة واحدة ، مستعيرة ملابس فيليستيا المبعثرة دون ترتيب في

كل زاوية من زوايا الغرفة .

وهذه هي ، بعد لحظات قصار ، تجتاز شارع الضاحية الرئيسي ، عازمة على الاختفاء بعض الزمن عند صديقتها سيرافينا بوسكاريوفا ... وذهبت سائر جهودها في سبيل التخلص من الأفكار السود التي تهاجم فكرها المشوش أدراج الرياح ، وإن كانت تمشي بخطاً ثابتة في الظل المنتشر ، وهي لا تني تفكر طوال الوقت في أن الحياة لا تساوي في الحقيقة شيئاً كثيراً في آخر تحليل ، ما دامت مضطرة إلى البحث عن ملجأ عند امرأة لم تك تحبها مطلقاً ، وما دام رجل مثل شيتيخ يقدم على نزع ثيابها عنها ، ويجرؤ على تهديدها فكأنها أوضع الفتيات وأدناهن ، وما دام سائر الناس سيسخرون منها بسبب مغامراتها المضحكة مع سيا ...

وكانت تفكر في فافيلو بين الفينة والفينة ، أو بالأحرى في الكارثة التي لن يكون سبيل إلى إصلاحها إذا ما وقعت مرة ، والتي قد يقدم على اقترافها بدافع من العنف الذي يميزه والقوة الحكمية المخوف التي يتمتع بها . وكان هذا الافتراض يتوطد من حين لآخر ويصبح أشد إقلاقاً ورهبة باستمرار ، فيجبرها على الابطاء في المسير رغماً عنها . والتفت ، مرتجفة الأوصال برداً في وشاحها . تحسُّ أن سيلاً عتيداً من الهموم والمضايقات سينهال على رأسها ، وأنها لن تعرف قط كيف تنقذ نفسها من تياره الجارف ...

اجتازت الدرب المسدودة حيث تقطن سيرافينا دون انتباه ، مستغرقة في هذه التأملات الكئيبة التي تئيد عليها ، وإذ طرق أذنيها الرنين الكئيب المنبعث من ساعة القديس نيقولاس ، أعتق كنائس المدينة على الاطلاق ، توقفت فجأة أمام أحد الأبواب مرهفة السمع بانتباه . دون أن تدري كثيراً السبب الذي يحملها على ذلك .

كان تراكم دور الضاحية يرتفع فيما حولها قاتماً حزيناً وريح صرصر تهبُّ من ناحية المستنقعات تكنس الشارع ، وأغصان معراة تقرع الجدران

والأسطحة هنا وهناك ، وبعض الكلاب تعوي في البعد ، والهواء مأهولاً بأصداء كثيرة تنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وحزمت لودكا أمرها بصورة مباغتة :

— كلا ! سوف أذهب بالأحرى إلى دار جوكوف .

ولم تزد في التفكير ، واثقة أن ذلك أفضل ما تصنع في مثل هذه الظروف ، فأسرعت تحث الخطا في اتجاه الجسر .

كانت تمشي ، مناضلة ضد الريح الرهيبة التي تحنيها مثل قصبة ناحلة وتطويها . وتذكرت ، في نفور واشمئزاز ، المفتش الذي تقصده ، وجسده الفظيع ، وميله إلى السخرية دائماً من كل شيء ومن كل إنسان ، وفظاظته التي تخفي — كانت تعرف ذلك جيداً — انعدام الشخصية عنده . وتذكرت أيضاً عادات جوكوف المقيتة فلم تمالك أن تنتفض اشمئزازاً لدى هـذه الفكرة الشنيعة ولكن فكرة جديدة كانت تتسلل أثناء ذلك إلى ذهنها وتنمو ، فكرة حملت إلى شفتيها ابتسامة خبيثة راضية

حين وصلت إلى أمام باب المفتش ، شدّت على الجرس بعنف ، فأتاها من وراء الباب صوت امرأة عجوز مبحوح تسأل في قلق :

— من هناك ؟ ماذا تريد ؟

فأجابت لودكا بلهجة تتضمن معنى السلطان :

— افتحي سريعاً . أريد أن أرى المفتش جوكوف لأمر هام .

وشرعت العجوز وهي خفية عن الأنظار أبداً ، تطرح أسئلة مختلفة مناسبة للموقف ، فتردّ لودكا عليها وهي واقفة على عتبة الباب بعد ، تقرع الأرض بقدمها دون هوادة نافذة الصبر

قالت العجوز ، وهي تفتح الباب أخيراً :

— أسألك المعذرة ، إذ أن البرقيات وحدها تُجلب إلينا أثناء الليل . وما دامت الأحداث تكثر في كل مكان في الوقت الراهن ، فلا بد من

مضاعفة الحذر إذن .

وقالت الزائرة :

– كفى ، اصمتي !

استقبل جوكوف لودكا في المدخل ، حاملاً شمعة في يده ، ممسكاً بين شفتيه بلفافة ضخمة داخنة . طفق يقول ، مشدداً على المقاطع ، وعيناه تحملقان في سرور وغبطة فائقتين :

– يا للمفاجأة ! كيف أتتك هذه الفكرة ؟ ولكن ، ما أعظم أناقتك اليوم !

فقالت في دلال ، ودون أدنى تردد البتة :

– إني أضجر شوقاً إليك !

فقال جوكوف :

– إذن فأهلاً بك ! إني سعيد برؤيتك

ومن ثم انطلق يصيح بأعلى صوته ، كي تستطيع المرأة العجوز أن تسمعه :

– أعدي الشاي ، يا بيوتروفنا ! وبصورة أسرع من هذا !

وأخذ لودكا من يدها وجرّها بخطوات مترددة ، بينا المرأة تمرّر لسانها على شفتيها في رضى ، مستردة نفَسَها المنتظم وثباتها الواثق من ذاته .

قال الرجل :

– اجلسي ، بينا أشعل القنديل . لقد فعلت حسناً إذ قدمت لرؤيتي ، يا قطتي الصغيرة ! لقد مضت ثمانية أيام ونيف ، كما ترين ، دون ان أخطو خارج بيتي تقريباً ، سجيناً في قفصي مثل البوم في ثقبه . وإني لأتضايق من هذا الحبس حتى لأبكي ، مثل طفل صغير ... يا للشيطان ! لقد أحرقت إصبعي !

أبداً لم يتحدث بكل هذه السلاسة ، فراحت لودكا ترمقـــه بعينين جاحظتين ، مدهوشة متعجبة إنها تـكاد ألا تعرفه اليوم ، هو الفظ عادة ، المضمر الريبة بسائر الناس ، والمنطوي على نفسه حتى درجة بعيدة . كان يتحدث بلطف ، يبدو وديعاً بصورة غريبـة ، وإن راح يختلس ، بين الفينة والفينة ، نظرة قلقة نحو نوافذ قاعة الاستقبال .

استوضح :

ــ أكل شيء هادىء في الطريق ؟

ــ ولـكن بـكل تأكيد !. لماذا ؟ إن الليل بهيم !

ـ أعرف تماماً أن الليل بهيم ، ولـكن الأيام قصيرة جداً في هذه الأحيان حتى يثير الناس الضوضاء في الليل أيضاً . خـــذي مثلاً ... أفلم يرق لأحدهم ، البارحة فقط ، أن يضرب على زجاج نوافذي في ساعة متأخرة من الليل ؟ لقد طرق إحـــدى النوافذ أولاً ثم طرق نافذة أخرى يا للبعث الغريب ، على أية حال ! آه ! يا للبلهاء !

وإذ لم يتوصل إلى تثبيت بلورة القنديل ، فقـد أشرف هـــذا على الانطفاء ، الأمر الذي لم يضايق جوكوف مطلقاً فيما يبدو .

استرسل يقول بذات اللهجة الوديعة :

ــ يكفي أن يخرج المرء إلى الشارع كي يصطدم بحلوق مفتوحة تتبارى في بعث الاشمئزاز في نفسه . إن كل إنسان يصيح ، ويضطرب ، ويطالب بما لا أدري ..

وأخيراً ارتفعت شعلة القنديل ، فنشف جوكوف يديه الوسختين بطرف ثوب منامتـه ، وانسحب إلى زاوية في الغرفـة ، جاراً بضوضاء قدميـه المحتذيتين خفين ثقيلين من اللباد .

كانت الغرفـة تعبق برائحة الفودكا ، والتبغ ، والملفوف ، وأشيـاء مختلفة الحجوم مبعثرة في أرجائها ، وهي جميعاً في غير مكانهـا في هـذه

الغرفة التي يسودها اضطراب هائل وفوضى شاملة .

قال جوكوف ، واقفاً أمام مقصف صغير يتصاعد منه رنين الأقداح :

– إنك تسألين نفسك أين السرير ، أليس كذلك ؟ إنه في الغرفة المجاورة : إني أرقد ههنا على الكنبة ، بالرغم من كبر السرير وسعته !

قالت لودكا ، مقتربة منه :

– ماذا تفعل ؟ ماذا تريد أن تقدم لي ؟.. اسمح لي ! ما هذا ؟

فقال :

– هذا ؟ انتظري برهة .. يبدو أنه كونياك ، إلا إذا كان روماً بالأحرى . سأذوقه . إن هذه الخادم العجوز البلهاء تخلط دائماً بين الزجاجات .

انتزع السدادة ، ورفع الزجاجة حتى مستوى فمه ، لكن لودكا تناولتها من بين يديه .

همهمت :

– ستذوقها فيما بعد . فلنبدأ بتحضير المائدة كما يجب ، كي نجلس إليها بصورة لائقة وكأننا زوجان . تصور برهة أني زوجتك ، وأني قد عدت إلى الدار بعد غياب طويل عنها .

فصفع جوكوف جبينه براحة يده ، وهتف في شيء من الشرود :

– شه ! شه ! يا للفكرة المضحكة !

فأجابت لودكا في غنج :

– ولكن ليس في هذا شيء مضحك البتة ! إنك تستقبل الآن امرأة شابة قدمت لزيارتك . ولما يؤسف له حقاً أنك لا تفتش عن شيء أفضل من أن تخمر وتسكر ! لسوف تجد الوقت دائماً من أجل ذلك ..

فانفجر جوكوف في قهقهة مرتفعة ، وصاح بلهجة تبعث على الضحك :

ـ يالك من امرأة ! من دون هذر ، يالك من امرأة شيطانة !

كانت عينا لودكا تنقبان بلهفة في زوايا الغرفة ، وهي ترتب الآنية والزجاجات على المائدة متجولة في أنحاء المكان دون انقطاع ، قارعة المحبرة المصنوعة من المعدن الأبيض ، والمعروضة على المائدة بصورة بارزة واضحة للأنظار وكانت تقدّر ، خلسة ، وزن ملاعق الشاي ، وتهزُّ رأسها موافقة راضية .

أما جوكوف فيلاحقها بعينيه ، طارفاً بها بصورة مستمرة ، جالساً على الكنبة في تثاقل ، مداعباً شاربه طوال الوقت .. وكانت شفتاه تتحركان بصوت مسموع .

لاحظت لودكا ، وقد قطبت حاجبيها :

ـ ليست دارك مريحة .

فردّد المفتش ، مدهوشاً :

ـ ليست مريحة ؟...

فأجابت :

ـ الغبار في كل مكان ، وحاجيات عتيقة لا تنفع شيئاً . ليقال إن أحداً لا يعنى بأمور البيت ههنا . بخٍ !

ـ تلك جريرة خادمي العجوز .

فزمجرت اودكا مغتاظة :

ومع ذلك يقال عنك إنك رجل مثقف . أيمكن أن يحيا إنسان وجيه حقاً على هذا الغرار ؟

فتوسل جوكوف إليها ، وقد تغضن جبينه :

ـ كفى ، هيا ! إني سعيد جداً برؤيتك عندي ، فلا تفسدي عليّ سروري وعلى أية حال ، فلن أكون وحيداً ... في نيتي أن أشتري قطاً ، ولكني لا أجد قطاً جميلاً حسب ذوقي ...

جلست إلى جانبه ، ومسته بعطفها . ولكن ، عندما أحاط خصرها بذراعه ، قالت بلهجة شرسة :

ـ لماذا تلوح عجوزاً هكذا ؟

ـ لأني أضجر بصورة رهيبة ، يا لودكا .

ـ إن حفرتين ظهرتا تحت عينيك منذ الآن .

ـ لكن دعيني في سلام ، أتوسل إليك . الحفرتان تحت العينين ، هذا ليس بذي بال . لقد شربت كثيراً من الكحول في هـــذه الأيام الأخيرة ، وذلك كل شيء .

ـ أنت تبعث الشفقة في نفسي ! إن صحتك تفسد بصورة بينة جلية .

فهتف جوكوف :

ـ أنت تكذبين !

وهز رأسه نفياً .

قالت :

ولكن ، لماذا تريدني أن أكذب ؟

فأجاب :

ـ لست أدري ... العادة أنك لا ترثين لأي إنسان أو لأي شيء كان . إنك تكذبين !

قال ذلك بصوت ثابت قاطع ، وخفضت المرأة أبصارهـا في خجل وحيرة ، في حين تطلع المفتش إليها من زاوية عينه واستعاد هدوءه ووداعته قال :

ـ آه ! أيتها الصغيرة ، لشد ما يمكن أن تكون الحياة مضجرة ! يعني ليس معك ... لكن ، كما ترين ...

ولاذ بالصمت بغتة ، واصطفقت أهدابه . ومن ثم ضحك ، وقال متلعثماً :

ـ يا للشيطان ! لقد فقدت تماماً عادة الحديث ؟

حملت العجوز السماور ، وتلصصت إلى الزائرة بعينيها القميئتين بفأرة خبيثة ، السوداوين والمدورتين ، ومن ثم غادرت الغرفة وهي تهمهم بينها وبين نفسها ، مصطدمة بالأثاث في طريقها متعثرة به .

اقترح جوكوف :

ــ حسناً ، لنتناول الشاي : ذلك صحيح ، فأنا لم أكن أعرف نفسي مطلقاً ... كنت فيما مضى أعزف على الكمان الكبير ، أما الآن فلم أعد قادراً أن أستدر منه أدنى صوت لائق . كانت المرحومة زوجتي تحب كثيراً أن تصغي إلى عزفي لقد كانت لطيفة جداً ، زوجتي ...

استفهمت لودكا ، وهي متخذة مكانها إلى المائدة :

ــ إذن . . فأنت لا تصدقني ؟

فصبّ الخمرة في كأسين كبيرتين ، وأرسل ضحكة نبيثة ، ثم قال :

ــ إشربي !

فأصرت المرأة تقول :

ــ لماذا لا تصدقني حين أقول لك إني أرثي لك ؟ إني ارى رجلاً وحيداً مريضاً ، قد أخذ الموت يترقبه منذ الآن ، أليس ذلك صحيحاً ؟

فوضع المفتش كأسه الفارغة على المائدة بضوضاء ، وتمسك بمسند مقعده ، وحملق بعينيه في المرأة طويلاً ، بينما تضرّج محياه بحمرة ضاربة إلى اللون البنفسجي .

صاح بصوت متهدج أحاله الغضب أبح الرنين :

ــ إخرجي ! لماذا تقولين لي هذه الأشياء ؟ ما الذي يحملك على مضايقتي هكذا ؟

ولكنها لم تضطرب ، بل راحت تتلذذ بتذوق خمرتها ، في تمهل وكسل ، لاحسة شفتيها بهدوء ، مؤرجحة مذمرها كعادتها ، رامقة جوكوف بنظرة ملاطفة ومتحدية في وقت واحد .

قالت :

ـ صه . . لا تغضب ، بل جرب قبلاً أن تصغي إليَّ قبيل أن تغرق في السكر .

فصاح بها :

ـ لا أريد ! إني أمنعك عن مخاطبتي على هذا الغرار !

ـ يا لطيف : ما أخبثك اليوم !

ورغماً عن استمراره في الصياح ، فقد أدركت لودكا تماماً العجز المطلق الذي حل بهذه الكتلة من اللحم المتعفن . وبينا أخذ الرجل يستشعر الخشية ، كانت المرأة تزداد هدوءاً ، واثقة من نفسها ، لطيفة بصورة تبعث على اليأس .

قالت بصوت متصنع الوداعة ، أخن قليلاً :

ـ لقد انقضى زمن طويل ، يا صديقي العزيز ، وأنا أفكر فيك إني أفكر في أمراضك ، وفي حياتك المنعزلة ، وفي شيخوختك التي تقترب ...

فصاح :

ـ كفى ، قلت لك ! لقد اكتفيت من سماع حماقاتك !

كان يريد أن يظهر بمظهر الصرامة ، ولكن صوته يرتجف . ومحياه ينقبض ، مخددة سائر أرجائه بغضون كثيرة رقيقة . صعّد تنهيدة طويلة ، وصب لنفسه كأساً أخرى من الخمرة .

استرسلت المرأة تقول :

ـ ولا أهل لك ...

فهتف جوكوف ، ضارباً ركبتيه بمظهر المنتصر :

ـ بلى ، إن لي ابن أخ يدرس في قازان .

فأظلم وجه لودكا . ولاذت بالصمت برهة ، ولكن ما أسرع أن راودتها

فكرة جديدة مسلية على حين غرة ، فراحت تضحك بصوت خفيض ، طارفة بعينيها ، وأسنانها تبرق مثل اللآلئ .

قال :

ــ إنك ترين جيداً أني لست وحيداً تماماً في هذه الحياة ، ما دام لي ابن أخ .

فردت عليه المرأة دون تردد :

ــ ليس لذلك أدنى أهمية على الاطلاق ابن أخ ، أي شيء هو هذا ؟ إنه طالب ، وليس امرأة فيما أظن . ولكن يا صاح ، أنت بحالتك الراهنة في أمس الحاجة إلى المرأة في المحل الأول .. إلى امرأة صغيرة لطيفة تعرف كيف تعنى بك ، وكيف تدللك .

وانحنت في غنج ودلال نحو جوكوف ، ولمسته بجسدها المرن المفعم نسغاً ، فأطرق بعينيه وتصلبت أعضاؤه كلها .

قالت :

ــ أظن أولاً أن ابن أخيك لن يقبل أن يحيا معك !

فغمغم المفتش

ــ لمَ لا ؟

ــ لكن ، يا إلهي ! .. إن هناك إشاعات كثيرة في المدينة عنك .

وارتمت لودكا على مسند مقعدها لدى هذه الكلمات ، ثم سألت بلهجة قاطعة منحنية كالقوس فوق المائدة :

ــ هل تعرف . يا عزيزي ، امرأة ما تدعى زينو ، متصوفة وتاجرة من الدرجة الأولى في وقت واحد ؟

ــ لماذا ؟

ــ ولكن لأنها تعرف عدداً لايستهان به من الأقاصيص عنك . ثم إني أستطيع أنا الأخرى ، على أية حال ، لو كنت امرأة خالية من الحياء ،

أن أروي كل ما ألحقته من أذى بباشا المسكينة في يوم البشارة .

فصاح جوكوف :

— أفلن تنهي من مضايقتي سريعاً ؟

ومد لها كأسه ، عامداً ، وهو يقول :

- خذي اشربي ، أللهم مالم تكوني سكرتِ ؟

فأجابت لودكا :

— آه ! كلا ، عفواً ! أنا لست ثملة مطلقاً !

ونهضت عن المائدة ، دافعة عنها يد مضيفها .

سأل جوكوف للمرة العاشرة ، آسفاً لعدم تمكنه من السكر حتى الآن في هذا المساء :

— إذن ، ماذا تريدين ؟

— أريد فقط أن تنهي حساباتنا الصغيرة ...

وفكرت برهة ، ثم أضافت في إخلاص تقريباً :

— وربي ، إني أرثي لك ، أيها البائس المسكين ! أظن أن الموت لن يمهلك طويلاً ...

فزمجر جوكوف ، وقد عقد يديه متوسلاً :

— ياصغيرتي لودكا ، دعيني في سلام ، أرجوك .

— لسوف تسقط ذات يوم أرضاً ، وتكون النـ ـ نـ ـ ها ـ ها ـ ية ...

مد ذراعيه نحوها . وأراد أن يقول شيئاً ما ، ولكن شفتيه أخذتا بالرجفان ، وانقبض وجهه ، وانغلقت عيناه ، وراحت دموع كبيرة تتدحرج على خديه .

نظرت لودكا إليه في صمت طوال بضع ثوان ، ومن ثم اقتربت منه على رؤوس أصابعها ، وأخذت يديه ووضعتها بسلطان على خاصرتيها ، وبعد أن أمسكت به بعنف من أذنيه ، قلبت رأسه بشدة حتى تبارزت

تفـاحة آدم بشدة في عنقه ، حمراء بصورة غريبة ، أشبه بنصـلة حادة تنفذ من خلال اللحم المثقل شحماً .

قالت :

— أنت لم تشخ بعد ، لأنك لما تبلغ الأربعين ، ومع ذلك أضحيت شديد القبح ، مهلهلاً حتى هذه الدرجة . . . بينما أنا جميلة دائمـــاً ، حتى حين أبـكي .

فترجاها جوكوف ، وهو يشهق ، ويهزّ رأسه في كل اتجاه ، محاولاً أن يحرر أذنيه اللتين تحرقانه وتـكويانه :

— أخبريني ، لمَ أنت خبيثة معي حتى هذه الدرجة ؟

وأخيراً جلست لودكا على ركبتيه ، فتنفس الرجل الصعداء ، وقد تحرر من قبضتيها ، وأسند خده إلى صدر المرأة ، وطفق يعاتبها :

— ليس هـذا لطيفاً أبداً من قبلك ، يا لودكا ! لم أكن أعرفك على هذه الدرجة من الوقاحة ! ما الذي يحملك على هذا التصرف معي ؟ إني أقدم لك جزيل الشكر على زياريك لي ، ولكن لم العودة دائمـاً ودون انقطاع إلى تسلياتنا الصغيرة الماضية ؟ إني لأسأل نفسي عن ذلك ...

وراح يفكّ أزرار ثوبها بأصابعه المرتجفة ، يجس وهو يتكلم جسدها الدافئ الناعم مثل الحرير ويضغط عليه ، شاعراً أثنـاء ذلك أن قوة حية ، مثيرة ، تنفخ صدره وتطرد الخوف بعيداً عنه .

قال :

— فلنكن صديقين ، ما رأيك ؟ إني لا أسألك إلا شيئاً قليلاً جداً من الصداقة ، فهل تريدين ؟ أتحنين إلى ذلك بعض الشيء ، أنت الأخرى ؟ أما عن ابن أخي ، فدعينا من الحديث عنه ، لأنه لايستحق عناء ذلك . .

فجمجمت ، وهي تتجنب يديه :

— بلى ، إني أعرف ذلك ، كفـانا ثرثرة . ولذ ذهب إلى السرير

بالأحرى ، فالنهار لن يتأخر عن الاشراق فيما أظن . هيا ، تحرك !

نهض ، مبتسماً في مذلة ، وزمجر مثل كلب عجوز تمسح يد سيده عليه ، مشيراً إلى الغرفة المجاورة :

ـ خذى القنديل

وبينا هي تخلع ثيابها في غرفة النوم ، سألت :

مما لا ريب فيه أن خادمتك العجوز تسرقك ، أليس كذلك ؟

فأجاب جوكوف ، مجففاً بمنشفة مبتلة الدموع التي تملأ عينيه المحمرتين :

ـ بخ . بخ !

كانت لودكا الآن مجردة عن الثياب تماماً ، تمسح على جسدها العاري الزاهر اللون ، وقد تربعت على السرير ، وراحت تؤرجح رأسها الجميل وتقول في نفور :

ـ يا إلهي : ما أفظع هذا الاضطراب ! وهذا يدعي أنه مفكر ! الغبار ، والأقذار ! بخ ، بخ !

وكان المفتش يضحك ، عاجزاً عن رفع عينيه عنها ، ولا يني يفرك يديه طوال الوقت .

★ ★ ★

ما أسرع أن استغرق في الرقاد ، فاستدارت لودكا كي تطفىء النور ، وعندئذ شاهدت على الجدار صورة كبيرة لامرأة مستطيلة الوجه ، قاسية السيماء ، قد ركبت نظارتان أنفها ، ونتأ ثؤلول كبير قريب من منخرها الأيسر .

فكرت ، وهي تخفض ذبالة القنديل :

ـ يا للصورة الكاريكاتورية !

وغاصت الصورة ببطء في العتمة المدلهمة .

ـ أهي امرأته أم والدته ؟ امرأته بالأحرى ...

مدت لسانها في وجه الصورة وأطفأت النور ، فاجتاحت الظلمة الغرفة وغمرتها ، وبدا كأن الحياة توقفت فيها إلى الأبد

وتكومت لودكا تحت الغطاء تقول في فكرها الذي يتذبذب بصعوبة جمة :

— مما لاريب فيه أن الحيوان الصغير الآخر يقضي ليلته في مركز الشرطة ...

وهمست في نفسها ، قبل أن يتغلب النوم عليها نهائياً :

— يجب أن أبدأ بطرد العجوز . . وسأستخدم بدلاً منها كلودين ستريلتزوف .. إنها فقيرة عرجاء ...

★ ★ ★

وهذه هي تحلم . إنها تهبط جبلاً بسرعة جنونية ، والمنحدر يزداد صعوبة شيئاً فشيئاً والاندفاع غير الارادي الذي وقعت فريسة له يتفاقم في كل لحظة حتى لم تعد تستطيع سبيلاً إلى الوقوف . وحين أحست أنها ستقضي على نفسها في عدوها هذا نحو المدينة ، طفقت تطلق الصيحات تترى في ذعرها الرهيب .

وفتحت عينيها تنضح بعرق بارد : إن جوكوف يهزها بقسوة من كتفها . كان يقول :

— لشد ما تستطيعين أن تنامي ، يا دجاجتي ! ليقال إنك ميتة !

فأجابت في خبث ، دون أن تتطلع إلى المفتش :

— دعني في سلام ، فأنا لم أكد أغمض عينيّ طوال الليل . إنه الكابوس دائماً ...

وكان الآخر يسعل ، ويبصق ، ويردد في عناد :

— إنهضي ، ولكن إنهضي إذن ، أقول لك .. لقد دقت الساعة الحادية عشرة .. وقد يأتي بعض الناس لزيارتي . وهذه أنت .. ما برحت

تجرين أذيالك هنا . هيا ، إمضي !

رفعت لودكا رأسها ، وشخصت إلى الرجل برهة وجيزة . ومرّت بلسانها على شفتيها ببطء . بدا لها محيا جوكوف ، الأصفر الشاحب ، مخيفاً هائلاً : إن عينيه المحتقنتين دماً لأشبه بجرحين عميقين وكان يقف قريباً من السرير ، نصف عار ، تكشف شفتاه عن أسنانه ، باعثاً على النفور أكثر منه في أي وقت آخر .

قال :

— ستخرجين من سلم الخدم ، هل تسمعينني ؟

فالتفت لودكا بالغطاء .

قالت :

— إذهب عني !...

كانت تود أن تضيف شيئاً آخر ، لكن انتفاضة استياء أطبقت على عنقها بصورة مباغتة .

أما المفتش فدلف إلى الغرفة المجاورة المرتبة مورها حيث كان السماور يغلي مرسلاً صفيراً حاداً مستمراً .

أعلنت لودكا في وليجة نفسها ، وهي تجمّع أفكارها المشتتة أثناء ارتدائها ثيابها :

— لسوف تُسرّ العجوز كثيراً إذا ما طردني ، ولسوف يكون لها نصيب في حمله على اتخاذ هذا الموقف مني .

صُور لها أن جسدها المحطم يشكو ويتفجع كأن يداً شريرة تنهال عليه لطماً دون هوادة أو رحمة .

وطفقت تردد في دخيلة نفسها :

— لقد طردني بصورة رائعة ، مثل كلبة عجوز ، بصورة رائعة ...
إن يديها ترتجفان ، حتى لقد انزلقت كأس أمسكت بها على المغسلة

من بين أصابعها الطرية ، وسقطت على الارض حيث تكسرت إرباً صغيرة

صاح جوكوف ، وقد ظهر في فرجة الباب من جديد :

– حسناً ! ماذا يحدث ؟

فكرت لودكا ، مسرعة في ارتداء ثيابها :

– إنه يعنفني مثلما يعنف السائق جواده . إنك تطردني ، أيها الكلب العجوز المتعفن ! فليكن ! ولكن أخباري ستبلغك قريباً . لأني سأعرف كيف أنتقم .

ولفت رأسها بوشاحها الذي أخفى محياها ، ما عدا العينين الملتهبتين غضباً ونقمة ، ودلفت إلى الغرفة المجاورة حيث هتفت بجوكوف ، دون أن تتطلع إليه :

– حسناً ! إلى اللقاء ...

فمد لها يده مزمجراً . كانت أصابعه تضمّ ورقة من فئة الثلاثة روبلات ، فانتزعتها من بين أصابعه الضخمة في حذر ونفور .

قالت :

– شكراً .

– أهذا يكفي ؟

– نعم ، إنه يكفي .

– مرّي عن اليسار عن طريق المطبخ ... إلى اللقاء !

صعّدت لودكا تنهيدة عميقة ، وغطت محياها بصورة أكمل من ذي قبل ، وفتحت الباب بغتة واندفعت عبر المطبخ بعنف ، فكأن اللهيب يشتعل فيها . واجتازت الباحة ، ومن هناك خرجت إلى الشارع ، منقبضة الفكين خافقة القلب .

قررت :

– سأغدو لرؤية العجوز زينو . انتظر ، يا جوكوف ، انتظر برهة ،

فلسوف تبلغ أخباري إليك عما قريب .. طازجة طرية . .

وكانت تتجاذب أطراف الحديث مع المفتش الغائب ، وهي تفكر ، وتحث الخطـا ، وتشد من قامتها شيئاً فشيئاً .

إن سكوناً عديم الاستقرار ، منذراً بالويل والثبور ، يخيم على المدينة ، سوى صانع للبراميل ، في مكان مـا ، يضرب على برميله ثـــلاث دقات متتالية ، ومن ثم دقتين بعد فاصل قصير :

تُم - تُم - تُم ... تُم - تُم ...
تُم - تُم - تُم ... تُم - تُم ...



١٢

إن فافيلو بورميسيتروف يدب في زنزانة سجنه ، عاطلاً حائر الفكر ، وتتيه عيناه في شرود على الجدران المغطاة بكتابات غامضة ، المدنسة بالأقذار حتى منتصف ارتفاعها . مما لا ريب فيه أنه لا يزج للمرة الأولى في ذلك المكان الضيق المقفر حيث جلد أكثر من مرة ، وحيث مابرحت الحيطان تحمل آثار دمه المهرق .

إنه غارق حالياً في شبه نعاس ، والضعف الحكمي والانحطاط النفساني قد استوليا عليه ، فتتلاقى أفكاره وتتشابك ، ولا تكاد تولد حتى تتهاوى في العدم السحيق ؛ إن نفسه تطفح عذاباً ومرارة ؛ لقد تسممت حياته.

وبالرغم من أنه لم يكن يفكر مطلقاً ـ أو قليلاً جداً ـ في الفتى الذي قتله فان عيني سيما الشفافتين تتأرجحان بين الفينة والفينة في ذاكرته المضعفة ، فيروح يسبر غورهما في فضول مضنٍ ، ويجرب أن يتوسل إلى الميت ، منسحقاً نادماً :

ــ ولكن يالها من فكرة أيضاً ، وربي ! لماذا رميت بنفسك في طريقي ؟

ويخيل إليه أحياناً أنه لايحيا إلا حلماً رديئاً سوف ينتهي بين لحظة وأخرى. لمن المستحيل أن يكون ذلك المجنون قد احتل المكان الخاص به ، هو فافيلو ، على صدر لودكا الناهد ! ذلك غير ممكن في الحقيقة . .

ولكن ، ما أسرع أن يتذكر ذلك الجسد الأنثوي الذي لا يشبع ولا ترتوي له غلة ، وذلك الصوت الأخن الغنائي ، وتلك النظرة الساحرة المنبعثة من تينك العينين الزرقاوين ، فيدرك أن كل شيء متوقع من هذه الفتاة المفعمة شروراً وعيوباً ، فيشد على قبضته ، ويصر بأسنانه ، ويكاد أن

يزمجر بيأسه ... ليصور له أحياناً أن يداً خفية تنشر بقسوة ووحشية صدره ورأسه ، وجسده برمته ، فيهتاج ، ويُزبد غضباً ، ويذرع أرض الغرفة دون انقطاع مصطدماً بالجدران ، والسرير ، والمائدة ، فكأن عينيه قد عميتا .

غمغم ، مغلوباً على أمره :

— ليس صحيحاً أني لم أكن أحبك ، ياصغيرتي لودكا ! أهناك شخص آخر ، أيتها الفتاة اللعينة ، أعز على قلبي منك ؟

كان قلقاً حتى الدرجة القصوى ؛ فليس شيء يبدو في عينيه مبالغاً فيه ؛ بلى ، لقد كان يحب هذه المرأة حباً شريفاً مخلصاً ، حباً مجرداً عن كل غاية ، مالئاً لحياته . وهو لم يبق إلا من أجلها ، من أجلها وحدها ، في هذا المكان البغيض ، عاطلاً عن أي عمل ، بعيداً عن كل طموح . كما لم يسمُ إلى مجد مغوار الضاحية الأول وأكثر فتيانها حباً للقتال إلا من أجلها أيضاً

ردد في عناد ، مشفقاً على نفسه :

— كل حياتي من أجلك ، يا لودكا !

إن فكره يريد أن يرتفع مرة أخرى ويسمو ؛ أن يقفز ، كالطابة ، إلى الأعلى على الدوام .

كلَّ أخيراً وتراخت أوصاله ، فأجال نظرة يائسة على الجدران ، شاعراً أن الاعياء يتملكه مثل جواد مضني يلفظ أنفاسه الأخيرة في حفرته الموحلة المقيتة .

وقال في نفسه ، جامداً أمام شبك النافذة الحديدي :

— لقد نسيني الناس . وليس من يسأل عني أبداً . حقاً إن القدر قد سخر مني ...

وينقب بأنظاره في باحة السجن المغطاة بعشب أصفر ، المحتفرة في مواضع

عديدة . إنَّ بعض النقالات المنتصبة نحو السماء ، وعدداً من عربات الاطفاء المتعفنة ، تتفسخ هناك في إهمال مطلق ، وجياداً قليلة تهز رؤوسها ، قريباً من باب الاسطبل ، وتحرك أشداقها دون انقطاع ، وقد كشر أحدها ـ وهو حيوان متعظم رمادي اللون ـ عن أسنانه ، فكأنه يبتسم ابتسامة مغرقة في الكآبة . إن حفرتين عميقتين تغوران تحت عينيه ، ورباطاً أسود يلتف على ساقه اليسرى ، فيلوح أشبه مايكون بأرمل مُراء يبعث على السخرية

إن هيكل عصفور مسمراً فوق الاسطبل لدرء أمراض الجياد يتأرجح بلطف تحت نسمات الهواء ، وجمجمة تيس تنتصب على قمة السطح بقرنيها الطويلين ، قد غسلتها الأمطار وبيضتها ، وطفقت رؤوس الأشجار المعراة تنحني نحوها في حركة لاتتعب مطلقاً .

وهؤلاء بعض الناس يذهبون في باحة السجن ويأتون ، منظرهم كئيب مذعور ، يتكلمون بأصوات خفيضة ، مطرقين رؤوسهم نحو الأرض .

ويفتح فافيلو مصراع نافذته ، فتنفذ إلى زنزانته روائح قوية هي خليط من الزبل ، والقطران ، والجلد ، وأشياء أخرى ! .. ثم إن هرجاً غريباً يأتي من ناحية المدينة التي تلوح في غليان شديد .

فكر فافيلو في غيرة :

ـــ دائماً هذه الضوضاء هناك !

وإما تذكر كيف أنه كان محور هذا الجمهور أرسل تنهيدة عميقة وبصق على الجدران في خبث ، حائراً يلتهمه الملل مثل لهيب باطن أبدي ، وشرع يفكر من جديد في لودكا مجرباً أن يهدىء من اضطرابه . وانقبضت يداه ، وراح ينذر ويتوعد :

ـــ أيتها الكلبة ! يا وغدة !...

وأثار في ذهنه ذكرى تيونوف أيضاً :

ـ هذا الأعور الشيطان ! هـذا امرؤ سيعرف دائماً كيف يتدبر الأمور ، أأمطرت السماء أم صحت !..

ولكن الأفـكار السود التي تدور حول سيما ـ المحاكمة ، وتوقع النفي إلى سيبيريا ـ تقطع عليه سائر السبل وترهقه ، فيعجل العودة إلى سريره الصغير ويتهالك عليه خرقة إنسانية بائسة .

★ ★ ★

ومر يوم على هذا الفرار ، وجاء يوم ثان في أعقابه . وهذا كابندوك ، الشرطي ، يدلف إلى الزنزانة بعد ظهر اليوم الثالث ، ويجلس على سرير الموقوف دون أن يغلـق الباب وراءه ، ويوجـه إلى ظهره لطمة عنيفـة تحية منه وتحبباً .

سأل :

ـ أتنام دائماً ؟

فأجاب فافيلو بشراسة :

ـ دائماً ! ماذا تريدني أن أعمل ؟ والتحقيق ، متى سيبدأ خيراً ؟

فرد الشرطي عليه ، متنهداً :

ـ هذا ، أيها الأخ الصغير ، لا أعرف عنه شيئاً البتة . إن لدينا قططاً أخرى نجلدها حالياً .

ومن ثم أضاف ، شاخصاً إلى الجدار بعينيه الواسعتين القصديريتي اللون :

ـ مثلاً ، أتعرف ماحدث لنا مؤخراً ؟

وقبل أن يستطيع فافيلو سبيلاً إلى الجواب ، استرسل الشرطي قائلاً :

ـ فقد منحونا الحرية !

فسأل السجين ، غير مبالٍ على الاطلاق :

ـ لمن ؟

— ولكن للناس جميعاً ، شه !

وتناول كابندوك علبة تبغ من كم معطفه ، وغليوناً من جيبه .

قال ، وهو يحشو غليونه :

— بلى ، هكذا ! ولسوف ترتّل اليوم المدائح للاله في الكاتدرائية بهذه المناسبة . إنه العفو العام ...

طفق فافيلو يترقبه ، وثم نهض ببطء ، وتقدم فجلس إلى جانب الشرطي.

سأل :

— ولمن نحن مدينون بهذا العفو ؟

— للقيصر ، بكل تأكيد .

— والعفو يشمل جميع الناس ؟

— مادمت أقول لك ذلك !

— إذن ، أنا أيضاً !

— طبعاً ! ولمَ لا ؟ مادام العفو عاماً ، فليس من مبرر لأن تشذ أنت عنه .

فقال فافيلو بصوت منطفىء

— ولكن أنا ، يجب أن يحاكموني على أية حال . الحرية ! آه ، يا الشيطان ! لقد عرفوا كيف يختارون الوقت الملائم كي يعطونا إياها ، الحَرية ! أنا ، إني أسخر منها !

كان يلوح قلقاً مبلبل الفكر ، يصغي في ارتياب إلى نفس الكلمات التي ينطق بها يا رب . كم مرة أحس ، وهو يتحدث عن الحرية ويحلم بها ، ذلك الشيء العصي على التعبير الذي يطبق على خناقه بصورة رائعة ! كم من آمال غامضة ، لكن مغرية ، ارتبطت من قبل بهذه الكلمة الوحيدة ! ماذا يبقى منها في الوقت الراهن ؟ إن تلك الكلمة لاتوقظ

إلا صدىً ضئيلاً في هذه النفس حيث كل شيء فراغ وعدم . .

ولكن كابندوك يدخن أثناء ذلك ، ويبصق على الجدران ، ويسترسل في الحديث باطمئنان مطلق :

ـــ إني أرى من هنا الصخب الذي لابدّ حادث بكل تأكيـــد . مادمنا أحراراً في أن نصنع كل ما يخطر لنا ، فلن يلهبنا أكثر من الانتقام لأنفسنا . وكيف ...

وفجأة ، نهض فافيلو واشمخرّ بأنفه ، قائلاً :

ـــ حسناً ! دعني أخرج .

فأجاب الشرطي ، وهو يهزُ رأسه :

ـــ انتظر ، فأنا لا أستطيع ذلك حالياً . إني لم أتلق الأمر بعد ، ولم آت إلا بدافع من الصداقة ، بكل بساطة . وفيما عدا ذلك ، فلست أقدر أن أفعل سوى ما يأمرونني به . ومنذ اللحظة التي يقولون لي فيها : « حسناً ، يا كابندوك ! إنك تستطيع أن تطلق سراح فافيلو بورميستروف »، سأجيء أعلن لك أنك حر . أليس كذلك ؟

وسأل فافيلو ، متفاقم التشكك :

ـــ وسيما ؟

ـ ذلك شأنـك ، وليس يعنيني في كثير أو قليل ، ما دمت لست أباه ولا أخاه . .

فقال فافيلو ، مقترباً من الباب في حزم :

ـــ دعني أخرج ، على أية حال .

فأفرغ الشرطي غليونه ، دون أن يحاول اعتراض سبيله .

قال :

ـــ ولكن أين تذهب ، أيها الرجل المضحك ؟... هذا أنت تريد أن تعدو الآن إلى حيث لايدري إلا الله ، بعد أن بقيت طوال الوقت نائماً !

هدوءاً ، ياصاح ، هدوءاً !

لو أن كابندوك حاول إيقافه ، إذن لأفلت منه بأي ثمن كان . ولكنه خار بغتة ، إذ لم يصطدم بأية مقاومة ، وجمد في مكانه لا يأتي نأمة ، مستنداً بظهره إلى الجدار : إن رأسه يدوم بعنف ، وساقيه ترتخيان تحت ثقل جسده . ونفض كابندوك الرماد عن ركبتيه ، وطفق يروي في كسل كيف يتصرف السكان في وقاحة مخيفة ، فهم لايريدون بعد الآن أن ينتظروا شيئاً أو إنساناً مطلقاً ، وكيف انقلبت المدينة رأساً على عقب ، وكيف لم يعد النظام إلا كلمة جوفاء ، فارغة من المعنى .

كان يقول :

— ما أكثر ما يحدث من أمور ... ايخيل إليك ، وربي ، أن كل إنسان ، أرجلاً كان أم امرأة ، قد أصبح أصلع الرأس على حين غرة .

— كيف ؟

— ذلك أن الجميع يلوحون ياصاح ، كما ترى ، وقد أصبحوا يملكون نفس المحيا ، وذات المظهر ، مثلهم مثل السجناء مثلاً . إنهم يكردحون في كل الاتجاهات ، عاجزين عن البقاء في مكان واحد ، فكأنهم مجانين لا يملكون ذرة من عقل . ذلك أن السلطة لم تعد تجد الوقت كي تعنى بالناس ؛ إنها تفكر في وليجة نفسها : « أيها الخنازير ، تدبروا أمركم قدر ما تستطيعون ... وليحدث أي شيء كان » !

ويحتدم غيظ كابندوك بصورة مباغتة ، فيخرج متجهم الوجه ، صافقاً الباب وراءه بشدة . وعندئذ يرمي فافيلو نظرة متسائلة على هذا الباب ، ويقترب منه دون عجلة من أمره ، ويوجه إليه ضربة قوية بقدمه ، فاذا الباب يفتح ، مرسلاً صريراً ثقيلاً ، مفسحاً الطريق لفافيلو الذي يلقى نفسه في الرواق المظلم ، حيث رفع عقيرته بالصياح ، هاتفاً بصوت صارم :

ـ أنت ! هناك ! أتريد أن تغلق الباب أم لا ؟

وإذ لم يتلق جواباً ، وقـــد توقف برهة وجيزة ، فاغر الفم ، على وحيد زنزانته . وعلى حين بغتة ، انتابه إحساس حكمي بأن قوة خفية أطبقت عليه ، وراحت تدفعه قدماً بصورة لا تقاوم كيف السبيل إلى مقاومتها ؟ أغلق الباب وراءه ، واجتاز بهدوء متلصص الخطوات ، ذلك الرواق الذي يعرفه جيداً ومنذ زمن طويل . إن القشعريرة تنتاب جسده بأسره دون انقطاع ، متلاحقة الأمواج ، ودوياً مزعجاً يملأ أذنيه ، وهو يمشي في حذر فائق ، ساعياً ألا يثير أدنى ضوضاء مطلقاً . ولكنه يود ، بالرغم من ذلك ، أن يسرع الخطـا ، أن يعدو ما استطاع سبيلاً إلى ذلك . وحين شاهدت عيناه المسحورتان الباحة الخـارجية ، بعربات الاطفاء المهجورة هنـا وهناك في أرجائها ، أصبحت رغبته في الاسراع والركض لا تقاوم .

بلغ الاسطبل بقفزات قليلة قام بها برشاقة ومرونة بينتين ، وتسلق السلم الملقى على جانب هذا الاسطبل ، ووصل إلى السقف ، ومن هنـاك قفز إلى حديقة مزروعة بالخضار ، وتمدد على الأرض فيها ، وتطلع في كل حدب وصوب مرات متتالية ، ومن ثم نهض ، وانطلق كالسهم عبر المزروعات .

ولكن ما أسرع أن تكوم في إحدى الزوايا . بين بعض العنابر ، وقد انقطعت أنفاسه ، وبلغ الاعيـاء منه مبلغاً بعيداً . وجثـا على ركبتيه ، وأرهف السمع يصغي إلى الأصوات التي تطرق أذنيه .. إنه يسمع أصواتاً بشرية عن الجانب الآخر من الجـدار ، فكأنها خطوط البرق تدوي في الهواء ؛ إن هذه الأصوات تزمجر ، مبحوحة ، متسارعة النبرات ، قلقة النغمة .

ألقى فاسيلو نظرة إلى الوراء منه . فشاهد شيئاً كالعصا أمسك بـــه

بشدة ، وتقـدم خطوة إلى الأمام ، وألصق محيـاه بفرجة مفتوحة في الحائط ، فشاهد حوالي خمسة عشر شخصاً من أهالي المدينة قد تكدسوا في درب غير نافذة . وخيل إليه أنه يعرفهم ، وقد شكلوا جماعة كثيفة ، وراحوا يتناقشون في اهتمام زائد وقلق بين . إنهم يرتدون جميعاً ثيابـاً دافئة ، والبعض منهم يلبسون أحذية من اللباد ، بالرغم من أن الثلج لما يساقط بعد ، يحومون فوق كتل من الطين المتجلد ، أو يذرعون الأرصفة في جيئة وذهوب لاينقطعان

ورنَّ صوت يقول :

— لقد قلت لامرأتي : لابأس ! الآن ، لم يبق أمامك إلا أن ترقدي ، إذ لم يعد هناك ما تخشين ... ولكن عجوزتي لم تكد تسعى إلى فراشها حتى هزت الدار ضوضاء هائلة : إنهم جماعة من البلهـاء يرمون مصاريع واجهة الدار بسيل من الحجارة ..

وردَّ عليـه صوت آخـر بادي الحـذر ، يبدو أنه يزن كل كلمـــة يتفوه بها :

— يلوح أن هناك عصابتين تزرعان الهلع في المدينة : الواحدة يقودها كوجيمياكين وأعور الضاحية ، والأخرى يقودها موظف البرق كوليا والأحدب ...

— هذا صحيح ...

— إذن ، ما عسـانا نفعل

إن فافيلو يرتجف من البرودة والهياج في وقت واحد « ما العمل؟ »

إن هذا السؤال القدري الذي يتردد دون انقطـاع يرن في ذهنه ، ويقيده أبداً إلى زاويته مثل الكلب في مكان مبيته . إنـه لايحب هؤلاء القوم الميسورين ، وهؤلاء يقابلونه بالمثل أيضاً ، الأمر الذي يعرفه حق المعرفة . ولكن عواطفه اليوم غامضة ، مثلها مثل كتلة من السحب في

سماء رصاصية مثقلة بهـــا : إن بريقاً يتضوأ بين الفينة والفينة ، ولـكنه ينطفىء في اللحظة ذاتها .

وكانت الجماعة تتضخم في تلك الأثنـاء ، والهياج يتفاقم بقدر تضخمها.

وروى بعض الحاضرين بصوت خفيض أشبه مايكون بصوت الشماس عندما يقرأ الانجيل في الـكنيسة :

— إن امرأة تدعى زينو ، ترافقها امرأة مجهولة الله يعرف من أين قدمت ، تعبران المدينة في كل حدب وصوب . إنهما تنشران الاشاعات ، وتنثران الهلع ..

ولـكن صيحة معذبة قاطعته :

— هؤلاء أهل الضاحية قادمون !

وارتفعت صيحات مذعورة أخرى :

— إنهم يعدون خمسماية على الأقل ، فيما حول الـكاتدرائية .

— أهل الضاحية ، إنهم الطاعون !

— إن فافيلو بورميستروف وحده يساوي عشرة آخرين !

— فافيلو ! ولـكنه في السجن بسبب جريمة قتل !

— هراء ! اليوم لم يعد سجناء : إنه عصر الحرية !

تنحى فافيلو بسرعـة عن السور ، مذعوراً ، راضياً على الرغم من ذلك بهذا المديح بحقه . وراودته رغبة عنيفة ، طوال برهة قصيرة ، في أن يقفز من فوق السور ، ويسقط في وسط هؤلاء القوم : « أي جنون وذعر إذن ! . »

ابتسم ، مغمض العينين ، وتقلصت عضلاته بكل ما منحها الله من قوة .

وكان أهـــل المدينة يدوون وراء السور ، مثل خلية نحل ثارت ثائرتها .

— يقال إن سائر الكنائس ستغلق ، إذ يلوح أنها مؤسسات مغلوطة .

— البارحة فقط كان كوجيمياكين يؤكد أن ليس من إفراط يخشى جانبه .

— هذه الحرية ، مارأيك فيها ؟ أهي خير ؟ أهي شر ؟

— لسوف تكون نتيجتها الأولى الدمار الشامل بكل تأكيد .

— مها يكن ، فان سوء الأحوال يتضح في كل مكان ..

— أنا . إني أقول لك هذا : لو كنت في مكان محافظنا . لقد كنت أسرع في رد هؤلاء الأشقياء وأبناء الأشقياء إلى عقولهم ؟

— ما العمل إذن ؟ ما العمل ؟

— ههنا المشكلة كلها !

وفكر فافيلو ، مضمراً الشر :

— آه ! يا للأوغاد ، ما أشد ذعرهم !

إن قلق السكان يفرحه بل يهيجه ، ويملأ قلبه شجاعة وإقداماً .

ويروح يراقب تلك الوجوه القلقة بانتباه ، ويرى جيداً أن هؤلاء القوم الأقوياء ـ المالكين ، والتجار ، وسواهم ـ يشبهون قطيعاً من الغنم أضاع ، لفترة ما ، التيس الذي يقوده

وأحس على حين فجأة ذلك اللهيب الذي يسكره ينبثق فيه ناراً لاهبة تتفجر ، وترفعه بعنف ، وتلقي به فيما وراء السور . وسقط في وسط الجماعة المتجمهرة مثل جذوة مسعرة ، وما أسرع أن بثّ اللهيب في القلوب والأذهان .

هتف ، رافعاً ذراعيه نحو السماء ، مدوماً كالحدروف حول أناس ذعروا لظهوره المباغت :

— أيها المسيحيون ! أيها المسيحيون ، هذا أنا فافيلو بورميستروف ! اضربوني إذا شئتم ، ولكن أصغوا لي على أية حال ! أواه ! ياأخوتي

الصغار : الآن وقد فهمت ، فإني أريد أن أفتح لكم روحي بأسرها .

ابتعد البعض واقترب البعض الآخر يحثهم الفضول . وضربه أحد الموجودين دون مبرر ، لكن ما أسرع أن أفلت عصاه مذعوراً واجف الفؤاد وأخذ آخر يزجر بصوت مفعم حزناً ، فجثا فافيلو على الأرض في حمية ، ومد ذراعيه إلى الأمام منه وألقى هذا النداء :

ـ اضربوني ، أيها الأخوه الصغار ، اضربوني ما شئتم ! هذا عصر الحرية ! أنا ، أنتم . وسائر الذين ..

كان هياجه عظيماً جداً ، حتى بدا بغتة وكأنه فقـــد القدرة على الكلام ، فتوقف عن الصياح ، وجفناه يرفرفان ، مأخوذاً بلـَعبه .

صاح أحد الحاضرين ، المدعو كولوجوروف ، وهو يلوح بذراعه :

ـ سكوتاً ! لاتمسوه بأذى ، بل دعوه يتكلم !

وتمكن فافيلو ، في أثناء ذلك ، من استرداد زمام نفسه .

قال :

ـ يا أخوتي ! هل بينكم واحد يحب الحرية بمثل عنف حبي لها ؟

تجمهر أهل المدينة حوله في حذر ، فاذا هياج فافيلو يتفاقم من لحظة لأخرى ، مدركاً أنه على وشك الفوز على هؤلاء المحيطين بـه . إن عينيه تبرقان مثل حجرين مفصفرين .

صاح :

ـ الحرية ، أي شيء هو هذا ؟ لقد قتلت ، وهذا أنا حر بالرغم من ذلك . وأنا أستطيع بعد الآن أن أعود إلى اقتراف أي جرم كان ، وليس من إنسان يملك الحق في لمس استقلالي . مارأيكم في هذه الحرية ؟ أية حاجة لنا إليها ؟

صاح كولوجوروف ، ضارباً الأرض بقدمه

ـ صحيح ما يقول . أيها الشعب ، إسمعوا إليه !

ولكن هتافات احتجاج ارتفعت ، منذرة متوعدة :

— وإذا كان قد قتل بريئاً حقاً ؟...

— هذه الجريمة ، أيعترف بها ، نعم أم لا ؟ هذا ما يجب ان نعرفه ...

— يبدو أن نعم ...

— هذا هو الأمر الرئيسي ! هذه هي الحرية ! هذا هو الوجدان الروسي ! هذا قاتل يريد أن يكفر عن جريمته . حقاً ، ليس سوى الروسيين بقادرين على مثل هذا الأمر ...

أما فافيلو ، الذي استشعر بعض القلق ، فقد اندفع في مغامرته بلهيب متزايد أبداً ، وفي شيء من العذاب والتسليم .

قال :

— بلى ، هذا صحيح : لقد قتلت ! ولكن هل فررت بسبب ذلك؟ كلا ! هل أنكر مسؤوليتي ؟ كلا ! حاكموني ، فهذا أنا ، أمام وجهكم !

وأعوزته الكلمات مرة أخرى ، فانقبض حلقه ، وشدت يداه على صدره بعنف ، ولاذ بالصمت برهة ، عاجزاً عن الاسترسال في أقواله .

وارتفعت بعض الأصوات :

— إنه يندم على جريرته .

— من صميم قلبه ، بكل إخلاص .

— ولكن ذلك لاينفي أنه قتل .

وعاد فافيلو يصيح ، شاحب الوجه ، فاتن الطلعة :

— ولكن من ذا الذي قتلت ، إنه تلميذ لتيونوف ، الأعور المشاغب !

دهش لكلماته ، فظل فترة فاغر الفم . لكن ما أسرع أن أدرك الفائدة التي يستطيع أن يجنيها من هذه الهفوة ، فالتهب من جديد ، راضياً عن نفسه متأثراً بعنف أكثر من ذي قبل :

— لماذا قتلته ؟ ولكن بسبب أشعاره الدنيئة . وربي! بسبب تجديفاته ، يا أخوتي ! أنا أعرف أن الأعور ، مزيف العملة المحتال ، قد لقنه إياها ولأن إهاناته بعثت النفور في قلبي ، فقد ضربت سيما . ولقد ضربته ضربة وحيدة ، أقسم لكم على ذلك بإلهي ! صحيح أن لي يداً ثقيلة ، فقد منحني الله الصالح قوة عظمى حتى يستحيل علي أحياناً أن أخضعها وأتحكم فيها ... ثم إن هذا ليس بكل شيء ! أين قتلته ؟ عند فتاة ! في بيت البغاء ! أيزور إنسان صالح مثل هذه الأماكن ؟ إني أسألكم ذلك !

استمر الجمهور يتطلع إليه بنظرة كئيبة ، فاذا كولوجوروف يصيح عندئذ بصوت ثقيل ، علا على صوت فافيلو وأغرقه في لجته :

— إننا لانملك الصفة كي نحكم على هذه الأمور ، فهذه الأشياء المشؤومة لاتتعلق بنا . إن الأمر الوحيد الذي يعنينا في الوقت الراهن هو أن هذا الرجل يقوم في وجه الحرية ! إذن فهو واحد منا !

فنادى صوت حقود :

— ولكن الأعور ! إنه في كل مكان ، يدس أنفه في كل الأمور!

— ياله من إنسان شيطان ، في الحقيقة !

وفي ذات اللحظة ، ترددت هتافات أخرى :

— أنظروا إذن هذا الجمع الذي يتراص حول الكاتدرائية ! إن أهل الضاحية سيسحقوننا بكل تأكيد !

فصاح كولوجوروف :

— لماذا ؟ إننا لن نسمح بذلك أبداً ! نحن الآخرين ، المواطنين

المخلصين ، أفلسنا نشكل شيئاً في مدينتنا الخاصة ؟ إذا كان الجواب بلى ، فيجب أن نفعل إذن بصورة تتفق مع ذلك ، ما ؟... كيف العمل ما داموا تركونا دون مساعدة ؟... لم يبق أمامنا سوى منفذ واحد : أن نخوض المعركة ضد العدو !... تعال معنا ، يافافيلو ! وقل لهم كل ماتراه في حريتهم المدعاة ! أتريد ذلك ؟

إن كولوجوروف ذو قبضة حديدية ، وهذا واقع تعرفه المدينة بأسرها . إنه يشمر عن أكمام قميصه ، ويجمع حوله ، في مثل لمح البصر ، فريقاً متراصاً من المقاتلين ، المستعدين لأسوأ التجارب وأطبق القريبون من فافيلو على ذراعيه . ودفعوه قدماً هاتفين بأصوات مرتفعة :

— قل لهم كل مايعتلج في قلبك !

— لاتخش شيئاً ! اعتمد علينا !

— مادام رجال الشرطة غائبين ...

— سوف نعرف جيداً كيف ندافع عنك !

— لاتنس الأعور ، بصورة خاصة !

ولكأن أجنحة خلقت لفافيلو الملتهب حماسة ، المفعم قلبه شجاعة وإقداماً ، فاندفع نحو العدو ، على رأس أصدقائه الجدد الذين جمعته الصدفة بهم ، وهم قوم يعرف بعضهم ، ولا تجمعه بالآخرين أية معرفة ، يتكتلون حوله ، ويدفعونه ، ويهيبون به ، ويلطمونه بعنف على كتفيه ، ويجسون عضلاته المفتولة مشجعين ، بل إن أفراداً منهم يقبلونه ويهمسون في أذنه بصوت مشفق :

أيها الأخ ، لسوف تتسلق طريق جلجلتك .

فصاح فافيلو ، وهو يهز كتفيه الهرقليتين ، ويدفع عنه أنصاره فيساقطون كأوراق الشجر فيما حوله

– دعوني !

ويهتفون بسرور :

ـ يا لها من قوة !

ـ إنه أقوى رجل عرفناه حتى الآن !

ويتكيف فافيلو مع دوره أكثر فأكثر ، فيشهر ذراعيه العاريتين ، ويعلن بصوت مزمجر كالرعد :

ـ لسوف أسحقهم ! هل تسمعونني ، أنتم جميعاً ؟

أبداً لم يحسّ مثل هذه البطولة تعتمل في نفسه ، فيحدج عينيه المتأرثتين بقداماً سائر هؤلاء الناس من حوله ، الذين بث فيهم تياراً من التحمس له يقرب من درجة العبادة . وانبثقت في ذهنه فكرة مفرحة مسكرة ، رفعته بعنف فوق مستوى البسيطة .

ـ هذه هي الحرية ! الحو ـ ر ـ يـ ـ ية !

وشنوا الهجوم على الجماعة المتجمهرة في الساحة العامة ، وبعثروها في كل حدب وصوب ، شاقين الطريق باستقامة نحو فسحة الكاتدرائية . إنهم لا يزيدون عن الخمسين عداً ، ولكنهم يعرفون مايريدون ، فلا يستطيع أولئك المتسكعون ! إلا إفساح السبيل أمام تيارهم المتدفق .

وهتف بفافيلو :

ـ هؤلاء هم ! هؤلاء هم !

إن جماعة من الناس قد تأصصوا في فسحة الكاتدرائية ، بين الأعمدة ، وبعضهم يهزّ رايات بيضاً ، ويصيح بكلام غير مفهوم تبعثر الريح أصداءه .

وكانت أصوات ستريلتزوف ، وكلوشنيكوف ، وآخرين أيضاً ، تعلو طنانة فوق صخب الجمهور الذي ينمو على امتداد البصر .

فكر فافيلو :

ـ إن جماعتنا ههنا !

واجتاحت ابتسامة سكرى محياه الذي أشرق ، فتصور في مثل لمح

البصر الدهشة التي سيثيرها في أفئدة ذويه ، رفاق ألعابه الخطرة القدماء .

وانطلق مفتوح الذراعين في وسط الفسحة بقفزة رائعة ، فكأن نابضاً متوتراً حتى أقصى قواه قذفه قذفاً ، ودفع الناس عن يمين وعن شمال ، ومن ثم استدار نحو الساحة العامة وصاح بملء صوته :

ــ أيها المسيحيون ! أنتم جميعاً ، مهما يك عددكم ، هـذا أنا الذي أحدثـكم ، هذا أنا ، هذا أنا !

وأتاه الجواب ضوضاء صاخبة تصم الآذان . فأحسّ فافيلو بكل ألياف جسده الحساس حتى درجة اليأس ، أن هذه الضوضاء معادية له ، مشحونة بالوعيد الموجه إليه . وصوّر له أن الساحة بكاملهـا قد رصفت بالوجوه البشرية ، وأن الأرض الحية تتحرك ، وتتأرجح ، وتحدجه بآلاف عيونها .

وانكسر شيء في صدر فافيلو ، واجتاحه برد جليدي . بذل جهـداً أقصى ، منقبضاً على نفسه بشدة ، ورفع صوته مرسلاً صيحة ممزقة أشبه بعواء حيواني ، لكن الزمجرة الصماء المرتفعـة من مئات الصـدور كانت أقوى من صياحه بما لا يقاس :

ــ فليسقط ! فليسقط ! إننا لا نريدك ! أيها الخائن !

وهذا إنسان أخذ يتكلم إلى جانبه ، ترن كلماتـه بسلطـان ، مملوءة باليقين تارة ، والازدراء تارة أخرى .

إنه يقول :

ــ ... إذن فهم يحربون بمعونة هذا الانسان المشتبه بـه أن يعترضوا سبيل الحقيقة ... هل تعرفون فقط من هو هذا الرجل ؟

وحاول فافيلو مرة أخرى أن يسترد زمام نفسه . وأن يشدّ حتى الدرجة القصوى ذلك الوتر الذي يحس اهتزازه في صميم نفسه ، فاذا الوتر ينقطع بضوضاء تتجاوز كل ضجيج آخر .

صـاح :

أيها الكذاب !

واستدار يواجه الوجه الحي الجبار ، الجمهور العديم الهيئة الذي يتأرجح أمام عينيه .

ومن ثم التفت . فوقع بصره على ذراع قاسية ممدودة في اتجـاهه ، وعين قائمة ترمقه ، وقحف أصلع مخروطي الشكل : إنه تيونوف ! وعندئذ أطبق عليه من كتفيه ورماه أرضاً ، وصاح في نقمة نابحة :

ـ أضربوه ! . إلى الأمام !...

وما أسرع أن شاع الاضطراب والهياج في الناس ، فطفقوا يدومون مثل غبار الخريف الذي تطرده الريح دون هوادة . إنهم يتبادلون الشتائم الوحشية ، ويتماسكون بالأيدي سريعاً ، ويتساقطون بعضهم فوق بعض . وراحت النار تزداد تأججاً من دقيقة لأخرى ، والعنف يتفاقم باستمرار حتى ليقرب من الجنون ، فما تمضي بضع لحظات حتى تنشب معركة حقيقية تنذر بالانقلاب إلى مذبحة مريعة .

ويصيح صانع البراميل العجوز كولوجوروف ، مشرعاً بدل العصا قضيباً حديدياً انتزعه من درابزون سلم ناقوس الكاتدرائية :

ـ آه ! آه ! إنكم تريدونها ، الحرية ؟ اسوف تنالون ما تستحقون ، أيتها الحيوانات الثورية !

ويخبط فافيلو خبط عشواء ، فهو يرفع ذراعه دون انقطاع ، منقبض الفكين ، ويضرب بها خصومه على وجوههم ، وأنوفهم ، فاذا سقط بائس عند قدميه دون حراك طفق يفتش عن سواه ، دون عجلة من أمره ، ومن ثم عن ثالث أيضاً كي ينهال عليه بمثل تلك اللكمات القاتلة التي انهال بها على السابقين ، مبرهناً عن مهارة شيطانية لا تقاوم .

ولم يكن الناس يسعون للدفاع عن أنفسهم ، بل هم يولون الادبار أو يتساقطون أرضاً . ولم تمض هنيهات قليلة حتى لم يعد فافيلو

ـ يا عجباً ! ـ يستشعر أية فرحة أو كبرياء بالقتال . إن الاعياء يضنيه ، حتى لقد انتهى أخيراً إلى الجلوس كيفما اتفق ، ماداً رجليه ، متطلعاً فيما حوله ، متحققاً أنه يقعد حالياً خلف الكاتدرائية ، على حافة الرصيف بالضبط حيال بوابة كبيرة ، مرتجة بالمفتاح .

وكانت جماعة تعدُّ حوالي العشرة من أهالي المدينة متجمهرة قريباً منه ، وقد توسطها كولوجوروف ، مشعث الشعر ممزق الثياب ، ماسحاً بيده الضخمة ما تصبب من عرق على جبينه .

قال بفرح حيواني :

ـ وعلى أية حال ، فقد آب ذلك الأعور اللعين ببضع لكمات رائعة !

إن قبب كنيسة القديس نيقولاس المبرقشة مغطاة بطيور البوم التي تنعق بملء أصواتها أما فافيلو فينظر بثبات ، ولا يتنفس إلا بصعوبة ، حتى ليؤتي لمن يري إليه أنه على وشك النوم وقد حطمه الاعياء . ويحرك قدميه دون أن يرفع أنظاره عن الأرض ، فتسحقان بصورة آلية كمة ممزقة مرمية على الأرض المرصوفة .

علن كرلوجوروف :

ذلك واقع لا مراء فيه : لقد أجبرناهم على الفرار . هيا ، ولنعن الآن بأمر لا يقل أهمية !

وتمخط بأصابعه مقترباً من فافيلو ، بينا تأصص أنصاره حوله .

سأل فافيلو بخبث حين وجد نفسه محاطاً من كل جانب :

ـ ماذا ستفعلون بي ، الآن وقد انتهى كل شيء أو كاد ؟

فسأل كولوجوروف بدوره ، متجنباً الرد على الآخر :

ـ هل جُرحت ؟

ـ أتعتقد !... ولكن المشكلة ليست هنا ، بل إني أسألك أين ستضعونني ؟ أظن أن ..

ولكن أيدي قوية وقمت عليه ، قبل أن يجد الوقت كي ينهي حديثه ، ورفعته عن الأرض ، تهم أن تذهب به .

قال كولوجوروف في رزانة راعبة :

— إليك ، يا صاح ! أولاً لقد اعترفت لنا بجريمتك . ثانياً ، أنت الذي بدأت القتال .. لسوف نقودك إلى المركز .

وأضاف بعضهم :

— إنك تخطىء خطأ فادحاً إذا كنت تتخيل أننا سنُخدع ! بكل تأكيد أن لا !

تطلع فافيلو حواليه دون أن ينبس ببنت شفة . وأخيراً طفق يسير ، وقد علقت أبصاره بالأرض ، تشاهد عليها أسمالاً ممزقة ، وأحذية مفقودة ، وعصى محطمة ، وأحجاراً مقتلعة . مرّ بين هذه الأنقاض ، وطفق يدوس عليها دون أن يدري لذلك مبرراً ، فكأنه يريد أن يدفنها في هذه التربة التي ما تزال تلوح له مغطاة بجمهور لا عد له ، مسلطة عليه آلاف العيون المحملقة .

إن ضباباً يخفي الأرض وراء غشائه ، وفافيلو يسمع من خلال هرج المدينة المضطربة صوت كولوجوروف المتمهل .

كان هذا الأخير يقول :

— إن المعارك نشطت هذا العام قبل عيد القديس ميخائيل بزمن طويل ، الأمر الذي يشذ عن القاعدة لقد استبقنا الموعد بقرابة خمسة عشر يوماً ...

وسرعان ما تساقطت الثلوج فغمرت في لحظة قليلة الطرقات ، والناس ، والأشياء ، بوشاحها الندفي

قال فافيلو على غير انتظار ، مستغرقاً في التفكير :

— لم يعد أمامي إلا الانتحار في المركز

فرد عليه صوت من ورائه :

ـ إن الأبله لا يخون نفسه قط !

فزمجر فافيلو ، متوقفاً عن المسير بصورة مباغتة :

ـ لكن ! إني لن أتبعك أبداً بعد الآن !

وبذل جهداً فوق إنساني كي ينتزع نفسه من النـاس المتشبثين به ، المتمسكين بذراعيه ، وساقيه ، وعنقه ، لكنه أدرك بصورة أليمة أنـه لن يستطيع إحراز الغلبة في هذه المرة أبداً ...

إن رفاقه قبل ساعة من الزمان يهاجمونه الآن بوحشية مثل قطيع من الكلاب يلاحق ذئباً منفرداً ، ويشدونه في كل عطفه ومنحنى ، ويدحرجونه على الأرض ، ويصيحون ، ويزمجرون ، بينا الثلج لا ينى يتساقط دون هوادة ، يلفّ المدينة في كفن ناصع البياض .

وانبثق سرب كبير من طيور البوم أشبه بلطخـــة سوداء في ازدحام الثلج الأبيض .

وكان صانع البراميل يعمل دون كلل في مكان ما ، فتتردد ضرباته دون انقطاع في فواصل منتظمة ، كأنه يريد في النهاية أن يطوق المدينة بحلقات متينة ضيقة . إنه يضرب في يقين وعناد محيرين :

تُم - تُم - تُم ... تُم - تُم ...

تُم - تُم - تُم ... تُم - تُم ...

المشتمل

المطبعة العمومية بدمشق
شارع خالد بن الوليد ، هاتف ١٢٥١٥

سلسلة عيون الأدب العالمي

بيروت

رقم

١ الام — مكسيم جوركي

٢ المؤلفات الكاملة — انطون تشيخوف

٣ تولستوى — ستيفان زفايج

٤ الادب الالماني — شللر و توماس مان

٥ نيتو شكا — دوستو يفسكي

٦ قوي كالموت — جي ده موباسان

٧ الاخوة كرامازوف ١ـ ٢ — دوستو يفسكي

٨ الساقطون — مكسيم جوركي

٩ عقل وعاطفة — جين أوستن

١٠ مراسلات بين جوركي و تشيخوف

١١ ابنة الضابط — بوشكين

١٢ حياة صاخبة — جي ده موباسان

١٣ حب وحرب — رومان رولان

١٤ الجريمة والعقاب ١ـ٢ — دوستويفسكي

١٥ بين الناس — مكسيم جوركي

١٦ الساعة الخامسة والعشرون — ك جيورجيو

رقم

١٧ النفوس الميتة — نيقولاس جوجول

١٨ مرتفعات ويذرنج — اميلي برونتى

١٩ الادب السوفيتي — نخبة من الكتاب

٢٠ الحرب والسلم ١ـ٤ — ليو تولستوي

٢١ سقوط باريس — ايليا اهرنبورغ

٢٢ العاصفة ١ـ٢ — ايليا اهرنبورغ

٢٣ الاعماق — مكسيم جوركي

٢٤ ذكريات من بيت الموتي — دوستويفسكي

٢٥ اين الله — مكسيم جوركي

٢٦ الفتاة و الموت — مكسيم جوركى

٢٧ حياتي — ايزادورا دنكان

٢٨ حرس الفتوة — الكسندر فاديف

٢٩ حب وطلسم او الجلد المسحور — اونوريه ده بلزاك

٣٠ قصة زويا وشورا — كوسمودميانسكايا

٣١ مذلون مهانون — دوستويفسكي

٣٢ حياتي — مكسيم جوركي